هذا الكتاب

يُمثّل جرجي زيدان مَدرسَةً مُستقلة مُتميّزة في أبحاثه التاريخيّة وَالأدبيّة وَفي ترجماته لأعلام المجتمعات .

وَهُوَ أبى فِي كُل مَا كَتَب ، إلاَّ أنْ يَكُوُن : مَوسُوعي النّزعَة ، عَالميّ الاتجَاه ، إنسانيّ المشَاعِر .

وَفي كُتبه جَميعاً نَجدُهُ دَائِماً يَميّلُ إلىٰ التوسّع والشُّمول ، وَبتوسّعِه وَشُمول مَبَاحِثِه يَبقى مُحَافِظاً عَلى نُبْل العِلم وَنزَاهَة الحقيقة ، فَلا يَميلُ لِمبْدأ دُونَ آخَر ، أَو يَتعصَّبُ لإنْسَانٍ دُونَ غَيْره . وَمِثْلُ هَذِهِ الصِّفَات الضَّروريَّة لِلبَحث نَدَرَ أَن تَمَتّع بِهَا كَامِلةً مُؤرّخٌ أَو دَارِسٌ للمجْتَمَعات ، أو لحيَاة أعْلام النّاس .

أمّا مَشَاعِرُ الإنسانيّة المُرْهَفَة فَهِيَ تَغمر جَميعَ مَبَاحِثِه ، حَتّىٰ أنّنَا لَنجده كَمَن يَبْحَث عَن مَعَالم الخَير فيْ المُجْتَمَعَات وَلَدىٰ الأعلام ، لِيبْرزهَا وَيعِظَ بِهَا ؛ أَو كَمَنْ يَتقصّىٰ مَسَاقِطَ الشرّ وَمَهَاوِيَ الظُّلم وَالجُور ، ليشيرَ لَنَا إلى النِّهايَة التي يَصِلُهَا كُل شرٍّ وَظُلمٍ وَجُور .

وَهَذَا الكِتاب هو فَلذةٌ مِن زيدان الكَبير الذي كتب « تاريخ التمدن الإسْلامي » و « تاريخ آداب اللغة العربية » وفيه تتجلى شخصيته الفذة على أكمل مَا يمكن أن تتجلى شخصيّة بَاحِثٍ إنسَان في اللغة العربيّة . . .

تراجم

مشاهير الشرق

في القرن التاسع عشر

تراجم

مشاهير الشرق

في القرن التاسع عشر

تأليف

جرجي زيدان

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

مُقَدِّمَةُ الطَبعَةِ الثَالِثَة

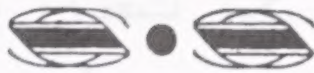
تفخر « دار مكتبة الحياة » للطباعة والنشر في بيروت ان تقدم لقراء العربيـة كتاب « تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » لجرجي زيدان ، الذي يعتبر بحق سفراً خالداً وعملاً فكرياً فريداً في بابه ، ومرجعـاً لكثير من المناسبات التاريخية والسياسية العالمية التي اتسم بهـا وجه القرن التاسع عشر ، ومرجعاً ضرورياً لكل صحافي وأديب ومثقف .

فجرجي زيدان ، هـذا الخادم الاول للغة الضاد ، امضى الكثير من اخريات حيـاته وهو ينقب ويبحث لكي يقدم للمفكرين العرب وللقراء على السواء هذه التراجم لأبرز وأشهر المفكرين والأدباء والعلماء والمصلحين والأمراء والملوك ورجـال الادارة والسياسة الشرقيين ، فنقـل تفكيرهم ومناهجهم في الحياة .

وإذ حصر بحثه وتنقيبه على مشاهير الشرق خلال القرن التاسع عشر انما كان القصد القـاء الضوء على الدور الفذ الذي لعبته النفسية الشرقية والأخلاق الشرقية والعقلية العلمية المتقدمة في بلورة حضارة القرن العشرين .

و « دار مكتبة الحياة » التي وضعت في رأس اهدافها نشر الحضارة العربيـة ، والبحث عن كل نفيس مهما كلفها ذلك من وقت وتضحيات ، والتي آمنت أن المدنيـة الحديثة اساسها فلسفة الهنـد والصين والعرب والفرس متعانقة مع معطيات الفلسفة اليونانية ، يسرها ان تحقق هدفـاً من اهدافها بنشر واحد من افضل كتب الترجمات باللغة العربية والمسمى بـ « تراجم مشاهير الشرق » في مجلد واحد ، بالاضافة الى معظم مؤلفات الاديب الكبير الخالدة : « تاريخ التمدُّن الاسلامي » و « تاريخ آداب اللغة العربية » و « العرب قبل الاسلام » و « روايات العرب والاسلام » . وتهدف بذلك الى إغنـاء المكتبة العربية بمثل هـذه الكتب ، وتعتبره استمراراً لرسالتها في خدمة الثقافة العربية .

الناشر



مقدمة الطبعة الثانية

(للجزء الاول)

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٢ فلم تمض بضع سنين حتى نفذت نسخها واضطررنا الى إعادة طبعها . وكنا قد حصرنا موضوع الكتاب في ترجمة الرجال العظام الذين توفوا في الشرق قبل انقضاء القرن التاسع عشر . ثم رأينا في ذلك تقصيراً بحق جماعة نبغوا في القرن المذكور لكنهم توفوا في اوائل القرن العشرين وفيهم جماعة من ارباب الاقلام او غيرهم وآخرون من كبار الرجال لا يدخلون في باب من الابواب الاربعة التي عيناها في الطبعة الاولى وفصلناها في مقدمتها المنشورة مع هـذه . فأضفنا الى ابواب الجزء الاول هذا باباً خامساً سميناه « باب رجال العمل وأهل البر والإصلاح » فدخل في الكتاب بسبب ذلـك جماعة من خيرة الرجال كالشيخ محمـد عبده ومصطفى كامل وقاسم امين وغيرهم فنشرنا تراجمهم في هذا الكتاب مع تراجم اخرى فاتتنا في الطبعة الاولى ونبهنا اليها بعض الادباء .

فأصبحت ابواب هذا الكتاب خمسة وهي :

١ – امراء العائلة الخديوية .

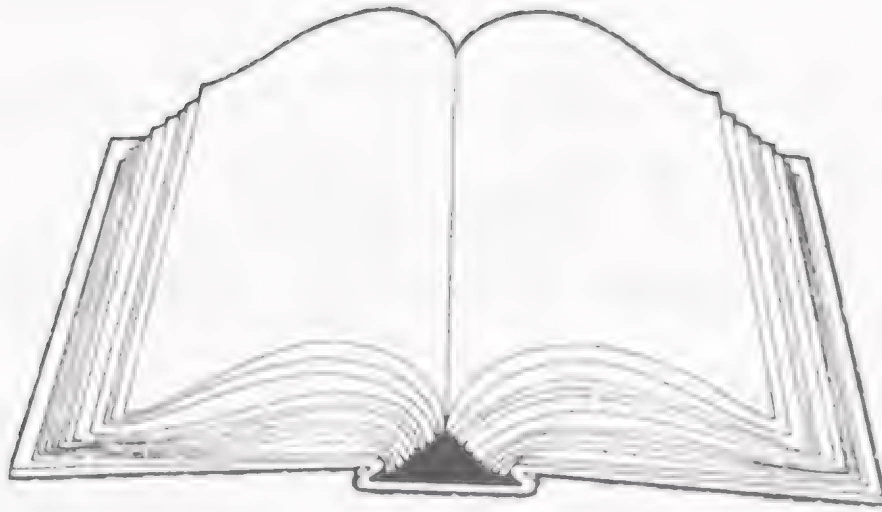
٢ – الملوك والامراء .

٣ – القواد .

٤ – رجال الادارة السياسية .

٥ – رجال الاعمال وأهل البر والإصلاح .

وأضفنا الى الجزء الثاني تراجم كثيرين من اهـــل العلم والأدب فاتنا ذكرهم في الطبعة الماضية ولا نزال نوالي البحث عن تراجم رجالنا لنضيفها الى ما عرفناه في فرصة اخرى وبالله التوفيق .



مقدمة الطبعة الأولى

(للجزء الأول)

رأينا من جمهور القراء ارتياحاً لما ننشره من تراجم مشاهير الناس . وتقدم الينا غير واحد من حضراتهم ان نؤلف من تلك التراجم وأمثالها كتاباً على حدة مع ما تقتضيه من الرسوم ونحوها ليسهل الاطلاع عليها والاعتبار بها . فرأينا ان نلبي الطلب ، على ان يكون عملنا قاصراً على مشاهير الشرق دون سواهم ، وأن لا يتجاوز وفيات القرن التاسع عشر .

ومما يهوّن ذلك علينا اننا قضينا العقد الاخير من القرن المذكور في البحث عن مشاهير رجالنا في السياسة والادارة والعلم والادب ، وقد نشرنا كثيراً من تراجمهم في اهلة السنين الماضية . فعمدنا الى جمع تلك التراجم في كتاب نرتب فيه اولئك المشاهير باعتبار ما اشتهروا به . فقسمناه الى جزئين ، الجزء الاول في رجال الحكومة . والثاني في رجال العلم ، مع ملاحظة الشروط الآتية :

١ — اننا لا ننشر إلا تراجم المشاهير الذين توفوا في اثناء القرن

التاسع عشر ، إلا في احوال خصوصية ، اهمها ان يكون المترجم قد فرغ من العمل الذي ندب نفسه له او اوقف سيرته عنـد حدّ لا يرجى له أن يتعداه .

٢ – توسعنا في المراد من لفـظ الشرق الى آخر الشرق الاقصى ، فترجمنا الذين بلغت الينا شهرتهم من رجال فارس والهند والصين واليابان .

٣ – عدّدنا في جملة مشاهير الشرق رجالاً من الافرنج خدموا الشرق وقضوا معظم حياتهم فيه مثل سليمان باشا الفرنساوي والدكتور كلوت بك والدكتور فنديك وغيرهم ، وفعلنا نحو ذلك بمشاهير المسلمين في بلاد المغرب .

٤ – قسمنا كلاً من جزئي الكتاب الى ابواب ورتبنا رجال كل باب باعتبار سني وفاتهم بقطع النظر عن اهليتهم .

فالجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق – وهو هـذا – يحتوي على تراجم من اشتهر في الشرق من رجال الحكومة في اثناء القرن الماضي . وهو يقسم الى اربعة اقسام :

اولاً – امراء العائلة الخديوية .

ثانياً – الملوك والأمراء .

ثالثاً – القواد .

رابعاً – رجال الادارة والسياسة .

والجزء الثاني يشتمل على من اشتهر في الشرق من رجال العلم والأدب في اثناء القرن التاسع عشر ، وهو اربعة اقسام :

١ – اركان النهضة العلمية الاخيرة .

٢ – المنشئون وكتّاب الجرائد .

٣ – سائر رجال الاقلام وخدمة العلم والأدب .

٤ – الشعراء .

فالجزء الاول عبارة عن تراجم رجال الحكومة وتاريخ اعمالها الادارية في الاستانة ومصر والشام والسودان وسائر المشرق ، او هو تاريخ الشرق السياسي في القرن التاسع عشر . والجزء الثاني عبارة عن تاريخ العلم والأدب في النهضة الشرقية الاخيرة . وقد توخينا تحرّي الحقائق جهد طاقتنا ، والعصمة لله وحده .

ونظراً لما يعتور هذا المشروع من العقبات في انتقاء الرجال والبحث عن تراجمهم لقلة المآخذ المؤدية الى ذلك لقرب عهدنا من الحضارة الجديدة فلا يخلو ان يكون قد فاتنا ذكر بعض المشاهير من رجالنا ، فنرجو من اهل الاطلاع ان ينبهونا الى ذلك ويبعثوا الينا بما يعلمونه من تراجم اولئك الرجال لندرجها في ملحق نجعله جزءاً ثالثاً لهذا الكتاب ان شاء الله .



مقدمة الطبعة الثانية

(للجزء الثاني)

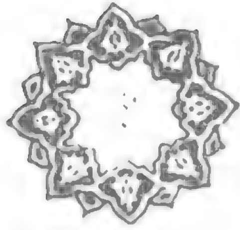
صدرت الطبعة الاولى من هـذا الكتاب سنة ١٩٠٣ ، وما زلنا من ذلك الحين ونحن نجمع ما نعثر عليه من تراجم الأدباء والعلماء والشعراء وغيرهم من أرباب الأقلام الذين فاتنا ان نترجمهم في الطبعة الاولى ، فاجتمع عندنا عدد كبير أدخلنا تراجمهم في أبوابها من هـذا الكتاب كما يتضح ذلك للمطالع . وفي جملة الذين أضفنا تراجمهم بضعة توفوا في أوائل هـذا القرن فعددناهم من رجال القرن الماضي لأنهم نشأوا فيه وظهرت اعمالهم بين اهله .

على اننا لا نزال نرانا مقصرين في إيفاء هذا الباب حقه ، إذ لا يزال كثيرون من مشاهير ادبائنا وكتّابنا وشعرائنا في القرن الماضي لم ترد تراجمهم في هذا الكتاب لقلة المواد المساعدة على ذلك ، وبعضهم ضاعت آثارهم او تبعثرت ، والبعض الآخر حرص عليها ذووهم وبخلوا بها ، وقد كاتبنا اهل بعض المتوفين من شعرائنـا في اواخر القرن الماضي ، نطلب

اليهم ان يبعثوا الينا بما يساعدنا على استخراج ترجمة ذلك المتوفى وأمثلة من نظمه فأجابوا بالتسويف ، ثم لم يفعلوا ، وما من سبيل الى استخراج تلك الترجمة إلا على ايديهم .

وقد أعلنا غير مرة في (الهلال) نطلب تراجم اناس سميناهم فأجابنا بعضهم بإفادات استعنا بها على استخراج تراجم نشرناها في ابواب هـذا الكتاب فنشكر الساعين في ذلك شكراً جزيلاً .

ونحن نلتمس الآن من الغيورين ان يبعثوا الينا بما يعرفونه عن مشاهير الأدباء او الشعراء ممن لم ترد تراجمهم في هـذا الكتاب لنستعين بهـا على استخراج اخبارهم وننشر ذلك في الطبعة الثالثة ان شاء الله وبه المستعان .



مقدمة الطبعة الأولى

(للجزء الثاني)

صدر الجزء الاول من هـــذا الكتاب وفيه تراجم رجال الادارة والسياسة الذين نبغوا في الشرق في القرن التاسع عشر الماضي . وخصصنا الجزء الثاني هذا لتراجم الذين نبغوا فيه بالعلم والأدب والشعر ممن توفوا قبل دخول هذا القرن من اهل الشرق او الافرنج الذين خدموا الشرق وقضوا معظم حياتهم فيه كأنهم من ابنائه كالدكتور كلوت بك والدكتور فان ديك وغيرهما .

وقسمنا تلك التراجم الى اربعة ابواب جمعنا تحت كل منها فئــة من هؤلاء المشاهير يشتركون في صفة واحــدة . ورتبنا تراجمهم في كل باب باعتبار سني وفاتهم . أما الأبواب فهي :

١ – اركان النهضة العلمية الاخيرة .

٢ – المنشئون وكتاب الجرائد .

٣ – سائر رجال الاقلام .

٤ – الشعراء .

ولا يخفى ان التقسيم المذكور تقريبي اذ يغلب ان يشترك الواحد من هؤلاء في الانشاء والشعر او يكون من اركان النهضة ومن المنشئين معاً. فوضعنا كلا منهم في الباب الذي يغلب فيه وأشرنا الى اشتراكه في سواه.

وقد بذلنا الجهد في تحري اعمال هؤلاء المشاهير ومناقبهم من اوثق المصادر وأصدق الروايات مع ما خبرناه بنفسنا ممن عاصرناهم وعرفناهم. ولم ندخر وسعاً في التنقيب عن كل مشاهيرنا من اهل القرن الماضي والبحث عن تراجمهم مع ما يحول دون ذلك من المشقة لقلة المصادر المنشورة في هذا الشأن. فسعينا في الحصول على ذلك بما يستطاع من الوسائل – فطلبنا تراجم البعض من اقاربهم او اصدقائهم برسائل خصوصية والتمسنا تراجم البعض الآخر بواسطة (الهلال). ومع ذلك لا يزال بعض تلك التراجم لم يتم عندنا الآن. وسنواصل السعي في استتمامها فإذا توفر لنا ذلك واجتمع لنا منها عدد كافٍ نشرناه في جزء ثالث ان شاء الله.

فنتقدم الى اهل الاطلاع ان يبعثوا الينا بما يعرفونه من تراجم من فاتنا ذكرهم من رجال العلم او الأدب او الشعر من اهل القرن التاسع عشر في أي اقليم من اقاليم الشرق – في مصر او الشام او جزيرة العرب او العراق او فارس او الهند او غيرها من سائر المشرق. والله المسؤول ان يلهمنا السداد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الجزء الأول

— ١ —

العائلة الخديوية

محمد علي باشا

صبوته وشبيبته :

انظر الى خارطة بلاد الروملي في سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الاستانة غرباً ترَ قرية اسمها قواله لا يزيد عدد سكانها على ثمانيــة آلاف نفس . وكان في تلك القرية في اواسط القرن الثامن عشر رجل اسمه ابراهيم آغا ، كان متولياً خفارة الطرق ، وُلد له سبعة عشر ولداً لم يعش منهم إلا واحد ، وفي سنة ١٧٧٣ توفي هذا الرجل وامرأته عن ذلك الولد وسنه اربع سنوات واسمه محمد علي .

فأصبح الغلام يتيماً ليس له من يعوله إلا عماً اسمه طوسون آغا وكان متسلماً على قواله فجاء بـه الى بيته شفقة عليه ، غير ان المنية عاجلت طوسون فقتــل بأمر الباب العـالي بعـد ذلك بيسير ، فأصبح الغلام يتيماً قاصراً وليس من ينظر اليه .

وكان لوالده صديق يُعرف بجربجي براوسطة فشفق على الغلام وجاء به اليه وعني بتربيته مع اولاده . غير ان ذلك لم ينسه حاله من اليتم ،



محمد علي باشا

فكان يشعر بالذل وضعة النفس . ويروى انه بعد ان ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدّث أخصاءه عما قاساه في صبوته من الذل الى ان يقول :

« وُلد لأبي سبعة عشر ولداً لم يعش منهم سواي فكان يحبني كثيراً ولا تغفل عينه عن حراستي كيفما توجهتُ ، ثم توفاه الله فأصبحت يتيماً قاصراً ، وأبدل عزي بذل ، وكثيراً ما كنت اسمع عشرائي يكررون هـذه العبارة التي لا أنساها عمري وهي : (ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعيس بعد ان فقد والديه) فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك

أتغافل عنه ولكنني أشعر باحساس غريب يحرّكني الى النهوض من تحت هذا الذل . فكنت اجهد نفسي بكل عمل استطيع معاطاته بهمة غريبة حتى كاد يمر عليّ احياناً يومان ساعياً لا آكل ولا أنام إلا شيئاً يسيراً . وفي جملة ما قاسيته اني كنت مسافراً مرة في مركب فتعاظم النوءُ حتى كسره ، وكنت صغيراً ، فتركني رفاقي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا ، أما انا فجعلت أجاهد في الماء وسعي ، تتقاذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تهشمت يداي وكانتا لا تزالان يانعتين . وما زلت حتى أراد الله ووصلت الجزيرة سالماً ، وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسماً من مملكتي » .

ومما يحكى عنه في ايام صبوته انه كان يتردد على رجل فرنساوي مقيم في قواله اسمه المسيو ليون ، وكان من كبار التجار محباً للفضيلة وحالماً ، رأى محمد علي للمرة الاولى ، شفق عليه وأحبّ مساعدته لما توسّم فيه من الفطنة والنباهة ، فكان يقدّم له كثيراً من حاجياته ويسعفه بكل ما في وسعه حتى ألفه محمد علي كثيراً . وهذا هو سبب وثوقه بالأمة الفرنساوية بعد توليه الأحكام في مصر واستخدامه افراداً منهم في مصلحة البلاد . ويقال انه رحمه الله بعث سنة ١٨٢٠ الى المسيو ليون المشار اليه يدعوه الى مصر يقضي فيها زمناً في ضيافته فأجاب دعوته ولكنه مات قبل قدومه فأسف عليه محمد علي كثيراً وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك .

قلنا انه ربي في صبوته ببيت جربجي براوسطة وتعلم في صغره ما يتعلمه ابناء تلك البلاد من ألعاب السيف والجريد والحكم وما شاكل فنبغ فيها حتى اذا بلغ أشده انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مربيه فأظهر

في جباية الضرائب مهارة وبسالة عجيبتين فرقاه الى رتبة بـلوك باشي وزوجه إحدى ذوات قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لأنه اكثر اصناف التجارة في بلاده . وقـــد برع في تلك التجارة حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه وكان قد ذاق لذة التجارة وأحبها مذ كان يتردّد على المسيو ليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعد ان تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة .

وما زال يتعاطى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنساوية من مصر بمساعدة انكلترا . وكان الفرنساويون قد جاءوا مصر تحت قيادة نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٨ فحاربوا الامراء المماليـك ودخلوها عنوةً وأقاموا فيها ثلاث سنوات والحكومة العثمانية تبعث اليهم الجنود وتحاربهم تارة وحدها وطوراً بمساعدة انكلترا وهم قائمون بين اقدام واحجام الى سنة ١٨٠١ فبعثت العثمانية اليهم عمـــارة قوية تحت قيادة قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعثت الصدر الاعظم في حمـــلة من جهة البر .

ارتقاؤه منصة الأحكام :

وكان محمد علي في جملة القوة البحرية وقد تجنّد اليها في جملة من تجند في براوسطة بصفة معاون لعلي آغا ابن مربيه على ثلاثمئة جندي البـانيّ (ارناؤوط) .

فجاءت العمارة الى ابي قير وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ، ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركاً رجاله تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة بكباشي .

ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا البلاد وأخرجوا الفرنساويين منسحبين انسحاباً قانونياً وجعلوا يهتمون بتأييد سلطة الباب العالي فيها .

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرّقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . أما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فنزلوا الى الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانياً يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال .

فأقاموا محمد خسرو باشا ، وكان في الاصل من مماليك حسين قبطان باشا ، وهو الذي سعى له في هذه الولاية ، فجاء القاهرة وقاصّ الذين كانوا فيها من محالفي الفرنساوية . وكان في يده اوامر سرّية باعدام المماليك جملة بأي وسيلة كانت ، فبعث الى محاربتهم ، وكانوا في الصعيد ، فتضايقوا ولم يروا وسيلة إلا الالتجاء الى فرنسا ، فكتبوا اليها يستنجدونها متعهدين باجراء كل ما تطلبه منهم فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها .

أما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد فانها عادت ولم تأت بفائدة ، ثم حاربهم مراراً في أماكن مختلفة وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده ، وكان محمد علي قد ترقى الى رتبة سرجشمة وصار قائداً لأربعة آلاف من الالبانيين ، فأمره ان يسير في رجاله مدداً لتلك الحملة ، فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله ، فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن المجيء وأبلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حاقداً على محمد علي ، فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق وأقرّ

على إعدامه سراً ، وكتب اليه ان يوافيه في منتصف الليل للمخابرة ببعض الشؤون ، فأدرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة ، ولم يرَ وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه إلا بالالتجاء الى المماليك ، فانحاز اليهم وأخذ في مخابرتهم سراً وجهراً ، فتمكنوا بذلك التحالف من إخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً ، ففرّ الى دمياط وأقاموا مكانه طاهر باشا ، ثم قتل طاهر واحتلّ محمد علي القلعة برجاله ، فقام احمد باشا والي الشرطة إذ ذاك يطلب الولاية ، فأخرجه المماليك من القاهرة ذليلاً ، ثم اتحد الجميع وساروا لمحاربة خسرو باشا في دمياط ، فأسروه وجاؤوا به الى القاهرة وحجروا عليه في القلعة .

اما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائرلي ، فلم يصل القاهرة إلا بعد شق الأنفس ، ولما وصلها عمد الى الكيد بالمماليك ومحمد علي ، فعادت العائدة عليه .

وكان للمماليك زعيمان : الالفي والبرديسي يتنازعان السلطة . وكان الالفي قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسلطة ، فلما عاد من سفرته اغتنم محمد علي تلك الفرصة وأوغر صدر مناظره البرديسي عليه ، فنصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فرّ الى الصعيد ، فظن البرديسي ان جوّ القاهرة قد خلا له ، ولكن محمد علي كان له بالمرصاد فحرّك الالبانيين عليه وأوعز اليهم سراً ان يثوروا ويطالبوا بمرتباتهم ، فقاموا وهدّدوا البرديسي بالأذى اذا لم يدفع اليهم المتأخرات ، فضرب على اهل القاهرة اموالاً واستبدّ في تحصيلها بقساوة فثاروا جميعاً عليه فاضطر الى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكل ذلك سنة ١٨٠٤ .



امراء المماليك — أوطه باشي (ابو طبق) — جندي

فلما فرّ الاميران لم يبقَ في القاهرة من رجال السلطة إلا محمد علي ، فجمع اليه العلماء والمشائخ وتفاوضوا في امر إخلاء سبيل خسرو باشا ، فأقرّوا على ذلك وان يعود الى منصبه فأعادوه ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً ثم أخرجوه من القاهرة الى رشيد ومنها الى الاستانة . وكل ذلك بمساعي محمد علي ودهائه وحسن سياسته .

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر إلا بتنصيب والٍ عثماني حرّ وأشار بتنصيب خورشد باشا وكان في الاسكندرية فوافقه العلماء والمشائخ في ذلك على ان يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام وبعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك ويسترحمون تثبيت انتخابهم فأجيب طلبهم .

غير ان خورشد باشا رأى محمد علي مستأثراً بالنفوذ عليه بمن معه من الجند

الالباني ، فخاف عاقبة ذلك فاستقدم جنداً مغربياً (الدالاتية او الدلاة) يكونون له عوناً وقت الحاجة ، فأدرك محمد علي قصده فوقف له بالمرصاد . ثم جعل الدالاتية يسيئون معاملة اهل القاهرة وينهبون ويقتلون اعتماداً على نفوذ الباشا ، فسئم اهل القاهرة منهم ولا سيما المشائخ والعلماء .



الجند الالباني (الارناؤوط)

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي خط شريف بولاية جدة فألبسه خورشد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه ، فخرج محمد علي يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه ان لا يخرج من مصر ، فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال : « هذا هو الباشا طالبوه بها » ، وسار الى منزله في الازبكية (قرب اوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا له حباً ولخورشد باشا كرهاً .

وبعد ثلاثة ايام (لا ندري ما دار في أثنائها بينه وبين علماء البلاد ومشائخها) سار المشائخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد : « لا نقبل خورشد باشا والياً علينا » فقال : « ومن تريدون اذاً » قالوا : « لا نريد احداً سواك » فامتنع اولاً وجعل يرغبهم في خورشد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لا يزدادون إلا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له الكرك والقفطان والبسوه اياهما وبعثوا الى خورشد ان ينزل

من القلعة فأبى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بذلـــك فورد الفرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ (٩ يوليو — تموز ١٨٠٥) وعزل خورشد باشا فخرج هذا من القلعة بأمر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية .

ولكن المماليك كانوا اشدّ غيظاً منه لما ظهر لهم من تلاعب محمد علي بهم واستخدامه اياهم لأغراضه فثاروا وفي مقدمتهم الالفي فإنه حالما علم بتولية محمد علي نزل بعصابته وخـــابر حكومة انكلترا بخلع محمد علي واشترط على نفسه انها اذا فعلت ذلك سلمها البلاد حالاً فعلم قنصل فرنسا بذلك فعرقــل مسعاه فعكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى بـه الاثنان فلم يتفقا فعاد الالفي لمخابرة سفير انكلترا فأقنع هذا الباب العالي فبعث والياً اسمه موسى باشا مع العفو عن المماليك وكادت تنطلي هـذه الحيلة لو لم يقم العلماء والمشائخ من جهة وسفير فرنسا في الاستانة من جهة اخرى ويوضحوا للباب العالي مقاصد المماليك فتثبت محمـد علي ولكنه امر ان لا يتعرّض للمماليك فـيما بعد لصدور العفو عنهم قبلاً ولكن التقادير ساعدته فتوفي البرديسي بعـد قليل ثم الالفي فتولى على المماليك شاهين بك ولكن شوكتهم ضعفت ولم تعد تقوم لهم قائمة .

أما انكلترا فاعتبرت ارجاع محمد علي مخلًّا بنفوذها فبعثت حملة تحت قيادة الجنرال فرازر لإرجاع سلطة المماليك ولكن المماليك كانوا قد تبعثروا في البلاد فأقامت الجنود الانـكليزية على سواحل القطر مدة ثم عادت بخفي حنين بعد الاتفاق على صلح فاجتمعت السلطة في قبضة محمد علي باشا ثم سعى بعضهم في المصالحة بينه وبين شاهين بك زعيم المماليك فتصالحا وقدم هذا الى مصر بالهدايا الثمينة فأكرمه محمد علي وبنى له قصراً لسكناه في

الجيزة وفي ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ بويع السلطان محمود الثاني على عرش الاستانة العلية .

اعماله الحربية :

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر اخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق بهم من ذوي قرباه لأنه كان شديد المحبة لعائلته ولا شك ان أزره اشتد بهم . ثم استفحل امر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فأرسل السلطان محمود خان يعهد الى محمد علي باشا امر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم .

والوهابيون فئة من المسلمين ذهبوا الى اغفال كل الكتب الدينية الاسلامية إلا القرآن الشريف فهم بمنزلة الطائفة الانجيلية عند المسيحيين . زعيمها الاول يدعى محمد عبد الوهاب ولد سنة ١١١٠ هـ (سنة ١٦٩٦ م) ولما شب تفقه وحج ثم اظهر دعوته فالتفت عليه احزاب كثيرة فافتتح نجداً فالحجاز فالحرمين ومـا زال يفتتح في بلاد العرب حتى توفي سنة ١٢٠٥ هـ (سنة ١٧٨٩ م) وسنه ٩٥ سنة فاستمرّت احزابه في اعمالهم حتى سنة ١٢٢٤ هـ سنة ١٨٠٩ م تحت قيادة الامير سعود وقد اصبحت حدود مملكتهم من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر فنهبوا الكعبة وقد استفحل امرهم ولم يرَ الباب العالي بدّاً من تكليف بطل مصر اخضاعهم .

فأجاب محمد علي باشا مطيعاً وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك الحملة لكنه فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في أمن منهم فيجمعون كلمتهم ويعودون الى مـا كانوا عليه من القلاقل

فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة لكنه في الوقت نفسه عمل على اعداد مواد الحملة فجند اربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فأرسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً وأعدّها عند السويس في انتظار الحملة .

أما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالأحكام لما رأوا ما حلّ بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة ، فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بأرزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية ، فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة ، وتشتتوا في أنحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد أذعن لمحمد علي باشا كما تقدم فأقطعه ارضاً بين الجيزة وبني سويف والفيوم فأوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ (فبراير – شباط سنة ١٨١١ م) سار قادة الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون باقي الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب ، فأعلن ذلك في المدينة ودُعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي جملتهم المماليك ، وطُلب اليهم ان يكونوا بالملابس الرسمية .

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (اول مارس – آذار سنة ١٨١١ م) احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب ، ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ، ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة حتى اذا اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق هذا الباب والحوش العالي أمر

محمد علي فأغلقت الأبواب وأشار الى الألبانيين (الارناؤوط) فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لأن الالبانيين كانوا أكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من ورائهم بالرصاص ، فطلب المماليك الفرار بخيولهم من طرق أخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ، ولما ضويق عليهم ترجّل بعضهم وفرّوا ساعين على اقدامهم والسيوف في ايديهم ، فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك ، فقتل شاهين بك امام ديوان صلاح الدين ، وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينـة ان كل من يظفر بأحد المماليك في اي محل كان يأتي به الى كخيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه افواجاً وهو يقتلهم .

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة اربعمئة فلم ينج منهم إلا اثنان احدهما احمـد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية موش ، والثاني امين بك كان قد أتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما أقفلت الابواب بغتة وسمع اطلاق النار علم المكيدة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتبادر على الألسنة ان امين بك هـذا كان داخل القلعة ، فلما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو . والاقرب للحقيقة ان هـذه الاشاعة مختلقة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قد قتل فخاف الناس ، ثم طافت العساكر المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجواريهم ، وعلا الصياح .

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر



امين بك (المملوك الشارد)

الناس بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ، ولكنه حرّض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر انحاء القطر ، فكانوا يأتون بهم افواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح ، فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ بيكاً . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين الخواطر وإيقاف النهب . امـا الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لهـا حفراً جعلوا فوقها التراب ، وصرح محمـد علي باشا بحماية نساء المماليك ، ولم يسمح بتزويجهن إلا لرجاله .

ولمـا خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي على المهـام الاخرى ، وأخصها مسألة الوهابيين ، فكتب الى غالب شريف مكة يخبره بإعداد حملة تنقذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين ، وطلب اليه ان يمهد له السبيل ، فأجابه شاكراً ووعده بالمساعدة .

اما سعود امير الوهابيين فأنبأته الجواسيس بما نواه محمد علي ، فأمر فاجتمع حوله خمسة عشر الفاً ليدفع بهم جنود مصر . اما حملة طوسون فركبت البحر من السويس حتى أتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة ، فتملكوا ينبع وساروا منها الى صفر ، وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع ، فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجـاله اولاً ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا تاركين كل مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فعلم محمد علي باشا بذلك ، فجند جنداً كبيراً مدداً لابنه ، فاشتد ازر طوسون وجمع اليه القوّتين ، وسار حتى أتى المدينة ، فأطلق عليها النار فهدم بعض السور ثم دخلها وأثخن في حاميتها حتى سلّمت ، فكفّ السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز ، فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وكان في جدة لا يدري ماذا يكون من امر تلك الحملة ، فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح .

وأجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من اهلها ، فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيه ، ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما اتاه الله من النصر على يد ابنه ، نصراً لم يتأت لغيره من القواد العثمانيين ، وجيء اليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فأرسله الى الاستانة ، فقتلوه حال وصوله اليها . اما

من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في مأمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود .

فلما جاء صيف سنة ١٨١٢ م (١٢٢٨ هجرية) علموا ان جنود طوسون لا يحتملون حرّ تلك البلاد وأنهم اذا ناهضوهم إذ ذاك يتغلبون عليهم ، فجندوا وساروا الى تربة شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ، ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن ، فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرَ بداً من ذهابه بنفسه لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم . فسار في جند عظيم حتى أتى جدة ، فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ. ٢٨ اغسطس (آب) سنة ١٨١٣ م. فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به ، وبعد ان ادى فروض الحج رأى ان الشريف ليس ممن يعتمد عليهم في الدفاع ، فعمد الى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ، ثم وضع يده على ممتلكاته ، وبعث به وبعائلته الى القاهرة ومنها الى سالونيك ، فعاش فيها اربع سنوات ومات . اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ. (١٧ افريل — نيسان سنة ١٨١٤ م.) فانحطت سطوتهم فأقاموا عليهم ابنه عبد الله ، ولم يكن كفوءاً فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كبيرة لم تأت بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ. (١٠ يناير — كانون ثاني سنة ١٨١٥ م.) حصلت معركة بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبد الله شفت عن انتصار المصريين ، فتقدم طوسون الى نجد إلا أنه اضطر اخيراً الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درعية .

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر ، فعاد وقد فتح طريق

الحرمين ولكنه لم يبدْ جميع الوهابيين ، فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ. فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا ، وهو اول من فعل ذلك في مصر فأصدر امراً عالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ هـ. مؤداه ان الجنود المصرية ستدرَّب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي ، فعظم على رجاله ولا سيما الارناؤوط الامتثال الى هذه الاوامر ، فرأى ان يدخل هذا النظام اولاً بين الجنود الوطنية لأنهم أقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومَن كان على شاكلتهم .

وفي أثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والإكرام ، ثم نزل الاسكندرية حيث كان ابوه مقيماً فوجد امرأته قد وضعت في أثناء غيابه غلاماً دعته عباساً . وبعد زمن يسير أُصيب طوسون بألم شديد في رأسه وحمى لم يعش بعدها إلا بضع ساعات . وكان محمد علي في القاهرة ، ولما اتصل به الخبر كان على ضفة النيل الغربية بجوار اهرام الجيزة . فقالوا له ان طوسون مريض ، فأسرع الى الاسكندرية لمشاهدته فلما دنا من المكان علم بوفاته فوقف مبغوتاً لا يبدي حراكاً وبقي على مثل هذه الحال ثلاثة ايام متوالية . ونُقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودُفنت قرب مسجد الإمام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم .

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فأخذ يهتم في امر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليه ، فكتب الى عبد الله بن سعود ان يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم للمسير الى الاستانة . فأجابه يعتذر بعدم الشخوص وقال ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد ابيه وأرسل له هدايا فاخرة ، فأرجع اليه محمد علي

تلك الهدايا وأوسعه تهديداً ، ثم جرّد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم ، وكان باسلاً مقداماً وقائداً مجرَّباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه ، ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة .

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم باشا بحملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ومنها بحراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربّص هناك يجمع قواته استعداداً لهجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيه . فالتفّت حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ، ولما تكاملت قواته أقام الحرب سجالاً ، وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله ، فأرسله الى ابيه فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ هـ ، فأذن له بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يديه ، فرحّب به كثيراً لأنه كان يعجب بجسارة الوهابيين ثم سأله ما ظنه بابراهيم ، فأجابه قائلاً : « انه قد قام بواجباته ونحن قمنا بواجباتنا وهكذا أراد الله » . وفي ٢٠ محرم أرسل الى الاستانة وطافوا به في أسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار بدرعية فخاف اهلها فهدموا المدينة وفرُّوا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى امر الوهابيين . اما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان محمود لقب خان مكافأة لإخلاصه وبسالته ، وهو لقب لم يُمنح لأحد من وزراء الدولة إلا حاكم القرم .

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من محارباته في بلاد العرب فكر في افتتاح السودان على أمل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من معادن الذهب



ابراهيم باشا بلباسه العسكري

بجوار البحر الازرق ناهيك بما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلـك . فجند خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيـادة اسماعيل باشا احد اولاده فسارت الحملة من القاهرة في شعبان عام ١٢٣٥ هـ (يونيو – حزيران ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فأتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل ما مرّت بـه من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتد بها هناك إلا الشائقية

فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار وكوردوفان في املاك مصر فسار اسماعيل باشا في جنوده الى فزغـل وهناك ظنّ نفسه اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله الوباء فمات منهم كثيرون ثم اتته نجـدة من ثلاثـة آلاف رجل تحت قيادة صهره احمد بك الدفتردار فاشتد ازره فأقام صهره هذا على كوردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عدى الى شندي في البر الشرقي لجباية المـال وجمع الرجال فاستدعى اليه ملكها واسمه النمر وقال له : « اريد منك ان تـأتي اليّ قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب وألفين من العساكر » . فجعل الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلـك القدر فقبل منه اخيراً عوضاً عن الذهب مبلغ عشرين الف ريال من الفضة فأجابه الى ما اراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليه تطويل الأجل فضربه اسماعيل بالشبق الغليون على وجهه قائلاً : « لا . ان كنت لا تدفع المال فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء » فسكت النمر وقـد اضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعده باتمام مـا يريد وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل علفـاً للجمال ولكنه اقامه حول المعسكر كأنه يريد اشعاله . وفي المساء اتى الى اسماعيل في سرب من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم فطرب اسماعيل ورجاله وضباطه ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئاً فشيئاً حتى اصبح كل اهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد امرهم ملكهم بالهجوم فهجموا بغتة على اسماعيل ورجـاله ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوه فمات اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بـين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة .

فاتصل الخبر بأحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً واقسم انـه لا يقبل اقل من عشرين الف رأس انتقاماً لإسماعيل فنزل بجيشه القليل ولم ينفك حتى انفذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفنناً في طرق قتلهم على اساليب مختلفة فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا تمّ افتتاح السودان . وما زال احمد بك على حكومة سنار وكوردوفان الى عام ١٢٤٠ هـ (عام ١٨٢٤ م) . ثم ابدل برستم بك .

وفي عام ١٢٣٩ هـ ارسل محمد علي باشا بأمر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا في بلاد اليونان فسار وحارب واظهرت العمارة المصرية في تلك الحروب شجاعة الابطال ولولا اتحـاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكننا نقول ان ابراهيم باشا عـاد عود الظافرين بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل .

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لأسباب تتضح للقارىء من مراجعة ترجمة الامير بشير الشهابي الثاني في هذا الكتاب فجرد محمد علي باشا عـام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فأرسل البيادة والطبجية عن طريق العريش براً وسار ابراهيم باشا الى يافـا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ هـ فحاصرها براً وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها ثم سار قاصداً دمشق فأخضعها ولم تدافـع إلا يسيراً وبارحها الى حمص حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية تحت قيادة محـمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٢٢ م فهجم عليه محمد باشا وبعد الأخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم

فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السر عسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحاربه وانتصر عليه ولم يعد يلاقي بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في آسيا الصغرى تاركاً طورس وراءه . وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاته فجند ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي آسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم آسيا الصغرى حتى هدّد الاستانة .

فتعرّضت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فأنفذت الى مصر البرنس مورافيل لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده ، فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عُقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابياً لخراج ادنه ، وقد تمّ ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ هـ (١٤ مايو - ايار سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامه والياً في انطاكية ، وابتنى فيها قصراً وقشلاقات ، وولى اسماعيل بك على حلب وأحمد منكلي باشا على ادنه وطرسوس ، أما الاجراءات العسكرية فلم يكن يسوغ لأحد ان يتولاها سواه .

وكان ابراهيم باشا سائراً بالأحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى ، إلا انــه مع ذلك لم ينج من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في اواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤ م) وامتدّت الى

اورشليم ، وبعد الأخذ والردّ اضطرّ ابراهيم باشا الى الاعتصام بأورشليم لأنها ذات اسوار منيعة ، ثم امتدّت الثورة الى السامرة وجبال نابلس .

وفي ١٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم وأصبحت تلك المدينة في حوزتهم ، ثم أجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم وأورشليم ، ولكنهم لم يتمكنوا ممـــا تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة ان سوريا اصبحت بسبب ذلك شعلة ثورية ، فاتصل الخبر بمحمد علي باشا ، فبرح الاسكندرية الى يافا ، فتقرّبت منه وجهاء البلاد وسراتها ، ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين ، فتشتت العصاة إلا النابلسيين فانهم قاوموا طويلاً لكنهم أذعنوا اخيراً . ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموهما ، وبعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقـة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب وأعادوها الى حيث أتت . فأرسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين تحت قيادة الامير خليل ابن الامير بشير امير لبنان ، وسار الجمع الى النصيرية وأخضعوهم ، ثم سعى ابراهيم باشا في تجريد السوريين من السلاح خوفاً من عودتهم الى الثورة ففعل ، لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام وكأنهما خلقا ليتحدا .

وبعـد ان أتمّ ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على اهالي الشوف والمتن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالاً لخيولهم ، فاستتبت الراحة في سوريا وأذعنت البلاد . إلا ان محمد علي باشا

لم يقف عند هذا الحد ، فأحبّ استخدامها لتوسيع دائرة حكمه ، فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق زجرية ، فشقّ ذلك على الباب العالي ، فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩ للنظر في مقاصد المصريين ، فأقرّ المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم خمسة وعشرون الفاً من الباشبوزق طبقاً لإرادة السلطان محمود الثاني وأن تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين .

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة تحت قيادة حفيده عباس باشا ، فلما عاد اليها علم بإعدادات الباب العالي فانذعر لها ، فكتب الى ابنه يستحثه فأخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة براً . ثم علم ان معظم الاهالي راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم ، وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين . فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فأصابها ما اصابها من الحملة البرية ، ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع ، فخلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ .

ثم توالت الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م . فانعقدت معاهدة لندرا ، قاضية باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . إلا أن ذلك لم يكن ليوقفه عن مقاصده ، ولديه إذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و ٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر ، لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمه لإتمام

مشروعاته ، فجعل يضم اليهـا كل تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى . ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطياً ، ولكنه لم ينجح به كل النجاح ، على انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لندرا لم يصادق عليهـــا ، فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضاً .

وبعـد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانـكليزية الى صيدا وفرّ ابراهيم الى الجبل . وكان الكومودور نابيه قـــد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت ، وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي وقد حصّنها تحصيناً منيعاً ، ومعه فرقتان من الجند ، وإنما لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قُتل وتشتت رجاله ، فخاف سليمان ورأى ان لا بدّ له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليه مـا بقي من الجيوش للمدافعة فبرح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احـد اميرالايات الفرقتين . اما هذا فلما رأى نفسه منفرداً في بيروت خـاف فترك المدينة وفرّ ، فاستولى عليها الانـكليز ثم اتصل بـه من سليمان أن ابراهيم باشا لا يزال حياً ويأمره بالثبات امام العدو بينما يحضر ، فخاف صادق بك الوقوع في شر اعماله ، فانضم الى الانـكليز هو ورجـاله . ثم سار نابيه من بيروت الى عكا وحاصرها ، ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلّمت المدينة ..

ثم سار نابيه الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمـد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقـّع عليها الطرفان ، ولـما أرادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك ، وبقيت الامور على حالهـا حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا ، فأراد السلطان إرضاء محمد علي فأعطاه

ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله ، بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها ، فتردد محمد علي في بادىء الرأي . ثم امر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين الفاً فلم يرجع منها إلا خمسون الفاً ، وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً ، فلم يرَ بدّاً من قبول انعام السلطان ، فبعث الى الباب العالي بذلك فأرسل اليه خطاً شريفاً بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لأعقابه وأن يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب وغير ذلك . ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار فأصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى الخط الشريف تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبق عنده إلا ثمانية عشر الفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم ، فاضطر إذ ذاك الى الاقتصاد لإصلاح مالية البلاد ، فأوقف كثيراً من المدارس العمومية التي كان قد خصّص مبالغ معلومة للنفقة عليها ، ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية ، وأبدل الاساتذة الاوروباويين لما بقي من المدارس بأساتذة أتراك او وطنيين ، وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان ، فعمل على إرضاء جلالة السلطان فأنفذ الى جلالته ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية .

ثم أصاب ابراهيم باشا انحراف في صحته ، فسار الى اوروبا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فأصاب ترحاباً عظيماً في سائر الممالك الاوروبية لا سيما في فرنسا وانكلترا ، وعاد الى مصر في اواخر صيف ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله بيسير الى الآستانة بدعوة رسمية ليقدم

عبوديته لجلالة السلطان ، فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عـام ١٨٤٦ م ونزل في سرايا رضا باشا ، ثم تشرّف بالمثول بين يدي السلطان ، فرحّب به ، ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكه جلالته وأجلسه بجانبه ومكثا ساعة يتحادثان ، ثم انصرف شاكراً وزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله ، مسقط رأسه ، فأقام فيهـا عدة ابنية لتعليم الفقراء وإعانة الضعفاء والمساكين ، ثم بارحها الى الاسكندرية فقوبل بالأنوار ، وسار منهـا الى القاهرة ، فتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء افواجاً ، فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس .

وفي منتصف عام ١٨٤٨ توعّك مزاج محمـد علي باشا وازدادت فيه ظواهر الخرَف فلم يعد ثمة بدّ من تولية ابراهيم باشا ، فتوجّه هـذا الى الاستانة في اغسطس (آب) من تلك السنة لأجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لأبيه ، فثبّته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه المرض واشتدّ عليه بغتة ففارق هـذا العالم في ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٨٤٨ م . وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دُفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الإمام الشافعي بالقاهرة .

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستُقدم حالاً لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر (كانون الاول) بعـد ان قضى فروض الحج . وبما انه اكبر أبنـاء العائلة لم يكن ثمة اعتراض على توليته ، فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور .

كل ذلك ومحمـد علي باشا في الاسكندرية وقـد أخذ منه الضعف مأخذاً عظيماً ، وما زال يهزل جسداً وعقلاً الى ٢ اغسطس (آب) عام

١٨٤٩ م فتوفي . ولم يستغرب الناس ذلك لأنه مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منه تقاطر الناس من الأعيان والقناصل الى سراي رأس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم ، فاذا هو في قاعة الاستقبال موضوعاً في محمل تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى رأسه طربوشه الجهادي احمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بأنغام محزنة . وكان سعيد اكبر مَن وُجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد ، فكانت تُوجَّه نحوه خطابات التعزية . ونُقلت جثة الفقيد ودُفنت في جامعه في القلعة ، ولا تزال هناك الى الآن .

اصلاحاته :

استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسياً ومالياً وتجارياً وزراعياً وأدبياً ، فأخذ على نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ما ليس وراءه غاية . وقد فاز بما أراد فأحيا الديار المصرية وأنعشها وأنماها من سائر الوجوه حتى اصبحت تجاري مدن اوروبا ، ولذلك لقّبه كتّاب عصره بموجد الديار المصرية ، يريدون انه أوجدها من العدم .

الاصلاح الاداري :

وأول شيء باشره من الاصلاح مسح الاراضي والانتفاع بزرعها وتوزيعها . وتفصيل ذلك ان الاراضي المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين : احدهما الاراضي التي كاد يكون لواضع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معفاة من الضرائب ، والقسم الثاني

الاراضي التي لم يكن لزارعها إلا حق التمتع بريعها وهي الاراضي التي كانت عليها الضريبة الخراجية ، اما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة او السلطان .

هـذا كان شأن الاراضي المصرية قبل الفتح العثماني وبعـده الى القرن السابع عشر حينما استأثر الأمراء المماليك بالقوة والسلطة واختلّ نظـام الأرضين وصار النـاس يهاجرون ، فأهملت الاشغال العمومية وقـلّ ريع الارض فأصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النقود فالتجأت الى تلزيم الخراج ، وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد لأناس ، وكان ذلك الضمان او الالتزام إما بالمزايدة او بالاتفاق بين الملتزم من جهـة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة اخرى ، حتى اذا تمّ الأمر اعطت الرزنامة للملتزم تقسيطاً اي عقد تلزيم يصدّق عليـه شيخ البلد وهو كبير امراء المماليك .

فإذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجّله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرهـا هو بنفسه كما يريـد ، وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل مـــا ينفقه ويكابده في ذلك التحصيل اراضي غير التي التزمها معفاة من كل ضريبة تعرف بالأواسي . امـا الفلاحون فلم يكونوا يملكون ارضاً قط ، على أن الملتزمين انفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان اكثر صولة منهم وأشد بطشاً . ولا يخفى ما كان ينجم عن هذا التصرف من اختلال الامن وضياع الحقوق والاتعاب .

فلما استقام الامر لمحمد علي أمر بمسح كل اراضي مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات ، والمديريات الى مراكز او اقسام ، وهذه الى نواحي ،

وعيَّن فيها من يقوم بإدارة امورها ، وآخرين لجباية الضرائب ، وأبطل الالتزامات جملة ، ووزع اراضي كل ناحية بين اهالي تلك الناحية نفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانباً من الارض بقدر جانب الآخر ، فبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة افدنة وبعضهم اربعة او خمسة ، وجعل لمشائخ البلاد جانباً من الارض اعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الاموال الاميرية الذين كانوا يمرُّون في بلادهم وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام ، ودعا تلك العطايا مسموح المشائخ او مسموح المسطبة ، وهي تقابل الاواسي المتقدم ذكرها .

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه امراً كافلاً اخراجه مما هو فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال ، وكان قد انتهى من اعماله الحربية ولم يعد ثمَّ حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع بقاء رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وأن ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال ، ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة امره ووازع يدفعه الى النهوض بواجباته . وعلم ايضاً ان المرء مهما كان صادقاً في خدمة الحكومة يشتغل لنفسه اكثر مما يشتغل لغيره ، فارتأى ان يعهد بأمر البلاد من حيث الزراعة الى اولئك الضباط مفوضاً اليهم تعميرها وإصلاحها بأنفسهم ، ففعل ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولاً وقوانين تقضي بأن لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . اما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدته باختيار اربابها ، وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة ، وبهذه الواسطة نشطت

الزراعة وتحسنت تحسناً عظيماً ، ومـا زالت تلك الاراضي في ايـدي المتعهدين الى ايام المغفور له عباس باشا ، وهو الذي استردها .

ومن اعماله الادارية انشاء الدواوين ، ومنها ديوان المعاونة ، وفائدته النظر فيما يعرض من الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات ثم الديوان الخديوي ، وكان يقوم بأشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة ، ثم ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة ، ثم أنشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعـامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والأبنية وديوان المدارس وجميع ذلك او معظمه ، وعهد بإدارة اعماله الى مديرين ورؤساء من ابناء هذا القطر السعيد ، وكلها ترجع بأحكامها الى ديوان المعاونة المتقدم ذكره .

ثم أنشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والأحكام ، ورتَّب البريد يحمل على ايدي السعاة براً وبالسفن بحراً ، وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة ، بين البناء والآخر مسافة تكفي لفهم الاشارة ، لا يزال بعض منها قائماً أثراً لهمّة ذلك الرجل .

وأنشأ لتأييد السلم وتوطيد الامن فرقة الضابطة ، وفرّقهم في انحـاء البلاد فأمن الناس غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون اثناء تجوالهم في القطر اهانات ومشاق جسيمة ، فأصبحت السبل في مأمن وتسهّلت الصّلات التجارية على الخصوص بين انكلترا والهند على طريق البحر الاحمر ، فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في امور كثيرة .

الاصلاح الزراعي :

ولم تقف اصلاحاته عند هذا الحدّ ولكنه رأى خصب التربة المصرية وإمكان استخدامها لغير انواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء اليها بالقطن البذار (التقاوي) الاميركاني ، وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وبنبات الأفيون من آسيا الصغرى ، وجاء بغير ذلك من انواع المغروسات المفيدة ، وجاء بأناس عالمين بكيفية زراعتها واستغلالها ، وأكثر من غرس الحدائق والأشجار في القاهرة وضواحيها تلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث ، من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا ، والحدائق في الروضة ، وحديقة الأزبكية ، فقد كان في سكانها قبل ايامه بركة كبيرة يتصل اليها الماء من النيل ايام فيضانه ، وكان الناس يأتون اليها في المواسم والأعياد في قوارب عليها الانوار وسائر الزخارف ، فاحتفر محمد علي حولها ترعة ينصرف اليها الماء فظهرت ارض البركة ، فجعل حول هذه الترعة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . امـا الحديقة الموجودة الآن فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا .

ومن آثاره الزراعية السدود التي اجراها في ابي قير وترعة الفرعونية وأشتوم الديبة واشتوم الجميل وغيرها ، وأنشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها ، وأنشأ الترع الصيفية لإنماء الزراعة الصيفية ، وأبدل الخول بالمهندسين في اعمال الري ، وبعث كثيراً من ابناء البلاد الى اوروبا لدرس فن الزراعة واتقانه ليخدموا بلادهم به .

ومن مشروعاته الخطيرة من هذا القبيل القناطر الخيرية القـائمة عند رأس الدلتا ، والسبب في بنائها انه رأى النيل لما يصل الى رأس الدلتا

ينفصل الى فرعين وهما فرعا رشيد ودمياط او الفرع الغربي والشرقي ، ورأى ان الغربي اكبرهما ويمرُّ في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدراً ، والشرقي يخترق بقاعاً واسعة حسنة التربة فاذا كانت ايام التحاريق لا يبقى من مائه ما يكفي للري ، فأراد اتخاذ وسيلة ينتفع بها مما يزيد من ماء الفرع الغربي بإضافته الى الشرقي . ورأى الصعيد في زمن التحاريق يشحّ فيه الماء لارتفاع ارضه وقد لا يرتوي جيداً إلا في زمن الفيضان ، فأقرّ على بناء قناطر على عرض الفرعين عند اول تفرعهما عند رأس الدلتا وأن يجعل لهذه القناطر ابواباً من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء ، فاذا اقفل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر فيه الى الفرع الآخر فيستطيع صرف المياه كيف شاء واذا كان الفيضان قليلاً يقفل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي اراضيه ثم لا يصرف منه إلا ما يلزم لري الوجه البحري ، فاذا كانت ايام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والأرض في حاجة اليها . فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاول منه إلا عام ١٢٥١ هـ . (١٨٣٥ م .) ولم ينثن عن عزمه حتى أتمّ بناءه بدراية لينان باشا المهندس الفرنساوي . غير ان ذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة ، ولا سيما بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ، ولكن الحكومة جعلت همّها في السنين الاخيرة إصلاح ما هو فاسد منها وسدّ ما فيه من الخلل .

الاصلاح العسكري :

كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الألبانيين (الأرناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الأزمنة السالفة عند الدولة العلية



جند محمد علي النظامي الجديد يجلدون رجلا بين يدي الكاشف

قبل هذا القرن ، فرأى – رحمه الله – ان يدرّبهم على النظام الفرنساوي الذي اتبعه بونابرت في غزواته ، وأخذته عنه دول اوروبا ، فحاول ذلك مراراً فعظم على جنوده ولا سيما الأرناؤوط وعصوا أوامره فيـــه لأنهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . ولما ألحّ عليهم ثاروا وتجمهروا الى القلعة يطلبون الرفق بهم ، فرأى من الدراية والحزم أن يعاملهم بالحسنى ، فأجابهم الى ما ارادوا ، وأخذ يدخل ذلك النظام اولاً بين الجنود الوطنيين لأنهم اقرب الى الطاعة من الألبانيين ومن شاكلهم ، فأسس مدرسة حربية في (الخانكاه) قرب المطرية تعلّم فيهـا اللغات والحركات العسكرية ، وجعل سراي مراد بك في الجيزة مدرسة للفرسان ، وأقام فيها اساتذة من الافرنج ، وأنشأ مدرسة للطبجية ، وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند . والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لقائد من قواد الفرنساويين اسمه الجنرال

« سيف » ولكنه أسلم ودعى نفسه سليمان باشا ، وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقة في حروبها ببر الشام وغيرها .

وبنى محمد علي في الاسكندرية دار صناعة أتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية ، وأقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا ، وبنى حول الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً اخرى في اماكن أخرى .

الاصلاح التجاري :

ولما أصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجّه اهتمامه الى تنشيط التجارة ، فأراد إنشاء ميناء أمين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبه رشيد ولا دمياط لخشونة مرساهما ، فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني ، فكثر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فاكتسبت الاسكندرية بذلك أهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من أماكن مختلفة من اوروبا وغيرها وأُقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء . وأصلح مرفأ بولاق وغيره ووسّع للأجانب في الاستيطان والاتجار ، فاتسعت التجارة وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . وتوطيداً لأعماله هذه أنشأ مجلساً تجارياً مؤلفاً من الوطنيين والأجانب للحكم في القضايا التجارية .

الاصلاحات الصناعية :

امـا الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبقَ منها الى الآن إلا آثار بالية مع مـا توخّاه — رحمه الله — من إنشاء المعامل واستجلاب

الصناع من أقطار اوروبا ، فإنه أنشأ في هذا القطر معامل عديدة لمعالجة القطن والنيلة واصطناع الطرابيش التونسية والورق والغزل وأنواع الأقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ، ومعـــامل الاسلحة على انواعها وغيرها . اما سبب حبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري .

الاصلاحات الصحية :

رأى ذلك الرجل العظيم ان البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وما شاكل ، فاستقدم أحد مشاهير الأطباء الفرنسيين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك ، وإليه ينسب شارع كلوت بك في القـــاهرة) ، فأنشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من أمراء المماليك) يدرّس فيها الطب والجراحة ، ومدرسة اخرى في فن التوليد ، ومستشفى كبيراً في ابي زعبل قرب المطرية ، وأنشأ مجلساً صحياً ومدرسة بيطرية ، ورتب مستشفيات وأطباء للعساكر واخرى للأهالي وعيّن أطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديريات .

الاصلاحات العلمية :

اما الاصلاحات العلمية فلا تقلّ أهمية عمـا تقدم ، لأنه ألّف مجلساً للمعارف العمومية قصد به تعليم خدَمة الحكومة الملكيين والجهاديين مـا يؤهلهم للقيـام بمهام اعمالهم ، وفتح مدارس كثيرة لتعليم الشبان من اهل البلاد ، وبعث بعضاً منهم الى اوروبا لإتقان الدروس على مثال الارساليات

العلمية بعد ذلك . وأنشأ المطبعة الاهلية في بولاق وأمر بترجمة كثير من الكتب المفيدة ، وأنشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك .

صفاته ومناقبه :

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة أصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين غايرهما صغير الفم باسمه كبير الأنف متناسب الملامح مع هيبة ووداعة ، ابيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة ، اذا مشى يجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص اذا مشى في داره مفكراً في امر ، وكذلك كان يفعل بونابرت . وقلما كان يفاخر باللباس ، فكان لباسه غالباً على زي المماليك ، وعلى رأسه الطربوش الجهادي ، ثم ابدله بالعمامة فزادته هيبة ووقاراً ، وأبدل اللباس العسكري بلباس واسع بسيط لا يمتاز به عن بعض اتباعه .

وكان يكره التفاخر بالحاشية ، فلم يكن على بابه إلا رجل واحد يخفره . واذا استوى في مجلسه لا يتقلد السلاح انما يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاهى بها ، وكان يحب ألعاب البلياردو والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط . وأما جلساؤه العاديون فالقناصل وكبار السياح ، وكانوا يحبونه ويجلون قدره ويلقبونه بمبيد المماليك او مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة ، سريع التأثر لا يعرف الكظم ، فكثيراً ما كان ينقاد بدسائس المفسدين . وكان كريم النفس سخي العطاء ، وفي بعض الاحوال مسرفاً . وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح

للتكلم عن سابق حياته . وكان محباً للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية . وكان يعتبر الجرائد وتأثيرهـا في الهيئة الاجتماعية ، فكانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن .

أما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته ، فلا ينـام إلا يسيراً ، وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقلباً من جانب الى آخر ، فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمه يتناوبان اليقظة لتغطيته اذا انكشف عنـه الغطاء من التقلب . ويقال ان من جملة دواعي أرقه الشهقة المرتجفة التي كانت تتردد اليه كثيراً ، وكان قد اصيب بها في حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد . على ان ذلك الأرق لم يكن ليضعف شيئاً من سرعة حركته ، فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه او مراقبـــة استعراضات العساكر او استطلاع امور اخرى تتعلق بمصالح الأمة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلّم لأنه شرع بتعلّم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والأربعين من عمره . ويقال انه ابتدأ بتعلم احرف الهجاء على احد خدمة حريمه والكتابة على احد المشائخ ، وهذا مما يزيده شرفاً وفخراً ويبرهن على ما فطر عليه من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقّة وحسن الاسلوب . وكان متمسكاً بالإسلام مع احترام التعاليم الاخرى ، ولا سيما التعاليم المسيحية ، فكان يقرّب اصحابها منه ويعهد اليهم اهم اعماله .

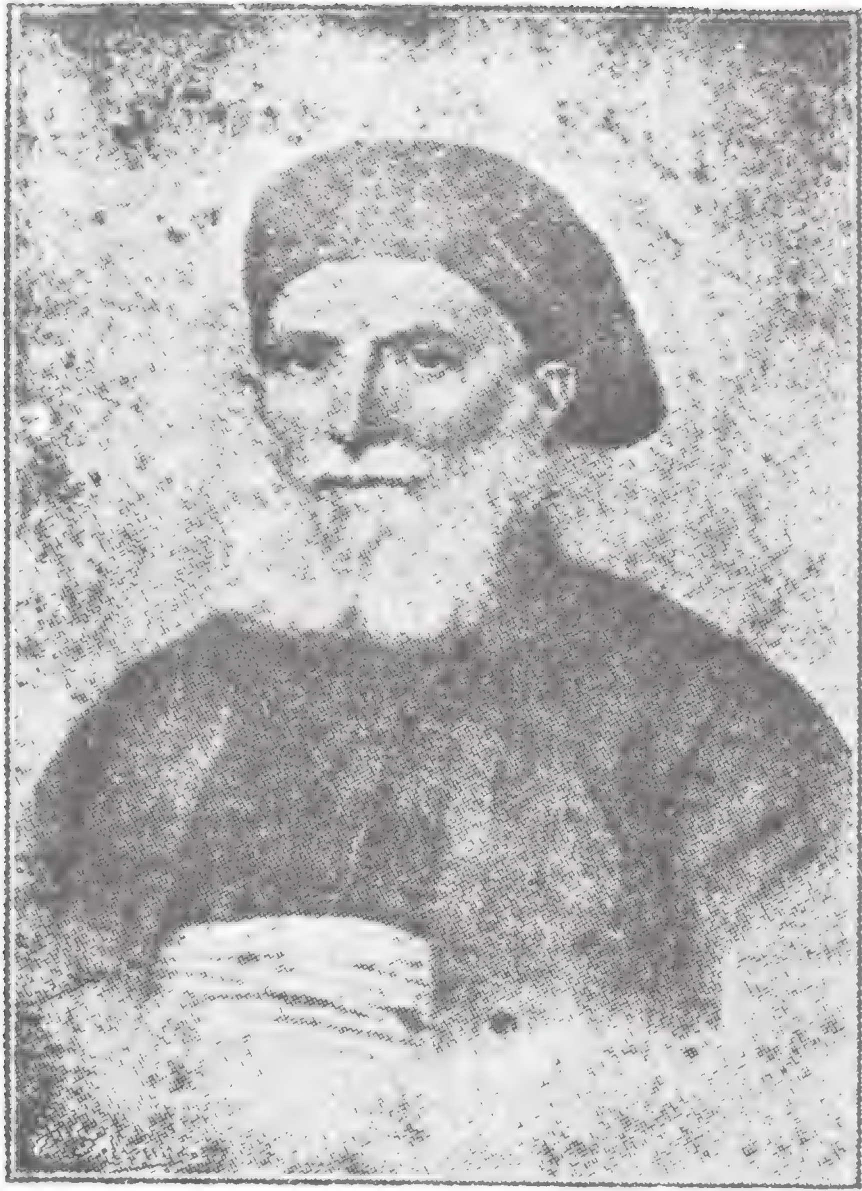
ويقال بالاجمال انه كان لرعيته أباً حنوناً وصديقاً مخلصاً ولذوي قرباه نصيراً مسعفاً ولأولاده أبـاً حقيقياً ولذلك تراه بعد ان أصيب بفقد اكثرهم غلب عليه الحزن حتى أثّر في صحته تأثيراً رافقه الى اللحد .

اما حبه للرعية فلا يحتاج الى دليل ، فهذه الديار المصرية عموماً اذا قصرت ألسنة اهلها عن تعداد مآثره ينطق جمادها بمزيد فضله ، هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجنائن ، هذه المطابع والمدارس ، هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية ، هذه الزراعة والفلاحة ، هذه شبه جزيرة العرب تردد ما لاقته من نجدته . وقد كان محترماً لدى رعيته وذويه ومن الاجانب البعيدين منه وطناً ودينا ومشرباً ، وكثيراً ما تقربوا اليه بالنياشين والهدايا إقراراً بفضله على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين اوروبا والهند على الخصوص .

ابراهيم باشا

هو نجل محمد علي باشا ، وقد تقدّم في سيرة ابيه معظم سيرة حياته لأنهما عملا معاً في مصر ، وكان ابراهيم ساعد ابيه الايمن في فتوحاته وسائر اعماله العسكرية . ولد في قوله عام ١٢٠٤ هـ . ومال من صغر سنه للأعمال الحربية ، وفيه مواهب اعاظم القواد ، يشهد بذلك ما أتاه من الاعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلناه في ترجمة ابيه .

وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية ، وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية . تولى الامارة المصرية بعد تنازل ابيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وإن كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصلية . فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة ، كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان ابوه لين العريكة حسن السياسة ذا دهاء وحكمة ، ولم يطل حكم ابراهيم إلا ١١ شهراً وتوفي قبل والده .



ابراهيم باشا في اواخر ايامه (١٢٠٤ ﻫ – ١٢٦٥ ﻫ)

وكان ربع القـامة ممتلىء الجسم قوي البنية مستطيل الوجه والأنف اشقر الشعر في وجهه أثر الجدري ، كثير اليقظة قليل النوم ، وكان نقش خاتمه : « سلام على ابراهيم » .

عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ ﻫ او ١٨١٣ م وربي احسن تربية وكان محبـاً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد اكثر الوقائع الحربية وفي سنة



عباس باشا الاول (١٢٢٨ هـ – ١٢٧٠ هـ)

١٢٦٥ هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لأن المرحوم جده كان يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه .

ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك .

وكان له غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ هـ وتشرف

بمقابلة جلالة السلطان عبد المجيد فأحبه وزوّجه بابنته وغمره بنعمه فرجع الى مصر شاكراً حامـداً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق ووالدة مولانا الخديوي الحـالي .

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقـد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة .

وفي ايامه كانت بـين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حمـلة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً .

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ ﻫ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره في مدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة .

سعيد باشا

هو ابن محمد علي باشا ولد في الاسكندرية عـام ١٢٣٧ ﻫ (١٨٢٢ م) وكان محباً للعلم بارعاً فيـه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيداً . تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ ﻫ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيه وكان محباً للعدل والفضيلة وكان مهتماً بالإصلاح الاداري ومن اعمـاله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين الاسكندرية ومصر والشروع في مد



سعيد باشا (١٢٣٧ هـ – ١٢٧٩ هـ)

غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطاً كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دُعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية .

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لأساس القلعة السعيدية عند رأس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها

رسم النيل عند تفرعه والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينهما عند رأس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في اجمل ما يكون من الرسم . وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الاحد ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٢٧١ ﻫ لأجل حماية الديار المصرية » نشرنا نصها التركي في كتابنا تاريخ مصر الحديث .

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها وأخمد الثورة فهدأت الأحوال . ولما اختتن نجله طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى القاتلين . وفي ايامه اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حليم باشا حكمداراً . وفي عام ١٢٧٦ ﻫ او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس .

وفي عام ١٢٧٨ ﻫ او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ ﻫ او ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودُفن فيها .

اسماعيل باشا

ترجمة حاله :

هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير ، وكان لوالده ثلاثة اولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (وُلد عام ١٨٢٥ م) ثم



اسماعيل باشا (١٨٣٠ م – ١٨٩٥ م)

البرنس اسماعيل (ولد عام ١٨٣٠م) ثم البرنس مصطفى (ولد عام ١٨٣٢م) وكان البرنس احمد نابغة من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثير الشبه بوالده شكلاً وأخلاقاً ، ولكنه توفي في أثمن سني حيـاته بين الشباب والكهولة فأصبح صاحب الترجمة كبير أبناء ابراهيم .

وربي اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بجياطة جدّه ، لأن جده – رحمه الله – كان قد أنشأ لأولاده الصغار وأولاد اولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الأساتذة ، فتلقّى صاحب الترجمة فيها مبادىء العلوم واللغـات العربية والتركية والفارسية

ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جـــده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين باشا والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الأذكياء الى مدرسة باريس يتولى رئاستهم وجيه ارمني اسمه اصطفان بك ، فقضوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقّوا بها العلوم العالية ، ثم عادوا الى مصر إلا حسين بك فإن المنية أدركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغـة الفرنسية والطبيعيات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الأخص فن التخطيط والرسم ، وهـذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء .

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر ، فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عبـــاس باشا وسعيد باشا نفور مبني على اختلاف في اقتسام التركة ، وانحاز سائر أفراد العـائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل ، فساروا جميعاً الى الآستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان ، فصدرت الارادة الشاهانية بإنفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم ، وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا الوزير والمؤلف الشهـير الى مصر ، فأتيـــا وسوّيا الخلاف وتصالح افراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر إلا اسماعيل فإنه بقي في الآستانة وتعيّن عضواً في مجلس احكام الدولة العلية .

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا ، فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاّه عمــه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام ، فاهتمّ بشأنه اعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس احكام الدولة العلية .

وفي عــام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فأفضت ولاية مصر الى

اسماعيل باشا ، وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية ، فأخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شأن هذه الديار وإعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا ، فأطلق يده في النفقة لتنظيم الشوارع وتشييد الأبنية وإنشاء المشروعات النافعة على انواعها مما سيأتي تفصيله ، غير مبالٍ بما قد يجرّ اليه ذلك من الضيق .

وكانت ولاية مصر تنتقل في العائلة الخديوية الى من يختـــاره جلالة السلطان بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق . وكان ولاة مصر يلقبون بالعزيز او الوالي او الباشا ، واذا لُقبوا احياناً بالخديوي فإنما يكون ذلك على سبيل التجمّل والتفخيم . امـا اسماعيل باشا فهو اول مَن نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي ، فأصبحت ولاية مصر إرثاً صريحاً في نسله ينتقل منه الى اكبر اولاده ومنه الى اكبر اولاده وهكذا على التعاقب . وهاك أهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمـادي الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو (تموز) عام ١٨٧٣ :

« إن كيفية وراثة الحكومة المصرية المقرَّرة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيّرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوّئي كرسيها الى بكر أبنائه ومن هـذا الى بكر أبنائه ايضاً وهلمّ جرّاً ، علماً بأن ذلك أدنى الى المصلحة وأشد ملاءمة لأحوال البـلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له أهـلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك ، وإثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيـانه ، بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده . فاذا لم يُرزق مَن تولى الخديوية ولداً ذكراً كانت الولاية من بعده

لأكبر اخوته او لأكبر بني اخيـــه كما تقرَّر ، ولا تكون هذه الوراثة لأبناء البنات . ولأجل تأييد هـذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الآتية ، وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير وُلده قاصراً أي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديوياً بحق الوراثة ، فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة ، واذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاته اسلوباً للوصاية وعيَّن كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته ، فأولئك الاوصياء يقبضون إذ ذاك ازمة الأعمـال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي ليثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متوليي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوي وصياً باجماع الرأي او بأغلبيته ، فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لأرفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ، ويشكل مجلس الوصايا من الباقين فيباشرون جميعاً امور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهـاء مدتها في الصورة الاولى أي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . وأما اذا توفي الوصي او احـــد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة ، وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة امور الخديوية ، وذلك مما تقرَّر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية .

« ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليهـا تكامل وسائل الراحة وتوفر اسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا ان نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك انه لمـا كانت ادارة المملكة الملكية والماليـة بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها ، وكان من المعلوم ان ادارة أي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها ممـا لا يتم إلا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والأحوال والمواقع وأمزجة السكان وطبائعهم ، فقـد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولأجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية او من قبل الحكومة مع الاجانب . ولتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير اسباب التجارة منحناكم ايضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلـك موجباً للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية .

« ولكون خديوي مصر حائزاً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد أعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزومـاً على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو أهم الأمور وأحوجها الى العناية) من اقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناه الأذن المطلق بتدارك اسباب المحـافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات

الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وأبقينا كذلك لخديوي مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كأعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق او تمييز ، ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشىء البوارج المدرعة بغير استئذان ، اما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته ان ينشئها متى شاء » . – انتهى –

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله أنه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية اوربا وأميركا وغيرهما بما مهّده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشروعاتهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها افواجاً وأقاموا فيها على الرحب والسعة لما آنسوه من الكسب الحسن والعيش السهل .

وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس ، وكان قد بوشر بحفرها على عهد سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال جميع ملوك اوروبا او من يقوم مقامهم وكان له رنة بلغ صداها اربعة اقطار المسكونة لما أعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك أنـه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مرسحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل ، وكانت المدة غير كافية لتشييد ذلك البنـاء فبذل الدراهم والدنانير ، فلم تمض خمسة أشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على مـا نشاهده الآن وهو من المراسح التي لا مثيل لهـا إلا في عواصم اوروبا العظمى . ومما اختص به صاحب الترجمة من الشرف العظيم

دون سواه من الولاة أن ساكن الجنان السلطان عبد العزيز حلّت ركابه في القطر المصري في السنة الاولى من ولاية اسماعيل فلاقى ترحاباً عظيماً.

وفي عام ١٨٧٢ تعدّى الحبشة على حدود مصر مما يلي بلادهم وأسروا بعضاً من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردّهم فجرت المخابرات فآل ذلك الى حرب جرّد فيها اسماعيل حملة لم تنل غرضاً فانتهت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دار السعادة فاحتفل بقدومه فعاد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال المالين الهمايوني ، وفي تلك السنة احتفل بزواج انجاله الثلاثة وهم – المغفور لهم – : توفيق باشا الخديوي السابق والبرنس حسن باشا ودولتلو البرنس حسين باشا ، احتفالاً واحداً تحدث به الناس زمناً طويلاً ، ومما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذ رتبة الوزارة الرفيعة معاً .

ولنأتِ الآن الى امر هو أهم الامور المتعلقة بصاحب الترجمة وعليها مدار ما آل اليه امره نريد به امر الديون التي تعاظمت على مصر في ايامه . وإيضاحاً لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فأول مَن وضع جرثومة الدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه بفائدة ٧ في المائة . وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تخت الحكومة المصرية ، فأخذ في البذل والنفقات في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل ، فكان اذا أراد عملاً جنح الى الاستقراض لا يبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مليون جنيه وأصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى أهالي البلاد لأنه كان يضرب الضرائب الفادحة ليفي منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الأهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على أموال رعاياها اصحاب الديون .

فتخابرت الدول وتشاورت في أحسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكها ، فألفت لجنة دولية مشتركة سموها لجنة صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي بتشكيله في ٢ مايو (ايار) عام ١٨٧٦ ، وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد أُنشىء لتأمين ارباب الديون على ديونهم واستلام ما يستحق لهم من الفوائد وغيرها ، وان الحكومة لا يجوز لها تجديد قرض إلا بالاتفاق مع صندوق الدين ، وان الدعاوى التي يتراءى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة .

وكانت الديون المصرية قسمين : دين الحكومة ودين الدائرة السنية ، فضموهما في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسمّوه الدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة ويتمّ استهلاكه في ٦٥ عاماً . ثم رأى اسماعيل باشا ان توحيداً على هذه الصورة لا يتيسر له إتمامه ، فأصدر في ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) منها امراً يقول فيه ان تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ١٧ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية وميناء الاسكندرية وفائدته ٥ بالمائة وسمّاه الدين الممتاز .

على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لإقناع الدول ، لأن الحكومة لم تكن تقوم باستهلاك الديون حسب الشروط ، فعيّنت الدول عام ١٨٧٨ لجنة ماليــة مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة المصرية فرأت فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا الف جنيه ، فتنازل اسماعيل باشا عن أملاكه الخاصة وأملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف بأملاك الدومين ، وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانيــة ملايين جنيه ونصف وجعلوا أملاك الدومين رهناً لها ، وهذا هو الدين المعروف بدين روشيلد .

وكانت اعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الخديوي رأساً ، اما بعد تداخل الأجانب بأحوال المالية فلم يرَ اسماعيل بدّاً من جعل حكومته شورية ، فشكّل مجلس النظار على ما هو عليه الآن برئاسة نوبار باشا ، وصادق على تعيين ناظرين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية ، والآخر فرنسي وهو المسيو بلينير للاشغال العمومية . فرأى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم ، فثار المرفوتون وجاء جماعة منه وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وأمسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليهما دفع ما تأخر لهم من رواتبهم وخاطبوهم بعنف وشدة حتى علت الضوضاء وكادت تؤول الى ثورة لولا ان أقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وأمر بانصرافهم . اما هم فحالما رأوه ذعروا وكأنه جاءهم برقية او سحر فانكفأوا راجعين ، والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل .

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من عبء التبعة لما آنسوه في اعمال الخديوي من الخطر ، فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا (الخديوي السابق) . على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لأن الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقاصد اسماعيل لأنه استعظم إغلال يديه بمجلس فيه ناظران اجنبيان ، فقلبَ هيئة ذلك المجلس في ٧ ابريل (نيسان) عام ١٨٧٩ ، وأخرج الناظرين الاجنبيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا ، فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لأنهما اعتبرتا تلك المعاملة إهانة لهما ، فعمدتا الى الانتقام وسعتا في ذلك لدى الباب العالي سراً وجهراً . وفي ٢٥ يونيو (حزيران) عام ١٨٧٩ صدر الامر الشاهاني بإقالته وتولية المغفور له توفيق باشا . وفي ٣٠ منه ، وقيل

في ٢٦ ، سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوروبا ، ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلاً :

« لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم ان تكون يا أعز البنين خديوي مصر فأوصيك بإخوتك وسائر الآل براً واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل بعض المصاعب التي اخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأي ذوي شوراك وكن اسعد حالاً من ابيك » .

وما زال بعد سفره مقيماً في اوروبا حتى افضت به الحال الى الاقامة في الاستانة العلية فأقام فيها الى ان توفاه الله في ٦ مارس (آذار) عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ عاماً فحملت جثته الى مصر ودفنت فيها .

اعماله وآثاره :

قلنا ان اسماعيل باشا كان شغفاً بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسعها واكثر من فتح الشوارع الجديدة وبناء الابنية الفاخرة كالاوبرا الخديوية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية وأعظم تلك الابنية سراي الجيزة وهي مما تقصر عنه همم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق والمكتبة الخديوية بالقاهرة وهما من اجل الآثار وانفعها وأما المتحف فقد انشأه بأمره ماريت باشا وقبره فيه وكان المتحف اولاً في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي السابق الى سراي الجيزة وهو اليوم في بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل . أما المكتبة فقد كانت اولاً في درب الجماميز ثم بنوا لها بناية في ميدان باب الخلق نقلوها اليها والمكتبة

نفيسة تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته من الآثار العلمية وبينها جانب كبير من الكتب الخطية التي يعز وجودها .

ومن اعماله انه جرّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون قبلاً بالقرب والصهاريج وعمم زرع الاشجار في المدن وضواحيها وأنار القاهرة بالغاز وتدارك ما ينجم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء .

وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ما هي عليه الآن فقسم القطر المصري الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز وأسس مجلس النواب ونظمه ونظم مجالس القضاء الاهلي والقضاء الشرعي وجعل لكل روابط وحدوداً ووضع نظام المجالس الحسبية وأنشأ مجلس حسبي القاهرة . وعلى عهده انشئت المجالس المختلطة بمساعي دولتلو نوبار باشا وقد اراد بها تقليل نفوذ القناصل وحصر النفوذ الاجنبي ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرة المداخلة . وكانت مصلحة البريد قبلاً شركات اجنبية فأنشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الآن وحسن مطبعة بولاق وزاد فيها وأمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملاً للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة قبله إلا جريدة الوقائع المصرية ، ولم تكن تصدر على نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري وروضة الاسكندرية وروضة المدارس واليعسوب ونزهة الافكار وحديقة الابصار وغيرها . وبالجملة فقد كانت للعلم في ايامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لأنه كان يقرب العلماء ويجيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم مادياً وأدبياً . وكان يشهد الاحتفال

بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقيها بيده وقد يقف عند تقديمها تنشيطاً لهم .

ولم يكن في القطر المصري يوم توليه إلا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فأنشأ كثيراً من الخطوط الاخرى الممتدة الى سائر انحاء القطر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ومد اسلاك التلغراف حتى اوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات البخارية والعربات والآلات التلغرافية التي احدثها بين عام ١٢٨١ و١٢٩٠ هـ ٩,٦٥٨,٣٢٧ جنيهاً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك .

ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل فيها الحدائق والقصور . وأنشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزيّن حديقة الازبكية بغرس اشجارها وتسويرها ورتب فيها الموسيقى وبنى بنايات كثيرة بالقرب من طره على طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة انفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها . وبنى ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمر حلوان . وبنى المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر انحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الهائلة . ومن اشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن اعظم الجسور كبري قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى حوضاً لترميم السفن في السويس .

ومما تمّ على يده من الاعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق وإتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ هـ وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة الرابعة من العرض الجنوبي وراء خط الاستواء .

وعني في تحسين احوال السودان فمهد شلال عبكة وفتح سداً كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الابيض فتسهلت طرق التجارة كثيراً . ومن مآثره تسهيل اكتشاف ما غمض من قارة افريقيا بمد اصحاب الخبرة .

وكانت المدارس التي انشأها جده رحمه الله قد اخذت في الاضمحلال لإغفال امرها بعده فأعاد رونقها وأحدث غيرها . فمن المدارس التي اسسها او حسنها مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والألسن والعمليات والإدارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة البنات في السيوفية وغير ذلك من المدارس في القـاهرة والاسكندرية والارياف . وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية ، وبحمايته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق وجماعة كبيرة من أمراء البلاد ووجهائها .

وخلاصة القول ان مصر كانت في ايامه زاهية زاهرة والنـــاس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع أثمان الاقطان اثناء حرب اميركا فإن ثمن القنطار الواحد بلغ ١٦ جنيهاً ، فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بمآثره وإنعامه وتنشيطه . على ان العقال منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من اسرافه فوق مـا تحتمله حال البلاد ، وتنبأ بعضهم بمنقلب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعريضها لمطامع الدول الاجنبية . والواقع انه لم يترك هذه الديار إلا وقد بلغت ديونها زهـــاء مئة مليون جنيه كما رأيت ، وهي لا تزال تئن من وطأتها الى الآن ، وكان ذلك من اعظم الاسباب لمداخلة الأجانب في ادارة البلاد ومراقبة اعمالها .

على اننـا لا ننكر ان الاصلاحات التي أجراها ببعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل ، ولكننا لا نرى انها تعوّض الخسارة كلها . وزد على ذلك انه لو احسن التصرف في النفقات وسار بهـا سيراً قانونيـاً لكانت العواقب احسن كثيراً ولأصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات . ويقال ان مقدار الاموال التي دُفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره بغير تسمية المدفوع اليه ، بمعنى انه كان يرسل الى الماليـة تذكرة بإمضائه يقول فيها : ادفعوا الى رافعه المبلغ الفلاني ، فيدفعونه وهم لا يعلمون مصيره . فقد جُمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليوناً من الجنيهات . فاذا صحَّت هذه الرواية كان هـذا المبلغ وحده كافياً لوفاء دين مصر .

صفاته :

كان اسماعيل باشا ربعة ممتلىء الجسم قوي البنية عريض الجبهة كثيث اللحية مع ميل الى الشقرة ، امـا عيناه فكانتا تتقدان حدّة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول او ان احداهما اكبر من الاخرى قليلاً .

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريبة على إقامة المشروعات ، كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لا تفوته فائتة ، وأما اعمال الدائرة السنية فقـد كان يطلع على جزئيات اعمالها وكلياتها فلا يباع قنطار من الفحم إلا بمصادقته .

وكان عظيم الهيبة جليل المقـام لا يستطيع مخاطبه إلا الانقياد الى رأيه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء او النوم المغنطيسي .

وكان حسن الفراسة قـلّ ان ينظر في امر إلا استطلع كنهه ، فاذا

نظر الى رجل عرف نواياه او تنبأ بمستقبل امره . ومما يتناقلونه عنه انه أدرك مستقبل احمــد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً ، فأوصى المغفور له الخديوي السابق ان لا يرقيه لئلا يتمكن من بث نواياه الثوروية فتقود الى ما لا تحمد عقباه .

وكان يتكلم الفرنسية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بهـا الأجانب ، ويحسن العربيـة والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والأبهة ، وكان منغمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا .

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم والأخذ بناصر المظلومين . ومما يؤيد ذلك ان مصر ُبليت عام ١٨٧٤ م بطغيان النيل فأصابها جهد عظيم ، فوجّه التفاته الى حال المزارعين والتجار فأراد جماعة من تجار الاسكندرية ان يقيموا له تمثالاً تذكاراً لفضله فأبى وأمر ان ُيقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم .

تركته ووصيته :

يعسر تقدير تركة صاحب الترجمة تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ، ولكن المعروف من تركته أنه استبدل معاشه قبل مماته باثنين وعشرين الف فدان من الاطيان ، باع الفين منها للأوقاف العمومية و ١٥٠٠ للجناب العالي فبقي له ١٨,٥٠٠ فدان ، منها ١٢ الف فدان في تفتيش اتياي البارود وقفها على زوجاته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن ، والبـاقي وقدره ٦,٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والدته وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاول وهي مرهونة و ٩٠٠ فدان وقصر في حلوان وسراي القصر العالي و ٣٤ فدانآ تابعة لها . وما ورثه عن ابنه المرحوم البرنس

علي باشا جمالي الذي توفي منذ بضع عشرة سنة وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الآستانه قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين و قصرين صغيرين . وترك فيها ايضاً قناق بايزيد وتقدر قيمة ارضه بثلاثين الف جنيـه ، وأصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم ، فأخذه السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدّر بنحو ١٨٠ الف جنيه .

اما وصيته فانه كان قد اضاف ٤٧٠٠ او ٤٨٠٠ فدان من اطيانه في ايام ولايته الى الاطيان الموقوفة على اهل قوالة وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ ، وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغيير والابدال . ثم آلت نظارة هـذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي اضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن احداً منهم فرنسياً كان مثل سكرتيره او انكليزياً مثل طبيبه او غيرهما من الاتباع والجواري اللواتي بلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ بيضاء كان قد زوجهن بأعيان مصر قبل مفارقته هذه البلاد .

وقد اقـام صديقه الحميم دولتلو راتب باشا وكيلاً لحرمه وأوصى ان يعطى ١٥٠ جنيهاً شهرياً ، وأن تعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهرياً ، وأن يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته . ويؤخذ راتبهما كليهما من تفتيش ايتاي البارود .

وتأول نظارة وقف قوالة بعده الى حضرة دولتلو وعصمتلو البرنسس زبيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير ، وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باشا فاضل ، ولهـــذا الوقف

بيوت ونحو ١٢٠٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف جنيه سنوياً. وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث، وكذلك كل منقولاته، وقيمتها غير معلومة.

محمد توفيق باشا

(١٨٥٢ م – ١٨٩٢ م)

هو اكبر انجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق، وُلد سنة ١٨٥٢ م. وأدخله والده مدرسة المنيل وسنّه تسع سنوات، فدرس فيها اللغة والجغرافيا والتاريخ والطبيعيات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية، وكان ميالاً للعلم من صغر سنه فأحرز منها جانباً أهّله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنّه ١٩ سنة. ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال ورئاسة مجلس النظار.

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهامي باشي وهي مشهورة بالجمال والتعقل والكمال. وفي السنة التالية (١٨٧٤) وُلد له بكره (الخديوي الحالي) فسمّاه عباس حلمي، ثم وُلد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٧ والبرنسس خديجة هانم سنة ١٨٧٧ والبرنسس نعمت هانم سنة ١٨٨١.

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم ابيه حتى قضت الاحوال بإقالته كما تقدم في ترجمته، فاستلم رحمه الله أزمّة الاحكام في ٢٦ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٩ وجاءه الفرمان الشاهاني المؤذن بذلك. وكان مشهوراً بحبه للوطن المصري. وقد شعر باحتياجه الى الحرية والرفق بالرعية فخفف الضرائب ونظر في تأمين اصحاب الديون، وفي عهده تشكلت لجنة التصفية



محمد توفيق باشا (١٨٥٢م — ١٨٩٢م)

وأنشأت قانونها فصادق هو عليه ، ثم طاف القطر المصري لتفقد الرعية واستطلاع احوالهم ، فدرس في اثناء تلك الرحلة ما يحتاج اليه القطر من الاصلاح ، وحالما عاد عمد الى اصلاح حال الفلاح من حيث ما عليه من الضرائب ، فأمر بتقسيط الاموال والعشور على أشهر معلومة وان تقتضى من الكبير والصغير على السواء مع اتخاذ الرفق في تحصيلها ، ومَن تأخر عن السداد تُباع ارضه . فانتظمت الاحوال احسن انتظام .

ثم وجّه عنايته الى اصلاح شؤون المعارف ، فأمر بإنشاء المدارس العالية والابتدائية ووسّع دوائر المدارس التي أنشأها آباؤه ونظم شؤونها



محمد توفيق باشا امام مدافن قتلى واقعة طوشكي بين كروسكو وحلفا

وجعل للبـــلاد نظامات شورية وشكّـل مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية .

وفي ايامـه انشئت المحاكم الاهلية وتحسنت حال الري بإنشاء الترع وبناء القناطر الخيرية ورفع العونـــة والسخرة وأنشأ لائحة المستخدمين الملكية والعسكرية ومعاشاتهم .

وكان مع سهره على مصالح رعاياه تقياً ورعاً بنى المساجد ونظر في الاوقاف الخيرية وأصلح فيها وكان شفوقاً على رعاياه كثير الرفق بهـم فأكثر من تنشيط اهـل العمل بالرتب والنياشين وكانت الرتب على عهد ابيه تستلزم زيادة الرواتب فلما كثرت في ايامه جعلها لا تستلزم الرواتب بل هي علامة شرف من امير البلاد .

وكأنه بالغ في اكرام الناس وزاد في اطلاق الحرية قبل استعداد البلاد لها فانقلب النفع المنتظر منها الى ضرر فحدثت الثورة الوطنية المعروفة بالثورة العرابية وسيأتي تفصيلها في ترجمة احمد عرابي (باشا) والحوادث السودانية وسيأتي تفصيلها في ترجمة محمد احمد المهدي .

وأصيب رحمه الله بالنزلة الوافدة اصابة شديدة لم تمهله إلا اياماً قليلة فتوفي في ٨ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٩٢ فبكاه الناس على اختلاف الطبقات والعناصر والمذاهب لما كان عليه من صدق النية وإخلاص الطوية والرفق والعدل ودفن في مصر .

عباس حلمي باشا

(١٨٧٤ م – ١٨٩٢ م)

هو بكر الخديوي السابق ولما توفي والده كان سموُّه اعزه الله في مدرسة فيينا . وكان قبل ذهابه اليها قد تثقف في مدرسة عابدين التي شادها والده له ولدولة شقيقه البرنس محمد علي فلما اتما دروسهما فيها ارسلهما والدهما الى مدرسة جنيف بسويسرة فمكثا فيها مدة يجدان في تحصيل العلوم ثم برحاها ال فيينا وانتظما في مدرستها الملوكية العليا . وفي اثناء اقامتهما في تلك المدرسة استأذنا والدهما المرحوم بالتجول في انحاء اوروبا لاستطلاع احوال تلك المدنية من مصادرها فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك ترحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى .

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذناه في زيارة معرض باريس لذلك



عباس حلمي باشا (١٨٧٤م — ١٨٩٢م)

العام فأجابهما الى ذلك فلقيا هناك ترحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة ١٨٩١ عادا الى مصر في اثناء الراحة المدرسية ثم رجعا الى المدرسة في فيينا . وفي ٨ يناير (كانون الثاني) من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءهما النبأ البرقي بوفاة الخديوي السابق فأصبح سمو اكبرهما مولانا الامير خديوياً على



الخديوي يقرأ خطابه امام سراي الخرطوم

مصر من ذلك اليوم . ثم جاءته رسالة الصدر الاعظم بتثبيته على ذلك العرش فأسرع الى مقر حكومته فوصل الاسكندرية في ١٦ يناير (كانون

الثاني) المذكور فاحتفل القطر بقدومه احتفالاً يليق بمقامه .

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين اليه اكثر مما الى كل خديوي سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر اسلافه بنهضة الاقلام واتساع نطاق الصحافة وإطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية .

وفي ايامه تمّ فتح السودان وانقضت دولة الدراويش بتعاضد الجيشين المصري والانكليزي . ورحل الجناب العالي الى السودان في شتاء سنة ١٩٠١ لتفقد أحواله فاحتفلوا بوطء أقدامه هناك احتفالاً عظيماً . وتلا في الخرطوم خطاباً دلّ حسن ظنه بحكومة السودان المشتركة .



- ٢ -

الملوك والامراء

السلطان محمود الثاني

هو السلطان الثلاثون من سلاطين آل عثمان شقيق السلطان مصطفى الرابع وابن السلطان عبد الحميد الاول . تبوأ السلطنة العثمانية وهي في اختلال عظيم وارتباك لم يسبق له مثيل . وكان السلطان سليمان القانوني آخر من قاد جنوده بنفسه من سلاطين آل عثمان ، وتقاعدوا بعده عن المسير الى ساحة الحرب تاركين قيادة الجند الى وزرائهم ورجال دولتهم ، الأمر الذي آل الى تقهقر الدولة واختلال احوالها وانتقاض ولاتها ، وأصبح الانكشارية عثرة في سبيل فلاحها بعد ان كانوا حصناً لها وقواماً لسطوتها . وكان السلطان سليم الثالث ابن عم صاحب الترجمة قد شرع في اصلاح ما فسد من شؤونها فبثّ لابن عمه كل ما كان في نيته من ذلك .

فلما أتيح للسلطان محمود تولي السلطنة أخذ على عاتقه القيام بتلك المهام وإخراجها من حيز القول الى حيز الفعل . وكان أعظم وزراء الدولة إذ ذاك مصطفى البيرقدار ، وهو الذي أجلس السلطان محمود على سرير



السلطان محمود الثاني (١٧٨٥م — ١٨٣٩م)

السلطنة بعد سفك الدماء ، فولاه السلطان الصدارة العظمى لما تبينه فيه من الشجاعة والاقدام وشدة البطش . فباشر البيرقدار اول كل شيء قطع شأفة الاحزاب المضادة فقتل بعضاً ونفى آخرين حتى خلا له الجو فأخذ في اصلاح شؤون المملكة باذلاً في ذلك جهد الطاقة عملاً بارادة مولاه ، فرأى ان يبدأ باصلاح القوة العسكرية وتنظيمها على النمط الحديث الذي وضعه نابوليون بونابرت وهو المعوّل عليه في تنظيم جنود اوروبا .

وعلم ان مباشرته ذلك تقضي بتغيير الانكشارية وتمرُّدهم لما يرون في الامر من انحطاط سطوتهم وتقلّص ظل مجدهم ، فاحتال على العلماء والوزراء وكبار اهل الدولة واستجلب مصادقتهم في تنظيم جند جديد وإصلاح جند الانكشارية بتدريبه على النظام الجديـــد . فتعهّد له اولئك ببذل أرواحهم وأموالهم توصلاً الى تلك البغية ، فعلّقت الآمال باصلاح الحال على يد ذلك الوزير .

وكأن الله سبحانه وتعالى لم يشأ ان يتم ذلك على يده فجاء البيرقدار امورًا غيّرت عليه القلوب أخصها انه طمع في اموال النـاس فأكثر من الضرائب واستخدم في استخراجها طرقاً غير قانونية فخاف الناس الانتظام في الجندية وأوجس العلمـاء والمشائخ خيفة على مال الاوقاف لئلا يصبح طعمة له . أما السلطان فانه لم يكن اقل حذراً منهم وقد رأى كل شيء سائراً على ما يريد هذا الوزير والأحكام في يده يريدها كيف شاء .

وما زالت الاحزاب تتعاظم وتتكاثر حتى صاروا يجاهرون بذلك في مجتمعاتهم العمومية . واتفق ذات يوم ان البيرقدار كان سائراً بموكبه الحافل والشوارع غاصة بالجماهير فأمر رجاله ان يبعدوا الناس عن الطريق بالعنف وان يضربوا من لا يطيع الامر حالاً ، فنفر النـاس الى القهوات والجوامع وقد عدّوا ذلك استبداداً وعتوّاً وأخذوا ينقمون عليه فاجتمع جماعة منهم الى أغا الانكشارية وتوسلوا اليه ان ينقذهم من استبداد ذلك الرجل . وكان الانكشارية أشد منهم رغبة في قتله فتواطأوا على مهاجمة منزله بغتة وإحراقه فهجموا عليه وأحرقوه بما فيه من الرجال والنساء . وكان البيرقدار في جملتهم فذهب فريسة النـار فتخلصت الاستانة منه . ولكنه لا يزال مع ذلك معدوداً في جملة اهل الاصلاح لما أتاه من الاعمال العظيمة وما خصه الله به من المواهب التي رفعته من حضيض الفاقة الى منصة الصدارة العظمى ويروى عنه اعمال تدل على قسطه وعدالته ممـا يطلق الألسنة بالثناء عليه .

وكان في جملة من قتل أثناء تلك الثورة السلطانية مصطفى الرابع ، وكان معتزلاً عن السلطنة ، فلم يبق من عصبية آل عثمان إلا السلطان محمود ، ولم يعد للانكشارية باب للعزل والتولية فأمن دسائسهم ، ولاح له

لحسن سياسته ان يصلح ما بينهم وبين العساكر الذين سيباشر تدريبهم على النظام الحديث فأصلح ذات بينهم وأبعد من بقي من اصدقاء البيرقدار فسكنت الخواطر ، فتربص ينتظر فرصة لتنفيذ ما يريده من الاصلاح فشغلته الاعمال الحربية التي قامت بها الدولة العلية والروسيين ، وقد أخذوا يزحفون بعدتهم ورجالهم نحو الدانوب فاحتلوا بعض المدن هناك ، فجرّد السلطان جنداً لدفعهم . واتفق أثناء ذلك تجريد نابوليون بونابرت على روسيا سنة ١٨١٢ م فاضطر الروسيون لعقد معاهدة الصلح في ١٦ مايو (ايار) من تلك السنة مع الباب العالي وسحب جيوشهم عن الحدود لقتال نابوليون .

وبقي ذلك الصلح مرعياً ثماني سنوات اهتم السلطان أثناءها في إخماد ما ثار اذ ذاك في ولايتي بغداد وآيدين وقمع عصيان الوهابيين الذين ظهروا في شبه جزيرة العرب بدعوى دينية حتى تعاظم امرهم ، فبعث السلطان الى محمد علي باشا والي مصر اذ ذاك فجنّد عليهم وقطع دابرهم .

وفي عام ١٨٢١ م ثار اليونان في المورا وشقوا عصا الطاعة حتى صاروا يهاجمون سواحل سوريا والاناضول وغيرهما ويصادرون العمارات العثمانية فبعث السلطان جنداً عظيماً لردهم فقامت الحرب على ساق وقدم وبعث الباب العالي الى محمد علي باشا اذ ذاك ايضاً فأرسل حملة تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا انضمت الى جيوش الدولة وضيقوا على اهل المورا فاستنجدت اليونان الدول الاوروبية فتوسطت دولتا انكلترا وفرنسا . فلم يرضَ السلطان بتوسطها فبعثا عمارتيها وانضمت اليها العمارة الروسية وهدّدوا ابراهيم باشا وعمارته في مينا نافارين من اعمال المورا وطلبوا اليه ان يكفّ عن القتال فأبى إلا ان يكون ذلك بأمر من السلطان ، فدخلوا

الميناء وأطلقوا النار على العمارتين المصرية والعثمانية في ٦ يوليو (تموز) عام ١٨٢٧ وظهروا عليهما بعد دفاع شديد ، فاضطر السلطان محمود لقبول اقتراح الدول المتحدة وأمضى معاهدة تقضي باستقلال اليونان .

وكان السلطان في اثناء ذلك مشتغلاً بتنظيم الجند الجديد لعلمه ان جند الانكشارية لا يقوى على مدافعة جنود اوروبا المنظمة ، ولكنه علم بما يحول بينه وبين ما يريد فجمع اليه رجال دولته بحضرة المفتي افندي ، وخطب الصدر الاعظم إذ ذاك محمد سليم باشا خطاباً عدّد فيه ما وصلت اليه قحة الانكشارية مع ما هم فيه من القصور في النظامات الحربية الجديدة وطلب اليهم ان يبدوا رأيهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لملافاة ما يهدّد المملكة العثمانية بسبب ذلك ، فأقرّ الجميع وفي جملتهم آغا الانكشارية على اتخاذ الوسائل الفعّالة ، فتلا المكتوبجي امراً قاضياً بتنظيم جيش جديد باسم (ايكنجي) وتهذيبه ، فوقّع الجميع على وجوب تنفيذ ذلك الامر وتُلي ذلك بعدئذ على ضباط الانكشارية فقبلوا به وأخذوا في تنظيم الجيش . وفي ٦ ذي الحجة عام ١٢٤١ ﻫ (١٢ يونيو — حزيران عام ١٨٢٦ م) استعرضوه وشرعوا في تهذيبه للمرة الاولى في ساحة اتميدان .

اما الانكشارية فحالما شاهدوا ذلك النظام نسوا عهودهم لما رأوا في الامر مما يحطّ من سطوتهم ونفوذهم وأخذوا يتحدثون سراً وينقمون على تلك البدعة ، فحاول الصدر الاعظم قمعهم سراً وجهراً فلم يزدادوا إلا عناداً حتى هجموا اخيراً على منزله للإيقاع به فلم يظفروا بشخصه لأنه لم يكن هناك فتفرقوا في المدينة يصادرون المارّة والباعة ، فبعث الصدر الاعظم الى السلطان بالامر وأمر ضباطه وجنده الخصوصيين فحضروا في

السراي . امـا الانكشارية فأصرّوا على اعمالهم وجاهروا بطلب رؤوس الذين أشاروا بتنظيم ذلك الجيش ، فوقف الصدر الاعظم وحوله من رجاله والعلماء والمشائخ عدد غفير في انتظار مجيء السلطان وكان في بشكطاش فأسرع الى السراي وخطب في الجماهير فأنهض هممهم فأقسموا على الثبات حتى يفوزوا او يُقتلوا فداء عن سلطانهم ، وطلبوا اليـه ان يجرّد العلم النبوي الشريف فجرّده ومشى فتبعه الناس وتقاطروا من أنحاء المدينـة للدفاع عن السلطان والسنجق الشريف ، ففرّق عليهم الاسلحة ثم سلّم العلم الى المفتي وجلس في قصر (كشك) فوق باب السراي حيث يشرف على الساحة ويشاهد الجماهير .

ثم اجتمع الصدر الاعظم والمفتي والعلماء في جامع السلطان احمـد وتلوا الفـاتحة وسوَراً اخرى بالخشوع التام ، ثم نهضوا في هيئة الحرب وفيهم العساكر وأهل المدينة فأدركوا الانكشارية وقد تجمهروا في ساحة اتميـدان ، فحاولوا ردّهم بالتي هي احسن فأبوا فأطلقوا عليهم الرصاص والتحم الفريقـان وكانت المذبحة هـائلة عادت فيها العائدة على جنـد الانكشارية ومَن لم يُقتل منهم قيـد أسيراً ، فنجت البلاد منهم وهدأت الاحوال ، كما نجت مصر من أمراء المماليك بعد ان ذبحهم محمـد علي قبل ذلك ببضع عشرة سنة .

وأخذ السلطان محمود بعد ذلك بتنظيم الجند على النمط الفرنسي المتقدم ذكره ، فاغتنمت الدولة الروسية انهماكه بذلك وأشهرت الحرب وزحفت بجنودها الجرارة لجهة الدانوب في اوروبا وجهة القرص وارضروم وغيرهما في آسيا ، وبعثت عمـارتها البحرية الى البحر الاسود . فعظم ذلك على السلطان لما يعلمه من قصور جنده الجديد ولكنه جنـد على الروسيين .

وجاهد العثمانيون جهاد الابطال دفعاً لعدوهم عن حدود البلاد ما ليس فوقه غاية ، وقد شهد لهم بذلك أعداؤهم . على ان جهادهم وبسالتهم وثباتهم لم تغنِ عنهم شيئاً لأنهم كانوا يحاربون ثلاث دول عظام وليس الروس وحدهم كما علمت من نجدة انكلترا وفرنسا للمورة . وانقضت الحرب الروسية هذه باحتلال بعض المدن في رومانيا وفي آسيا .

ولما علم السلطان بذلك اضطرب قلبه ولم يكن يعرف الاضطراب قبل ذلك ، ولكنه أظهر ثباتاً وحزماً جديرين بالسلاطين الفخام والمصلحين العظام ، وانتهت تلك الشرور بعقد معاهدة ادرنة في ٦ سبتمبر (ايلول) عام **١٨٢٩** القاضية باستقلال اليونان استقلالاً تاماً والتنازل عن اقليم السرب لعائلة دوبرينوفيتش وعن اقليمي الفلاخ والبغدان . وقد انضمَّ هذان سنة ١٨٦١ الى إمارة واحدة عرفت بإمارة رومانيا تدفع جزية سنوية للدولة العلية كالديار المصرية . والتنازل عن بعض الجزائر الواقعة عند مصب الدانوب وعن بلاد اخرى في آسيا مع غرامة حربية مقدارها مائة مليون وعشرة ملايين من الفرنكات .

وقد يستغرب القارىء رضوخ السلطان محمود لتلك المعاهدة وهو من سلاطين آل عثمان الذين دوخوا العالم وأرجفوا ملوك الأرض ودانت لهم اعظم ممالك الدنيا ، ولكن ليس ذلك محل الاستغراب وإنما الغرابة في ثبات هذه الدولة ، أيدها الله ، ودفاعها الدولتين والثلاث او اكثر معاً بعزم ثابت . وكانت كل دول اوربا ضدها تنتظر فرصة لابتلاعها ، فلو لم تكن اقوى الدول وأشدهن بطشاً ما استطاعت دفع تلك الصدمات ، ناهيك بما كان مستحكماً في داخليتها من الخلل وما أفسده الانكشارية ومن جرى مجراهم .

فلم تكد تتخلص من تلك المشاكل حتى كانت حملة الجنود المصرية تحت قيادة ابراهيم باشا على سوريا فافتتحوا عكا وأوغلوا في داخل القطر وما وراؤه حتى كادوا يهددون الاستانة ، فتوسطت الدول وأوقفتهم في سوريا حيث اقام ابراهيم باشا حاكماً ضمن حدود وعهود تسع سنوات ، توفي السلطان محمود في السنة التاسعة منها بعد ان حكم احدى وثلاثين سنة كلها حروب وأهوال ، ولولا حزمه وثباته وقسطه ما قوي على مقاومة تلك الصدمات التي لو كانت على اعظم دول الأرض لذهبت بها الى الدمار .

وكان رحمه الله ثابت الجنان مقداماً حازماً تتجلى في وجهه ملامح الوقار والرزانة ، وقد قال الذين قابلوه من سفراء الدول الاجنبية انهم لم يجدوا في سائر ملوك اوربا وامبراطوريها المعاصرين ما في السلطان محمود من قوة التسلط على الافكار والتأثير على العقول . وكان يحسن الخط ونظم الشعر ، متبصراً لا يعمل عملاً ما لم يتدبره وينظر في عواقبه . ومن اعماله إبادة وجاق الانكشارية وتأسيس النظام الجندي الجديد . وهو اول من لبس الطربوش واللباس الافرنجي على الزي المعتاد (في اواخر حكمه) وأول من ركب عربة (فايتون) من سلاطين آل عثمان ، وقد كان السلاطين قبله يلبسون العمامة والجبة ويركبون الخيل ، وفي عصره ظهرت اول جريدة في المملكة العثمانية . ويقال انه اذن بنقل رسمه بالزيت وعرضه في الترسانة العامرة ، وقد طُبع ذلك الرسم بمطبعة الحجر وبيع في الاستانة .

الامير بشير الشهابي الثاني

المعروف بالكبير او المالطي

هو اعظم امراء بني شهاب حكام جبل لبنان في الاجيال الاخيرة ، وهم عرب يتصل نسبهم الى قريش ، قدموا بلاد الشام في صدر الاسلام وما زالوا يتناوبون الاحكام في لبنان ووادي التيم مع الأسر الأخرى من الأمراء وغيرهم تحت رعاية الباب العالي الى أواسط القرن التاسع عشر .

ترجمته وأعماله :

أمــا الامير بشير فهو اعظم الامراء الشهابيين سطوة وهيبة وبسالة وبطشاً واطولهم حكماً تنصر والده في آخر ايامه ثم توفي عن ولدين حسن وبشير فتزوجت والدتهما وتركتهما وهمــا في ضنك من العيش وكان حسن اكبرهما سناً فانتظم في خدمة الامير يوسف الشهابي امير جبل لبنان إذ ذاك وأقام في قصبة الإمارة بلدة دير القمر . فأصبح الامير بشير وحيداً منفرداً وكان لوالده خادمة امينة فلازمت الغـلام شفقة عليه وأقاما في برج البراجنة قرب مدينة بيروت . أما والدته فسكنت مع زوجها الجديد في قرية الحدث قرب البرج وكانت تعول ولدها بشيراً وتسعفه بمـا يقوم بأود حياته من الطعام واللباس .

ولمــا ناهز السادسة عشرة انفت نفسه من تلك المعيشة فغادر البرج قاصداً دير القمر ونزل في بيت الدين بالقرب من الدير في منزل رجــل يقال له الشيخ ابو علي البتديني وكان شيخ مجلس (خلوة) محترماً محبّاً للبر .



الامير بشير الشهابي الثاني (١٧٦٧ م — ١٨٥٠ م)

وكان يؤانس في وجه الامير بشير مهابة الاسود وشهامة الرجل ففتح له صدر بيته وأنزله على الرحب والسعة فأقام عنده بضع سنين يقضي نهاره في الصيد وليله في التحرّق لما هو فيه من ضيق المعيشة مع شرف الحسب والنسب . ولكنه كظم على مضض الحياة ينتظر فرصة ينهض بهـا من حضيض الذل الى ما تطلبه نفسه من المعالي .

فاتفق ان دروز لبنان وهم الفئة الكبرى من سكانه انفوا من حكومة الامير يوسف واجمعوا على انزاله وإقامـة امير سواه وكان كبير الدروز إذ ذاك الشيخ بشير جنبلاط وكان نافـذ الكلمة شديد البطش فشاور العقلاء والاعيان فأخبره بعضهم عن الامير بشير وقال : « ان هـذا اذا تولى الإمارة كان آلة بيدنا لصغر سنه وقلة احزابه » . فقال الشيخ بشير اليّ به وليكن مجيئه الى منزلي سراً لأراه ولا يعلم به احد فبعثوا اليه

فجاء في منتصف الليل ودخل على الشيخ وحياه،فسأله اذا كان يريد ان يتولى لبنان فقال: «ومن أين لي ذلك ولا مال عندي ولا رجال» فقال: «أما المال والرجال فنحن نقوم بتقديمها لك فكن ثابت الجأش وتربص ريثما نخلع الامير يوسف» وأمر وكيله فجاء بصرة من الدراهم دفعها اليه قائلاً خذ هذه الآن ومتى انفقتها ابعث اليك بمثلها واحفظ هذا سراً حتى يؤون الوقت. فشكره الامير بشير وخرج ولم يعلم به احد.

ولكن صدق من قال: «كل سرٍّ جاوز الاثنين شاع» فالامير يوسف علم بما تواطأ عليه الدروز والامير بشير فعزم على اعدامه قبل تمكنه من الحكم فبعث اليه اخاه حسناً وأمره ان يقتله ويأتي برأسه فسار حسن بالرغم منه حتى اتى بيت الدين فبلغ الامير بشير ذلك فجاء ببندقيته وذخيرته وجلس في صدر الحجرة فلما اطلّ عليه اخوه من بعيد ناداه قائلاً: «لا تقرب من هذا البيت وإلا فاني قاتلك لا محالة». وهوّل عليه بالبندقية فقال له: «إنما جئت لأخاطبك في امر». قال: «لا تخاطبني في شيء اما كفاكم اني مقيم هنا ولا ينظر اليّ احد كأنما انا من السوقة — أليس ذلك عاراً على الامير يوسف». فخجل حسن وعاد وأخبر بما كان وحسّن للأمير الرفق بأخيه فبعث اليه جواداً يريد تقريبه منه وهو غير واثق بما سمعه عنه.

أما الدروز فكتبوا الى الجزار والي ولاية صيدا (وكان لبنان تحت ولايته) يشكون من الامير يوسف واستبداده فبعث اليه الجزار ان ينزل او ان يبعث اليه احداً من ذوي قرابته رهناً ضامناً لتسديد ما تأخر عليه من مال الحكومة. فأرسل الامير بشيراً تخلصاً منه ويقال انه لما امره بالذهاب الى عكا ليكون رهناً عند الجزار قال له: «سر يا ولدي

الى الجزار في شغل » فأجابه : « اخاف ان اذهب ولدك وارجع ولد الجزار » فلم يفقه الامير لما قاله .

فوصل عكا ومعه كتب التوصية من الشيخ بشير للجزار وغيره من رجال حكومته وفي جملتهم رجل يهودي اسمه حاييم كان مديراً لدائرة الجزار وبيده الحل والعقد وعائلة سكروج وكانوا كتّاباً في ديوانه فساعدوا الامير بشيراً مساعدة قوية فولاه الجزار الإمارة على لبنان وألبسه الفروة وأعطاه العدة والرجال وأمره بالذهاب الى دير القمر لاستلام مقاليد مصلحته . فسار في مائتي جندي وعلم الامير يوسف بقدومه ففرّ من الدير ودخلها الامير بشير وتولاها . وكان الشيخ بشير جنبلاط وأنصاره انصاراً للأمير في كل ما يريد فتعزّزت سطوته وذاع صيته .

ولكن لم يستتب له الامر إلا بعد مقتل الامير يوسف ، لأن اعوجاج حكم الجزار كان يقضي لمن يدفع اليه الرشوة الكبرى ، فكان يتعهد له الامير يوسف تارة بدفع قدر أعظم مما يدفعه الامير بشير فيوليه ، ثم يزيد هذا على ذاك القدر فيعيده ويعزل ذاك . وكان اللبنانيون يشتكون احياناً من قساوة الامير فيتآمرون عليه ويتظلمون منه ، وبقي الحال كذلك حتى قُتل الامير يوسف في عكا بأمر الجزار سنة ١٧٩٠ م . وكيفية ذلك ان الجزار كان سائراً الى الحج فوصل اليه وهو في المزاريب كتاب من الامير بشير يشكو فيه من دسائس الامير يوسف وكان هذا قد التجأ الى حمى الجزار في عكا ، فكتب الجزار الى نائبه هناك ان يقتله ثم ندم على مسارعته فبعث اليه ان لا يقتله ولكن سبق السيف العزل ، فقُتل الامير يوسف شنقاً قبل وصول الكتاب الثاني . ويقال انه وصل وأخفاه ابن السكروج كاتب الجزار خدمة لمصلحة الامير بشير ، ولما عاد الجزار وتحقق ذلك منه قتله .

فاستتب الامر للأمير بشير ، غير ان الفتن بين ولايتي صيدا ودمشق لم تكن تنقطع ، واللبنانيون تارة يثورون على اميرهم وطوراً يستبدّ فيهم محصلو الاموال . ونظراً لكثرة الفئات والطوائف في لبنان لم يكن يخلو ذلك الجبل من فتنة تهرق في سبيلها الدماء وتسلب الاموال . وكان الامير بشير يتدبر كل ذلك ، حيناً بالحكمة وآونة بالقوة وتارة بالحيلة والدهاء ، حتى بهر الحكام وسحر الرعية . وزد على ذلك انه لم يكن في مأمن من صداقة رئيسه الجزار والي صيدا لأن الجزار لم يكن يرعى ذماماً ولا يتفاضل الأمراء عنده إلا بنسبة ما يدفعونه اليه من الخراج والأموال . وكان اذا ولى اميراً لا يأمن انتفاضه فيسترهن عنده ابنه او اخاه او زوجته ، فاذا عزله بعث اليه بالرهن ، ويسترهن احداً من ابناء الامير الجديد ، وهكذا .

وفي سنة ١٧٩٩ م قدم بونابرت بجيوشه لافتتاح سوريا بعد ان دوخ الديار المصرية ، فافتتح يافا ثم جاء عكا وحاصرها ، وكان الامير بشير عوناً كبيراً للفرنسيين ، يمدهم بالمؤونة والزاد ، وقد سرّ نصارى لبنان بقدوم تلك الجيوش وخاف الدروز . ولما طال الحصار على الفرنسيين وامتنعت عكا عليهم بمساعدة العمارة الانكليزية تحت قيادة السير سدني سميث ، ملّ الامير بشير من معاضدتهم . ثم وردت عليه كتابات من السير سدني يبيّن له فيها « ان الفرنسيين لما دخلوا مصر نشروا منشورات ادّعوا انهم مسلمون وقد كسروا الصلبان في رومية » . وبعث اليه بنسخة من ذلك المنشور ، فنفر الامير من الفرنسيين وقطع المؤونة عنهم . وكان ذلك من جملة اسباب فشلهم وعودتهم على الاعقاب ، ولم يفتحوا عكا مع انهم حاصروها زهاء شهرين .

وكان الجزار قد تغير على الامير لمساعدته الفرنسيين ، ثم علم بكفه عن مساعدتهم ولكنه لم يقره في مكانه فتوسّط له السير سدني سميث وكان بين هذا والامير صداقة ومهاداة . وسافر الامير في اثناء تغير الجزار عليه في مركب من عمارة السير سدني الى الاسكندرية ، وكان ذلك المركب بانتظاره في طرابلس . وبالغ السير سدني في إكرام الامير وأحبه محبة شديدة لما رأى من هيبته وجسارته ، وأمر بتصويره وخاطب بشأنه الصدر الاعظم وكان قد قدم غزة لمحاربة الفرنسيين ليعيده الى منصبه في امارة لبنان فأعاده .

ولكنه اضطر بعد قليل لمغادرة لبنان لعدم رضوخ اصحاب المقاطعات له فسافر في عمارة السير سدني الى قبرص وأقام فيها ستة اشهر ، ثم سافر معه الى الاسكندرية وما زالوا في البحر المتوسط بين ذهاب وإياب نحو شهرين . وبعد ذلك عاد الى امارته في لبنان وكانت بينه وبين الجزار ومَن ولاهم مكانه حروب دامت اربع سنوات ، ثم تصالح والجزار سنة ١٨٠٣ م .

وفي السنة التالية توفي الجزار وخلفه ابراهيم باشا (غير ابن محمد علي باشا) ، ولم تطل ولايته فخلفه سليمان باشا وكان من مماليك الجزار وبينه وبين الامير صداقة فأقره في امارته وأيّد نفوذه . وكان اولاد الامير يوسف من اكبر مناظري الامير في الامارة وكثيراً ما كانوا يتمكنون من اغراء الجزار على عزله والتولي مكانه بمساعدة مديرهم جرجس باز وأخيه عبد الاحد ، فلم يصفُ له الكأس حتى قتلهما بدسيسة سنة ١٧٠٧ م . وفي سنة ١٧٠٩ م بنى الامير بشير جسر نهر الكلب ، وبعد سنتين بنى جسر نهر الصفا ، وكان للأمير بشير ثلاثة اولاد الأمراء قاسم وخليل وأمين .

وفي سنة ١٨١٣ م جاء الى الامير رجل حمصي اسمه بطرس بن ابراهيم كرامة ، وكان شاعراً فصيحاً ومنشئاً بليغاً حسن الخط ، وكان قد قرأ صناعة الانشاء والشعر على الشيخ امين الجندي الشاعر المشهور ، فجعله الامير نديماً عنده ثم وكل اليه تعليم ابنه الامير امين ، وصار بعد ذلك كاتب يده .

وكان بجوار دير القمر قرية يقال لها بيت الدين وقد تقدم ذكرها ، فاتخذها الامير مسكناً له وبنى فيها الدور لسكناه ولسكنى اولاده وفي جملتها السراي الباقية الى هذا العهد المعروفة بسراي بيت الدين وفيها مقرُّ متصرفية لبنان الى هذه الغاية . وأجرى الى بيت الدين قناة من ماء تحت عين زحلتا على مسافة ثلاث ساعات يسمى نبع القاع بجانب نهر الصفا ، وغرس فيها المغارس والبساتين حتى اصبحت من اجمل المساكن وأبهاها .

وكان الجنبلاطية عوناً كبيراً له في كل حروبه وأعماله لأنهم هم الذين سعوا في إمارته ، وقد شدّوا أزره وقاموا بنصرته وأيدوا حكومته مادياً وأدبياً . ولكنهم كانوا يفعلون ذلك حباً بتعزيز سطوتهم وتأييد نفوذهم فكانوا ينظرون من وراء مساعدتهم الى ما يؤيد نفوذهم على الأسر الاخرى الدرزية التي كانت تناظرهم في السطوة ونفوذ الكلمة ، وقد سعوا في استخدام الامير بشير لأغراضهم حتى سئم هو منِ استبدادهم واعتراضهم له في اعماله ، فرأى ان الجو لا يخلو له إلا اذا كسر شوكتهم وتفرّد بالأحكام فعوّل على التخلص منهم .

ولكنه لم يكن يتظاهر بذلك ، فاتفق ان احد الامراء المدعو الامير حسن اراد التزوج بابنة ولم يرض ابوها به فغضب وقتله — فعل ذلك

برضاء الشيخ بشير جنبلاط ، فغضب الامير بشير على الامير حسن وأمر بالقبض عليه ففر الى دمشق ، وهناك اسلم ووشى بالأمير انه مسيحي ، وهيّج عليه الوالي ، فحقد الامير على الشيخ بشير لأنه نسب ذلك اليه . وفي اثناء ذلك بنى الشيخ بشير جامعاً في المختارة بالقرب من بيت الدين وتظاهر بالاسلامية ، فازداد حقد الامير عليه وأضمر له الشر وعزم على تعضيد الاحزاب المضادة له من الدروز ، ولكنه كتم ذلك في باطن سره وبقي مظهراً الصداقة له كالعادة .

وفي سنة ١٨١٩ م توفي سليمان باشا والي عكا وخلفه عبد الله باشا الخزنه دار بن علي باشا احد مماليك الجزار ، فأقرّ الامير في إمارته ، ولكنه أخلف بعد قليل وولى غيره مدة قصيرة ثم عادت الإمارة اليه فعاد مكرماً مع الهدايا والتقادم على ان يكون اميراً على لبنان مدة حياته ، ولكن بعض اللبنانيين لم يذعنوا له بدسيسة ممن كان اميراً قبله وأبوا دفع الاموال كما أراده هو ، فقامت بينه وبينهم حروب آلت الى خصام طويل بين ولايتي صيدا ودمشق ، وكان الامير يحارب مع عبد الله باشا والي صيدا او عكا ضد درويش باشا والي دمشق ، وقد أخلص النية وبذل قصارى الجهد في تلك المساعدة حتى اوجس درويش باشا خوفاً منه ، وكان عالماً ان الفضل في ذلك النصر للأمير بشير ، فكتب اليه يستجلب رضاه ووعده بالولاية على صيدا ولقبه بوالي الشام وصيدا ، فأعرض الامير عن اجابته وبعث الكتاب الى عبد الله باشا ، فسرّ هذا من صداقته وكتب اليه ان يثابر في محاربة الدمشقيين ولقبه بوالي الشام وصيدا ايضاً . اما الامير فجاء عكا يريد ارجاع عبد الله باشا عن عزمه في ذلك فلم يجبه ، فسار في الجند كما امره وعاد الى المحاربة فاعتبرت

الدولة العلية اعمال عبد الله باشا هذه تعدياً على حقوقها فأنجدت درويشاً وأنذرت الامير بذلك فأذعن ، ولكنها اشترطت عليه بواسطة الشيخ بشير شروطاً صعبة في إمارته فلم يرض ، فاتفق الامير والشيخ على تولية الامير عباس فقبل درويش بذلك وعقد الامير مع الامير عهداً ان يحافظ هذا على بيت الامير وكل ما له اثناء غيابه وركب قاصداً عكا ، فعلم ان درويش باشا بعث للقبض عليه فعرج الى صيدا ونزل من ضواحي بيروت في المراكب ومعه من الحاشية نحو المئة وخمسين رجلاً قاصداً مصر سنة ١٨٢١ م وفيها إذ ذاك المغفور له محمد علي باشا والياً ، فلاقى منه كل رعاية وإكرام .

وكان الغرض من قدومه اليه الالتماس منه أن يتوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا لأن الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتراعي خاطره على أثر ما اوتيه من النصر في حرب الوهابيين في بلاد العرب بعد أن تعبت الدولة في قهرهم .

وكان محمد علي باشا إذ ذاك في شاغل من امر الحرب في المورة وكانت الدولة قد بعثت اليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاء الامير مستنجداً طيب خاطره ووعده بالمساعدة وكتب الى الباب العالي بذلك وأسكن الامير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لأنه كان راغباً في امتلاك قلب الامير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام .

ولبث الامير في مصر حتى وردت الأوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شاكراً بعد ان تداول مع محمد علي سرّاً بشؤون كثيرة تعود الى

مقاصد الباشا في بر الشام . وسار الامير من مصر الى عكا بكل اكرام ومعه سلاحدار الباشا حاملاً العفو فوصلوا عكا وبلغوه ذلك فسر عبدالله باشا بفوزه ولكن الجنود العثمانية في الشام طلبت النفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا نقود وكان الامير قد جاء بنحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي ضرائب على المقاطعات وفي جملتها جانب على الامير . وكان الامير قد زاد حقداً على الشيخ بشير ولا سيما لما بلغه تواطؤه مع الامير عباس عليه فأحب التخلص منه قطعياً ففرض عليه مبلغاً كبيراً من ذلك المال فدفع جانباً واعتذر عن الباقي فألحّ عليه ففرّ الى دمشق فطلبه من واليها فأمره بالذهاب ثم التمس من عبد الله باشا التوسط له عند الامير بالعفو فأظهر الامير القبول فحضر الشيخ بشير وكان لا يزال خائفاً من الغدر به فجاء في جماعة من رجاله الى بيت الدين وسار تواً الى مقابلة الامير في قصره فجعل رجاله صفين مرّ بينهما ذليلاً خائفاً من الغدر به حتى دخل على الامير وسلم عليه فأمره بالجلوس فجلس مكتئباً واجساً . وأمر له بالقهوة فلم يستطع تناولها لما كان فيه من الارتعاش ولكنه امسك الفنجان وأراد الارتشاف منه فنظر اليه الامير بعين الغضب فازداد ارتعاش يده حتى انسكبت القهوة على ثيابه وكان منظر الامير مخيفاً بغير غضب فكيف بالغضب . ولم يستطع الوقوف حتى حوّل الامير نظره عنه الى نافـــذة بقربه فنهض الشيخ مستأذناً وخرج .

ثم بعث اليه الامير ان يصرف من جاء بهم من الرجال لئلا يتكدّر خاطره عليهم فانصرفوا عنه فخاف الشيخ ففرّ الى حوران فضبط الامير ارزاقه وممتلكاته فعاد الشيخ بشير ناقماً وجمع اليه احزابه الدروز وبعض

احزاب الامراء مناظري الامير وقدموا لمحاربته فانتشبت الحرب بينهما شديدة حتى اضطر الى استنجاد ولاة طرابلس وعكا ومحمد علي باشا في مصر فبعث اليه محمد علي باشا « ان الفي مقاتل متأهبة تنتظر امركم » .

ولكن لم تبق حاجة اليها لأن والي الشام قبض على الشيخ بشير وباقي المشايخ وقتل احدهم الشيخ علي العماد لأنـه من اكبر زعماء الثورة وكان لوالي دمشق ثأرٌ عليه وبعث بالباقين الى عكا اما الأمراء المتحزبون معهم فقبض عليهم الامير وأمر بسمل عيونهم وقطع رؤوس ألسنتهم .

أمـا الشيخ بشير فكتب الامير الى عبد الله باشا ان يقتله لأن اصل الشر منه ثم علم الامير ان الباشا اطلق سراحه وأذن له بالسكنى خارج السجن فبعث الى محمد علي باشا على يد ابنه الامير امين – لأنـه كان إذ ذاك في مصر – يخبره بالأمر ويلتمس منه كتاباً الى عبد الله باشا بقتل الشيخ بشير فبعث اليه برسول خاص بشأن ذلـك فقتله شنقاً مع شيخ آخر وبقيت جثتاهما معلقتين امام باب عكا ثلاثة ايام .

وبقتل الشيخ بشير خلا الجو للأمير بشير ففرّق اولاده وذويه حكاماً في المقاطعات وهدأت الاحوال الى سنة ١٨٢٦ حينما قدمت مراكب اليونانيين الى بيروت وكان قدومها عدوانياً لأن اليونان كانوا في حرب مع الدولة العلية في المورة فبعثوا بمراكبهم الى سواحل سوريا لافتتاح الثغور .

فلما بلغ الامير قدوم تلك المراكب جمع اليه رجاله ونزل الى حرج بيروت لدفعها وكانت قد اطلقت بعض القنابل على المدينة فلما علم اليونان بتجمّع الرجال لدفاعهم تحولوا عن المدينة . وفي سنة ١٨٣٠ انتدبه عبد الله باشا لفتح قلعة سانور في نابلس فسار وفتحها فتحاً أيد ما عرف بـه

اللبنانيون من الشجاعة والاقدام وفي السنة التالية قدم المغفور له ابراهيم باشا بن محمد علي باشا لحصار عكا .

والسبب الحقيقي لقدومه يكاد يكون مجهولاً لأن المؤرخين قلما أفصحوا عن حقيقته ولكننا قد عرفناه ممن عاصر الامير وكان من حاشيته وسمع حقيقة الخبر من فيه قال : ان محمد علي باشا لما قدم اليه الامير بشأن العفو عن عبد الله باشا تداولا في امور كثيرة تعود الى التعاضد والتعاون عند الحاجة . ولذلك رأينا عزيز مصر لم يتقاعد عن نجـــدة الامير في حروبه مع الشيخ بشير كما قدمنا . وأما محمد علي فكان عازماً على توسيع نطاق حكمه بافتتاح سوريا ، وكان يظن صنعه الجميل مع عبد الله باشا والامير يكفي لبلوغ أمانيه ، ولكنه رأى من عبد الله باشا اعوجاجاً عن غرضه ، والغالب ان عبد الله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي ، فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره .

وأدرك محمد علي ذلك فعزم على اختباره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير ان يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب فباشر الامير إجابة طلبه فمنعه عبد الله باشا فشقّ ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لأوامر الدولة العلية لأن تلك المراكب إنمـا هي للحكومة ، فجرّد لمقاصته حملة تحت قيادة ولده ابراهيم باشا فسار لحصار عكا كما قدمنا .

فبعث عبدالله باشا الى الامير ان يعدّ رجاله ويأتي لدفع الجنود المصرية عن عكا وكتب ابراهيم باشا بمثل ذلك لمـــا بينه وبين والده من العهود فوقع الامير في حيرة بين ان يطيع رئيسه الشرعي او يقوم بمواعيده

لدى والي مصر ، وكان حاقداً على عبد الله باشا لأنه رأى منه استبداداً فيه بعد ان كان هو السبب في عوده الى ولاية عكا ، فترجح لديه أفضلية نصرة الجنود المصرية ، فجمع رجاله وسار قاصداً عكا ، وكان ابراهيم باشا قد استبطأ حضوره فكتب الى والده بذلك فغضب محمد علي وكتب الى الامير يهدده فأدركه الكتاب وهو قادم الى عكا ، وفي جملة ما قال له فيه : « اذا تأخرتم عن الحضور الى ولدنا ابراهيم أخربنا دياركم وغرسنا موضعها زيتوناً » فظلّ سائراً الى صحراء عكا فاستقبله ابراهيم باشا بترحاب لأنه كان في حاجة كلية الى مساعدته فيما جاء من اجله .

وكان الامير عضداً قوياً للجنود المصرية في حصار عكا وغيره من اعمالهم في سوريا . وكان ابراهيم باشا يحترمه كثيراً ويدعوه (والدنا) وكان اعتماده في كثير من المواقع عليه وعلى أولاده ولا سيما الامير خليل فإنه حارب عنه حروباً كثيرة في طرابلس وغيرها . أما اهل لبنان فكان دروزهم ضد ابراهيم باشا ونصاراهم معه ، غير ان الدروز اضطروا اخيراً الى الاذعان بمساعي الامير وتهديده ، وقد جاهد هذا مع الجنود المصرية جهاداً حسناً وعرّض بنفسه للخطر مراراً حتى كان يضطر احياناً الى التنكر بلباس الفعلة وغيرهم خوفاً من مكامن الدروز .

وبعد ان فتح ابراهيم باشا عكا وقبض على عبد الله باشا وبعث به الى الاسكندرية سار الى دمشق وبعث الى الامير ان يوافيه اليها فجند اليها وفتحوها ، وعاد الامير الى بيت الدين وخرج ابراهيم باشا لفتح حمص ففتحها وسار منها الى حلب يحارب الجنود العثمانية ففتحها ثم فتح ايقونية وهناك قبض على الصدر الاعظم قائد الجنود العثمانية وزحف على مرسين فترسيس . وما زال في فتوحاته حتى توسطت الدول الافرنجية وتمّ الصلح

بين الدولة العلية وابراهيم باشا على ان يقف عند حدوده في سوريا وأن يكون والياً عليها جابياً لأموالها كما تقدم في ترجمة محمد علي باشا .

ولما كادت تهدأ الاحوال انتفض النابلسيون وهاجوا وماجوا حتى اضطر محمد علي الى المجيء بنفسه لنجدة ولده فأتى وأخمد الثورة وعاد ، وكان ذلك عام ١٨٣٣ م .

ثم رأى ابراهيم باشا ان الامر لا يستتبّ له إلا اذا جرّد اللبنانيين والنابلسيين وغيرهم من السلاح ، فعهد بذلك الى الامير فجمع السلاح ، ولم يكن جمعه كافياً لاستتباب الراحة ، لأن البلاد لم ترضخ لحكومته رضوخاً تاماً ، والدولة لم تفتأ عن محاربته تارة بعد اخرى ، فقضى ابراهيم باشا في سوريا نحواً من تسع سنوات لم يهدأ له فيها بال . وفي سنة ١٨٣٧ قدم الدكتور كلوت بك كبير الاطباء المصريين الى بيت الدين فطلب اليه الامير ان يستأذن محمد علي باشا في ارسال بعض اللبنانيين يدرسون الطب في القصر العيني على نفقة الحكومة ، فنال ما طلبه وبعث بعضاً منهم الى تلك المدرسة . وفي سنة ١٨٣٨ م أمر ابراهيم باشا ان يلبس اولاد الامير الطرابيش بدل العمائم ، وكتب الامير الى أقاربه ان يفعلوا ذلك ايضاً ففعلوا .

وفي سنة ١٨٤٠ م توسطت الدول الاوروبية ثانية في فضّ الخلاف ، فعقدوا مؤتمراً أقرّوا فيه على وجوب اخلاء الجنود المصرية للديار السورية . ومما حملهم على اخلائها ايضاً ان الحكومة المصرية جنّدت عسكراً أدخلت فيه شباناً من الذين كانوا قد أُرسلوا لدراسة الطب في مصر . فلما بلغ نصارى لبنان وسوريا ذلك خافوا ان يجري هذا التجنيد عليهم اذا

استقام الامر للمصريين بينهم ، فانتفضوا عليهم وكان الامير بشير مع ذلك يحاول اقناعهم في الخضوع فلم ينجح ، وحاول جمع سلاحهم ثانية فلم يفز .

ورأت الدول ان ابراهيم باشا لا بـد من اخراجه من سوريا بالقوة ، فجاء ريشارد وود الانـكليزي بمأمورية سرية وكان يعرف العربية ، فأغرى السوريين على كتابة عرض يطلبون فيه من الدولة العليـة وسفراء دول انـكلترا وفرنسا والنمسا ان يخرجوا الجنود المصريين من بينهم ، فكتبوا وأُرسلت الكتابة الى الآستانة .

فجاء الاميرال نابيه في عمارة انـكليزية الى ميناء بيروت وبعث يتهدد متسلمها ويبشر اللبنانيين والسوريين بقدوم عمارات اخرى لإنقـاذ سوريا من الدولة المصرية ، ثم جاءت العمارة العثمانية وفيها بوارج افرنجية كما تقدم وأطلقت المدافع على بيروت ، فتحققت الجنود المصرية ان الانسحاب أولى بهم بعد ان دافعوا دفاع الابطال وصبروا صبر الرجال .

اما الامير فخاب أمله وكان يظن ان فرنسا ستساعده عنـد الحاجة فلم يتحقق ظنه فاضطر الى التسليم فسلم ، فأمر بالذهاب بمن أراد من أهله وذويه للإقامة في مالطة ، فأخذ اولاده وحفدته وكاتبه المعـــلم بطرس كرامة وسائر الحاشية وسار مودعاً لبنان بدموع الأسف في مركب أُعدّ له حتى أتى مالطة ، فأقام فيها مكرّماً نحو سنة ثم استأذن للإقامة في الآستانة فأذن له فأقام فيها مع اولاده نحو ثلاث سنوات ، ثم ارسل الى الأناضول الى بلدة اسمها زعفر انبول فأقـام فيها سنة ونصف سنة ، ثم أقام في بروسة سنتين منفياً ايضاً ثم عاد الى الآستانة ومات هناك شيخاً هرماً ودُفن في كنيسة الارمن الكاثوليك بغلطة .

اما اولاده فالامير امين اعتنق الديانة الاسلامية بعد مجيئه الآستانة واستأمن فلم يسر مع والده الى المنفى . وأما الامير خليل فبقي مسيحياً حتى توفي في الآستانة .

اما بطرس كرامة فتعين مترجماً في الباب العالي ، وبقي مع ذلك محافظاً على صداقة الامير وتوفي بعده ببضعة اشهر في الآستانة ايضاً .

هكذا كانت نهاية هذه العائلة بعد الحروب الطويلة والمعاناة الشديدة .

صفاته ومناقبه :

كان الامير بشير ربع القامة كثير الشعر حادّ العينين عظيم الهيبة جداً ، ويروى عن هيبته وشدة بأسه وصرامته روايات اشبه بالخرافات منها بالحقائق .

ومما يحكى عنه انه كان لعظم هيبته لا يستطيع احد ان يطيل النظر اليه بغير ان يخافه . وكان جهوري الصوت حتى قد يسقط الرجل خوفاً ورعباً بمجرّد سماع صوته اذا غضب . ولولا ذلك لم يستطع ان يحكم اللبنانيين المعروفين بالشجاعة وشدة البأس وقوة الاجسام والعقول . ومما يحكى عن صرامته ان احد رجاله الذين كان يبثهم في أنحاء لبنان لصيانة الطرق من اللصوص جاءه يوماً قائلاً : « رأيت ايها الامير بالأمس في وادي العليق فتاة منفردة في ظلام الليل غير خائفة ، فعجبت من جسارتها فسألتها عما جرّأها على المسير وحدها في ذلك الوادي المخيف ، فقالت : اني لا أسير وحدي لأن ابا سعدى (تريد الامير بشيراً) سائر معي . فعجبت لجسارتها وتركتها » . فحملق الامير بالرجل حتى كاد يقع صريعاً من الخوف وقال له : « لقد صدقت الفتاة ، ولكن ما الذي جرّأك

انت على مخاطبتها وهي سائرة بنفسها في طريقها ؟ » . وأمر فقبض عليه ويقال انه قتله .

ويروى عنه من أمثال هذه الحكاية شيء كثير تشيب لهوله الاطفال .

ومما يحكى عن هيبته انه لما كان في الاستانة وكان قد زاده الشيب هيبة ووقاراً دعاه الصدر الاعظم لزيارته في مجلس الوكلاء ، فلما حضر وقف له وأكرمه ، فلما خرج عنّف الوكلاء الصدر على وقوفه له فوعدهم انه اذا جاء ثانية لا يقف له . فلما زاره المرة الثانية لم يستطع إلا الوقوف بالرغم منه فسأله الوكلاء بعد خروجه عما حمله على الوقوف وإخلاف وعده قال : « اني وقفت له بالرغم مني لأني حالما رأيته وما هو فيه من الهيبة لم أشعر إلا اني وقفت بغتة » .

وكان اذا جلس في مجلسه لا يجلس إلا جاثياً على طرف مقعد وغدّارته محشوّة الى جانبه .

أما لباسه فكان بسيطاً لا يزيد عن القفطان الحريري والجبة والعمامة وفي آخر ايامه لبس الطربوش كما يشاهد في الصورة .

وكان عفيف النفس قليل النهم في الطعام وكان يدخن في شبق كبير يسع ربع رطل مصري من التبغ ، فاذا أخذ في التدخين يتصاعد الدخان من فيه كدخان الأتون متخللاً شعر شاربيه ولحيته .

وكان قوي البنية شديد البطش . أما آدابه فكانت من العفة على جانب عظيم وكان بعيداً عن مغازلة النساء ورعاً تقياً مثابراً على الفروض الدينية ، حتى أقام كنيسة للصلاة في نفس منزله في بيت الدين ، وقضى حياته طاهراً عفيفاً لم يدنس عرضه ولا شرفه بدنيئة حتى توفاه الله . وقد اوضحنا اخلاق هذا الرجل ومناقبه في روايتنا (المملوك الشارد) .

المهدوية في الاسلام

المشهور بين المسلمين من أوائل الاسلام الى الآن انه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويسندون ذلك الى أحاديث نبوية ، بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتها العلامة ابن خلدون . ومن أوثق الأحاديث المروية من هذا القبيل رواية الترمذي وهي : « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم ابيـه اسم ابي » . ورواية الحاكم وهي : « تملأ الارض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعاً او تسعاً فيملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » . ولم يرد في هاتين الروايتين لفظ المهدي ولكنهم ذكروا احاديث اخرى ورد فيهـا لفظه انتقدها ابن خلدون انتقاداً طويلاً في كلامه عن امر الفاطمي ومـا يذهب اليه الناس الخ ، في مقدمته الشهيرة . فمن اراد الاسهاب فليراجعه هناك .

على ان ذلك لم يقلل شيئاً من اعتقاد الجمهور في مجيء المهدي ، فما انفك المسلمون ينتظرون مجيئه ، فأدى ذلك الى ظهور جماعة كبيرة في ازمان مختلفة ادعى كل منهم انه المهدي المنتظر فالتفّت حوله الاحزاب وأسس بعضهم دولاً عظمى لا يزال ذكرها باقياً الى الآن على ان كثيرين آخرين لم يكادوا يظهرون بدعواهم حتى طوى الزمان ذكرهم لأن الأحوال لم تكن ممهدّة لقبولهم .

على ان بين الشيعة والسنّة خلافـاً من قبيل المهدي وزمن ظهوره ، فأهل الشيعة يعتقدون انه ظهر في اواخر القرن الثالث للهجرة في شخص

ابي القاسم محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر وأنه سيظهر ثانية قبل انقضاء العالم من سرداب في سر من رأى بالعراق . وأما اهل السنّة فيقولون انه لم يظهر بعد ، وتتمة للموضوع نذكر اشهر الذين ادعوا المهدوية من اول الاسلام الى الآن .

١ - محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، ظهر في المدينة سنة ١٥٤ هـ في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين فدعا الناس اليه ، وكان له اخ اسمه ابراهيم نصره وقام بدعوته ، ففتح البصرة والأهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها ، وكان ذلك في زمن الإمام مالك فأفتى له وشدّ أزره فكثرت دعاته حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لو لم يستدرك المنصور امره ويتغلب عليه ويقتله (وترى تفصيل اخباره في الجزء السادس من تاريخ ابن الاثير) .

٢ - عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبَنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر . وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم (وترى تفصيل اخبارهم في الجزء الاول من كتابنا « تاريخ مصر الحديث ») .

٣ - محمد بن عبد الله تومرت المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى ابا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بأبي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم ، واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب وأقام بمراكش وغيرها ، وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل

القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن (وترى تفصيل ذلك في الجزء الثاني من تاريخ ابن خلكان) .

٤ – العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المـاية السابعة للهجرة وادعى المهدوية ، فتكاتف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة وأحرق اسواقها وبعث العمال الى الانحـاء ، لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته .

٥ – السيد احمد ظهر في اوائل القرن التاسع عشر للميلاد في جهات الهند وحارب الأسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ م ولم تقم له قائمة .

٦ – محمـد المهدي السنوسي بن الشيخ محمـد السنوسي الذي ظهر في المغرب في اواسط القرن المذكور وأصـله من جبل سنوس بجزائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ م ولاقى من بعض أولي الأمر الاسلامي ترحاباً نشر دعوته وأيدها ، وكان مقامه الرئيسي في جغبوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ، ولكنه أنشأ زوايا عديدة في اماكن اخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثمائة كلها تعلم طريقته وتعاليمه .

اما زاوية جغبوب (او جربوب) فانها اعظمها كلها تجتمع اليها الطلبة من تونس ومصر والشام ومن بادية الغرب ، وفيهـا كان يقيم الشيخ محمد السنوسي ، وقد وفق هذا الشيخ الى نشر تعاليمه ونفوذه توفيقاً غريباً وانتشرت طريقته بين القبائل المغربية وامتدت الى سلطنة ودّاي ودارفور ونال هناك نفوذاً عظيماً حتى اصبحت تلك السلطنة في قبضة يده . فلما توفي سلطانها سنة ١٨٧٦ م استخاروا السنوسي في مَن يخلفه فاختار لهم سلطاناً اسمه يوسف .

فالسنوسي هذا توفي منذ بضع عشرة سنة ولكنه لمّح قبل وفاته ان المهدي المنتظر سيظهر قريباً ولعله ابنه فاستوضحوه فلم يزدهم إلا كلمة « لا اعلم » على انه انبأهم بأن ظهوره سيكون في ختام القرن الثالث عشر للهجرة (١٨٨٢ م) فالسنوسيون يعتبرون شيخهم المشار اليه مهدياً وقد سموه محمد المهدي وهو رجل عاقل شديد البطش والمشهور من كراماته خيمة سحرية يحملها في حربه يزعمون ان الزاد لا يفرغ منها .

٧ – محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منحى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييد لرغبته في قول الشيعة لأن لفظة درويش فارسية .

سبب ظهور المهدي السوداني وقيامه :

لو بحثنا عن قيام دعاة المهدية المتقدم ذكرهم لرأينا لكل منهم داعياً حمله على القيام وأحوالاً ساعدت في تأييد دعواه . فالأسباب التي دعت الى قيام محمد احمد وساعدت في وقوع دعوته موقع القبول لدى اهل السودان كثيرة نذكر اهمها وهي :

١ – ذكرنا انتظار جمهور المسلمين للمهدي وأهل السودان في جملتهم ولكن السودانيين كانوا ينتظرونه قريباً اعتماداً على قول الشيخ السنوسي كما تقدم .

٢ – من المتداول بين شيوخ اهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى اقوال يروونها عن بعض الائمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » وغير ذلك .

٣ – كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشبوزق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها انواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً وروى المستر فرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم إذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على اهل السودان بلا شفقة فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء واخرى للجابي وأخرى للحكمدار. وكان الزارع اذا زرع حنطة لا يؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة ويدفع سبعة اخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل. فإذا تردد في الدفع سيق الى السجن وإذا صحّ زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا. واذا كان من اصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه اربعة جنيهات عن كل سفينة فإذا لم يرفع العلم المصري على سفينته غرم بأربعة اخرى ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين بإحراق منزله او سلب امتعته. والخلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً إلا أدى عليه ضريبة.

٤ – من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في اصناف معدودة اهمها تجارة الرقيق. والنخاسون او تجار الرقيق اشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات او ألوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده. فالنخاسون عمد السودان وعيون اعيانه وقادة اعماله تهابهم الحكام وتخشى سطوتهم الحكومة. وما زالت تجارتهم رابحة وأعمالهم سائرة حتى قام اهل العالم المتمدن لإبطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انيطت بغوردون باشا فأخذ بالكف عن الاسترقاق جملة. وهي

صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لأن منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخاسين ولكنه عرضهم لاستبداد الجباة لأنهم يؤدون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً او ماشية فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها فاستبد بهم الجباة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم . ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جانبه لم يحدث في ايامه اضطراب فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالماً بمحل الضعف ليتلافى خطره فكأن غوردون اوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفىء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عوناً في اضرام تلك الثورة .

محمد احمد المتمهدي السوداني

هو من قبيلة الدناقلة وُلد في جزيرة اسمها نبت مقابل دنقلا (وقال آخرون في حنك) سنة ١٨٤٨ م ويقال ان نسبه ينتهي الى الشيخ القرفي صاحب كتاب الفروق ، اشتهرت عائلته باصطناع سفن سودانية يُضرب المثل بدقة صنعها ومتانتها ، وكان اسم والده عبد الله ، هاجر الى شندي بأولاده كلهم ومحمد احمد لا يزال طفلاً ، فقضى محمد احمد حداثته في صناعة السفن ولم يكن ميّالاً اليها على انه كان يختلف في أثناء ذلك الى المدرسة فحفظ القرآن وهو في الثانية عشرة . ويقال انهم عهدوا بتربيته وتدريبه في اتقان صناعة السفن الى عمه شريف الدين في جزيرة شبكة بالقرب من سنار ، فاتفق ان عمه هذا ضربه مرّة ففرّ الى الخرطوم وانتظم في سلك طلبة طريقة الفقراء ، وهي من الطرق الشهيرة في السودان ، بمدرسة



محمد احمد المتمهدي السوداني (١٨٤٨ م — ١٨٨٦ م)

خوجلي بالقرب من الخرطوم ، وخوجلي هذا مقام شهير هناك يأمه اهل الخرطوم وضواحيها يتبرّكون به ، فقضى في هذه المدرسة بضع سنين ثم انتقل الى بربر فدخل مدرستها ثم انتقل منهـا الى قرية ارداب وتناول العلم فيها على الشيخ نور الدايم وعنه تناول سرّ طريقة الفقراء سنة ١٨٧١ م

ويقول الامام السيد الميرغني انه أخذها عن القرشي هذا كان عنده فرس لا تلد فقال ان فرسي هـــذه ستلد ويركب نتاجها المهدي فأخذها محمد احمد فولدت عنده .

وكان قوي الذاكرة فحفظ القرآن وشيئاً من الحديث وجاء جزيرة أبا جنوبي الخرطوم وأقام فيها ، وكان حسن الاسلوب لين العريكة فطناً حادّ الذهن فصيحاً قوي الحجة ، اذا خطب أثّر في السامعين فمال الناس اليه وأحبوه ، فكان يذكر ويعظ ويصلي ويظهر التقوى والزهد والاعتزال عن العالم ، والناس يتقاطرون اليه أفواجاً وأكثرهم من قبيلة البقارة المشهورين بالقوة والشدة ، فكانوا يتألفون حوله حلقات يذكرون وينشدون .

وقد قال سلاطين باشا في حداثة هذا المهدي ما يخالف هـذا القول من ذلك قوله انــه وُلد في جزيرة ارقو قرب دنقلة وانه سار الى بربر وانتظم في حلقة محمد الخير ، ثم ذهب الى الخرطوم وانتظم في حلقـة الشيخ محمد الشريف من شيوخ الطريقة السمانية ثم انتقل الى جزيرة أبا ، واتفق ان بعض التلامذة احتفل بختـان اولاده ، فاجتمع في الحفـــلة جماعة كثيرة غنّوا ورقصوا فنهاهم محمد احمد عن ذلك لأن الشريعة لا تجـيزه وان شيخ الشريعة نفسه لا يقـــدر ان يجيزه . فبلغ الشيخ محمد الشريف ذلك فغضب واستحضر محمداً فجاء ذليلا والتمس العفو فلم يعف عنه بل وبخه ومحا اسمه من سجل الطريقة ، فخرج محمد احمد مطروداً ثم عاد وقد ذرّ الرماد على رأسه وجعل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذلل والاستعطاف فانتهره محمد الشريف وطرده وأهانه . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجأ الى شيخ آخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ الشريف منافسة فخاف هذا عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فأبى وكان

لذلك الإباء رنة في آذان اهل السودان وعظم محمد احمد في عيني الناس وانتقل الى جزيرة أبا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبـــة ، وبالغوا في إكرامه نكاية بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم أنحاء السودان ، وهو الى ذلك الحين لم يدع المهدوية .

وكان استبداد جباة الاموال ضارباً أطنابه ، وحال السودان كما تقدم من القلاقل والاضطراب ، فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي أصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قـد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويمـلأ الارض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر . وقـد كان ذلك حديث الناس في سائر أنحـاء السودان ، فحيثما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضنك ومـا ينتظرونه من الفرج على ذلك المنتظر حتى اصبح لفظ (المهدي) يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الأكواخ والأسواق والمساجد والزوايا على الطرق وفي العطمور وحيثما وُجد اثنان او ثلاثة فلا حديث لهم إلا الفرج المنتظر على يد المهدي .

فلما رأى محمد احمد ذلك وآنس من الناس ارتياحاً الى أقواله وإصغاء الى مواعظه ، خطر له ان يكون هو صاحب ذلك الامر على انه لم ينطق به حتى سألوه : ألعلك المهدي المنتظر ؟ فقـال : « اجل انا هو » . فأخذ يبثّ تعاليمه والناس يقدمون اليه ويسلمون له ، فانتشر خـــبره رويداً رويداً من جزيرة ابا على ضفاف النيل حتى وصل الخرطوم وما والاها . فآمن بدعوته قبائل البقارة ورئيسها علي ولد حلو ، ولم يكن ايمان البقارة بـه لمجرد اعتقادهم بمهديته ، ولكن اكثرهم من النخاسين الذين نقموا على

الحكومة لمنع الرقيق . ومكّن هو علاقته معهم بعد ذلك بالتزوج ببنات كثيرين من كبارهم .

وكان في جملة الذين يجتمعون عليه عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الأحجبة وله شأن كبير في قبيلته ، فقال له محمد احمد : انت وزير المهدي ، فقال عبد الله : اني في انتظار مجيئه فإذا كنت إياه اظهر وأنا ناصرك ، فقال : نعم انا هو ، فآمن به فاستوزره فكان هو وقبيلته انصاراً له . واتفق ظهور نجم ذي ذنب سنة ظهوره ، فاعتقد اهل السودان ان ذلك النجم انما هو راية المهدي تحملها الملائكة .

ووصل خبر هـــذه الدعوة الى الخرطوم سنة ١٨٨١ م وحكمدارها رؤوف باشا ، فأنفذ اليه رجلاً من خاصته اسمه ابو السعود ليستقدمه الى الخرطوم ، فسار في اربعة من العلماء على باخرة حتى أتوا جزيرة ابا ، فلما نزلوا الشاطىء نادوا بأعلى اصواتهم : أين المهدي ؟ فجاء محمــد احمد ويداه مخبأتان في ثوبه وجلس على عنقريب (مقعد سوداني) بجانب ابي السعود ، فقال له ابو السعود : « ما هذا الذي قمت به ؟ » فأجابه محمد احمد بلطف ودعة : « انا هو المهدي » . فقال ابو السعود : « ولكن يجب ان تذهب » . فنهض محمد مغضباً ويده على قبضة حسامه وصاح به : « لا ، لا اذهب » . فخاف ابو السعود وترك الرجل للحال وأخذ علمــاءه وعاد بباخرته الى الخرطوم فوصلها ليلاً ، فأيقظ رؤوف باشا وأنبأه بما كان وقال له : اعطني خمسين رجلاً وأنا آتيك بهذا المنافق . فأذن له فسار بهم حتى أتوا الجزيرة فنزلوا اليها وبقي ابو السعود في الباخرة . وبينما هم يفكرون في كيفية الهجوم على المتمهدي هجم رجاله عليهم بغتة وقتلوهم عن آخرهم ، فاشتد ازر المهدي وتمكن اعتقاد اتباعه بدعوته .

على انه ادرك خطر مقـامه بالقرب من مركز الحكومة ، فرأى ان يوغل في السودان ريثما تتكاثر احزابه ، فولى مكانه رجلاً اسمه احمـد المكاشف وغادر ابا قاصداً جبال كردوفان ، وسمى انتقاله هذا « الهجرة » .

وكان في كاوا على النيل الابيض على مسافة خمسين ميلاً من ابا شمالاً قوة عسكرية مصرية مؤلفة من ١٤٠٠ رجل تحت قيادة محمد سعيد باشا ، فاقتصت آثار محمـد احمد فأوغل هو في جنوبي كردوفان فتعقبته شهراً حتى هلكت ولم تدرك منه وطراً . ثم انتقل محمـد احمد الى جبل قدير فحارب رشيد بك حكمدار فشود، وتغلب عليـه في ٩ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٨١ م وكتب الى القبائل يدعوهم الى الاعتقـاد بدعوته والأخذ بناصره .

فلما علم رؤوف باشا بفشل سعيد باشا ورشيد بك هاله امر المتمهدي وأخذ يجمع الجنـد من دنقله وبربر ودار الشايقية ، والثورة آخذة في الانتشار فانضم الى المهـدي عرب الشلك وأصبحت قبائل الكبابيش في شمالي كردوفان والرفاعة في سنار والبشارين بين سواكن وبربر تتردد بين الطاعة والعصيان .

وفي مارس (آذار) سنة ١٨٨٢ م أُقيل رؤوف باشا فقـام مقامه مؤقتاً جيكلر باشا ، فأنفذ يوسف باشا الشلالي لمحاربة المتمهدي ، فجنحت به السفينة عند كاوا فتركه رجاله وفرُّوا ، فلما علم المكاشف بذلك تشدد وخرج برجاله على سنار ومديرها حسين بك شكري ، فدخلها وقتل بعض حاميتها وتجارها فحاصر المدير ورجاله في المديرية ، فبلغ ذلك جيكلر باشا فأنفذ لإنقاذهم صالح بك في خمسمئة جنـدي ، فجاؤوا المدينة ودخلوها ورفعوا الحصار عن المديرية ، فتقهقر الدراويش الى كركوج وراء سنار ،

فخرجت عليهم الجنود المصرية من ابي حراز ومعهم ٥٠٠ مقاتل من عرب الشكرية بقيادة اميرهم عوض الكريم باشا ابي سن فلقيهم العصاة في المسلمية وأرجعوهم على اعقابهم بعد ان قتلوا منهم جمعاً كبيراً . فخرج جيكلر باشا على العصاة بنفسه فغلبهم في ابي حراز وفي موقعة بالقرب من سنار ثم عاد الى الخرطوم . وكان قد وصلها عبد القادر باشا حكمداراً بدلاً من رؤوف باشا (في ١١ مايو (ايار) سنة ١٨٨٢ م) .

وكان الشلالي باشا قد اعدّ حملة في كاوا للخروج على المهدي في جبل قدير فسار بحراً في ستة آلاف مقاتل حتى اتى فشوده في مايو فسار برّاً وأقام مدة على جبل في منتصف المسافة بين فشوده وجبل قدير ثم استأنف المسير في السهول والجبال حتى دنا من العدو في ٧ يونيو (حزيران) وكانوا فئة ضعيفة جائعة ولكن الشلالي استخف بهمته ولم يحسن التحصن فهاجموه بغتة وكسروه شر كسرة وأخذوا كل ما كان معه من المؤن والذخيرة ولم يبقوا إلا على القليل من رجاله وكان ذلك النصر اعظم ما ناله المتمهدي الى ذلك الحين فاتخذ السودانيون نصرة هذا مع قلة رجاله دليلاً على صدق دعوته وكان قد طاف كردوفان قبل ان صرح بدعوته واشتهر بين اهلها بالتقوى والكرامة والغيرة على الدين فجاء نصره هذا مصداقاً لما في اذهانهم فتقاطروا اليه بالمال والرجال من اقاصي كردوفان وعظم امره في عين الحكومة فأخذ عبد القادر باشا في تحصين الخرطوم وفرض لمن يقتل الدراويش جنيهين عن كل درويش و١٨ جنيهاً عن كل امير وبعث الى الدراويش ان يثوبوا الى الطاعة ووعدهم خيراً وأخذ من الجهة الثانية يجمع الجند فاستقدم فرقاً من حاميات القلابات وسنهيت وجيرا وجنّد غيرهم فاجتمع لديه ١٢ الف مقاتل وأمدّ حامية الابيض بألف .

وفي اثناء ذلـــك هجم المكاشف على شات وافتتحها وقتل حاميتها وحاول فتح الدويم فلم يستطع . وكان المهدي لا يزال في جبل قدير لا يبدي حراكاً امـــا قواده فكانوا يسيرون برجالهم يفتحون البلاد في جهات كردوفان فحاربوا الحامية المصرية في اماكن مختلفة وهددوا بارا وكشجيل والبركة وغيرها . ثم سار المهدي برجاله الى الابيض عاصمة كردوفان وفيها محمد سعيد باشا فلما عـــلم بقدوم العصاة جمع جنده من الجهات وحصن المدينة . وفي اوائل سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢ م اصبح المتمهدي برجاله على مقربة من الابيض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الأمر فأقروا على شنق الرسل وأن لا يبعثوا جوابـاً ولكن اهل الابيض كانوا على دعوة المهدي سرّاً وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا اعظم تجـــار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشبوزق وأمـــا جيش المتمهدي فكان جراراً فيـــه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية . وأما سائر قواته فتبلغ ستين الفاً ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الابيض بل بقيت في قدير .

وفي ٨ سبتمبر (ايلول) هجم العصاة على الابيّض فارتدّوا خاسرين وقد غنم الجنـــد المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسها واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وفي جملتهم محمـــد اخو المهدي ويوسف اخو عبد الله التعايشي ، ولم يُقتل من الحامية إلا ٣٠٠ . فعظم ذلك على المتمهدي وأدرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعوّل

من ذلك الحين ان لا يهاجم سوراً وإنما يفتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعمد الى التسليم . ثم جاء العصاة مدد فاشتد ازرهم فشددوا الحصار على الابيِّض وعلى بارا ، وكان في بارا نور عنقره احد أمراء العرب وكان موالياً للحكومة ، ولكنه رأى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سراً انه اذا ارسل اليه اميراً من أكابر امرائه سلم له ، فأرسل اليه ولد النجومي ، فخرج نور عنقره مع محمد الخير وكان يلقب سر سواري اي قائد الخيالة ، وسلما لولد النجومي فقبلها . وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيِّض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها .

وكان المهدي قد ارسل فرقاً من رجاله لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يغتنموا سنة ١٨٨٢ إلا بعضاً من بلادها . وفي أوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا دارا في ٥ يناير (كانون الثاني) واضطرَّت الابيِّض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه ، فدخلت كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال ، وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجاله وبعد أسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سراً الى الخرطوم وأُمر بقتلهم .

وكان عبد القادر باشا قد سار بنفسه وجنده لقمع العصاة في جهات سنار فوشى به بعضهم في مصر فاستقدمته الحكومة اليها على حين غفلة وعينت مكانه علاء الدين باشا وكان قبلاً في مصوَّع وعهدت بقيادة الجند الذي كان في سنار الى حسين باشا وأرسلت حملة جديدة لاسترجاع



طبيب المهدي

كردوفان عهدت بقيادتها الى ضابط انكليزي اسمه الكولونيل هيكس ثم سمي هيكس باشا .

وكان المهدي لما فتح الابيض ودانت له كردوفان وآمن به معظم اهل السودان اخذ ينظم حكومته على غير نظام الحكومة . وأهم أقسام الادارة على أبسط وجوهها ثلاثة : الجند والمال والقضاء . فجعل على الجند خليفته عبد الله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدير حركاتهم . وأنشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة

والزكاة والغرامات التي يضربونها على شارب المسكر او السارق . وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان . أما القضاء فأقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ اوائل ظهوره قد عيَّن خلفاءه وجعلهم اربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر ، اولهم عبد الله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة .

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فأخذ يحثّ الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في أعينهم ويحبّب الآخرة اليهم وهم يفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والجبة فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحثّ بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ، ومن أمثلة ذلك منشور نشره من الابيض سنة ١٣٠١ هـ وقعت لنا نسخة منه ننشرها مثالاً لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاتها اللغوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله إعلاماً منه الى كافة المشائخ في الدين والأمراء والنواب والمقاديم اتباع

المذكورين . يا عباد الله اسمعوا ما اقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصّكم بها وهو ظهورنا ، فهو شرف لكم على سائر الأمم ولكن المطلوب منكم يا احبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فإلى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها وانظروا في اهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ان كانت عسلاً حنظلاً وسماً وصاروا في غاية العذاب والهلاك بعده وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا وإلا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا في سبيل الله فلهزّة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة الله سبعين سنة ووقفة في الجهاد قدر فواق ناقة ، يعني حلبة ناقة ، افضل من عبادة سبعين سنة . وعلى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها أرب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها والشبابة فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولا يتبرجنْ تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن إلا لحاجة شرعية ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال اصواتهن إلا من وراء حجاب ويقمن الصلاة ويطعن ازواجهن ويسترن بثيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لأخيه يا كلب او يا خنزير او يا يهودي او يا ... او يا م... فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن قال يا فاجر او يا سارق او يا زاني او يا خائن او يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً او يا كافر او يا نصراني او يا لوطي فعليه ثمانون سوطاً ويحبس سبعة ايام . ومن تكلم مع اجنبية وليس بعاقد عليها ولا لأمر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن حلف بطلاق او حرام يؤدب سبعة وعشرين

سوطاً ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بأنفه ومن ابقاها في فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمرة ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وإن لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء او أناء فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة اشد من الجهاد بالأرماح لأن النفس اشد من الكافر مقاتلة فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله ورسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد فان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وقيل اموالهم غنيمة . وبنت خمس سنين ان لم يسترها اهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج بغير عقد وصبر يوماً قيل يقتل وقيل يحبس وماله غنيمة . واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وإمارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لأجل ان تشفقوا على الخلق وتزهدوهم في الدنيا ليتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها ويطلبوها وتعلّموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من انفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل فأمروهم فيه بالصبر لغاية طلب الأمراء وجمعهم عندنا ويصير تخبيره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه . واعلموا ايها الأحباب ان القضايا التي كانت من اثني عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ ببقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الأمانة والدين ومال اليتيم وأما التي بعد الاثني عشر

رجب الماضي وقبل الفتوح تسمع فيه الدعاوي وأمـا قتل النفس ففيه تفصيل في كونه مخيّر ولي المقتول في اخذ الدية او القصاص وأمـا بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المنشور وكذلك مال الخلع اخذه عموماً من الازواج بعـد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح اخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعـالى في القرآن العظيم واعلموا يا احبابي ولا تخالفوا وامتثلوا الأمر وكونوا سامعين طـائعين لأمري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي مَنَّ إلا عليكم بها فقيدوها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي او انقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي او انقص ومن خالف هذا فعليه الأدب بالضرب والحبس في السجن حتى يتوب او يموت في سجنه ومقطوع من اهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام .

(الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها ، فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نيـة او تخطو الجنود المصرية خطوة إلا ويعلم بها هو . وأرسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوته في انحاء السودان ، فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي يتولى قيـادة العصاة هناك وأرفقه بالمنشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له ، وكان عثمان دقنة هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً على الحكومة .

حملة هيكس باشا :

هـذه هي الحملة التي زادت الويلات على مصر ، وكان من امر فشلها وهلاكها مـا هو أشهر من نار على علم ، فيجدر بنا بسط واقعتها وسبب



هيكس باشا

هلاكها وكيفيته لأن الناس ما زالوا حتى الآن يعجبون لهلاك تلك الحملة وذهابها ادراج الرياح وعدد رجالها احد عشر الفاً او تزيد معظمهم من الجنود المنظمة .

جاء هيكس باشا في بادىء الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمّم على فتح الابيض فأقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك ، فخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مرابية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من

قواده ورجاله وفرّ الباقون ، وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في إرجاع ثقة أهالي سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها .

فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهرة انه لا يتحمل تبعة هذه الحملة إلا اذا كانت القيادة اليه وحده فسلمت له بذلك ولكنها أرسلت معه علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال ، وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر اربعة آلاف جمل ، وفي اواخر اغسطس تمت كل معدات الحملة من ام درمان .

وفي ٨ سبتمبر (ايلول) استعرض هيكس باشا جنوده ، وفي ٩ منه خرجت الحملة من ام درمان قاصدة الدويم وبينها مئـة وعشرة اميال . وكانت تلك الحملة مؤلفة من اربع ارط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية ، وخمس ارط سودانية وارطة من الطبجية والخيالة ، وكانت الجنود المصرية تحت قيـادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق ، والباشبوزق بقيادة خير الدين بك وعبـد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيى بك ، والطوبجية والسواري بقيادة عبـاس بك وهبي . وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر الفاً منهم سبعة آلاف من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم ، وفيها ٥٥٠٠ جمل و ٥٠٠ فرس واربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت ، وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك .

وفي ٢٠ سبتمبر (ايلول) وصلت الحملة الى الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا . اما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة أنبأ الحكومة بخروج الحملة وبيّن الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه ، وكان في عزمه ان مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق باره وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثنائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم ، فيفتح اولاً باره يقيم فيها مدة ثم يخرج على الابيض .

فلما جاء الدويم وانضمّ الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر ، فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسّوا الارض فقالوا ان طريق باره قليلة المياه وان أحسن طريق للابيض بمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو حبل والرهد الى الجنوب فان الماء كثير فيها ، وعلى الرغم من ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير ، إلا ان المسافة بين الدويم ونورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه ، فأقنعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناء على ذلك قرّر ان تسير الحملة عن طريق خور ابو حبل ، فوصلوا في ٢٤ سبتمبر (ايلول) الى شات واستولوا على آبارها وأنشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدّرون العواقب الوخيمة وينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهّب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام وأركان الحرب ، ثم المربع وهو مؤلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والأثقال وفي وسط المربع الطوبجية ، وقد شبّه سلاتين باشا ذلك المربع بغابة من الرؤوس والأعناق اذا أطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها .

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المرعى بالنظر الى انحصارها في المربع ، فجاعت وأكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر (ايلول) وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقة .

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف من سوء العاقبة ، ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين سببه اختلافهما في الرأي بشأن خطة المسير ، فرأى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لأنها تقلل عدد الجند ، فخالفه هيكس في ذلك لأن قطع ذلك الخط يقطع كل أمل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا ُقدّر انكسارها في ساحة الحرب ، على انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات .

اما محمد احمد فحالما علم بسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وأمراؤه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والتكول (نوع من العشش) .

أما الحملة فما زالت سائرة تسحف سحفاً كأنها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت عقيلة (الجلا) في ١١ اكتوبر (تشرين الاول) ، وفي ١٤ منه وصلت بحيرة شركلا فتناولت شيئاً من مائها وهي لم تزدد إلا يأساً وخوفاً . وكانت الحكومة المصرية قد أنبأت هيكس باشا قبل خروجه من الدويم ان ستة آلاف من اهل جبل تاج الله وبعض الجبانية سينضمون اليه فكان ينتظر وصولهم بفروغ صبر فذهب انتظاره عبثاً . وقبل ان تصل الحملة بحيرة الرهد بقليل فرّ منها رجل الماني اسمه كلوتس من صف الضابطان



الافيال في صحاري السودان

والتجأ الى العصاة ولكنه لم يكن يعرف الطريق فلقيه بعض الدراويش فأرادوا قتله فأشار اليهم انه جاء بمهمة فأرسلوه الى الابيض فوقف بين يدي المهدي وأخبره عن الضيق المحدق بالحملة ومـــا هي فيه من اليأس فكانت خيانته هذه مساعداً كبيراً على هلاك حملة هيكس فسرّ المتمهدي سروراً لا مزيد عليه وأسلم كلوتس هذا وسمي مصطفى . وبعث المهدي الى هيكس ورجاله ينصح لهم ان يسلموا اليه ويؤمنوا بمهدويته فلم ينل منهم جواباً فضلاً عن احتقارهم كتبه واستخدام اوراقها في سبل هاجت غضب المتمهدي .

ووصلت الحمـلة الى الرهد في ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول) فأقامت هناك ٦ ايام شاهدت في أثنائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها وفي ٢٦ اكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلته العصاة ،

فعلم علاء الدين إذ ذاك خطأه في إهمال خط الاتصال ، وقــد أصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهـات . وكان في عزمهم المسير الى الابيض عن طريق البركة ، ولكن الجواسيس أخبروا هيكس ان العصاة نزلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي وأمراؤه بعدتهم ورجالهم ، فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسيرون الى كشجيل ومنهـا الى ملبيس فالابيض ، لأن خور ابو حبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احداهما الى البركة والاخرى الى كشجيل ، فأقرّ الرأي على المسير الى كشجيل ، فساروا في ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) عشرة اميال بين الغابات والاحراج وقد أخطأوا الطريق ، ثم وقفوا وأنشأوا زريبة باتوا فيها الى الصباح ، فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقــد أجهدهم العطش فهجم عليهم شرذمة من العصاة فتبادلوا إطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة عظيمة ، فجمع هيكس باشا كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يقرّوا على امر وكثر اللغط بين الجند وتسلّط الرعب على قلوبهم وأيقنوا بالهلاك . وفي الصباح التـالي عوّل هيكس على المسير تحت رحمة الله ، فجعل جيشه ثلاثة مربعات وسار في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش موقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار ايضاً فلم يمض ميلاً حتى هاجموه ثانية في شيكان . وقــد رأينا في منشور أرسله المتمهدي الى عثمان دقنة يخبره بتلك الواقعة ويسمي مكان وقوعها علوية ، وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذر ، لأن الدراويش هاجموها من كل جانب ، حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده ولم ينج منهم إلا نحو ثلاثمائة رجل أكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين

الشجر او تحت جثث القتلى ، وفي جملتهم رجل اسمه محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس باشا ، وهو الذي روى أكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة .

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة ،وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الأسلاب والغنائم الى بيت المال ، وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الابيض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبوها من حملة هيكس وكان دخوله الابيض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت أخمصه ، لأن كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا ، فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من أعوانه .

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين حكمداراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمرّدهم وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس فلما علم بفشلها لم يرَ بدأً من التسليم ، فبعث الى المهدي بذلك وأن ينفذ اليه بعض أقاربه ليسلم البلاد له ، فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور وأوصاه بسلاتين خيراً ، فوصلت الدراويش دارا ونهبوها وأرسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيض وبايع المهدي وأظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر . وهاك نص إيمان البيعة كما رواه سلاتين باشا « بسم الله الرحمن الرحيم بايعنا الله ورسوله على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصاك في معروف بايعناك على ترك الدنيا والآخرة ولا نفرُّ من الجهاد » ويظهر ان فيه تحريفاً عن الاصل إذ لا يعقل ان يبايعوه على ترك الدنيا والآخرة معاً وهم إنما



سلاتين باشا

يرغبون في دعوته طمعاً في الآخرة فكيف يبايعونه على تركها . والظاهر ان الاصل « ترك الدنيا والتماس الآخرة » وأقـام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين .

السودان الشرقي :

وفيما كان هيكس يتجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر القدر المقدور وكان عثمان دقنه ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة . وقد حدثنا صديق فاضل رافق تلك الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : ان توفيق بك محافظ سواكن إذ ذاك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بـــين

سواكن وكسلا تصرفاً اوجب نفورهم وذلك انه ولى عليهم شيخاً اسمه محمد الأمين ليكون مسؤولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه فأبى الا توليته فغضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار واتفق مجيء عثمان دقنه بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم فسار لمناواة الحكومة في سواكن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ م ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فأرسلت الحكومة محمود طاها باشا قائد حامية السودان الشرقي لإنقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة. وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت مواقع كثيرة في تمانيب وترنكتات وغيرهما فلم تعد منهم بطائل. وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فأعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ م حملت تحت قيادة باكر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بين سواكن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها نجدة من مصوع وكسلا فلاقاها العصاة في التب بغتة في ٢ فبراير (شباط) فحاربوها ففشلت وعادت بخفي حنين. كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سواكن المتقدم ذكره وكان رجلاً باسلاً شهماً اظهر في حصاره شجاعة لم تعهد إلا بالقليل من الناس وقد جاء سنكات عرضاً وانحصر فيها وسنكات قرية صغيرة لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنه السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعاً فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فأبى إلا البقاء على ولاء الحكومة فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وإن الأمل بإنقاذه قد انقطع فلم يجبه إلا بالثبات ولما رأى توفيق بك اخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت وأهل

البلد ملت جمع اليه رجاله وأهل سنكات وشاورهم في الأمر وحثهم على الثبات على ولاء الحكومة فقالوا نحن على ما تريد فقال إذ قد نفذ زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقلين فإما ان نسير الى سواكن وإما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت .

فخرجوا في اوائل فبراير (شباط) سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي وأخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنه برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله وأهل القرية إلا نفر قليلون .

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتمهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة امره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبح جماح العصاة واسترجاع ما ملكوه من بلادها أقرّت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتها وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش وأصدرت بذلك امراً بتاريخ ٨ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٤ وأنفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في افضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الأحمر وغير ذلك . فسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم اسراره فوصل القاهرة فانبأه السير افلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليه اخلاء السودان وإعادة حكم الأمراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا ويقال لهم الملوك او ان يولي غيرهم كما يتراءى له .

فسار غوردون عن طريق كروسكو وأبي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير



غوردون باشا

(شباط) سنة ١٨٨٤ م وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاه اهلها بالإكرام وكان السودانيون يحبونه ويكرمونه للين جانبه وكرم اخلاقه . ومن الغريب ان يسير غوردون بنفسه بلا جيش الى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند وصوله الخرطوم فقال : « لم آت لإنقاذ السودان بجيش ولكني اتكلت على الله فلا احارب إلا بسلاح العدل » .

سقوط الخرطوم ومقتل غوردون :

سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٤ م ومعه مساعده الكولونيل ستيوارت قاصدين الخرطوم في عطمور ابي حمد فبربر فالخرطوم ومعهم اوامر عالية تنحصر خلاصتها في ما يأتي :

١ - ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم وأموالهم من سائر انحاء السودان الى مصر . ٢ - ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدبّر شؤونهم بحكمته كأنـه يؤسس دولة جديدة . ٣ - ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل الهدندوة في السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا . ٤ - ان ينقذ سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الازرق والأبيض (الجزيرة) . ٥ - أن يرسل خمس بواخر لنقل عائـلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء وبحر الغزال . ٦ - ان يدبّر طريقة لمن بقي في دارفور ان ينسحبوا الى مصر عن طريق دنقلا.

هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها إخلاء السودان . فلمـا وصل بربر اراد ان يتلوها على اهلها فمنعه حسين باشا خليفة مدير بربر لأن التصريح بذلك يعجل على بقية نفوذ الحكومة فأطاعه ، ولكنه تلاهـا في المتمة فكانت داعياً الى سرعة سقوط بربر بعد ذلك . وأمـا غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير (شباط) كما تقدم ، وفي يوم وصوله جمع اعيان الخرطوم كافة في بنـاية المديرية وأفهمهم مهمته ، ثم خرج الى سراي الحكمدارية فلاقاه مئـات من الناس وترامو على يديه ورجليه يقبّلونها وهم يقولون : « يا سلطاننا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم أخذ غوردون وستيوارت في تدبير شؤون الاحكام فأنشأوا اقلامـاً مختلفة في

الحكمدارية للنظر في قضايا الناس وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فأخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذممات مطلوبة من اصحاب الاطيان خراجاً عن اطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية وأوقد فيها النار ولما اتقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الكرابيج والعصي وسائر ادوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحكمداريون قبلاً وألقاها في ذلك اللهيب وأهل الخرطوم ينظرون ، فكان لذلك تأثير حسن في اذهانهم ، ثم أنشأ مجلساً وطنياً مؤلفاً من اعيان المدينة ، وبعد قليل زار الترسانة والمستشفى ، وأخيراً ذهب لتمهد السجن ومعه ستيوارت وكوتلجن والمستر بوار قنصل انكلترا هناك ، فرأى فيه حوادث تتفتت لها الاكباد ، فضلاً عن القذارة ، وشاهد بين المسجونين اولاداً وشيوخاً بعضهم قد ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن ، وآخرون سجنوا لتهمة فقضوا ثلاث سنين في السجن قبل ان تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امرأة قضت خمس عشرة سنة مسجونة لذنب اقترفته في صباها ، فأمر غوردون بإخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن ، فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحداناً وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره . وقضى اهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فأضاءوا الانوار الملونة وأوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين .

وأراد غوردون ان يمكّن محبته من قلوب اهل السودان فخفف الضرائب وأنصف المظلومين وأبطل كثيراً من العوائد ، ثم أصدر منشوراً يلغي فيه كل الاوامر الصادرة بشأن الغاء تجارة الرقيق ، وهاك مفاد المنشور :

منشور الى كافة اهل السودان :

اعلموا ان راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني اعلم ان إبطال تجارة الرقيق قد ساءكم وهالكم ما وضعته الحكومة من القصاص على من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماساً لراحتكم ان ابطل كل تلك الاوامر وامنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم والسلام لكم .

الخرطوم — غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق لهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه على ضعف الحكومة وأنها انما اصدرته بالرغم منها لأنها لم تقوَ على تنفيذ اوامرها في إبطال تلك التجارة . ثم حوّل نظره الى امر المهدي فأرسل اليه في الابيّض كتاباً يطلب فيه اطلاق الأسرى ويوليه كردوفان وأرفق الكتاب بخلعة نفيسة ، فردَّ محمد احمد الخلعة وبعث الى غوردون ان يسلّم فيسلم وأن المهدي لم يقم بدعوته طمعاً في الولاية .

وكان غوردون باشا في اثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر امر مهمته هذه ، فرأى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها تعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويزحف الدراويش الى حدود مصر ، فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليه الزبير رحمت باشا حالاً ، وكان الزبير باشا من اكابر تجار الرقيق في دارفور وبحر الغزال وعاضد الحكومة وفتح لها دارفور ثم جاء مصر قبل الحوادث السودانية ليشكرها على رتبة انعمت بها عليه فلم تأذن له بالعودة الى بلاده ، فظن غوردون باشا انه اذا أخلى السودان ودبر حكومته جعل الزبير باشا خلفاً له عليه خوفاً من استفحال امر

المهدي وخروجه على مصر فأبت الحكومة ارسال الزبير ، فشق ذلك عليه كثيراً .

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه ، فأصدر منشوراً يتوعّد الثائرين بعذاب أليم وينصح لهم ان يثوبوا الى طاعة الحكومة وبعث الى مصر يقول : « اذا شئتم ان تتخلص مصر من عذاب دائم ارسلوا جنداً لمقاتلة المهدي وسحق قواته وهو امر ميسور لكم الآن ، اما اذا دخلت الخرطوم في حوزته فيصعب عليكم قهره ، على انكم ستضطرون الى ذلك إن عاجلاً وإن آجلاً التماساً لسكينة القطر المصري ، وسيكون ذلك شاقاً كثيراً بعد الآن » .

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالمة القبائل القاطنة على النيل الابيض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعُدَ عن الخرطوم ازداد نفور الناس عنه حتى صاروا يعترضون مسيره ويحاربونه وأكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسراً ، فأرسله غوردون ثانية في ٢ مارس (آذار) سنة ٨٤ بمنشورات اخرى فعاد بخفي حنين . وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدقت بها من كل الجهات . وفي اثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فجاء جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرّد غوردون في ١٦ مارس (آذار) عليهم الفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية ، فماطلهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقرى الى الخرطوم وقد قُتل منهم جمع كبير ، ففشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة وأكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من اهل السودان ، فحكم عليهم بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت أعضاؤهما .

وفي ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٤ م وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وإرساله اسيراً الى الابيض وتولى بربر امير من أمراء الدراويش اسمه محمد الخير . وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لأنها كانت واسطة الاتصال بينها وبين مصر . فأدرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقيناً ان انفاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلا بد من استعمال قوة الجند ، فطلب الى حكومته إرسال حملة لمساعدته فترددت انكلترا طويلاً قبل الاقرار على الحملة ، على انها اقرّت في مايو (ايار) على وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان إلا في سبتمبر (ايلول) ، فتذمّر اهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي جملتهم كل الاجانب المقيمين هناك ، فقال لهم : مَن أراد الذهاب فليذهب اما انا فلا استطيع الخروج إلا بعد انقاذ الحامية والناس او ان أموت معهم . ولكنه أشار على ستيوارت ان يسير الى مصر بمن أراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه إيصال تقاريره اليومية عن احوال الخرطوم من اول مارس (آذار) الى ٩ سبتمبر (ايلول) وهو يوم سفر ستيوارت . وظنّ غوردون ان ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لإنقاذه ، فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر فضربها ومرّ بها فعادت الباخرتان وجرت باخرته ، حتى اذا تجاوزت ابا حمد الى واد قمر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فنزل مَن فيها فلقيهم الدراويش وقتلوهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي . كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض هممهم وينذرهم بالخطر القريب ، فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومَن معه قبل خروج الحملة . على ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم إلا في ٢٨ يناير (كانون الثاني) سنة ٨٥ اي بعد سقوطها ومقتل غوردون بيومين .

فلننظر في حركات الدراويش واجراءاتهم في اثنـاء حصار الخرطوم من معسكرهم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » ، ومـــا حكاه غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها .

تركنا المتمهدي وقـد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجاله ... فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورهما ، ثم علم ما كان من امر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنة في سنكات وتمانيب والتب وحصار كسلا ، وكان قد ولى صهره ولد البصير على الجزيرة مـــا بين النيلين الازرق والابيض فبلغه انه حارب الجنود المصرية هناك وغلبها ، وعلم في اثناء ذلك ان غوردون باشا جاء الخرطوم بلا جند ثم وصله كتابه يطلب اليه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان فلم يعبأ به وأجابه بلهجة شديدة كما قدمنا .

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وإبلهم وخيلهم حول الابيض فقلّت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فأشار بالانتقال الى الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالاً ونساء وأولاداً في اواسط افريل (نيسان) سنة ١٨٨٤ بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم وأقـاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحثّ على الجهاد ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على اهل الجزيرة فبعث محمد أبا جرجا اميراً عليها في عـــدد عظيم من الدراويش على ان يمد اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم مواقع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رأيت . وأرسل المهدي

الشيخ محمد الخير اميراً على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وأرسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان فالتقى بسلاتين باشا وتشاطرا مصيبة الأسر . أما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية ليجسوه فحاربهم وفرّق جمعهم ، وكان الماجور كتشنر (اللورد كتشنر باشا) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور وأحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش .

وخلاصة الامر ان حجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » ، وكان الى ذلك الحين مقيماً في الرهد فكتب اليه امراؤه من أنحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض ، فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة أعدائه والاعتداد بقوته ، ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره هو بنفسه يسمونه (عرضة) ، والجيش إذ ذاك ثلاثة أقسام يرأس كل منها خليفة من خلفائه ، ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب (رئيس الجيش) وفرقته تسمى (الراية الزرقاء) ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي ، وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى (الراية الخضراء) ، وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى (الراية الحمراء) او (راية الشرفاء) . وتحت قيادة كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش .

وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الزرقاء براياتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف امراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف

الاول وجهاً لوجه ويقف امراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً ينقصه ضلع كأنه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمرّ بجانب الصفوف يحييها قائلاً : « الله يبارك فيكم » .

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد أوحى اليه في الرؤيا (الحضرة) ان ينزل لمحاصرة الخرطوم ، فبعث الى ابي عنقر وكان قد أرسله في مهمة الى جبل الدير وأوعز الى كل امير ان يجمع رجاله للخروج على الخرطوم ، فلما تكامل الجمع زحف المهدي برجاله من الرهد في ٢٢ اغسطس (آب) سنة ١٨٨٤ في ثلاث فرق سارت كل منها في طريق ، أعظمها الفرقة التي فيها المهدي وخلفاؤه ، فهذه سارت على طريق حملة هيكس السيئة الحظ أي من الرهد فشركلا فالدويم ، وكان في هذه الفرقة سلاتين باشا بمعية التعايشي ، فلما وصلوا شركلا جاءهم غريب أمسكوه اسيراً فوقف بين يدي التعايشي وسلاتين يترجم بينهما فاذا هو فرنساوي واسمه أوليفيه باين قال انـه جاء من قبل دولة فرنسا يعرض مساعدتها على المهدي ليقهر الانكليز ، فأبقاه التعايشي في جملة الاسرى ريثما يقيمون فينظر في امره ، ولكن الرجل مرض من سوء المعاملة واشتدّت عليه الحمى فمات في أثناء الطريق قبل ان تصل الحملة الى الخرطوم .

أما الحملة فوصلت جوار الخرطوم في اواسط اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٨٨٤ م فعسكرت على مسافة يوم منهـا ، وهناك بعث المهدي الى سلاتـين وأمره ان يكتب الى غوردون يدعوه الى التسليم ويقول له ان المهدي حقٌ وإن عبد القادر (يعني سلاتين) نفسه يكون اول المحامين له فاستأذن سلاتين المهدي قائلاً : « أخاف اذا كتبت اليه ذلك ان يستغشني فأرى ان انصح له بالتسليم للامام المهدي لأن جنوده مظفرة لا تقوى

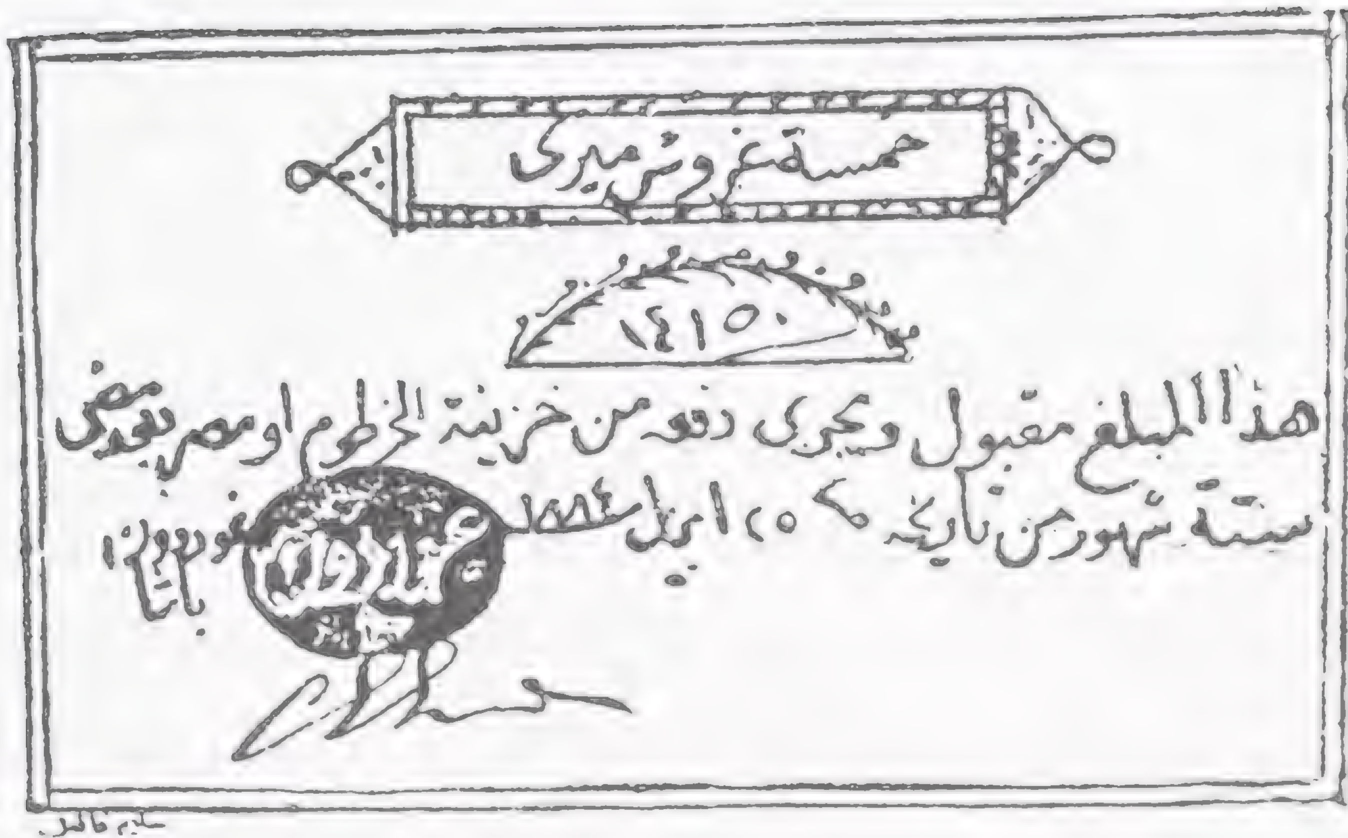
جنود الخرطوم عليها وأن اتوسط في امر تسليمه اليكم » فاستحسن المهدي الرأي فذهب سلاتين الى خيمته وهو لا يصدق انه سيكتب الى غوردون فكتب اليه كتاباً طويلاً عريضاً بالنمساوية (لأنــــه لا يعرف الانكليزية جيداً) شرح فيه حكاية تسليمه دارفور والأحوال التي قضت عليه بذلك وقــال له ان الاسرى المقيمين مع المهدي هم على ولاء الحكومة يسلمون لها ويضربون بسيفها حالما يتاح لهم ذلك وأوعز اليه ان يخبره عن حاله بالخرطوم وأن يكتب اليه كتاباً في العربية يطلب فيــــه مقابلته في ام درمان للنظر في شروط التسليم . وكتب كتاباً آخر الى هنزل قنصل النمسا بمثل هذا المعنى وجاء بالكتابين الى المهدي فأمره ان يرسلهما مع احد خدمه الى ام درمان ولم يكد يسير الرسول حتى جــاء خيالة من بربر ينبئون المهدي بمصاب ستيوارت ومن كان معه وجاؤوا بالاسلاب وفيها كثير من الاوراق فبعث المهدي الى سلاتين ليخبره بمــا في تلك الكتب فقلب فيها وقال انها كتب خصوصية ارسلها بعض اهل الخرطوم الى اهلهم في مصر وغيرها ورأى تقارير غوردون نفسها وعرف خطه فتأسف اسفاً لا مزيد عليه ولكنه اظهر الجلد فقال له المهدي : « اكتب الآن الى عمك (يريد غوردون) ان مركبه قــــد كسر ورجاله قتلوا وأرسل اليه هذا التقرير تأييداً لذلــك فأظنه اذا تحقق الأمر اسرع الى التسليم » فكتب سلاتين اليه وإلى القنصل كتابين آخرين وأرسلهما مع خادمه الى ام درمان .

وكان في مكان ام درمان إذ ذاك طابية من طوابي الخرطوم اسمها « طابية ام درمان » او « طابية رجب بــك » فعاد الخادم من عند القنصل هنزل بجواب مقتضب لم يشف غليلاً فارتاب المهدي بنية سلاتين فأمر بتقييده فاثقلوه بالحديد وحجزوا عليه في خيمة منفردة .

وبعد قليل زحف المهدي برجاله وأحمالهم وأثقالهم ودوابهم فضربوا نقارتهم وساروا حتى اشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي وسار الأمراء الآخرون يبحثون عن مكان آخر يعسكرون فيه . ثم امر المهدي ان يحدق جنده بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فأمر ابا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالهما من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمه كلاكلا وأمر أبا عنقر (او ابو عنقه) وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي ومـــا زالوا محاصرين تلك الطابية حـتى فتحوها في ١٥ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٥ م وهي اول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المضوّي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازماً ان يشدّد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيض وإن رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفاً . فربما كانت قوة الدراويش كلها هناك ستين الفاً او سبعين وأكثر .

فلنعد الى الخرطوم ولنشرح حالهـا اثناء الحصار . قلنا ان غوردون وصل الخرطوم في ١٨ فبراير (شباط) سنة ١٨٨٤م ولكنه لم يقض فيها شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى وقد شاهدنا كثيراً منها عند وصولنا المتمة سنة ١٨٨٥ م .

على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهل الخرطوم ونزلائها فإنهم مـا انفكوا يشعرون بالضغط يومـاً بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقاً حتى اصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقلّ زادهم او نفد وجاءوا وغوردون يصبّرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقـاذهم ولكنها تأخرت



نقود غوردون التي اصطنعها في الخرطوم عندما فقدت النقود من خزينتها

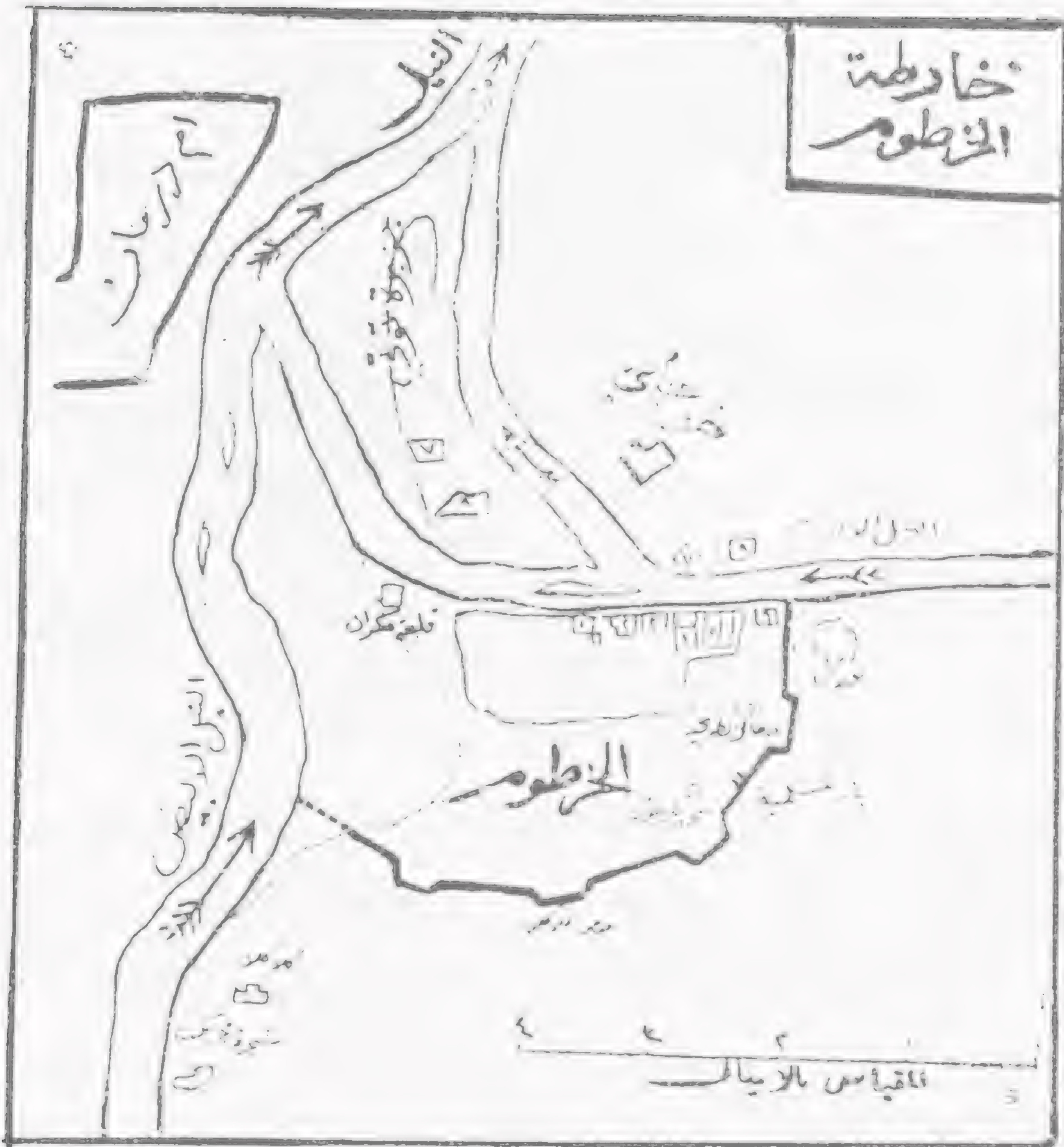
كثيراً ، فملّ النـــاس الانتظار واشتدّ الجوع حتى اكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجـذور الذرة ، كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم كادوا يسيئون الظن به اخيراً .

أمـا الحملة الانـكليزية التي اقروا على ارسالها لإنقاذ غوردون فبرحت مصر في اوائل الخريف وعدد رجالها ستة آلاف من نخبة الجند الانـكليزي، وأكثر قوادها من الاشراف ، فقد تسابق الانـكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم انها عبارة عن (فسحة) على النيل فلم يصل من رجالها الى كورتي إلا بعضهم وتفرّق الباقون في نقط خط الاتصال ، ومن كورتي سارت حملة في عطمور صحراء بيوضة الى المتمة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد بها سرعة الوصول الى الخرطوم ، وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرال ارل . وكنا ممن سار برفقة حملة العطمور فشهدنا دقائقها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها ، وترى تفصيل

ذلك في كتابينا « تاريخ مصر الحديث » و « رواية أسير المتمهدي » فقطعت الحملة جكدول الى ابي طليح فلاقاها العرب على تلك الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المتمة ، وهناك حصلت واقعة اخرى انهزم بهـا الدراويش ايضاً وعادوا على اعقابهم . وقبيل هذه الواقعة أصيب الجنرال ستيوارت برصاصة في أحشائه وأحيلت القيادة الى السير شارلس ولسن فنزلت الجنود الانكليزية على ضفاف النيل في مساء ١٨ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٥ م بعد ان قضت ١٣ يوماً في الصحراء واسم مكان الواقعة ابو كرو ، ونزل الجند بعـد الواقعة في مكان اسمه القبة ، والافرنج حرفوه فجعلوه (جوبات) .

وكان غوردون قد أنفذ اليهم اربع بواخر كانت في ميـاه الخرطوم ليستعينوا بها في الوصول اليه وبعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا الينـا في بضعة ايام ذهبنا هباءً منثوراً . وقد علم السير شارلس بذلك في ٢١ يناير (كانون الثاني) وكان يجب ان يبادر حالاً الى الخرطوم بدلاً من ان يقضي اربعة ايام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم إلا في ٢٨ منه وكانت قـــد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه ، فعاد السير شارلس كاسف البـال ، ولم يصل المتمة إلا بعـد شقّ الأنفس لأن باخرتيه انكسرتا وأصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا .

اما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي : من تأمل هـــذه الخارطة علم ان الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية ، فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع ووراؤه من الخارج خندق عميق والجند قائمون على السور ليلاً ونهاراً ، وترى بين بنايات الخرطوم وحولها ارضاً لا بناء فيها .



دلالات الارقام في خريطة الخرطوم

١ - الحكمدارية ، ٢ - السراي، ٣ - حواصل الحنطة، ٤ - الترسخانة، ٥ - القشلاق، ٦ - طابية بوري، ٧ - مخازن البارود، ٨ - قرية توتي، ٩ - الطابية البحرية ، ١٠ - السراي الشرقية

وقد ذكرنا ان المهدي حاصر الخرطوم وشدّد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع ، فلم تمض مدة حتى أنبأه جواسيسه ان حملة الانكليز قادمة لإنقاذ الخرطوم وغوردون ، فبعث اليها جنداً لاقاها في ابي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وأبي صافية ، فعادت خاسرة ، فأرسل جنداً آخر الى ابي كرو بقيادة نور عنقرة فانكسر ايضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر

انكسار رجاله أراد التمويه على أتباعه فأمر باطلاق مئة قنبلة وقنبلة ، وهي إشارة النصر عندهم ، فاطمأن الدراويش ، ولكن محمد احمد جمع امراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءته (أي رأى رؤيا روحية) فأوحت اليه ان يهاجر الى الابيض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً : « ان الهجرة ميسورة لنا كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم اولاً فاذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على أخذها منا » . فاستحسن المهدي رأيه وصبر بضعة ايام وهو يستقصي اخبار الانكليز وحركاتهم ، وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخرتين من المتمة فأقرّ الرأي على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث المهدي الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله جعل ارواح اهل الخرطوم كلها في قبضته .

وفي مساء ذلك اليوم (٢٥ منه) قطع المهدي النيل الابيض من ام درمان وكل من أراد الجهاد معه ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وتلا هناك خطاباً حثّ رجاله فيه على الجهاد وأوصاهم ان لا يقتلوا غوردون باشا ويقول سلاتين باشا ان غرضه من ذلك بقاء غوردون اسيراً حتى يفتدي به احمد عرابي المنفي في سيلان ، فلما أتمّ خطبته عاد ببطانته الى ام درمان .

وفي الصباح التالي (٢٦ منه) الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلاكلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمه من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدّم

بعضه مما يلي النيل لمجاورته ارضاً يغمرها ماء النيل في فيضانه (ترى حدودها في الخارطة منقطة) وكان الماء قد انحسر عنه اذ ذاك وتهدم بعضه فتكوَّنت فيه ثغور دللنا عليها بتقطيع السور هناك الى نقط . فعوَّل الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور ، على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض .

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صياح الحرب قائلين : « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فأطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا على باب المسلمية فما انتبه إلا وقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم ، فانهال الدراويش على المدينة كالصواعق وهم ينادون : « للكنيسة .. للسراي » وأمعنوا في الاهالي المساكين قتلاً ونهباً لم يبقوا ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ، ولم يكد يغمض جفنه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراي وأشرف على الأسوار فرأى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة ، فلبس ثيابه وتقلَّد سلاحه وهمَّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش عند أعلى السلّم ، فسأل اولهم قائلا : « أين سيدك المهدي ؟ » فأجابه بطعنة قاضية وضربه آخر بالسيف فخرَّ قتيلاً ولم يبد دفاعاً ، ويقال ان قتلته من رجال ولد النجومي ولم يكن ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فأمرهم بجرّ جثته الى باحة السراي وأن يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في ام درمان فحملوه اليه في منديل كبير في الساعة الاولى من النهار ، وكان سلاتين مقيداً في



رأس غوردون يريه الدراويش لسلاتين باشا

خيمته بأم درمان وقد سمع اطلاق المدافع وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزيناً كئيباً فمرّ حاملو رأس غوردون به وبينهم رجل اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلاً فكشف له عن رأس غوردون وقال . « أليس هذا رأس عمك الكافر ؟ » كما ترى في الرسم .

فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الأسر والخوف وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد وقال بصوت ضعيف : « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته ، هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكاً : « أتمدح الكافر سوف تلقى ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين إذ ذاك .

ثم حملوا الرأس الى المهدي فأظهر كدره لذلك ولكن سلاتين يظن ان المهدي لو اراد ان يبقي عليه وأوصى رجاله بذلك ما استطاع احدٌ مخالفة اوامره .

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في ايدي الدراويش وبسقوطها سقط كل امل بافتتاحها ولكن المهدي لم يقم فيها بل اقام في ام درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين .

أما الحملة الانكليزية فإنها انسحبت من المتمة الى كورتي فأقامت هناك مدة ثم عادت الى دنقلا فمصر وسحبت معها كل من اراد مرافقتها من سكان السودان شمالي كورتي وأصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني .

موت المهدي وخلافة التعايشي :

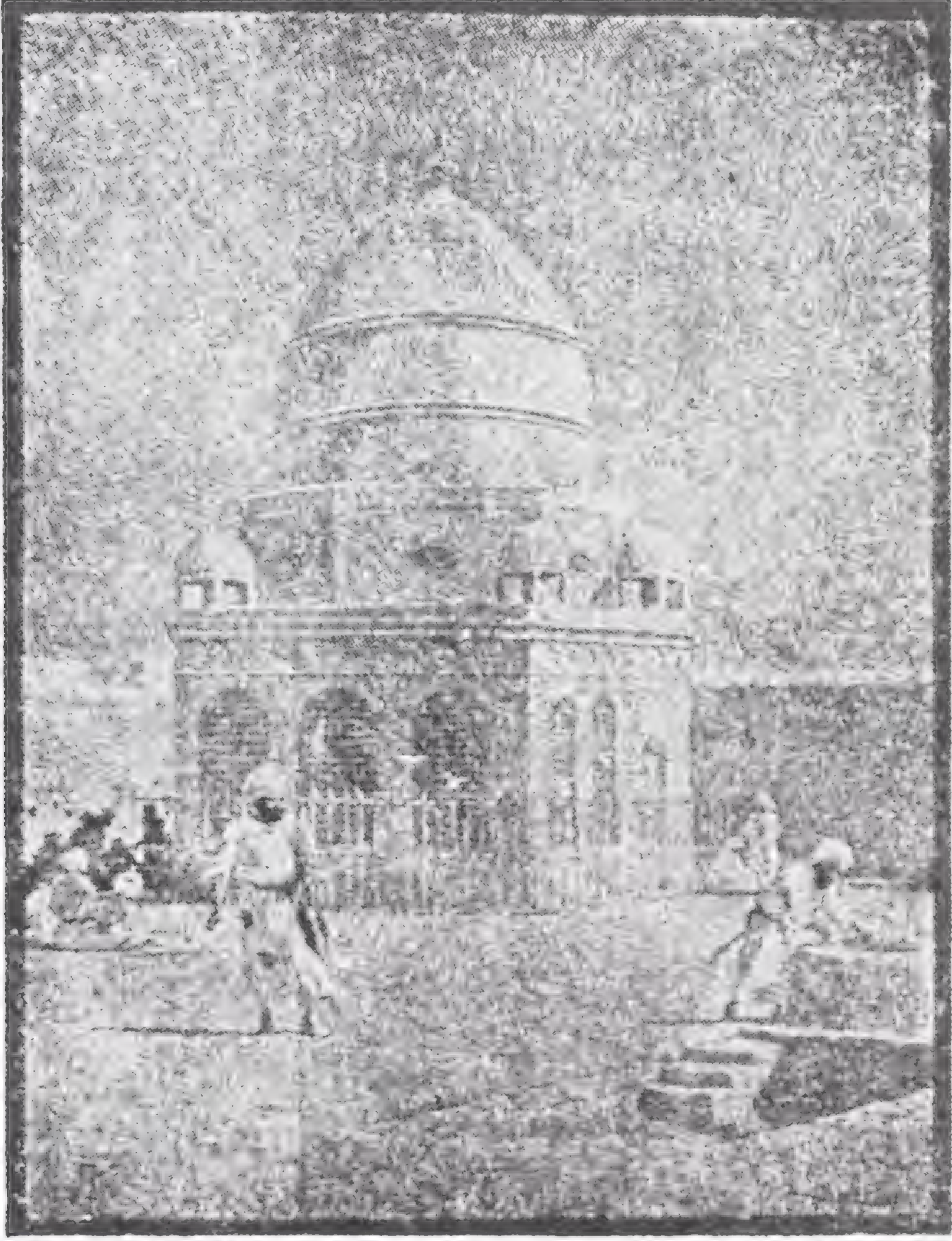
فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فإنه لم يشهد موقعة إلا انتصر فيها ولا حاصر مدينة إلا فتحها (تقريباً) وإذا اعتبرت ما لاقت الحملة الانكليزية القادمة لإنقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق فاتخذ اشياعه ذلك دليلاً على انه إنما يعمل بوحي من الله وأيقن هو انه اصبح المالك المتصرف في السودان من اقصاه الى اقصاه وخيّل له انه سيفتح الامصار ويخضع له الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت إلا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها . ولكن ساء فأله فإنه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم في عاصمته (أم درمان) بضعة أشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٥ على أثر اصابة شديدة بالحمى التيفوس لم تنجع فيها حيلة ففارق هذا العالم على عنقريب (سرير سوداني) وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة أمرائه منهم احمد ولد

سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد المكي . فلما شعر بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي ﷺ اختار الخليفة عبد الله خليفة الصديق خليفة لي وهو مني وأنا منه فأطيعوه ما اطعتموني . استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره وتمطط وأسلم الروح .

ولم يكد يخرج النفس الاخير من أنفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المتمهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأته عائشة ويدعونها « ستنا أم المؤمنين » فسارت لابلاغ خبر وفاته الى نسائه الاخريات وتعزيتهن وكان الناس قد تجمهروا مئات وألوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فأوعز اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلقى وجه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالاكفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفنوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاه ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من خشب .

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فحلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه السيف والنار والسودان وصفاً تماماً .

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبدالله الى الجامع وخطب في الناس وأنبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم أوصاهم بالطاعة والاتحاد



قبة المهدي وفيها قبره

للعمل بأوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعة التي ذكرناها قبل الآن ولكنه غيّر العبارة الأولى منها فجعلها « بايعنا الله ورسول الله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ » .

أوصاف المهدي :

كان طويل القامة عريض المنكبين أسمر اللون فاتحه قوي البنية . وكان أول قيامه بدعوته ربع القامة فأصبح في أواخر أيامه سميناً ضخماً

وكان كبير الرأس عريض الجبهة حــاد العينين اسودهما خفيف اللحية أسودها وعلى خديه آثار الأخاديد العرضية ثلاثــة من كل جانب كسائر الدناقلة أبناء قبيلته . وكان متناسب الانف والفم لا ينفك مبتسماً فتظهر أسنانه وبين الأماميتين منها فلجة تشبه الثمانية (٨) تعد عنـد السودانيين وغيرهم من المشارقة علامة السعد ويقال لصاحبها أفلج وكان ذلك من جملة ما حبب المهدي الى النساء وكنَّ يسمينه (أبو فلجة) .

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضربة تراها دائماً مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين أتباعـه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها « رائحة المهدي » وذكر بعضهم خالاً كان في خده ادعى انه من علامات المهدية .

وقد علمتَ من تدبر ترجمة حاله انه كان نبيهاً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم فـإذا ذكر مآثم بني الانسان او وصف النعيم المقبل أو حث على الجهـاد بكى وتخشع وأبكى السامعين . ويظهر من مجمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللطف وحسن الاسلوب وكان من أكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو أمد الله من أجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيـل نصرته . أما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعـة والمسالمة الى حدٍّ هاج غيرة الخليفتين الآخرين وغيرهما من الأمراء فقام الشقاق بـين الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت أمورهم وتضعضعت أحوالهم وسهـل الفتح على المصريين .



دراويش المهدي

تعاليمه :

ذكرنا في ما تقدم ما كان من أعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته فنقتصر الآن على ذكر ما أحدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

١ – علّم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فأبطل الرتب والالقاب الرسمية وساوى بين الغني والفقير . وفرض على اتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدلّ على تزهّدهم وهو الجبّة المرقعة .

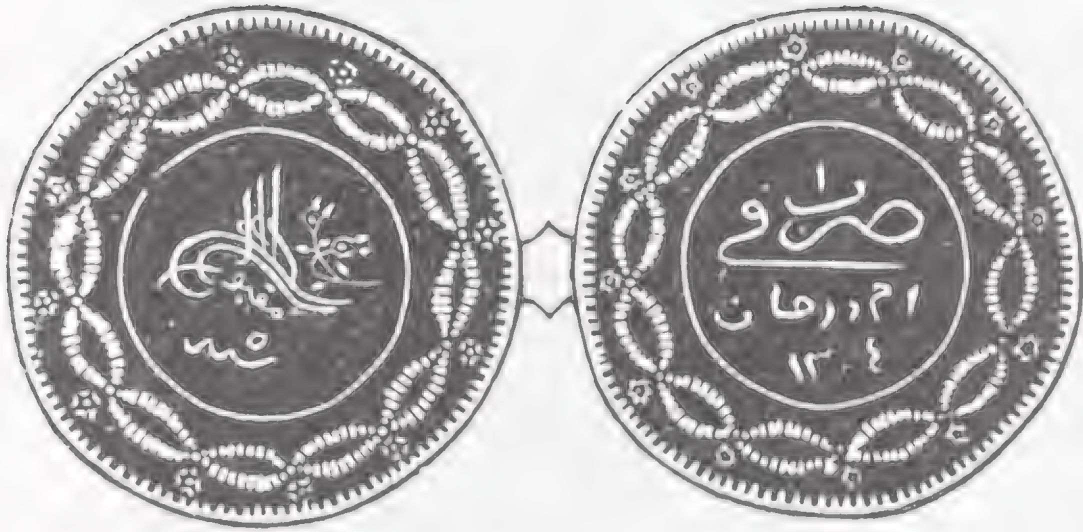
٢ – جمع المذاهب الاربعة : (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحّدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف وإلغاء البعض الآخر ، واختار آيات من القرآن الكريم تتلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سماها (الراتب) وسهّل طرق الوضوء .

٣ – حرّم الاحتفال بالأعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرهما مما يتناولونه في الاعراس ، وخفـّض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب ، وجازى من يخالف ذلك بسلب أمواله كلها . وأبدل ولائم الاعراس بطعام من التمر واللبن ، فتسهّلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء ، وقـد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران .

٤ – أبطل الرقص واللعب ومن رقص او لعب فقصاصه الجلد وأخذ أمواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره .

٥ – منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم اهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته او يتردد في تنفيذ اوامره ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي لثبوت الدعوى عليه شهادة شاهدين وقد يكفي ان يدعي علمه ذلك بالوحي . وتأييداً لدعوته أحرق كل كتاب او ورقة تخالف هـذه التعاليم .

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه (كما ترى في الصورة) قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي على احد وجهيها اسم المدينة التي ضُربت فيها (ام درمان) وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ هـ وهي سنة استقلالهم بالأقطار



نقود المهدي

السودانية والى أعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الاولى من سلطانهم وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يُقرأ منها كلمة (مقبول) كأنهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم . وعند أسفل الطغراء يُقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي او هجرته .

دولة الدراويش :

هـذا ما كان من امر محمد احمد المهدي زعيم هـذه الثورة فقد مات وقلبه عالق بما أوتيه من النصر لأنه غرس غرساً ولم يذق ثمر غرسه فترك تلك الشجرة وقـد آن أثمارها لأقوام اختلفوا على اقتسامها وتوكأوا على اغصانها حتى كادوا يكسرونها . فقـد تولى التعايشي الخلافة وهو يخاف مناظرة الخليفتين الآخرين ويخشى أحزابها . على ان الاعمـال الحربية ما زالت في بادىء الرأي سائرة بقوة الاستمرار كما كانت على عهد المهدي .

وكان المهدي قد بعث امراءه الى الأنحاء لبثّ دعوته وتأييد سلطته وحثّ الناس للمهاجرة الى ام درمان فسعى خالد في دارفور فأتمّ إخضاعها وسار ابو عنقر (او ابو عنقة) الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي

إلا سكان الجبال الجنوبية منها فأخضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً. أما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود وداي فقد دانت للمهدي برمتها .

أما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتهما دفاعاً حسناً حتى اضطرّت الى التسليم ، فلم تنقض سنة ١٨٨٥ م حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً الى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية إلا سواكن وحدها .

واتفق في أثناء حصار سنار ان القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الامير عبد الكريم وهو من أقارب المهدي فدافعته حامية سنار فأنفذ التعايشي ولد النجومي وهو من اعظم قواد الدراويش ففتحها في اوغسطس سنة ١٨٨٥ م فبعث التعايشي الى عبد الكريم ان يأتي هو ورجاله الى ام درمان وكان قد اخذ معه لحصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة الشريف وهو من اقارب المهدي ايضاً فلما فُتحت سنار على يد ولد النجومي ثم دعي عبد الكريم الى ام درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي محمل الاهانة له وذاع على الألسنة إذ ذاك ان عبد الكريم قال لو ضُمت اليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لأخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها الى الخليفة الشريف لأنه أولى بها من ذاك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث الى اخيه يعقوب وهو عمدته وقائد جنده وأخبره الخبر وأوصاه ان يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتحية والتهنئة وأثنى على ما بذله في حصار سنار ثم شرّفه وبعث الى الخليفتين وسائر الأشراف (أقارب المهدي) فأدخلهم غرفة داخلية ، ولما استتبّ بهم المقام أمر

كاتبه فتلا عليهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الابيض يحرّض أتباعه به على طاعة التعايشي .

فلما تمت تلاوة المنشور قال لهم عبد الله ان عبد الكريم خائن فأنكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقته وأمانته فتظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط اخراج الجنود السودانية من قيادته الى قيادة اخيه يعقوب ، فقبل الشريف وسائر الاقارب بذلك بالرغم منهم ، ثم أشار التعايشي الى الخليفة ولد الحلو بطرف عينه ان يجددوا المبايعة ويمين الطاعة فوضعوا ايديهم على القرآن وأقسموا ان يسلموا الجنود السودانية وأن يحافظوا على الطاعة . ولا ريب ان الشريف ورجاله فعلوا ذلك بالرغم منهم وفي أنفسهم حزازات يودون لو انهم يذهبون بحياة التعايشي ، وكانت تلك الحادثة أمثولة ذات بال اصبح بها مقاوموه مقصوصي الاجنحة لا يستطيعون حراكاً ولكنهم حقدوها عليه . وأخذ كل من الفريقين ينظر الى الآخر بعين الحذر على ان الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . أما التعايشي فما انفكّ يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة الى ام درمان ليعمّرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة .

وفي أثناء ذلك تعدّى بعض السودانيين على الأحباش في بلاد الحبشة وأخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون الى قلابات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فحماهم حاكم المدينة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرأس عادل وأخربوا المدينة وأحرقوها حتى صارت قفراً تأوي اليها الضباع والذئاب وساقوا الاولاد والنساء اسارى الى الحبشة . فبلغ التعايشي ذلك فكتب الى يوحنا نجاشي الحبشة اذ ذاك ان يرسل الأسرى ويعين الفدية التي يريدها عنهم ، ولكنه بعث ايضاً يونس

احد قواده بجند الى قلابات وأمره ان يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه امر آخر . وبعث ولد النجومي الى دنقـلا وأبا جرجا الى كسلا وكتب الى عثمان دقنة يؤمّره على السودان الشرقي بين كسلا وسواكن . أراد بذلك كله ان يثبت سلطته على تلك الأماكن وأخـذ من الجهة الاخرى ينظم حكومته في ام درمان ففرض ضريبة سماها « فطرة » تدفع بانقضاء عيد الفطر لا يعفى من دفعها احد كبيراً كان او صغيراً ، وأخـذ في تنظيم الماليـة وعهد بذلك كله الى ابراهيم عدلان فوضع انواع الضرائب واتخذ كل وسيلة يمكنه اكتساب المال بها وفي جملة ذلك تجارة الرقيق .

وفي أواسط سنة ١٨٨٦ م عاد ابو عنقر الى ام درمان ومعه الغنائم والاسلاب فاحتفلوا باستقباله احتفالاً عظيماً حضره التعايشي وسائر الخلفاء والأمراء وضربت به الطبول وغيرها .

وبعـد قليل جاء التعايشي نبأ ان يونس في ضيق ، فبعث ابا عنقر يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جنده وأنقذه من ضيقه . وسبب ذلك الضيق ان بعض رجال يونس ادّعى انه عيسى المسيح والتفّ حوله تلامذة كثيرون بعضهم مؤمن بـه والبعض الآخر تبعوه نكاية في يونس لأحقاد بينهم وبينه ، فلما وصل ابو عنقر قبض على ١١ اميراً ظهر له انهم تآمروا على قتل يونس وبعث الى الخليفة يستشيره في امرهم فبعث اليه ان يقتلهم ثم ندم فبعث ان لا يفعل ولكن سبق السيف العزل .

وكان جنـد ابو عنقر اذ ذاك اكبر جند اجتمع في حوزة الخليفة عبد الله مؤلفاً من ١٥ الفـاً من حمَلة البنادق و ٤٥ الفاً من حمَلة الرماح والنبال وثمانمائة فارس .

فجمع ابو عنقر هذه القوة وسار نحو رأس عادل لينتقم منه ، فوُفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال رأس عادل وأخرجهم من محلتهم واستولى على الخيم والمؤن وكل الأمتعة وأسر أمراءه رأس عادل وابنته وكأنه بهذه الغلبة قد فتح كل مقاطعة أمحرة ، فسار توّاً الى غندر على امل ان يلاقي فيها خزائن وأموالاً فلم يجد شيئاً ، فأحرق البلدة وعاد هو ورجاله وهم ينهبون ويسلبون كل ما مرّوا به في طريقهم حتى ساقوا امامهم قطيعاً من نساء الاحباش وأطفالهم سوق الاغنام ، فلما وصلوا قلابات بعثوا الاسرى الى ام درمان فأخذ الخليفة خمسهم وضمّوا الباقي الى بيت المال ، وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب وأصبح الطريق بين قلابات وأبي حراز مملوءاً بجثث اولئك المساكين وفي جملتها جثتا ابنة رأس عادل وابنه .

وبعث التعايشي الى ابي عنقر ان يحصن قلابات لأن الاحباش لا يتقاعدون عن الانتقام ، ولكن المنية عاجلت ابا عنقر فمات شاباً لم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره .

ثم ما لبث النجاشي يوحنا ملك الحبشة ان جنّد الرجال للانتقام من الدراويش على خراب غندر ، فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود ابي عنقر لا تزال هناك ولم تفقد إلا قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل النجاشي وعسكر بالقرب من قلابات فانقسم جنده فرقتين هاجمت المدينة من ناحيتين فدخلت احداهما المدينة من اثلام في السور واشتغلت بالنهب والقتل ، وبقيت الاخرى تهاجم السور من الخارج وفيها النجاشي وقد وقف يستحث رجاله ويحرّضهم على الدراويش فأصابته رصاصة قتلته ، فبعد ان كان النصر للأحباش عادت العائدة عليهم فخافوا وتقهقروا

في أثنـــاء الليل ، فأصبح الدراويش وهم يحسبون لهجمة الاحباش الف حساب فاذا بالارض خالية من الخيم فبعثوا الجواسيس فعلموا ان النجاشي قتل فتعقبوهم ، وكان الاحباش قــد عسكروا على مسافة نصف يوم من قلابات فباغتهم الدراويش ففرّ الاحباش وتركوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جمــلة الغنائم تاج النجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً اليه من ملكة الانـكليز ، فحملوا ذلك غنيمة الى ام درمان .

فتح مصر :

ومن اغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضمها الى مملكته ، على حين أن المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً . فلما توفي هــذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى ملكة الانـكليز يطلب اليهم جميعاً ان يسلموا له ويذعنوا لسلطانه ، وأرسل الكتب مع رسل خصوصيين الى مصر ، فعــاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء ، فشق ذلك عليه وحقد عليهم .

فلما قدر له الفوز على الاحباش حدثته نفسه ان يجرد على مصر فيفتحها ويقيم نخاساً من البقارة او التعايشة اميراً يتولى حكومتها او يأتي هو بجلالة قدره من بيته في أم درمان فينصب عنقريبه في سراي عابدين .

ففي اوائل سنة ١٨٨٩ استشار بعض رجاله في التجريد على مصر ، فشوقوا اليه سكناها ووصفوا له قصورها وغياضها وأموالها ونساءها . فما اشبه وصفهم هذا بما وصفها به عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب يوم حثه على فتحها قبل ظهور التعايشي بثلاثة عشر قرناً ، فتاقت نفس

التعايشي الى فتح مصر ، ولم يرَ بين قواده اولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي ، وكان من اشد الدراويش بطشاً وأصعبهم مراساً وأكثرهم استهلاكاً في نصرة الدعوة ، وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان ، قد خبر الارض وعرف الطرق ، فأرسله في حملة اكثرها من قبائل الجعالين والدناقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا سكان تلك الاقاليم ، متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجال هم ادرى بها من غيرهم ، ولكن الحقيقة انه لم يجهل الخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يجعل في تلك الحملة احداً من أقاربه وأبناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الابيض لأنهم من حزبه ، فادّخرهم لحين الحاجة . اما الدناقلة والجعالين فأكثرهم من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رأيت ما قام بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلبيهما فما انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدواً له تحت طي الخفاء فبعث احزابه في حملته هذه وفي نيته انهم اذا فتحوا مصر عاد الفخر له واتسعت مملكته واذا انكسروا تقهقروا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم .

فجعل دنقلا محط رحال تلك الحملة وأقام يونس ، ولد الدغيم ، اميراً على دنقلا يقيم فيها ويدير شؤونها ، وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل إلا بمشورة يونس .

واتفق في اثناء تجريد تلك الحملة حادث يدلّك على ظلم التعايشي وعسفه ، فتعلم ان دولته لم تقم إلا لأجل قصير لأن الظلم مرتعه وخيم . والحادثة ان التعايشي امر جماعة من قبيلة البطاحين ان يرافقوا تلك الحملة وفيهم احمد ولد جار النبي . والبطاحين قبيلة تسكن شمالي النيل الازرق

بين قبيلة الشكرية والنيل ، مشهورة بالشجاعة والاستقامة من عهد الحكومة المصرية ، وكان التعايشي قد استعمل جماعة كبيرة منهم في دنقلا وبربر ، فلم يروا في اعماله خيراً ، فلما اوعز اليهم ان يرافقوا تلك الحملة أبوا ، وفرّ ولد جار النبي فتعقبه بعض رجال الخليفة فجرح واحداً منهم ، فشق ذلك على التعايشي ، فأنفذ جماعة قبضوا على البطاحين عن بكرة ابيهم إلا نفراً قليلين تمكنوا من الفرار . فجيء بسبعة وستين منهم بنسائهم وأولادهم ، فأوعز التعايشي الى القضاة ان يحكموا عليهم ، فحكموا انهم (مخالفين) عصاة ، فقال : « وما قصاص العاصي » قال القضاة : « قصاصه الموت » ، فنصب المشانق وقسم هؤلاء المنكودي الحظ الى ثلاثة اقسام ، قتل قسماً بقطع الرأس وقسماً بالشنق والقسم الثالث امر فقطعت اطرافهم وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في ام درمان جاء فيه عبد الله على جواده الى ساحة السوق وحوله ملازموه وفي جملتهم سلاتين باشا ووقفوا لمشاهدة ذلك المنظر المريع ، وكان بعض المحكوم عليهم معلقين بالمشانق ازواجاً واثلاثاً والبعض الآخر مكتوفي الايدي جاثين امام الجلادين وفيهم من قد قطع رأسه وزهقت روحه ومن قد اصابه السيف بضربة لم تفصل رأسه فتململ وتوجع في باطن سره لئلا يقال انه جبان وفيهم الجاثي مكتوفاً ينتظر مجيء الساعة ، الى غير ذلك مما يفتت الاكباد . اما هم فكانوا يلاقون الموت بصدور منشرحة ومنهم من ينادي بأعلى صوته : « هذا هو يوم العيد عندي فمن لم يرَ شجاعاً يقتل فلينظر إليّ » . اما التعايشي فدار بجواده حول تلك الساحة ينزّه نظره بذلك المنظر حتى قضي الامر فعاد بموكبه وحاشيته .

عود الى مصر :

فلما أعدّ التعايشي تلك الحملة بعث كتباً اخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم أعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي رأس النجاشي يوحنا الى يونس امير دنقلا على ان يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين وأمر ان يسير النجومي بحملته على مصر فلا يحرّك ساكناً في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه أوامر اخرى .

فخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ م في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حِله وترحاله ، وكان سردار الجيش المصري إذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وحسن الروية فضلاً عن الرقة ولين الجانب فحصّن حلفا واصوان وسائر الحدود ، فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصرية بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة .

وكان غرانفل باشا قد خرج من اصوان فبعث الى ولد النجومي يبين خطر موقفه وينصح له ان يسلم فيسلم فأبى ، فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي ، لأن الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي ، فجرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها ، واليك التفصيل :

واقعة توشكي :

توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحلفا على بضعة اميال من هيكل ابي سمبل شمالاً مؤلفة من اعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقـة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة اميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل .

وفي الغربي مقابل توشكي على بعـد اربعة اميال منها جنوباً سلسلة تلال عاليـة من حجر الغرانيت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة اميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبيها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي ، وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة اخرى ، وبين السلسلتين سهل واسع متصل بالصحراء وفي هـذا السهل جرت الواقعة .

وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعـه في صباح ٣ اغسطس (آب) سنة ١٨٨٩ م باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا وأخبروا بأن العرب يستعدون للمسير ، فخرج السردار لمجرّد الاستكشاف فلم يكد يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا تهيأ للمسير فساروا بأسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حملوا من الماء إلا شيئاً قليلاً ، فعزم السردار إذ ذاك ان لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم ، وكان قد علم بمـا كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك اسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي دن والثالثـة عشرة بقيادة اليوزباشي كمستر والطوبجية بقيادة البكباشي رندل فضلا عن

البيادة الراكبين والاورطة الثانية من البيادة جاءت متأخرة . وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم أعمالاً عجيبة وبالغوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا أوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها . والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اغسطس سنة ١٨٨٩) .

وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد أسراهم على اربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري إلا ٢٥ وجرح ١٤٠ .

ووجد بين قتلى الدراويش إذ ذاك اعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشبح الابيض فقد نجا هؤلاء بنحو الف وأربعماية شريد ، وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط ، أما ولد النجومي فقد قتل وحز رأسه وجيء به الى السردار .

فكان ذلك النصر نصراً مبيناً سرّ بـه المغفور له الخديوي السابق ، فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة علمت التعايشي ما لم يكن يعلم . اما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبراً نقشوا فوقه باللغة العربية حفراً على واجهة القبر كتابة هذا نصها :

« شيد هذا الاثر تذكاراً لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبدالرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم ، وكان الجيش المصري تحت قيادة

سعادة السردار غرانفل باشا . وفي هذا القبر دُفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان » .

وبعيد الواقعة سار الخديوي السابق في بعض رجال معيته لتفقد احوال الحدود ، فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف امام قبر شهدائها يتأمل ما أظهره جنده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقفاً امام ذلك القبر وقد اسند رأسه على كفه متأملاً .

قحط عظيم :

وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في ام درمان فعرفوا قدرهم ووقفوا عند حدهم ، ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك الكسرة حتى داهمهم قحط غلت فيه اثمان الحنطة وقلّ الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى أكلوا سيور الجلد التي يشدّون بها مقاعدهم ، فكثر النهب وازداد الضغط . وقد بالغ سلاتين باشا في وصف هذا الجوع وحال الجائعين ، ومما حكاه قوله : « خرجت في ليلة مقمرة ، وبينما انا عائد الى منزلي في منتصف الليل اقتربت من الامانة (مخازن الاسلحة والذخيرة) فآنست عن بُعد شبحاً يتحرك على الارض فدنوت منه فرأيت ثلاث نسوة عاريات (تقريباً) وقد أرخين شعورهن مجعدة على اكتافهن وجلسن القرفصاء حول جحش صغير ملقى على الارض ولعله مولود حديثاً لم يكد يخرج من جوف امه حتى سرقنَه وجئنَ بـه الى حيث لا يراهنّ احد ، فشققنَ بطنه وأخذنَ يلتهمنَ أحشاءه ، والجحش المسكين لا يزال حياً ، فلما رأيت ذلك المنظر المريع صحتُ بهنّ فنظرن إليّ وقد حملقنَ اعينهنّ كأنهنّ أُصبنَ بجنّة . وكان بعض الجاعة المتسولين

من الفقراء قد لحقوا بي يلتمسون حسنة ، فتركوني وهمّوا باختطاف الفريسة منهنّ ، فتركتهم وسرت في طريقي آسفاً لتلك الحال » .

وكانت وطأة الجوع في الغالب أشدّ على المارّين بأم درمان والقادمين اليها ممـا بأهلها ، حتى اضطرّت الحاجة ببعضهم الى بيع اولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين : وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل بالمئات وليس هناك مَن يدفنها . فأصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مسؤول عن دفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله ، فقلّت الجثث من الشوارع ، ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بهـا تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والابيض تجري امام ام درمان حاملة مئات من الجثث فارق اصحابها الحياة على ضفاف النيل او بالقرب منها فألقاها اهلهم او اصحابهم فيه . وخلاصة القول ان الجوع أهلك من الدراويش اضعاف ما أبادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم ، ورافق هذا الضيق جراد جارف أكل ما بقي من الزرع .

على ان التعايشي ما زال يبثّ دعاته في سائر الأنحاء لتأييد دعوته ، وكانت بقيـة من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة امين باشا ، فأنفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لإنقاذ امين باشا ، فقاست في ذلك مشقات جسيمة تمكنت بعدها من الخروج به وببعض الحامية ، فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبقَ للحكومة من السودان المصري إلا سواكن وطوكر .

خصام بين خلفاء المهدي :

أشرنا غير مرة الى النفور الواقع بين التعايشي ومحمد الشريف لتناظرهما على الخلافة ، فالتعايشي تولاها بإرادة المهدي ويرى الشريف انه أولى بها بحق القرابة ، على ان هـــذا لولا استبداد التعايشي واحتقاره الاشراف (أقرباء المهدي) ما حدثته نفسه بسوء ، ولكنه رآه لا يدع فرصة إلا ويحطّ بها من شأنه ، فحقد عليه وما انفك ساعياً في ذلك سراً بمساعدة ابني المهدي (وهما شابان لا يتجاوز عمر احدهما عشرين سنة) وكثيرين من الاشراف ، فاتحدوا سنة ١٨٨٩ م وعقدوا الخناصر على خلع التعايشي والقبض على ازمة الحكومة ، فألّفوا لذلك جمعيـــة سرية في ام درمان ضمّوا اليها جمـاعة من القائلين بقولهم وكاتبوا اخوانهم الدناقلة المقيمين في الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) يدعونهم الى ام درمان للتضافر على ذلك العمل فجاء منهم جمع كبير ، إلا ان احد امراء الجعالين وشى بهم الى التعايشي وكان قد أقسم الأيمان المعظمة ان لا يبوح بسرّهم لأحد غير اخوته وأعزّ أصدقائه ، فأفتى لخيانته هـذه بأنه يعتبر التعايشي من أعزّ أصدقائه ، فأخذ هـــذا في تدبير الوسائل الفعّالة لعرقلة مساعي الاشراف ، وعلم هؤلاء ايضاً ان سرّهم قد انكشف ، فأسرعوا في تنفيذ مشروعهم قبل ان يستعد التعايشي لدفعهم ، فاجتمعوا في المنازل المجاورة لقبـة المهدي وعاضدهم البحارة وغيرهم ممن اعتبروا تصرّف التعايشي في احكامه مخالفاً للشريعة الغرّاء .

وكان الأشراف قد أعدوا الاسلحة وخبأوها في مكان ، فأخرجوها ذات ليلة من مخابئها وفرقوها في رجالهم ولكنها لم تكن تزيد على ١٠٠ بندقية (رمنتون) وشيء من الذخيرة وبعض المدافع ، وكان زعيم تلك

الحركة احمد ولد سليمان فقال للقوم ان المهدي ظهر له في الرؤيا وأنبأه بفوز الاشراف . ولم يبق من الاشراف احد إلا تقلد الحسام او البندقية واستعد للقتال حتى ارامل المهدي انفسهن فقد كنّ الى ذلك العهد محجورات في منازلهن لا يخرجن ولا يرين احداً فخرجن تلك الليلة في جملة المطالبين وخصوصاً « ام المؤمنين » فانها تقلدت الحسام وتهيأت للحرب .

كل ذلك والخليفة عبد الله في منزله وقد اوصى ملازميه باليقظة ، وفرق فيهم العدة والذخيرة وأمر ان يلازموا بابه لا يبرحوه مطلقاً ، وبعث ملازميه من الجهادية السود فبثهم في الاسواق ليمنعوا المدد عن الاشراف ثم أمر برجاله التعايشية ففرق فيهم ما يزيد على الف بندقية وأوقفهم في الساحة بين قبة المهدي ومنزله ليكونوا حاجزاً بين الاشراف وبينه ، وأقام العساكر السود في وسط الجامع ينتظرون اوامر اخرى ، وهناك كانت الرماحة والخيالة ايضاً تحت قيادة اخيه يعقوب . اما الخليفة علي ولد الحلو فأشيع انه على دعوة الاشراف قلبياً ، فأمره التعايشي ان يقيم في اقصى ام درمان شمالاً وقطع كل مواصلة بينه وبينهم، كل ذلك اجراه التعايشي مساء الاثنين ، وفي صباح الثلاثاء أحاط بالاشراف إحاطة السوار بالمعصم ، وبعث اليهم قاضيه يدعوهم الى الاذعان ويذكّر اولاد المهدي بمنشور والدهم وبما قاله وهو يحتضر وأنهم اذا كانوا يشكون امراً فهو يتعهد بدفع كل ضيم عنهم ، فأجابوه انهم يريدون القتال ، فرأى من الحكمة ان يجتنب الخصام بقدر الامكان لاعتقاده ان الحرب اذا بدأت لا تنتهي إلا بخراب ام درمان إذ يغتنم الدراويش تلك الفرصة للسلب والنهب . فبعث اليهم ثانية ان يرجعوا عن عزمهم فأبوا إلا القتال ، ثم اطلقوا بعض الطلقات ، فأجابهم رجال التعايشي بمثلها ، فرأى أن يوسط

الخليفة على ولد حلو في الامر فبعث اليه ، فلما جـاء دفع اليه منشوراً للاشراف يطلب اليهم الصلح والكف عن العدوان ، فكان جوابهم هذه المرة اقرب الى المسالمة فقالوا : نريد أن نعرف ما هي شروط الصلح ؟ فأجابهم التعايشي : ضعوا الشروط أنتم . ومـا زالت المخابرة جارية بقية ذلك اليوم وطول ليله الى الصباح التالي ، فانقضت الازمة وتمّ الصلح على شروط اهمها :

١ – ان يعفو التعايشي عفواً عاماً عن كل المشتركين في تلك الثورة .

٢ – ان يجعل لمحمد الشريف عملاً يليق بمقامه ويخلي له كرسياً في مجلسه .

٣ - ان يرجع له الرايات التي مـات امراؤها في واقعة توشكي لكي ينصبها ويجمع رجالاً تحتها .

٤ – ان يخصص لأقارب المهدي اموالاً تنفق عليهم من بيت المال .

٥ – ان يسلم الاشراف كل سلاحهم ويطيعوا أوامر التعايشي طاعة عمياء .

فكتبت هذه الشروط وأمضاها الفريقان وعادت الاحوال الى الهدوء ظاهرياً ولكن القلوب ما فتئت على غلها .

ويجدر بنا في هذا المقام الاستطراد الى ترجمة التعايشي ووصف احواله وأحوال السودان قبل فتحها الأخير فنقول :

عبد الله التعايشي

هو السيد عبد الله بن السيد محمد التقي ويتصل نسبه بعشيرة الجبيرات من قبيلة التعايشة والتعايشة من قبائـــل البقارة والبقارة اسم يطلق على

القبائل القاطنة غربي النيل الابيض وهم بدو اكثر اشتغالهم برعاية البقر والنخاسة وتجارة الرقيق ويقيم التعايشة في الغرب الجنوبي من دارفور .

وكان السيد محمد التقي مشهوراً في قبيلته بالتقوى والكرامة والاستقامة يؤمه المرضى وذوو الاسقام يلتمسون الشفاء بما يتلوه عليهم من الآيات او يردّده من الصلوات او بما يكتبه من الاحجبة والعقود . وقد ولد له اربعة ذكور وأنثى وهم عبد الله ويعقوب ويوسف وسماني وفاطمة وكان عبد الله ويوسف اقلهم ميلاً الى العلم فلم يحفظا القرآن إلا بعد الجهد الشديد وكثرة المزاولة وكانا اكثر ميلاً الى النخاسة (اقتناص العبيد) أما يعقوب وسماني فكانا اقرب الى الهدوء والسكينة فحفظا القرآن سريعاً ولازما اباهما يساعدانه في صلاته وسائر اعماله .

واتفق في اثناء حرب الزبير باشا لدارفور ان عائلة السيد محمد التقي هذا كانت في جملة القائمين على الزبير فوقع عبد الله اسيراً في بعض مواقع شكا وأراد الزبير قتله فتوسط بعض العلماء في العفو عنه فأبقى عليه فأراد عبد الله ان يكافىء الزبير على عفوه عنه فقال له سرّاً « رأيت في الحلم انك المهدي المنتظر وإني احد اتباعك » فأجابه الزبير « لست المهدي ولكني رأيت هؤلاء العرب قد قطعوا الطرق على التجارة فجئت لفتحها » .

فلما فتحت دارفور واستقر الأمن فيها نزح التقي وعائلته من وطنهم الى شكا اقاموا فيها سنتين ثم ساروا منها الى دار الحمر فالابيض فدار القمر ونزلوا اضيافاً على شيخ ذلك المكان عساكر ابي كلام بضعة اشهر وهناك توفي السيد محمد التقي ودفن في شركلة وقبل مماته اوصى عبد الله ابنه الاكبر ان يلازم بعض مشائخ الدين في وادي النيل مدة ثم يهاجر الى مكة فيقيم فيها ولا يعود الى السودان .

فترك عبد الله اخوته عند الشيخ عساكر وسار قاصداً وادي النيل فسمع في اثناء الطريق بمحمد احمد المهدي وما يتحدث به الناس من كرامته مع شهرته في طريقه فقصده وطلب الانضمام اليه . واتفق ان محمد احمد كان إذ ذاك في خصام مع استاذ طريقته افضى الى الشحناء فاغتنم عبد الله تلك الفرصة وخدم محمد احمد خدماً حببته اليه فأسس محمد احمد طريقة كان عبد الله من اقدم المشتركين فيها ورأى تجمع الأحزاب حول محمد احمد فقال في نفسه لعل هذا هو المهدي المنتظر وكان اهل السودان ينتظرون ظهور المهدي قريباً وكلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية ظنوه المهدي فقال عبد الله لمحمد احمد « ان كنت المهدي المنتظر قل » فقال وجعل عبد الله خليفة له فهو اقدم خلفائه وأول القائمين بنصرته ويده اليمنى في كل اعماله كما قد رأيت في سياق تاريخ المهدي مما لا فائدة من إعادته .

صفاته وأخلاقه وأعماله

وجهه :

بلغ التعايشي السنة الخمسين من عمره وهو ربع القامة اسمر اللون قليلاً على وجهه آثار الجدري أقنى الانف حسن شكل الفم خفيف الشاربين والعارضين كثيف العثنون (شعر الذقن) أشيب الشعر عربي الملامح ، وكانت ملامحه في اوائل ايامه تتخللها طلاقة وبهجة فأمست في اواخرها وقد غشاها انقباض تنقبض منه النفس ويدل على ما انطوى عليه الرجل من الاستبداد والمكر والدهاء . وهو قصير الشفتين تظهر أسنانه من خلالها وخصوصاً اذا تكلم فانها تبرز لامعة بيضاء كأنه يبتسم .



عبد الله التعايشي

لباسه :

وكان قبل وفاة المهدي يلبس الجبة المرقعة الخاصة بالدراويش ، فلما تولى الخلافة جعل جبته من القطن الابيض الرفيع بلا رقع ولكنه خاط بحوافيها شرائط ملوّنة . وكان يلبس السراويل من القطن ايضاً ويلفّ عمامة بيضاء حول طاقية من الحرير صنع مكة ويلقي على كتفيه احياناً شالاً خفيفاً من القطن . والصورة رسمناها بنـاء على ما وصفه به سلاتين باشا وغيره ممن شاهدوه لأن الرجل لم يتصور صورة منقولة عنه رأساً .

وكان في بادىء الامر يحتذي نعالاً كنعال سائر الدراويش ثم أبدلها بالخف والبابوج من جلد ضارب الى السمرة فاذا مشى حمل بيساره سيفاً جميلاً وبيمينه رمحاً صغيراً جميـل الشكل من صنع قبيلة الهدندوة يتوكأ عليه كالعصا . وهو لا يمشي إلا محاطاً بحلقة من صغار العبيد وأكثرهم من

أبناء الاحباش الذين أسروا في المواقع الاخيرة المتقدم ذكرها وواجباتهم إيصال أوامره الى من اراد في ام درمان ، فاذا بلغ احدهم أشدّه انتظم في سلك الملازمين .

أخلاقه :

كان حادّ الطبع مقحام غضوب ، اذا غضب سارع في حكمه وأصرّ على عناده ، لا يسمع نصحاً ولا يصغي الى مشورة ، كثير الشكوك ، سيء الظن ، لا يثق بأحد ولو كان من اقرب أقربائه او من اهل منزله لاعتقاده ان الاخلاص والأمانة يندر وجودهما . يرتاح الى الاطراء والتملّق ، فاذا خاطبه احد صدّر خطابه بذكر محامده ونسب كل ما حدث من الحسنات الى حكمته ودرايته وعدله وبسالته وكرمه ، فيسمع كل ذلك مصغياً ويزداد عجباً وافتخاراً ، وهو يثق بمقدرته وثوقاً تاماً ويظن نفسه قادراً على كل شيء فما كان من ذلك فوق استطاعة البشر نسبه الى قوة إلهية حلّت فيه .

ومن أخلاقه الحقد والصرامه والعنف والانتقام فيفرح بتكدير الآخرين وخذلانهم . وأسعد يوم عنده يوم يضبط فيه الاموال ويلقي النــــاس في الأغلال والقيود او يسوقهم الى القتل والذبح فيبعد الولد عن والديه والامرأة عن زوجها ظلماً وعدواناً فكثيراً ما أمر بقتل الالوف من النساء والاولاد الأبرياء .

مجلسه :

ويكلف التعايشي القائمين بخدمته والجالسين في مجلسه تذللاً لا تستطيعه نفس الحر ، فالداخل عليه يقف امامه مطرقاً ويداه متقاطعتان على صدره ينتظر امره بالجلوس والتعايشي جالس في صدر القاعة على عنقريب عليه

حصير مصنوع من سعف النخل فوقه فرو من جلد الضأن يرف عن حوافي العنقريب وقد يتكىء الى وسادة من القطن فاذا كان الداخلون عليه اهلاً للجلوس في حضرته أشار اليهم فيجلسون على الارض جلوسهم للصلاة مطرقين ينتظرون ما يلقيه عليهم من الاسئلة فيجيبون وهم ينظرون الى الارض لا يبدون حراكاً إلا اذا امرهم بالانصراف فينصرفون .

داخليته :

ومن الغريب انه مع استبداده في حكومته وعنفه في تنفيذ أوامره فهو على الضد من ذلك مع اهل منزله فقد كان يحب ابنه عثمان أكبر اولاده حباً شديداً وينعطف نحوه انعطافاً غريباً وقد بذل كل مرتخص وغالٍ في سبيل تعليمه القرآن والحديث وسائر العلوم الاسلامية ، فلما بلغ السابعة عشرة أزوجه ابنة عمه يعقوب وأغضى عن وصية المهدي بابطال ولائم الافراح فنصب الموائد ومدّ الأبسطة ثمانية ايام حتى لم يبق احد من اهل ام درمان إلا أمّ ذلك الاحتفال ، ثم أزوجه فتاتين أخريين من أقاربه وأهداه قطيعاً من السراري والجواري ، وأوعز اليه صريحاً ان لا يقرب امرأة من نساء وادي النيل (الدناقلة) وزوّج ابنته بمحمد بن المهدي وكان محمد هذا ينوي الاقتران ببعض ذوات قرابته لأنه لا يحب ابنة التعايشي ولكنه لم يتجرأ على التصريح بذلك لعلمه أن التعايشي يسيء الظن به ويتمرض في اموره تعرُّض الوصي ، ويراقبه مراقبة الحرس ، فكظم غيظه وصبر على بلواه .

نساؤه :

كان التعايشي قبل فتح ام درمان يقيم في منزل كبير على مقربة من

الجامع ، ونساؤه الشرعيات اربع ، وأمـا الجواري فعددهن يزيد على الاربعمائة ، اكثرهن من الفتيات اللواتي أُخذن من والديهن بالأسر بعـد الحرب ، فهنّ في اعتباره ممـا ملكت ايمانه ، وفيهن البيضاء والسمراء والحبشية والسوداء ، جعلهن اقساماً يرأس كل عشرين منهن رئيسة ، وعلى كل ثلاثة او أربعة من هذه الاقسام امرأة حرة هي في الغالب سرية يختارها هو لهذه المهمة . وفي دار الحريم هذه خصيان معظمهم صغار السن وفي جملتهم عشرون خصياً يرأسهم واحد منهم اسمه عبد القيوم .

طعامه :

وكان طعامه في اوائل حكومته قاصراً على العصيدة واللحم المطبوخ والدجاج ، ولكنه ما لبث أن صار يتناول الاطعمة المركبة التي يتخذها الاغنياء في مصر وغيرها .

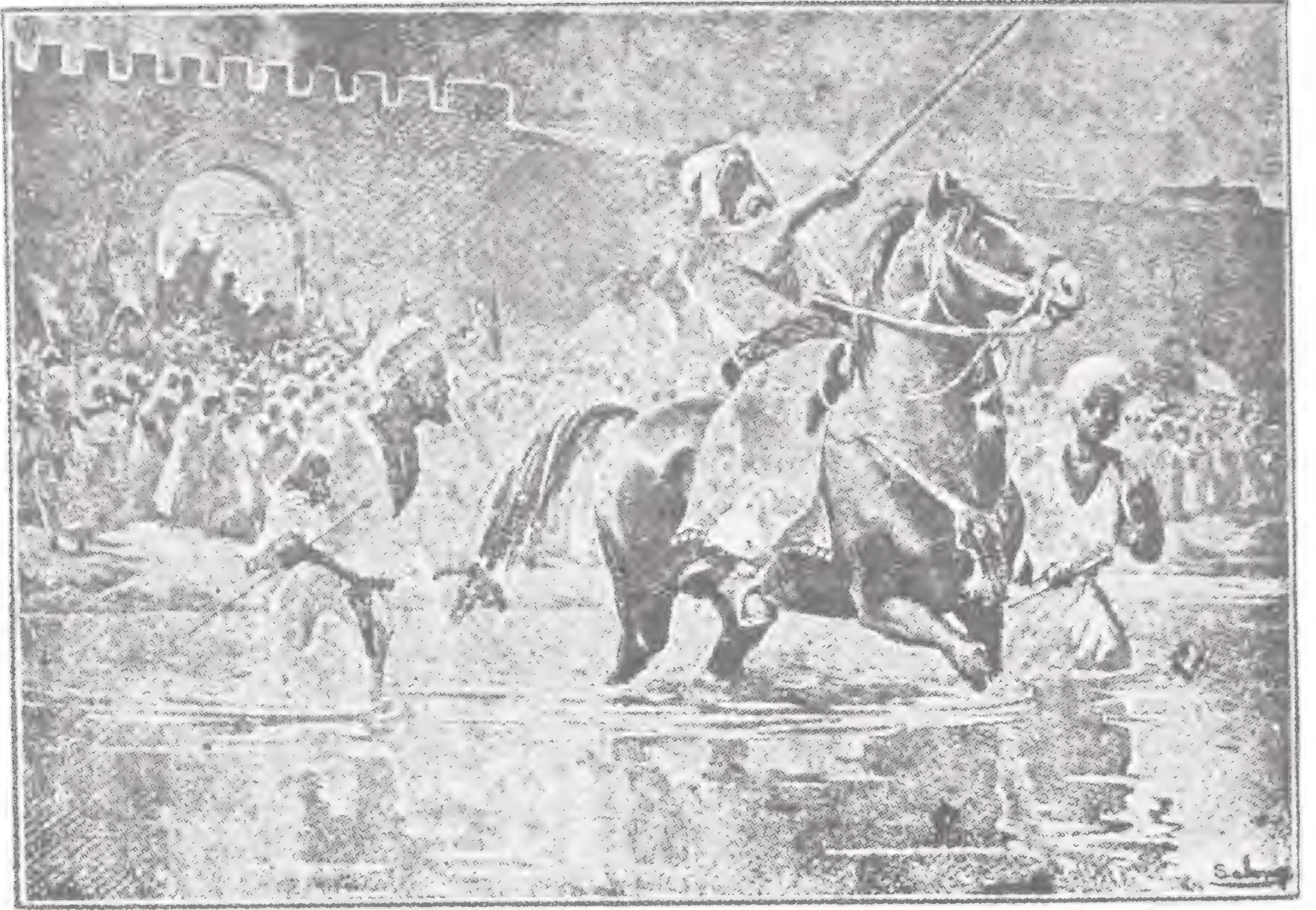
ملازموه :

كان بخدمة التعايشي جند من الملازمين يقف جماعة منهم في بابـه او يسيرون الى جانبه اذا ركب ، وكان سلاتين باشا واحداً منهم . وأراد التعايشي تعزيز حاشيته فأمر بتجنيد جند لحرسه الخصوصي فاختار عدداً كبيراً من عساكر الجهادية وأوعز الى امراء الغرب (غربي النيل الابيض) فاختاروا له عـدداً آخر ، وأضاف الى هذا وهذا جماعة من احاسن الجعاليين وغيرهم إلا الدناقلة والمصريين فانه كان لا يثق بهم ، فاجتمع من ذلك كله جند عدده ١٢ الفاً قسمهم الى ثلاث فرق يتولى قيادة الاولى منها ابنه عثمان ويتولى قيادة الثانية اخوه هارون ابو محمـد وهو شاب لم يتجاوز الثـامنة عشرة من العمر ويتولى الفرقة الثالثة رجل حبشي اسمه

رابح ربي في منزل التعايشي . وتقسم كل من هذه الفرق الى اقسام ، عدد كل منها مئة ، يتولى قيادتها ضابط يسمونه (رأس مئة) على ان ابنه عثمان كان يعتبر في اي حال قائد الملازمين كافة . وراتب الملازم نصف ريال من ريالات الدراويش في الشهر ، ويصرف لكل منهم وظيفة من الذرة مقدارها ثمن اردب كل اسبوعين . وواجبات الملازمين المحافظة على شخص التعايشي ، وهو لا يغفل عن مراقبة حركاتهم وتعهدهم بنفسه ليتحقق قيامهم في مراكزهم وإخلاصهم في خدمته .

اعماله :

أما واجباته بالنسبة الى رعاياه فاقامة الصلوات الخمس كل يوم في مسجد ام درمان الاكبر فيجلس في المحراب بحيث يرى كل من في الجامع ووراءه ابنه والقضاة وبعض من اختصهم بالتقرب منه والى اليمين واليسار الملازمون ووراءهم من اليمين اخوه يعقوب وسائر الامراء ، ومن اليسار بعض رجال علي ولد الحلو ثاني خلفاء المهدي وبعض الجعاليين والدناقلة ووراء هؤلاء يجلس العامة صفوفاً . ويبلغ عدد الحضور عادة عدة آلاف . وكان التعايشي كثير التدقيق في حضور الامراء للصلاة فاذا تخلف عنها احد منهم لامه او حقد عليه ، واذا منع التعايشي مانع كمرض او غيره عن اقامة الصلاة ناب عنه بعض قضاته ، ولكنه لا يجلس في المحراب . ويشتغل التعايشي ما بين صلاتي العصر والغروب في سماع ما يرد عليه من الاعمال والمداولة بشأنها مع القضاة ، ولما كان أمّياً لا يحسن القراءة ولا الكتابة فيتلو الاوراق عليه بعض كتابه او كتمة سره ، وهم الذين يكتبون الأوامر والمنشورات ثم يختمها هو بختمه .



عبد الله التعايشي يقطع النيل عند ام درمان ويحرض رجاله على القتال

البريد :

والمخابرات بين عاصمة الدراويش وسائر اعمالها بواسطة الهجانة ، وهم عبارة عن ستين او سبعين هجيناً يتولاها بضعة من الرجال يختارهم التعايشي لحمل اوامره الى العمال ورؤساء القبائل ويعودون اليه بالأخبار والأجوبة ، وقد اشار عليه ابراهيم عدلان ان يرتب البريد ويعيّن له مواقيت ومحطات ، فأبى بدعوى ان الهجانة الذين يحملون البريد رأساً ينقلون اليه اخباراً شفاهية هي اثمن عنده من نظام البريد .

ركوبه :

وكان التعايشي يركب احياناً فيخرج بموكبه لتعهد بعض منازله في

اطراف المدينة فينفخ بوّاق في بوق طويل من قرن الخرتيت اسمه امبايو صوت مزعج فضلاً عن اصوات الطبول فإذا سمع الناس صوت الامبايو والطبل علموا ان التعايشي خارج من ديوانه فيفتح الناس ابوابهم ويطلون من السطوح والكوى لمشاهدة خليفة مهديهم . فإذا مشى الموكب ركب الخليفة في حلقة الملازمين يتقدمها شرذمات منهم ووراءهم جماهير الناس من اهل المدينة بين راكب وماش . ويمشي الى يسار التعايشي رجل ضخم اسمه ابو ضحكة يساعده في ركوبه وترجله ويسير امام التعايشي البواق ينفخ الامبايو بأمره ووراءه اصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف او المسير او غير ذلك حسب امره ويمشي وراءهم خدمته الخصوصيون يحملون له الركوة (ابريق من جلد يملأ ماء للوضوء) وفرواً للسجود عند الصلاة ورماحاً ويرافق هذه الجماهير الموسيقى العسكرية يضربها خمسون عبداً وهي عبارة عن ابواق من قرون الوعل وطبول مصنوعة من جذوع الشجر مجوّفة ومغطاة بالجلد اصواتها تزعج الحواس . وفي اثناء مسير الموكب يلعب بعض الخيالة من الملازمين على ظهور الخيل .

الاستعراض :

وكان يستعرض التعايشي رجاله اربع مرات في السنة في الاعياد الاربعة المولد النبوي والمعراج وعيد الفطر وعيد الاضحى باحتفال شائق يحضره اهل ام درمان وغيرهم وكان يستعرضهم قبلاً مرة كل اسبوع في يوم الجمعة .

قواته :

وأما قواته ومقدار ما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب

دولته فمعظمها من المشاة حملة السيوف والرماح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٤,٣٥٠ وغيرهم . وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و ٤٠,٣٥٠ بندقية . هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته .

حكومة التعايشي وإدارتها وأعمالها

١ – المالية :

تسمى المالية عند الدراويش (بيت المال) او هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من انواع الدخل والخرج اهمها خمسة وهي : ١ – بيت المال العمومي . ٢ – بيت مال الملازمين . ٣ – بيت مال الخمس للخليفة . ٤ – بيت مال ورشة الحربية . ٥ – بيت مال ضابطة السوق .

بيت المال العمومي :

هو عبارة عـــن الخزينة العمومية لمملكة الدراويش يجمع دخلها من المصادر الآتيـة : ١ – الزكاة والفطرة . ٢ – الاسلاب والغنائم المكتسبة بالحرب . ٣ – العشور وهي ما يدفعه التجار ضريبة على بضائعهم (المكس) . ٤ – ضريبة الصمغ . ٥ – ضريبة القوارب . ٦ – قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي دفعها . ٧ – ضرائب العبور في النيل من ضفة الى اخرى (المعديات) . ٨ – غلة الارض الواقعـة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق ، وهي تمتد جنوباً الى كركوج وفشوده وشمالاً الى حجر العسل . ٩ – معين يستولي عليه بيت المال العمومي من بيوت المال الاخرى .

وأمـــا نفقات بيت المال العمومي فهي : ١ - نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم الى المديريات والمقاطعات . ٢ - اعطيات الجند (رواتب الجهادية) . ٣ - رواتب المستخدمين . ٤ - الصدقات .

بيت مال الملازمين :

ويراد به خزينة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه وياورانه . يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل ارض الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) . وأما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين .

بيت مال الخمس للخليفة :

وهو أشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية : ١ - معظم ما يبقى في خزائن المديريات بعد نفقاتها المعلومة . ٢ - محاصيل الجزائر الواقعـة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي تجاه الخرطوم ، ومحصول ارض الغنيمة ومنها حلفـــاية وكملين ، وكانتا قبلاً من املاك الخاصة الخديوية . ٣ - عشر البضائع التي ترد من بربر الى ام درمان . ٤ - اثمـان العبيد الذين يرسلون من المديريات . ٥ - محصول اكثر البواخر والسفن . امـا خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي .

بيت مال ورشة الحربية :

ويشبه خزينة الحربية عندنا ، دخله من : ١ - غلة جنائن الخرطوم . ٢ - محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم . ٣ - العاج الوارد من خط الاستواء .

وخرجه : ١ - نفقات البحرية . ٢ - نفقات الترسخانة ويسمونها بيت

الامانة . ٣ - استخراج ملح البارود وتنقيته . ٤ - نفقـــات معمل الاسلحة .

بيت مال ضابطة السوق :

وهي خزينة الضابطة ، دخله من اموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت .

وأما نفقاته فعلى ما يأتي : ١ - رواتب الضابطة من الانفار والضباط . ٢ - نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب اخي عبد الله التعايشي . ٣ - نفقات بناء السور الكبير لأم درمان .

هـذه هي اقسام المالية من الدخل والخرج ، اما المقادير التي تدخل وتخرج فلا تتيسر معرفتها .

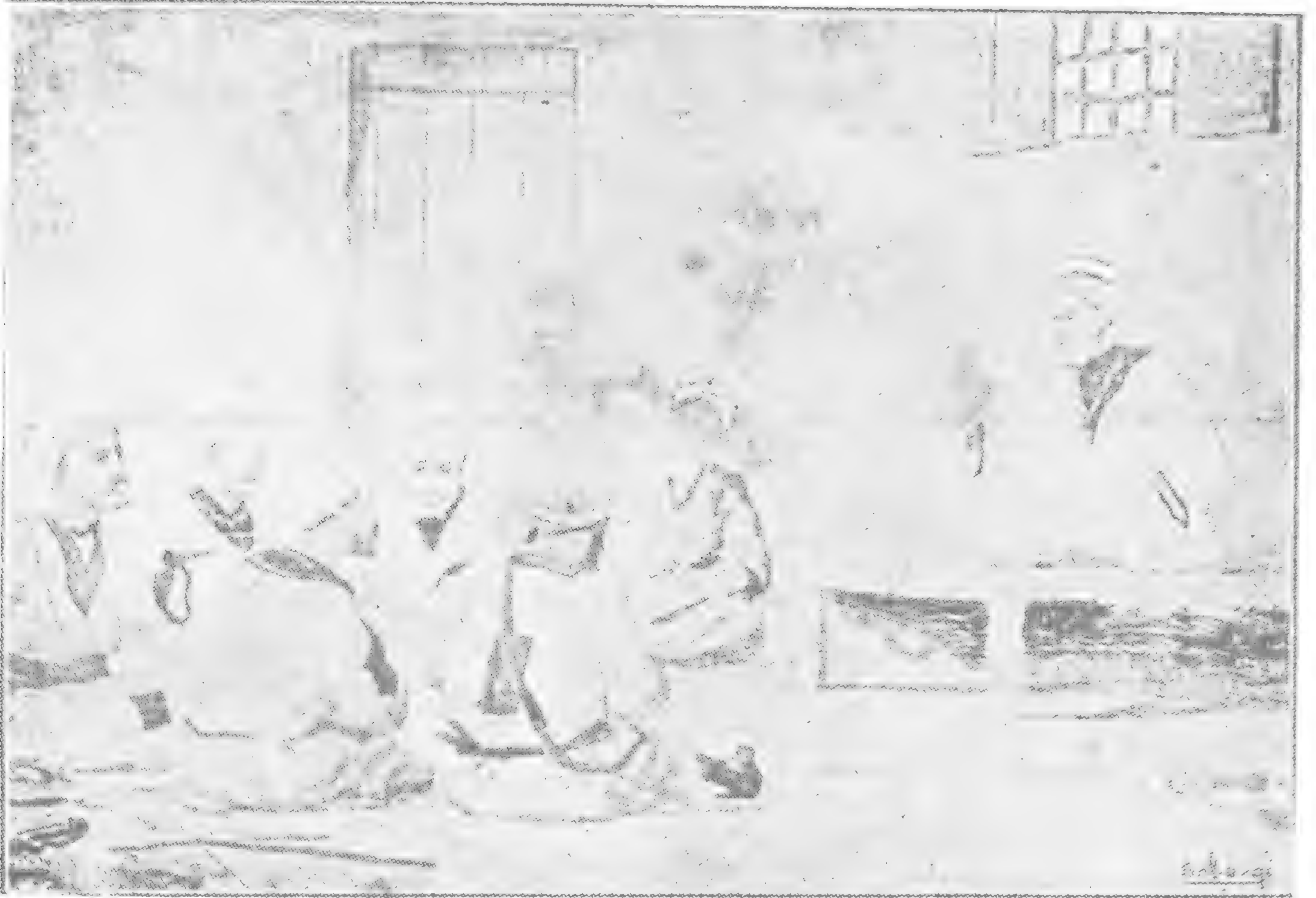
٢ - النقود والتجارة :

لما قام المهدي بدعوته ووُفق الى فتح المديريات استولى على خزائنها وأموال اهلها ، فكان ينفق ممـــا وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة المصرية وأهمهـا : الريال المجيدي والريال ابو مدفع . فلمـا اتسعت مملكته ونفدت تلك الأموال أخـذ في ضرب النقود باسمه ، وقـد أشار عليه بضربها احمد ولد سليمان ، فضرب نقوداً فضيـة شبيهة بالريال المصري وجنيهات شبيهة بالجنيهات المصرية ، ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقـادير اللازمة من كل معدن منها . وكان الذهب قليـلا بين أيديهم فكفّوا عن ضرب الجنيه وأكثروا من ضرب النقود الفضية فضربوا منها ضربات عديدة تعرف بأسماء خاصة منها (ريال المهدي) وهذا أحسنها كلها ، ومنها (مقبول) و (ابو سدر) وكلاهما من

ضرب نور القيرافوي و (أبو كيس) وعليه رسم رمحين متصالبين .
و (العملة الجديدة) ، على انهم أخذوا يُنقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ مع انها كانت في بادىء الرأي ٧ الى ١ أي ان الريال كان يحتوي سبعة أجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة أجزاء من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها اموالاً طائلة لأنها تعطى حكراً او ضمانة ، ومن قوانينها ان يرأسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة آلاف ريال كل شهر ، وما يضربانه من النقود يجب ان يكون مقبولاً لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على صحتها او تمنّع عن قبولها فعقابه الجلد او سلب الاموال ، فالريال صار يستبدله تجار ام درمان بثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابو مدفع بخمسة ريالات فاضطروا ، ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان يرفعوا أثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البفتة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة أرباع الريال ، وأصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهماً) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الأثمان قاصر على البضائع الواردة من مصر أما ما يُجلب من السودان فأثمانه بخسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلاً يساوي ستين ريالاً والبقرة مائة ريال واردب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فأكثر .

٣ — القضاء :

كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى (قاضي الاسلام)



مجلس التعايشي

وجميعهم آلات صماء بأيدي التعايشي فلا يصدرون حكماً إلا كما يوحيه هو اليهم ما خلا القضايا الطفيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قويين : ضميرهم والأحكام الشرعية من جهة وإرادة التعايشي من جهة اخرى ، وهاك أسماء قضاة ام درمان عام ١٨٩٥ :

١ — حسين ولد زهرة	من قبيلة الجمالين
٢ — سليمان ولد الحجاز	« « الحجاب
٣ — حسين ولد قيسو	« « الحمر
٤ — احمد ولد حمدان	« « العراقين

٥ – عثمان ولد احمد « « البطاحين

٦ – عبد القادر ولد ام مريم وكان قاضي كلا كلا على عهد الحكومة المصرية .

٧ – محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين .

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدرون حكماً بل يبدون رأيهم ، وأما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره اول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو أعلم اهل السودان كافة مع الميل الى العدالة ، وكثيراً ما اصدر أحكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي ، فأصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى وقلما يدعوه لحضور الجلسات .

وأساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي أشرنا اليها في كلامنا عن اوصاف المهدي وتعاليمه ، ويزعمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لإحياء ما كاد يندثر من أحكام الشريعة الغراء بالإهمال . وأهم تلك التعاليم الاعتقاد بأن محمد احمد هو المهدي المنتظر ومن شكّ في ذلك فعقابه القتل .

وواجبات قاضي الملازمين الحكم في ما يعرض بين الملازمين او بينهم وبين عامة الناس ، وفي الحالة الثانية فالحق دائماً في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان ببيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالأحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الطفيفة التي تعرض هناك .

تلك كانت حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها النحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لقهرها وبعد مواقع عديدة فتحوا ام درمان سنة ١٨٩٨ وفرّ التعايشي ورجاله الى الجبال في كردوفان فتبعوه بعد قليل وحاربوه سنة ١٨٩٩ فحاربهم مستهلكاً حتى قتل هو وكل من كان معه إلا قليلين التجأوا الى الفرار وانقضت بتلك الواقعة دولة الدراويش .

ناصر الدين شاه

ملك الفرس

مملكة الفرس من الممالك القديمة التي عاصرت البابليين والمصريين واليونان والرومان وامتدت سطوتها الى الخافقين اجيالاً متطاولة وتوالى على سرير ملكها دول متعددة اقربها عهداً منا الاكاسرة بدأ حكمهم فيها في القرن الثالث للميلاد حتى استخرجها العرب من ايديهم في صدر الاسلام وما زالت في حوزة العرب الى سنة ١٢٥٨ م فتولاها التتر الى سنة ١٥٠٠ م فأخرجها من ايديهم رجل عربي الاصل اسمه اسماعيل فتولاها ٢٣ سنة وسمى نفسه الشاه ثم تولى خلفاؤه بعده وعرفوا بالشاهات واشتهر بينهم افراد امتازوا بالحكمة والشجاعة . وآخر عائلة من شاهات الفرس عائلة قاجار اولها آغا محمد خان تولى الملك سنة ١٧٩٤ وخلفه ابن اخيه فتح علي شاه سنة ١٧٩٧ ثم محمد شاه حفيد فتح علي سنة ١٨٣٥ م ثم ابنه ناصر الدين شاه الذي نحن في صدده .

ولد رحمه الله يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٤٧ (١٦ يوليو (تموز) سنة ١٨٣١) واسم والدتـه البرنسس وليت فربي في حجر والده وتولى في صباه ولاية



ناصر الدين شاه (١٨٣١ م - ١٨٩٦ م)

اذربيجان بحياة والده وفي ١٣ اكتوبر سنة ١٨٤٨ توفي والده محمد شاه فأفضت السلطة اليه وهو لم يكد يتجاوز الثامنة عشرة من عمره فتولى الاحكام بعقل ودراية مع ميل الى الاصلاح ومجاراة التمدن الحديث وكان في اوائل حكمه كثير الاعتماد على مشورة وزيره الاعظم الامير مرزا طاغي وكان وزيره هذا رجلاً محكناً عاقلاً فكانت له باع طولى في سائر الاصلاحات التي احدثها الشاه في بلاده وعرف الشاه له ذلـك فكافأه بتزويجه اخته وتلك نعمة قلما نالها وزير فحسده بعض زملائه فوشوا به الى الشاه فنفاه وقالوا بل قتله .

على ان ذلك لم يقف في سبيل اعماله فتابـع الاصلاح والاحكام بحكمة وثبات ولكن موقع بلاد ايران الجغرافي جعلها عرضة لمطامع دولتين من

اعظم دول اوروبا وهما الروسية من الشمال وانكلترا من الشرق فملافاة لما يخشاه تقرب من فرنسا فعقد معها سنة ١٨٥٥ معاهدة صداقة وتجارة ولما انتشبت حرب القرم التزم الحياد .

وفي سنة ١٨٥٦ احتلت جنوده هرات فشق ذلك على حكومة انكلترا فجرّدت عليه جنداً هندياً في آخر سنة ١٨٥٦ واستعرت نار الحرب بضعة اشهر وانتهت بإخلاء هرات ومعاهدة عقدت بباريس في ٤ مارس سنة ١٨٥٧ يعود النفع بها على انكلترا . ولم يكد يستريح من مناضلة ذلك العدو الشديد حتى ثارت عليه بعض الولايات المجاورة فحاربها وتغلب عليها وأرسل حملة الى التركمان وعاد ظافراً غانماً .

فلما هدأ باله من الحروب والفتن عمد سنة ١٨٦٠ الى الاصلاح فغير نظام الجند وأدخل الاسلاك التلغرافية الى بلاده . وأول سلك نصبه احتفل بنصبه بنفسه سنة ١٨٦١ . وفي سنة ١٨٦٦ عقد مع انكلترا عهداً بشأن انشاء المواصلات التلغرافية بين اوروبا والهند عن طريق الفرس وأنشأ المدارس والمكاتب ونشط المشروعات الادبية والعلمية على انه لم يخل من اعداء يتربصون له ويغتنمون الفرص للفتك به ففي سنة ١٨٦٩ اكتشف مؤامرة سعى فيها جماعة من رعيته فانتقم منهم انتقاماً جاوز به حد الرأفة وعرض اسمه للوم امم اوروبا فهاجت خواطرها ولكنها لم تحرك ساكناً .

وفي سنة ١٨٧١ اصاب بلاد فارس قحط رافقه الهواء الأصفر والحمى فأصاب الناس جهد شديد فبلغ عدد الذين ماتوا في اصبهان وحدها ١٦٠٠٠ .

فلما زالت النكبات وعاد الخصب عزم ناصر الدين شاه على السياحة في اوروبا فسار في ١٢ مايو (ايار) سنة ١٨٧٣ من طهران شمالاً فقطع بحر قزوين الى استراخان ومنهـا الى موسكو فبطرسبورج فالمانيـة فبلجيكا فانكلترا ففرنسا فسويسرا فايطاليا فسالسبورج ففيينا ثم عاد الى ايطاليا وسار منها الى الاستانة ومنها الى تفليس ومنها الى باكو بالعربة وعـاد الى طهران مسرعاً فوصلها في ٦ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٣ وشاع عند عودته انـــه انما اسرع لملافاة مؤامرة كانوا يسعون فيها لخلعه فجازى المؤامرين بعصا من حديد .

وفي سنة ١٨٧٥ م ثار الجهادية وتمرّدوا على الشاه حتى اضطروه لمغادرة طهران ، ولكنه ما لبث ان أخمد نارهم وعـــاد الى كرسيه . وفي سنة ١٨٧٨ ساح سياحة اخرى في روسيا . وفي سنة ١٨٨٠ ثار عليه الأكراد فأبلى فيهم بـلاء حسناً فثابوا الى السكون ، وفي سنة ١٨٨٨ مُدَّ اول خط حديدي بين طهران وشاه عبد العظيم ، على ان السكك الحديدية دخلت بلاد الفرس منذ سنة ١٨٦٥ . وفي اوائل سنة ١٨٨٩ خرج للسياحة في اوربا مرة ثالثة فلاقى ترحاباً عظيماً وعاد في اواخرها ، وقضى السنين الاخيرة بالراحة والسكينة مهتماً في شؤون مملكته وترقية شأن رعيته ، وقد أخذ الايرانيون يشتغلون في إعداد المعدات للاحتفال بالعام الخمسين لملكه ففاجأهم ذلك المصاب بقتله بغتة .

قتله رجل معتوه في اول مايو سنة ١٨٩٦ وهو داخل مسجد عبد العظيم ليصلي فأصابت الرصاصة قلبه فمـات وأفضى الملك بعده الى أكبر أنجاله مظفر الدين شاه .



مظفر الدين شاه ملك الفرس

النهضة العلمية الاخيرة في بلاد الفرس

تمهيد :

اشتهر الفرس من قديم الزمان بالعلم والادب ونبغ منهم الشعراء والفلاسفة والحكماء والاطباء يوم كانت اوربا لا تزال محجوبة بظلمات الجاهلية . حتى اذا ظهر الاسلام ودخلت بلاد فارس في حوزته كان الفرس من أكبر العوامل الفعالة في نشأة التمدن الاسلامي .

فلما قضي على الشرق بالتقهقر في الاجيال الاخيرة اصاب بلاد فارس

من ذلك ما اصاب الشام ومصر ، فانغمست تلك البلاد في حمأة الجهل إلا ما كان من بقايا العلوم القديمة الذائعة على أيدي المشائخ والفقهاء وغيرهم مما لا يتلائم مقتضيات العصر الجديد عصر الاختراع والاكتشاف . وتفتخر مصر ويحق لها الفخر بأنها سبقت سائر بلاد المشرق في اقتباس أنوار التمدن ثم نسج الشرقيون على منوالها .

ومما لا يحسن السكوت عنه ان الفضل الاكبر في تأسيس النهضة العلمية في الشرق سواء كان ذلك في مصر او الشام او فارس انما هو للفرنساويين ، وأول من غرس بذور التمدن فيه انما هو رجلهم بل هو رجل العالم وفرد أفراده (نابليون بونابرت) ، حمل هذا القائد على الشرق يريد اكتساحه كما اكتسحه الاسكندر قبله لكنه لم يأته بالعدة والسلاح فقط بل نقل اليه بذور التمدن وأصول المعارف فأرفق حملته الحربية بحملة علمية جمعت نخبة من علماء فرنسا في ذلك الحين . ولم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية فعاد على أعقابه ، وظلت تلك البذور كامنة حتى نهض من رجال الشرق من احسن تعهدها وتربيتها فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام . فالنهضة الاخيرة تبدأ فيها من آخر القرن الثامن عشر وقد نمت وازدهرت وأثمرت على يد أرومة العائلة الخديوية المغفور له محمد على باشا الكبير ومن خلفه من اعقابه الكرام .

أما بلاد فارس فان الفضل في نهضتها الاخيرة للمغفور له ناصر الدين شاه .

أساس النهضة :

تبدأ هذه النهضة سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٤ م لأن في هذه السنة أرسل المغفور له ناصر الدين شاه اربعين شاباً من أدباء الفرس وأهل العصبية

برئاسة حسن علي خان امير نظام من مشاهير قواد الفرس وأهل البيوت الرفيعة . سار اولئك الشبان الى فرنسا فتلقوا فيها العلوم الحديثة بأنواعها من الطب والرياضيات والطبيعيات وعادوا الى بلادهم وعملوا على نشر تلك العلوم بانشاء المدارس كما سيجيء .

المدارس :

كانت المدارس في بلاد فارس قبل هـذه النهضة على نسق الكتاتيب المصرية القديمة ، وربما كان في البلدة الواحدة عدة مدارس ، ولكن التعليم كان على الطريقة القديمة يقتصر الخوض فيها على العلوم الدينية وشيء من العقليات والرياضيات والعلوم العربية . وكانت اللغة العربية يومئذ سائدة بعد الفارسية كما هي الآن فلما عادت البعثة المتقدم ذكرها سنة ١٢٧٧ ه أنشئت المدارس على النمط الحديث في طهران وتبريز . ففي طهران اليوم سبع مدارس كبرى للحكومة وهي : ١ – مدرسة الطب . ٢ – المهندسخانة . ٣ – مدرسة الميكانيك . ٤ – مدرسة المعادن (الطبيعيات) . ٥ – مدرسة الصنائع . ٦ – مدرسة المبتديان . ٧ – التجهيزية ويطلق عليهـا جميعاً اسم (دار الفنون) .

وفي تبريز مدرسة كبيرة تعلم فيها اللغات الفارسية والعربية والانكليزية والفرنساوية والروسية وسائر العلوم العصرية . وكل من المدارس المتقدم ذكرها كانت تحت رئاسة عـالم فرنساوي وأكثر أساتذتها ورؤسائها من متخرجي مدارس فرنسا .

وأسس ناصر الدين شاه في مدينة طهران ، فضلاً عمـا تقدم ، مدرسة سماها (دار الترجمة) أقامها في قصره وتحت رئاسته لترجمة الكتب العلمية من اللغات الأفرنجية وكان ينفق عليها من ماله الخاص .



احمد شاه ملك الفرس

مدرسة الطب :

ومما يحسن ذكره ان الطب كان قبل هذه النهضة على ثلاثة أشكال : الطب الهندي والطب اليوناني والطب الفارسي . وكان كل منهـا يعلم على حدة وله قوانين خاصة . فلما أراد ناصر الدين شاه إنشاء المدرسة الطبية

استقدم من فرنسا طبيباً ماهراً اسمه الدكتور طولوزان كلفه بانشاء مدرسة طبية كلية على مثال مدرسة باريس وفرض على كل طالب ان يتعلم الطبين الحديث والقديم ، وأمر بترجمة الكتب الطبية من الفرنساوية الى الفارسية واستحضر سائر المعدات الطبية من الأدوات والتماثيل ونحوها بحيث يخرج الطالب منها وشهادته مقبولة في سائر الممالك كأنها معطاة من أكبر مدارس فرنسا ، وقد توفي مؤسسها الدكتور طولوزان وخلفه غيره . ونبغ من هذه المدرسة جماعة من الاطباء نذكر منهم الدكتور ميرزا علي خان والميرزا محمد خان وزين العابدين خان وغيرهم من نطس الاطباء .

ولما تولى جلالة مظفر الدين شاه سنة ١٨٨٦ سار على خطوات المرحوم والده ، فنشط العلم ووسع الساعين في انشاء المدارس فأنشىء منها تحت رعايته ست عشرة مدرسة بعضها في طهران والبعض الآخر في تبريز وبوشهر وغيرهما . ثم شغلت الامة بالقيام على الشاه المذكور التماساً للدستور حتى افضى الامر الى خلعه سنة ١٩٠٩ وتوليه احمد شاه .

المطابع :

يظهر ان المطابع في ايران أقدم من المدارس فيها ، وأول مطبعة أُنشئت في تبريز سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) سعى في إنشائها عباس ميرزا ولي عهد فتح علي شاه ملك الفرس يومئذ ، فانه استدعى اثنين من فحول العلماء وهما : ميراز صالح شيرازي وميرزا محمد جعفر التبريزي الشهير بأمير ، وأرسلهما الى موسكو وبطرسبرج ، فاستحضرا ١٤ آلة طباعة من الطراز القديم (مكبس) تطبع على الحجر (ليتوغراف) ، وأسسا دار الطباعة في تبريز باسم الحكومة ، وبعد بضع سنين تنازلت لهما الحكومة

عنها . ثم أُنشئت في طهران مطبعة حروف (تيبوغراف) ، وأول كتاب طُبع فيها القرآن الشريف . ولكن هذه الحروف لم يطل استعمالها اكثر من بضع وعشرين سنة ، فأهملت وانتشرت المطابع الحجرية في طهران وخراسان وشيراز ، ثم عادوا منذ بضع سنين فأنشأوا مطبعة حروف في تبريز تسمى « مطبعة سركاري » سعى في انشائها محمد علي ميرزا ولي العهد يومئذ . وفي تبريز وطهران فضلاً عما تقدم كثير من المطابع الاجنبية الفرنسية والارمنية .

الصحافة الفارسية :

اول صحيفة فارسية ظهرت للوجود جريدة « روزنامه » صدرت في تبريز في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة ، وكانت اسبوعية . ثم جريدة « ايران » الرسمية ، وجريدة « رومية » في اذربيجان ، و « فرهنك » في اصبهان تحت رعاية السلطان مسعود ميراز ظل السلطان الشقيق الاكبر للشاه السابق .

وظهرت في ايام مظفر الدين شاه جريدة « تبريز » في تبريز ، و « صدى الفرس » بالفرنسية ، و « اطلاع » و « شرف » (وهي جريدة مصورة) ، و « خلاصة حوادث » يومية ، و « تربيت » في طهران ، ثم « شرافت » مصورة ، و « ناصري » و « احتياج » و « أدب » و « كال » في تبريز ، وجريدة « رومية » ظهرت في رومية باللغه الكلدانية . ولما اعيد الدستور الفارسي ظهرت جرائد كثيرة لا محل لها هنا .

اما الصحافة الفارسية خارج ايران فأولها جريدة « اختر » (الكوكب) صدرت في الاستانة سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) لصاحبها آقا محمد طاهر

تبريزي ، ظلت تصدر الى عــام ١٣١٣ هـ فتعطلت لضعف ألمّ بصاحبها ، ثم صدرت « حكمت » في مصر القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ، وهي مجلة سياسية علمية لمنشئها زعيم الدولة الدكتور ميراز محمد مهدي خان التبريزي رئيس الحكماء ، وهو من فطاحل علماء ايران وعليه كان معتمدنا في اكثر مـــا ذكرناه عن النهضة الاخيرة في بلاد الفرس . ولا تزال « حكمت » تصدر بين ظهرانينا مرة كل اسبوع . ثم صدرت جريدة « كوكب ناصري » في بومباي . ثم « حبل المتين » في كلكتة من بلاد الهند سنة ١٣١٢ هـ للسيد جلال الدين الكاشاني . ثم ظهرت جريدة « ثريا » في القاهرة سنة ١٣١٦ هـ لمنشئها ميراز علي محمد خان . وظهرت منذ بضع سنين جريدة جهره نما بالاسكندرية ، وهي الآن تصدر في القاهرة . والفرس ميّالون الى المطالعة وكلهم يقرأون العربية لأن تعلم هذه اللغة إلزامي في مدارسهم .

وفي بلاد الفرس جماعة كبيرة من العلماء ، وهم على اربعة اصناف :

١ – علمــــاء العلوم الدينية وهم الفئة الكبرى ومنهم الفقهاء ، وكل اشتغالهم باللسان العربي مطالعة وتأليفاً .

٢ – الحكماء ، ويسمونهم الحكميين نسبة الى الحكمة اي الفلسفة ، وهم كثار ومنتشرون ويكتبون بالعربية والفارسية .

٣ – علمــــاء العلوم الحديثة ومنهم الأطباء والمهندسون وغيرهم ، وهم يعرفون العربية والفارسية والفرنسية وغيرها .

٤ – الشعراء ، وهم جمـــاعة كبيرة لهم شأن عظيم عند الدولة والملة ، لأن الشاه وأهل دولته يعظمون شأن الشعراء ويجلّون مقــامهم . ومنهم شاعر خاص يسمونه « ملك الشعراء » وآخر لولي العهد يسمونه « صدر الشعراء » .



تعاقد علماء النجف وثريا بك

وليس في بلاد فارس جمعيات أدبية او علمية على ما نعلم ، إلا جمعية نشأت منذ عدة اعوام تسمى « انجمن دآنش » . وفي النجف طائفة كبيرة من علماء الدين عندهم كان لهم تأثير كبير في إعادة الدستور ، وهم الذين تعاقدوا مع ثريا بك مندوب جمعية الاتحاد والترقي العثمانية على الثبات في نصرة الحرية . وهذا رسمهم وهم يتعاقدون (راجع تاريخ الدستور الفارسي في السنة ١٧ من الهلال) .

نظام الجند :

ولا بأس من استطرادنا الى ذكر نظام الجند الفارسي لأنه من جملة مقتضيات التمدن الحديث . دخل هذا النظام سنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) بدأ بتنظيمه فتح علي شاه وكان قد سمع بنظام الجند الفرنساوي على ما وضعه بونابرت فبعث الى فرنسا استقدم احد مشاهير قوادها ومعه عشرون

ضابطاً جعلهم جميعاً تحت قيادة ابنه عباس ميراز ولي عهده وكان يومئذ والياً على اذربيجان فدربوا الجند على نظام الجند الفرنساوي . ثم تراءى له ابداله بالنظام الانكليزي وسمي الجندي (سرباء) أي فادي الرأس . ثم أبدله ناصر الدين شاه بالنظام النمساوي سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) على اثر رحلته المشهورة الى اوربا ، واختار لجنده ضباطاً نمساويين عقد معهم اتفاقاً على خمس سنوات . فلما قضوا تلك المدة طابت لهم الاقامة هناك فتجنسوا بالجنسية الفارسية وتوطنوا ، ولا يزال هـذا نظام جند فارس الى اليوم .

الامير عبد الرحمن

امير الأفغان

استقلال افغانستان :

يبدأ تاريخ افغانستان بالوضوح منذ استيلاء تيمورلنك عليهـا ، وهو القائد المغولي الشهير الذي دوخ آسيا في اواخر القرن الرابع عشر للميلاد وفتح افغانستان في جملة فتوحاته وتولاها خلفاؤه بعده . وفي سنة ١٥٠١ م استخرجها من دولة آل تيمور ظهير الدين محمد القائد المغولي المعروف ببابر « بابر » في الهندية « النمر » سمي بذلك لمـا ظهر من اعماله الدالة على البطش والشجاعة . وهو من سلالة جنكز خـان وفي عروقه شيء من دم تيمورلنك . ظهر هذا القائد في فرغانة بين سمرقند ونهر الهند . وكان ابوه اميراً على فرغانة ، فطمع هو في الغزو ففتح كابل ودوخ بلاد الهند وأسس فيها دولة مغولية دخلت افغانستان في حوزتها .



الامير عبد الرحمن خان (١٨٣٠ م — ١٩٠١ م)

وما زالت افغانستان تابعة لدولة بابر حتى ظهر نادر شاه القائد الفارسي الشهير بنابليون الشرق ، فكان من جملة غزواته انه فتح قندهار وكابل سنة ١٧٣٧ واكتسب ثقة الافغانيين فأحبوه وانتظموا في جنده وفي جملتهم شاب شجاع اسمه احمد خان الدراني من قبيلة العبادلة وكان يُعرف بأحمد خان العبدالي .

وظلت افغانستان في حوزة الفرس عشر سنوات . فلما قتل نادر شاه سنة ١٧٤٧ اختار الافغانيون احمد المذكور اميراً عليهم . فأصبحت افغانستان مملكة مستقلة وملكها احمد العبدالي وقد سموه احمد شاه . فتولى حكومتها بضعاً وعشرين سنة وفتح بلاداً كثيرة أخضعها للافغان . فأصبحت مملكته



تيمورلنك القائد المغولي الشهير

تمتد من بحر قزوين غرباً الى حدود الهند شرقاً . ومن أشهر حروبه واقعة بني بتان قرب دهلي حارب بهـا قبائل المهراتة من الهنود الوثنيين في ٦ يناير (كانون الثاني) سنة ١٧٦١ م .والمهراتة يومئذ في ابان بطشهم وقـد أعجزوا أعاظم السلاطين التيمورية في الهند حتى طمعوا بنزع السلطة من أيدي المسلمين ، وكانت جنود الهند في تلك الواقعة ثمانين الفاً وجند احمد شاه ستين الفاً نصفهم من الافغان ولم يكن احمـد شاه يعتمد في حروبه على سواهم . فانهزمت المهراتة شر هزيـة ونكـّل بهم الافغانيون تنكيلاً عظيماً . فطار صيت احمـد شاه في أقطار الهند وهابه الملوك والامراء وانتشرت سطوته هناك ففتح بنجاب وكشمير والسند وما والاها . ثم بلوجستان ومكران وبلخ وغيرها واتسعت مملكة الافغان في أيامه اتساعاً



نادر شاه الفاتح الفارسي الشهير

عظيماً ونالت ثروة وسطوة لم تبلغ لهما قبله ولا بعـــده . وأحبه رعاياه وأكرموه حتى لقبوه ببابا وصار اسمه احمد شاه بابا .

ولكن الممالك القائمـة بقوة سلطانها او اميرها فقط لا تلبث اذا هو مات ان تسقط حتى يقوم من يقيمها بعده خلافاً للحكومات المؤسسة على النظام والمقيدة بالشورى فإن موت الملك قلما يؤثر فيها . ومات احمد شاه سنة ١٧٧٣ فخلفه ابن له اسمه تيمور ، وكانت قصبة المملكة قندهار فجعلها كابل وهي لا تزال قصبة افغانستان الى الآن . وكان تيمور هذا حكيماً عاقلاً فاجتهد في استبقاء ما خلفه ابوه من العز ، فبقيت المملكة سعيدة طوال ايامه .

وتوفي بعد عشرين سنة وخلف ٢٣ ولداً خلفه منهم ابنـه الخامس شاه زمان ، وقام النزاع بين الأخوة فتضعضعت المملكة وخرج كثير من الولايات من حوزتها وصار القواد يختطفونها والأعداء يسطون عليها ممـا يطول شرحه ، حتى افضى الامر الى انقسامها فاستولى على كابل احـد القواد من قبيلة الباركزائية واسمه دوست محمد (جـد عبد الرحمن امير الافغـان) في اوائل القرن الماضي . وطمحت مطامع نابوليون بونابرت في أثناء ذلك الى اواسط آسيا ، فبعث الجواسيس الى امرائها وملوكها وفي جملتهم شاه الافغان . فخاف الانكليز عاقبة تلك الدسائس فبعثوا سفيراً الى الشاه سنة ١٨٠٩ م لمقاومة دسائس بونابرت وكان ذلك اول علاقات الانكليز بالأفغـان . ثم سطا الفرس على الأفغـان فحاصروا هرات سنة ١٨٣٧ وتحرك الروس فخاف الانكليز على اغراضهم فأرسلوا سفيراً اسمه بارنس ليقيم في كابل وازدادت العلائق بعد ذلك بين دوست محمد وانكلترا وكتبت المعاهدات وانكلترا تنصره على كل مهاجم او منازع . وكان دوست محمـد شاه هذا حكيماً ينظر في شؤونه بعين الحكمة والدراية ، فاستفاد من علائقه الحسنة مع انكلترا فائدة كبرى .

وتوفي دوست محمد عام ١٨٦٣ م ونذكر من اولاده ثلاثة وهم افضل خان وأعظم خان وشير علي خان وكان هذا اصغرهم ولكن اباه اختصه بولاية العهد من دونهم ، فشق ذلك على اخويه وقـام النزاع بين الاخوة وشبّت الحروب الداخلية فكان النصر حليف شير علي خان حتى قبض على اخيه افضل خان (والد الامير عبد الرحمن) وألقـاه في السجن ، وكان عبد الرحمن شاباً لا يزيد عمره على العشرين عام ففر الى بخارا ثم عـاد الى افغانستان وانضم الى جيش عمه اعظم خان وحارب معه حتى

تمكن من دخول كابل بجيشه ظافراً ثم طارد شير علي خان وتغلب عليه في مواقع كثيرة .

ثم عاد شير علي ومعه القبائل والأحزاب ، فأخرج عبد الرحمن من كابل ، فأراد الالتجاء الى الهند فمنعه حاكمها من الدخول اليها ، فاحتمى بروسيا نكاية بانكلترا وأقام عبد الرحمن بين سمرقند وتشقند عشر سنوات والحكومة الروسية تجري عليه راتباً يزيد على مئة وخمسين جنيهاً في الشهر.

الامير عبد الرحمن :

هو عبد الرحمن خان بن افضل خان بن دوست محمد خان . وُلد عام ١٨٣٠ ونشأ منذ نعومة اظفاره بين الفتن والحروب بما قام من التنازع على النفوذ في افغانستان بين الروس والانكليز . ناهيك بما استحكم من الخصام بين والده أفضل خان وأعمامه اولاد دوست محمد خان ، فكان عبد الرحمن يناضل عن والده نضالاً حسناً واشتهر بالشجاعة والإقدام ، ولم تبق بقعة في افغانستان لم تتلوث ارضها بدماء قتلاه ، حتى اذا حمي وطيس الحرب بعد دخول الانكليز لجأ هو الى الروس ، وتلك عادة امراء الأفغان في مثل هذه الاحوال . فأجرى القيصر عليه الرواتب والوظائف حتى كانت سنة ١٨٨٠ وخلت كرسي الملك في كابل فأقامه الانكليز عليها على ان يراعي جانبهم .

ثم أخذوا بناصره وعضدوه وبالغوا في تقريبه بالهدايا والرواتب ، وفي جملة ذلك راتب مقداره ١٨،٠٠٠ جنيه في العام فضلاً عن النياشين والرتب ولقبوه السير عبد الرحمن خان . وجهزوه بكثير من الاسلحة والمدافع وجعلوا من مقتضى المعاهدة المبرمة بينهم وبينه ان يمدّوه بالمال

وينصروه بالرجال عند الحاجة ، وأنشأوا له في كابل ترسانة للأسلحة ، وأمدوه بالعملة والمهندسين ، حتى صاروا يعتقدون انـه صنيعتهم وخادم مصالحهم . اما هو فلم يكن يعترف بذلك ولا يريد ان يعترف به بل كان يعتبر نفسه محالفاً لانـكلترا . ويؤيد ذلك انـه اراد ان يرسل سفيراً من قِبله يقيم في لندن كما تفعل سائر الدول المستقلة . على انه كثيراً ما صرح بصداقته لانـكلترا جهاراً ، ومن جملة ذلك انـه التقى باللورد دوفرين في بندي في ربيع عام ١٨٨٥ م فأعرب الامير عما في نفسه من الاحترام لجلالة الملكة ورجال حكومتها وكانوا في وليمة جمعت جمعـاً غفيراً من رجال الدولتين ، فاستلّ الامير عبد الرحمن سيفه من غمده المرصع ولفظ خطاباً قال في ختامه انه سيقتل عدو انـكلترا بحد ذلك السيف .

ولم يكن جلوسه على كرسي الملك كافياً لتأييد سلطانه فحارب حروباً كثيرة قبل ان استتب الامر له من جملتها ان ايوب خان احد منازعيه ثار في قندهار فأرسل اليه عبد الرحمن جنداً عادوا خاسرين فلم يرَ بداً من اقتحام الوغى بنفسه فحمل عليه وقهره ففرّ ايوب الى بلاد ايران وعاد عبد الرحمن وقـد سكر بخمر الظفر وحكم رعاياه بعصاً من حديد فنفر الوجهاء منه فساء الظن بهم وخيل له انهم يتـآمرون على خلعه ، ولم يهدأ له بال حتى قتل كل من ظنه من أعدائه او كان وجيهاً محبوباً يخشى منه على نفوذه ، فازداد الناس كرهاً له ورعباً منه ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً لما يعلمونه من شدته واستبداده .

على ان ذلك لم يمنع ظهور ثورات اخرى بل ربما كان داعياً لها فإن الغلزية حاربوه مراراً ولم ينج من مطامعهم إلا بسفك الدماء .

وفي سنة ١٨٨٨ حاربه ابن عمه اسحق خان وكان حاكماً في افغانستان

تركستان ، وسبب حربه ان عبد الرحمن دعاه الى كابل دعوة ظاهرها حبيّ فخاف اسحاق تلك الدعوة لما يعلمه من عاقبة المدعوين قبله فاعتذر عن القدوم فأعاد الدعوة وتفنن بأساليب التجمل فلم ينخدع اسحاق وظل على عزمه ، فاتهمه عبد الرحمن بالعصيان وأنفذ جيشاً للقبض عليه فشتته اسحاق وطمع بكابل فحمل عليها . فأسرع عبد الرحمن لملاقاته وحاربه ففرّ اسحاق الى بلاد الروس وأقام في سمرقند هو وأنصاره تحت رعاية روسيا وحمايتها وهي تنفق عليهم وتبالغ في اكرامهم .

ثم ثار عليه الهزارية بين كابل وهرات وهم من اهل الشيعة فحاربهم فأتعبوه ولكنه تغلب عليهم واستتب له الملك ثم أصيب بمرض النقرس ولا يزال يتردد عليه العام بعد العام حتى ذهب بحياته سنة ١٩٠١ .

صفاته وأخلاقه :

هو ربعة ممتلىء الوجه حادّ البصر متناسب الملامح كما ترى في الرسم . يتكلم الفارسية والبوشتية وبعض العربية ، قال بعض الذين جالسوه انه حسن المحاضرة فصيح الكلام محتشم صحيح القياس مع مبالغة وإطراء . وتظهر فيه هذه الصفات خصوصاً اذا وقف على منبر الخطابة فإنه يؤثر على سامعية تأثيراً شديداً . ومن غريب ما يروونه عنه مما يندر في امراء تلك الاصقاع انه معتدل المزاج لا نهمٌ ولا شرهٌ لا يشرب الخمر إلا قليلاً ويكره الافيون ولا يقبله إلا اذا اشتدّ به الألم من مرض او نحوه فيتخذه مسكّناً . ولكنه شديد الاعجاب بنفسه كثير التحدث بما أوتيه من النصر حتى جعل نفسه قريناً للاسكندر الكبير فهو يعتقد انه متصل بهذا الرجل العظيم بحلقات كثيرة تفصل بينهما لكنها بالية لا يعبأ بها .

ويؤخذ من بعض أحاديثه انه مطلع على كثير من اخبار الامم قوي الذاكرة وشديد الحذر من الاجانب فلا يأذن لأحد ان يجتاز بلاده لتجارة او نحوها إلا في احوال خصوصية . ولكنه مع ذلك كثير الإكرام للنزيل لا يدخر وسعاً في سبيل راحته .

حكومته :

هي ملكية مطلقة وتقسم مملكته الى اربع إيالات : كابل وتركستان وهرات وقندهار ، وأضاف اليها مقاطعة بدكشان وما يتبعها . يتولى كل ولاية والٍ يسمونه (حاكماً) وكان يسمى في أيام شير علي خان (نائب) ويتولى القضاء قاضٍ وبعض المفتين او المحتسبين وهم الشرطة يجرون على نظامات لو روعيت لم يكن بها بأس .

وأمـا جنده فقد نظّمه شير علي خان سنة ١٨٦٩ على نظام الجند الاوربي وكان قد أهمل هذا النظام فأعاده عبد الرحمن،وعنده فضلاً عن الجند النظامي عدد كبير من الاهالي وفيهم الفرسان والمشاة ينجدونه عند الحاجة . أما عدد الجند فلا يمكن تحديده لاختلاف الروايات في شأنه . فقد قدّروه سنة ١٨٩٦ بخمسين الف ماشٍ تحت السلاح وأربعين كوكبة من الفرسان ، وأما سنة ١٨٩٠ فقد بلغ جند الافغان ٢٠٠،٠٠٠ مقاتل وعنده من الاسلحة النـارية ست بطاريات جبلية تجرها البغـال وبطارية تجرها الافيال . ومراكز الجند في هرات ومزارع الشريف وقندهار وجلال آباد وُتصنع الذخيرة في ترسانة كابل بادارة بعض الانكليز يصنع فيهـا في كل يوم ١٠،٠٠٠ فشكة من فشك مارتيـني و ١٠،٠٠٠ من فشك سنايدر و ١٥ بندقية . ويصنع فيها مدفعان في كل اسبوع .



الامير عبد الرحمن في اثناء سياحته ببلاد الهند سنة ١٨٨٥
الى يمينه دوك كانوت والى يساره ماركيز دوفرين

ومما يذكره الانكليز من علائقه الحسنة بانكلترا زيارته الهند سنة **١٨٨٥** لحضور المجلس الأعلى (دربار) الذي عقد في روال بندي في شمالي الهند الغربية على اثر المؤتمر الذي تشكل يومئذ من روسيا وانكلترا بشأن الحدود الشمالية لافغانستان بعد احتلال روسيا لمرو . وقد جرى امير الافغان في هذا الأمر على مقتضى مصلحة الانكليز فاكرموه واحتفلوا باستقباله في روال بندي احتفالاً شائقاً على النمط الشرقي وقدموا له سيفاً مرصعاً . وفي (الصفحة ٢١٤) صورته في اثناء ذلك الاحتفال .

حياته في بيته :

اطلعنا على رسالة للدكتورة هملتن طبيبة بيت الامير عبد الرحمن نقتطف منها ما يأتي تتمة لما ذكرناه من مناقب هذا الامير قالت :

اعتقاده في النساء :

لم اسمعه يتكلم عن زواجه إلا قليلاً وكان ذلك بمناسبة ذكر زواجه الاول الذي تمّ وله من العمر ثمانية عشر عاماً فقد قال لي : « قد يتزوج الرجل غير مرة لأسباب تدعوه الى ذلك ولكن قلبه لا يعرف إلا زوجة واحدة وتلك زوجته الاولى » وقال لي انـه لكي يكاتب خطيبته الاولى ويراسلها تعـلم الكتابة والقراءة فلهذا يجل تذكارها ويقدّس ايامها فقد اقتطفت المنون زهرة شبابها في نضرة عمرها وهي بنت عمه الامير محمد اعظم خان وأقول انها لو كانت كأفراد العائلة فإنها تستحق الشهرة التي نالتها في اللطف والجمال .

« وفي السنوات الأخيرة لم يكن يحفل الامير بالنساء ولا يسمح لهـن بحضور مجلسه إلا في القليل النادر وإذا سمح لهن بذلك فإنما يعاملهن كما يعامل الاطفال الصغار لا كما يستحق ان يعامل من في يده تربية الناشئة الجديدة . والحق يقال ان تربية الابناء ليست موكولة هناك الى الامهات . إذ لا يكاد يقـدر احد انجال الامير على المشي حتى يسلم الى المعلم يتولى تربيته ويبقى تحت رعايته حتى يصير رجـــلاً . وأتذكر انني ابديت له استغرابي من هذه الطريقة فقال : « ليت شعري كيف يكون حال اولادنا لو تركناهم الى تربية نسائنا ؟ وكيف ينشأ الولد الذي يتربى بين احضان هاته النسوة » . ولما قلت له ان النساء الانكليزيات يتولين تربية ابنائهن في زمن الصغر حتى يقدرن على الذهاب الى المدرسة تبسم وقال : « كيف يمكنك ان تقارني بين سيدة اوروبية وسيدة شرقية » . ولم اقدر على اقناعه بـأن نساء الافغان إذا تعلمن وتربين وأطلقت لهن الحرية اصبحن كنساء اوروبا لأنه كان يرى ان الزمن لم يأت لهـذه الحركة وإن نساء الافغان

لا يصلن الى درجة المرأة الغربية حتى قال ذات مرة : « أي دليل اظهره نساؤنا على رغبتهن في التعليم او ميلهن الى المعارف . هل طلبن منك ان تعلميهنّ شيئاً من الاعمال التي تقومين بهـــا ؟ ألا يحتقرنك ويرين علمك ومعارفك من سقط المتاع ؟ ألا يتحسرن عليك بدلاً من ان يغبطنك » . فلم اقدر على الجواب ولكنني لا ازال اعتقد انه لو مهد لهن سبيل التعليم وأطلقت لهن حرية الفكر فإنهن يترقين شيئاً فشيئاً .

اعتقاده في الدين :

جمع الامير عبد الرحمن في صفاته الاخلاق المتضادة فبينما نظنه متمسكاً بعادات قومه وعقائد شعبه تراه يبدي لك رأياً او يبرهن لك قضية لا يصدران إلا عن استقلال فكر وحرية ضمير مع ثبـات عليه وتمسُّك به مهما حاول احد اقناعه . وكان كثير الشغف بالمجادلات الدينيـة حتى انه طالما كان يتهمني بأني مشركة لا اعبد إلهاً واحداً ، وكان لا يصغي كثيراً اذا أردت ان اشرح له حقيقة اعتقادي . وأتذكر اني تكدرت من هذه التهمة وظهر على وجهي التأثر الشديد ، فقال وهو يبتسم : « خففي عنك وطأة الانقباض ايتها السيدة ، لأننا انما ننظر الى المسألة من وجوه مختلفة وأرجو ان تضعي هذا الإناء الصيني – وكان بالقرب مني – على المائدة » . ثم قال : « اجلسي امامي » . وسألني : « ماذا ترين من النقش على هــذا الإناء ؟ » فقلت : « انني أرى صورة تنين اخضر فاغر فـاه محملق بعينيه وله ذنب طويل » . فأجابني على الفور قائلاً : « هذا كلام لا حقيقة له ، فان المنقوش على الإناء صورة بحر وأسماك ومغـارة تتكسر عليها المياه وتحوم حولها اشباح صغيرة أظنها حشرات او ما اشبه ذلك . والآن ارجو ان تصغي ايتها الطبيبة وتعلمي انني لا امزح ، بل انني حقيقة أرى



الامير عبد الرحمن بلباسه الرسمي

ما وصفته لك ولا أرى مـا ترينه انت ، لأنني لا ابصره ولم يقع تحت نظري . فاذا انا انكرت وجود البحر والاسماك ، فهل يقتضي ذلك ان نتشاجر ونتقاتل ؟ » . ولا خلاف فانني فهمت كل ما أراد ان يعبر عنه لأن مثل هذا التعبير ظاهر جليّ ، ولكنني استغربت صدوره منه وزاد عجبي حينما رأيته بعد ذلك قد اضطجع على كرسي كبير وأسند رأسه على وسادته ثم قال : « هكذا نحن في هـذه الدنيا ننظر الى الامور من

وجه واحد ، ولكن سوف نرى بأعيننا الوجهين في العـالم الآخر . بل سوف نعلم ان كل نظر الى جهة واحدة باطل وخطأ مبين » .

« قلت ان الامير كان ذا شغف بالمجادلات الدينية إلا انه كان لا يحب ان يسمح لي تفسيراً عن معتقداتي . وفي ذات يوم أخذ برتقالة وعلقها في سلسلة ساعة ثم طلب مني خيطاً من الصوف وكنت جالسة بالقرب منه انسج شيئـاً من القماش ، ومع رغبتي في عدم قطع الخيط لم أتأخر عن إجابة طلبه . ثم قال : « والآن احضري لي خيطاً من الحرير وسلكاً دقيقاً من الحديد » ، ثم ربط كل خيط بالبرتقالة وأنا واقفة انظر اليه ولا ادرك ما يريد ، ثم قال : « انظري ايتها الطبيبة انني حينما اعلق هذه البرتقالة بأحد هذه الخيوط لا تقع ، ولكنها ليست كلها متساوية في القوة فأحد هـذه الخيوط أمتن من الأخر . انظري الى الخيط الصوفي والى سلسلتي الذهبية فهما متساويان متبادلان في تأدية المطلوب . وهـذا مثال الأديان وقيمتها ، فبعضها أنقى وأطهر وأعلى ، وهو بذلك أمتن سبباً وأقوى رابطة ، ولكنها كلها تربط الانسان بالخالق القادر المبدع سبحانه وتعالى حتى أدنى الاديان وأحطها أنفع من لا شيء . فهذا الخيط الحريري لا يدوم طويلاً بل ينقطع حالاً ، وهذا السلك الحديدي يفلت من البرتقالة كغيره . فتمسّكي بدينك ، فان الافضل ان يكون لك دين ولو فيه خطأ من ان لا تديني بشيء » . — انتهى —

نظر الانكليز الى عبد الرحمن :

قـال احد كتبة الانكليز يصف علاقة الامير عبد الرحمن بانكلترا : « ان علاقة هذا الامير بنا لا يصح ان نعتبرها مرضية وإن ظهرت لنا

كذلك . نعم انه يسايرنا في كل مـــا نرجوه من نفعه ويقابل سفراءنا بالإكرام والتعظيم وقـد ارسل ابنه لزيارتنا في لندن — ولكن القرائن الاخرى تدلنا على انه كثيراً ما ساير ألدّ اعدائنا في الهند ، ولا أظنه لو وفق في سعيه معهم إلا رامياً بصداقتنا عرض الحائط . وغاية ما يقال في هذا الرجل انه صديق حميم وحليف مفيد للهند طالما كانت حكومة الهند شديدة البطش . اما اذا ضعفت فانه من اشد الجيران خطراً عليها قال : وأما خليفته حبيب الله خان فاننا لا نتوقع منـه غير السكينة والمسايرة وهو لا يرى منا إلا كل مساعدة ونصرة » .

حبيب الله خان :

هو اكبر انجال الامير عبد الرحمن الجديد تولى الملك بعد وفاة ابيه بمقتضى نظـام وضعه ابوه لذلك وهو في حـــدود الاربعين من عمره ، ودلائل الصحة والشباب بادية في صورته ، وقد تأتى له ان يتولى نيابة حكومة كابل في حيـــاة ابيه وهو يحارب اسحق خان سنة ١٨٨٨ م ورأى الامير بعد رجوعه ما حقق ظنه في ولده حتى عهد اليه مراجعة ما يرد من كتب الولايات فلا يقرأها هو إلا بعد ان ينظر فيها ابنه ، ثم ولاه بيت المال سنة ١٨٩٧ وعهد اليه القضاء الاعلى .

وكان من رغائب الأمير المتوفى أن يوطد العلائق بين ابنـه والأسر الأفغانية الكبرى فـلم ير وسيلة لذلك خيراً من المصاهرة فأزوجه سبع زيجات . ولكن الغرض الذي رمى اليه الوالد بهذا الزواج لا يوازي ما يخشى من الفساد بتكاثر النسل والخصام على الملك . ولم يقتصر الامـير عبد الرحمن على تزويج ابنه ولكنه أزوج ابنـاء ابنه المذكور بفتيـات



حبيب الله خان امير الافغان

اختارهن من العائلات الكبرى المشار اليها .

ومن الأعمال التي تولاها الامير حبيب الله خان في حياة ابيه نظارة الخارجية ، فقد كانت المخابرات مع الدول الاوربية على يده . على ان اسرار السياسة كانت منحجبة في صدر عبد الرحمن ، والغالب انه اطلعه عليها قبل موته ، وأهمها ان يكون مواليا لانكلترا حليفاً لها . وفي لسان حبيب خـــان لثغة او عجمة تعيقه عن الاسترسال في الكلام ، يظن ابوه انها نتجت عن سم دسّه له بعض الاعداء ولم يمتـه ولكنه أضرّ بنطقه .

امبراطورة الصين «تسي هسي»

حداثتها :

هي من اصل منشوي والمنشو قبيلة نزحت الى الصين منذ قرنين ونصف ومنها العائلة المالكة . وكان والد تسي في اول أمره في سعة ثم نكب فخسر ماله وسيق منكسر الخاطر الى (كانتون) فأقام فيها ومعه امرأته وابنته تسي هـــذه وابن آخر . وربيت تسي قوية البنية نشيطة سريعة الحركة لأن المنشو لا يحبسون أقدامهم في أحذية الحديـد كما يفعل سائر اهل الصين . ولعلها اشتغلت في حداثتها بجمع العيدان من الطرق والدروب وقوداً لبيت والدها .

نزح والدها الى كانتون سنة ١٨٣٨ وسن ابنته اربع سنوات . فكان ذلك قبـل حرب الافيون التي أذلـّت امبراطور الصين وكسرت نفوس الصينيين وكان والد تسي يغالب الفقر ولايغلبه فلم يرَ له مخرجاً منه إلا ببيع ابنته . والصينيون اذا أصابهم فقر فرجوا ضيقهم ببيع بناتهم ، وهم يرون في ذلك حكمة ، لأن الفتاة اذا بيعت أمنت الجوع وخصوصاً اذا كانت جميلة وينتفع اهلها بثمنها . ويقال ان فتاتنا هي التي اقترحت على والدها ان يبيعها فأبى عليها ذلك في بادىء الرأي لأنه منشوي من اهل الشمال وبيع البنات شائع بالاكثر بين الصينيين الاصليين في ولايات الجنوب . ولكن الجوع اضطره بعـد ذلك الى بيعها فاشتراها تاجر أعجب بذكائها ونباهتها . ومن غرائب الامور انهـا تعلمت القراءة والكتابة قبل الثامنة من عمرها بمجرّد رغبتها مع صعوبة ذلك في الصين يومئذ حتى على الرجال .



تسي هسي امبراطورة الصين

وأغرب من ذلك ان بعض كتبة الانكليز يدعيها لأمته فيزعم ان فيها دماً انكليزياً – وهو من غرائب الادعاء.

زواجها بالامبراطور:

ولما بلغت (تسي) بضع عشرة سنة اصبحت في بيت سيدها كإحدى بناته. واتفق لامبراطور الصين يومئذ (هيان فونغ) ان زوجته لم تلد له اولاداً فأعلن رغبته في فتاة يقع اختياره عليها فيتزوجها التماساً للنسل وعين يوماً تحضر فيه الفتيات اللواتي يطمعن في ذلك النصيب. على ان

يكون سنهن بين ١٤ و١٨ سنة وأن يكون حضورهن في قصر الامبراطور في بكين .

قالوا : وكانت (تسي) مارة في بعض الشوارع فقرأت منشور الامبراطور على بعض الجدران فوجدت سنها يساعدها على ذلك مع كونها منشوية . فخطرها ان تعرض نفسها في جملة العارضات . واكبرت ذلك في بادىء الأمر ولكنها عولت على التجربة فاستشارت سيدها فاستغرب جرأتها ولكنها اقنعته فسلم وأدعى انها ابنته لعله يصيب خيراً بنجاحها .

وجاء يوم الاستعراض فبلغ عدد المعروضات بضعة آلاف فتاة حاز السبق منهن عشر وفيهن (تسي) ولما عرضن على الامبراطور اختارها هي من بينهن فتزوجها وسنها ١٧ سنة فولدت له بعد ثلاث سنوات ولداً ذكراً هو ولي عهد المملكة سموه (تونغ تشي) .

وليس من الغريب في بلادٍ لجمال النساء سلطانٌ على قلوب ملوكها ان تنال المرأة حظوة في عيني الملك ، ولكن الغريب ان هذه الفتاة مع صغر سنها وانها دخلت على البلاط الامبراطوري وفيه امبراطورة قبلها ، تمكنت بحسن سياستها ولطافة اسلوبها ان تجتذب قلب ضرّتها وقلوب سائر اهل البلاط . وكانت منذ دخلت ذلك القصر تظهر اللطف والأنس لرفيقتها الامبراطورة فلما صارت ام ولي العهد لم تغير شيئاً من ذلك .

الامبراطور الجديد :

وظلت الاحوال في استكانة ووفاق حتى كانت الحوادث المشؤومة على الصين سنة ١٨٦٠ يوم اغار عليها الانكليز والفرنساويون يداً واحدة فهدموا حصون طاكو وحملوا على بكين ففر الامبراطور بامرأتيه وابنه وعمره

ست سنوات الى قصر له يسكنه في ازمنة الصيد في مكان يقال له (ياهو) أما المهاجمون ففتكوا بالمدينة وأحرقوا قصر الصيف .

وفي السنة التالية توفي هيان فونغ وولي عهده لا يزال في السابعة من عمره . فعهد بالحكومة قبل موتـــه الى مجلس اعضاؤه اميران من العائلة المالكة ووزيره (لونغ تشي) وترك العناية بأمر الغلام الى الامبراطورتين . واختص الامبراطورة الاولى بعهد مختوم دفعه اليها وفيه تفويض تام في امر الغلام وتربيته . ولكنها كتمت ذلك التماساً للوفاق بينها وبين ضرتها . قال الكاتب « وهذه اول مرة اتفقت فيها سارة وهاجر » .

وما لبثت (تسي) ان رأت نفسها امبراطورة بالاسم فقط وإن الاحكام صائرة الى قبضة مجلس الوصاية فأغرت البرنس (كونغ) اخا الامبراطور المتوفى على مشاركتها في التخلص من ذلك المجلس . فوافقها واتهمهم بتقصير ارتكبوه في جناز الامبراطور فقبض عليهم وقتلهم . فخلا الجو للامبراطورتين في البلاط الملوكي واستبد البرنس (كونغ) في ادارة شؤون المملكة .

مضى على ذلك ثلاث سنوات والبرنس كونغ عامل على رد ما فقدته الصين بالحروب الماضية والثورات المتوالية . فشاع في المملكة انـه الفاعل لما يريد . فخافت (تسي) ان يجره ذلك الى الاستبداد بالأمر دونها فأصدرت في ٢ ابريل (نيسان) سنة ١٨٦٥ امراً بإغلال يديه عن مصالح الحكومة لأنـه تعدى الحد الذي وضع له . فأطاع واعتزل ولكن المملكة لم تكن تستغني عنه فأعادوه بعد خمسة اسابيع الى كل ما كان فيه إلا رئاسة المجلس .

وفي سنة ١٨٧٢ ارشد الامبراطور وآن زواجه فأخذت والدتـه على نفسها ان تختار له زوجة . فأعلنت غرضها وتقاطرت الفتيات من أنحـاء

الملكة يعرضن جمالهن وفي يـــد كل منهن لوح فيه اسمها وسنها . فاذا مرّت بين يدي الامبراطورة دفعت اللوح اليها . فاذا وقعت منها موقعاً حسناً سألتها بعض الأسئلة وإلا أمرت لهـا بحذاء من الفضة وزنة أوقية وخلت سبيلها .

فالفتيات اللواتي لم يأخذن تلك الهدية مررن ثانيـة فاللواتي أخرجن منهن هذه المرة أعطين لفة من الحرير وفي المرة الثالثة عينت الفتاة التي وقع اختيارها عليها واسمها (ألوتي) وهي جميلة عاقلة . وقبل الزواج بثلاثة ايام ارسل الامبراطور العريس الى عروسه حلة الملك ثم بعث اليها أمراً بتسميتها امبراطورة وزُفّت اليـه باحتفال لم يسبق له مثيل مشى فيه الامراء واستقبلتها حماتهـــا (تسي) في القصر الامبراطوري بكل رعاية وإكرام .

وكانت تسي بعد ذلك لا تظهر لأحد من الوزراء ولا يراها احد من الناس ولكنها كانت تستطلع حركاتهم وتتبع خطواتهم من وراء الحجاب . ولم تظهر للوزراء وجهاً لوجه إلا بعد ان أدركت العام الستين من عمرها .

وكان البرنس كونغ بعد ما آنسه من حرج مركزه قـــد احتال في الايقاع ما بين الامبراطورتين فلم يفز . وما زالتا في وفاق معاً حتى أرشد الامبراطور الجديد وتولى عرش الصين فافترقتا على وفاق . فسكنت تسي في جناح القصر الغربي وضرّتها في الجناح الشرقي وسميت الاولى الامبراطورة الغربية والثانية الامبراطورة الشرقية .

وأقامتا في سلام الى سنة ١٨٧٣ على رواية مراسل كتب الى بعض الجرائد عام ١٨٨٨ قال : « بعثت الامبراطورة الشرقية الى وصيفتها تطلب

اليها الاجتماع في بعض شرفات القصر فاجتمعتا ، وبعـد السلام والكلام صرّحت هـــذه الامبراطورة ان من بواعث ذلك الاجتماع ان المهمة التي اجتمعتا لأجلها قد انقضت وآن زمن الافتراق . وأنها تودُّ من صميم فؤادها ان تتخلص من ثقل التبعة بعد ان وفقتا الى التضافر على العمل كل ذلك الزمن الطويل بوفاق تام لخير المملكة ومصلحة الامبراطور الصغير . وأشارت الى التفويض الشرعي الذي بيدها من زوجها المتوفى ، ولم تكن ذكرته قبل ذلك الحين ، فاستخرجته حينئذ وأطلعت رفيقتها عليه ثم أحرقته وهي تقول : (لم يبق له نفع الآن) فأثر ذلك الفصل المدهش في تسي تأثيراً شديداً وأبغضت ضرّتها من ذلك اليوم .

هذا ما رواه المكاتب ولكن يظهر انهما ظلتا في وفاق مدة اخرى . ففي سنة ١٨٧٤ امر الامبراطور بخلع البرنس كونغ وابنه لأنهما فاها بما لا يليق . ولكن كونغ عاد الى منصبه في اليوم التالي بأمر الامبراطورتين وما زال فيه الى سنة ١٨٨٤ حتى عزلته الامبراطورة تسي نفسها .

امبراطور ثالث :

أما الامبراطور تونغ تشي فانه مات سنة ١٨٧٥ وترك زوجته ألوتي حاملاً ، فاتفقت الامبراطورتان ثانية على العمل . وكان لا بدّ لهما من انتظار الولادة ليريا اذا كان المولود ذكراً او أنثى . فاذا كان ذكراً كانت والدته هي الوصية على الملك ولا يبقى لحماتهـــا وضرّتها ذكر . واذا كان أنثى قضت شرائع الصين بأن تتبنى الوالدة صبياً باسم الامبراطور وتكون مع ذلك هي الوصية عليه .

فرأت تسي انها فاقدة نفوذها في الحالين ، فاتفقت مع رصيفتها والبرنس كونغ على حيلة اخرى . وذلك انهم قبل ان تلد الحامل تبنوا ولداً سنه اربع سنوات هو ابن (تشون) اصغر اخوة الامبراطور (هيان فونغ) فأصبحت ألوتي في زاوية النسيان . وعادت تسي ورفيقتها الى الوصاية مرة اخرى ، فبسطتا أيديهما في الحكومة واستبدتا في اعمال المملكة ومعهما البرنس كونغ .

وعهدتا بتربية الغلام وتثقيفه الى رجل مشهور بالتعقل والصلاح اسمه (ونغ تونغ شو) وهو الذي غرس فيه الميل الى قبول الآراء الحديثة . ويقال ان الغلام شبّ وفيه انعطاف الى الامبراطورة الاولى أكثر مما الى تسي . ولكن القضاء فصل بينهما فماتت تلك سنة ١٨٨١ وخلا الجو لتسي . وما زال كونغ على الحكومة الى سنة ١٨٨٤ فعزلته وولّت مكانه البرنس تشون والد الامبراطور الغلام . ولم يكن تشون كفئاً لذلك المنصب العظيم ولكنها استخدمته آلة واستعانت في ادارة شؤون المملكة بالرجل السياسي الصيني الشهير لي هنغ تشانغ . وفي سنة ١٨٨٨ آن وقت انتخاب عروس للامبراطور الجديد فاستعرضت البنات واختارت له فتاة اسمها (تيت هونالا) ابنة احد رجال الحكومة .

وفي سنة ١٨٨٩ جلس الامبراطور الجديد على كرسي المملكة وسمي (كوانغ سو) والصين أرقى حالاً مما كانت عليه يوم تولاها سلفه . وكانت تسي قد شعرت قبل جلوسه ان النفوذ ذاهب منها فأرادت حفظ حقوقها فكتبت عهداً اشترطت لنفسها فيه بعض الحقوق في السلطة وطلبت الى الامبراطور ان يمضيه قبل ان يتولى فامضاه فلما تولى الملك انكر ذلك عليها فاعتبرت انكاره خيانة ونشأ النزاع بينهما من ذلك الحين .



كوانغ سو امبراطور الصين

الامبراطور كوانغ سو :

كان هـذا الامبراطور في حداثته ميالاً الى الصناعة اليدوية والآلات الميكانيكية مع ميل قليل الى الدرس والمطالعة . ولما تولى الملك أظهر من الجلد على العمل ما يندر مثاله في الملوك بالنظر الى صغر سنه فإنه ينهض من فراشه الساعة ٣ ونصف بعد نصف الليل فيتناول فطوراً خفيفاً ويستقبل وزراءه من الساعة الرابعة الى الساعة السادسة ثم يخرج لإقامـة الشعائر الدينية . ويتناول غداءه الساعة الحادية عشرة ويتعشى في العصر ويذهب الى الفراش باكراً جداً .

وهو نحيف البدن اصفر اللون مع اسمرار . لوزيُّ العينين اسودهما مرتفع الجبهة منتظمها مقوّس الحاجبين لطيف الفم بارز الذقن . اذا ابتسم

ظهرت اسنانه صفراء مستطيلة غير منتظمة تلوح على وجهه النباهة يخالطها بعض السويداء . ولعل ذلك ناتج عن انقطاعه الى العمل الشاق مع تحمله التبعة الكبرى في هذا المنصب العظيم . وكان اعتماده الاكبر على وزيره لي هنغ تشانغ . وكل ما تمّ من المشروعات المفيدة على يده انما تمّ برأي هذا الوزير العظيم .

وفي عام ١٨٩٦ ظهر شاب اسمه (كانغ يووي) كان استاذاً في كانتون. وكان مغرماً بتاريخ بطرس الاكبر قيصر الروس الشهير . فحدثته نفسه ان يصلح الصين كما اصلح بطرس الاكبر روسيا . فرفع الى الامبراطور تقريراً في الاصلاح اللازم لمملكته حرضه فيه على نقض عوائد اسلافه وتقاليدهم . وأن يتبع خطوات جيرانه اليابانيين والروسيين في التماس التمدن الحديث . وأن يجمع وزراءه ورجال حكومته الى الهيكل الذي يصلون فيه ويأخذ عليهم المواثيق والعهود المقدّسة بأن يجروا الاصلاح في المملكة . وأن ينقح قوانين الادارة ويفتح لرعيته سبيلاً يرفعون به ظلاماتهم اليه رأساً . وأن يختار لحكومته شباناً اذكياء نشيطين بقطع النظر عن حالهم في دنياهم او انسابهم . وأن ينشيء ١٢ ادارة كسائر الممالك المتمدّنة . وبسط له كيفيات الحكومة ووضع الضرائب وغير ذلك مما يطول شرحه .

ودفع هذا التقرير اولاً الى احد الوزراء فكان جوابه « وكيف نغير تقاليد اسلافنا وعاداتهم » أما الامبراطور فأعجب بما فيه وعول على العمل به وشرع في تنفيذ ذلك سريعاً . ولكنه لسوء حظه لم يكن له ما كان لبطرس الاكبر من القوة والمنعة وكان في جملة مساعيه انه ابعد الامبراطورة (تسي) الى جزيرة في ساحة القصر . فلما هاج الشعب من صدمة تلك الاصلاحات خابروا الامبراطورة واتفقوا معاً على محاصرة القصر فحاصروه .

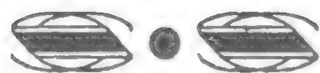


منيليك ملك الحبشة

ثم دخلته (تسي) وأصدرت سنة ١٨٩٨ امراً بإمضاء الامبراطور يعترف فيه انه بالنظر لعجزه عن ادارة شؤون المملكة قد كلف الامبراطورة (تسي) ان تنوب عنه فيها . فعادت الى ولاية الاحكام وفرّ رجال الاصلاح وفي مقدمتهم (كانغ يووي) وظلّ كوانغ سو محصوراً في قصره تصدر الاوامر باسمه وهو لا يعلم بها . أما نصراء الاصلاح فإنهم طافوا في انحاء المملكة يطعنون في الامبراطورة واستبدادها . فشق ذلك عليها فأمرت بإعدامهم ووعدت من يأتي برأس زعيمهم (كانغ يووي) بجائزة كبرى .

وقد يخيّل للقارىء مما قدمناه . ان هذه المرأة مفطورة على الأذى او انها وحش بصورة انسان . ولكن بعض الذين قابلوها ودرسوا اخلاقها يقولون فيها ما يخالف ذلك ، ومنهم كاتب انكليزي قال في عرض كلامه عن فظائعها في القصر الامبراطوري « ولكنها بالنظر الى العالم الخارجي لا تقلُ شيئاً في اخلاقها وسجاياها عن الملكة فيكتوريا » وهو إطناب

كبير وخصوصاً من رجل انكليزي . وذكروا لها حسنات اخرى . على ان بعضهم عدد سيئاتها وبالغ في فظاعتها حتى لم نعد نعرف الحقيقة والظاهر انها جمعت الى قوة العقل كثرة المطامع والله اعلم .



- ٣ -

القواد

سليمان باشا الفرنساوي

مؤسس الجند النظامي المصري

تاريخه في اوربا :

ولد في ليون من أعمـال فرنسا في اوائل افريل سنة ١٧٨٧ م وسمي يوسف سيف وكان ابوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة ، فلما بلغ يوسف أشده أراد والده ان يستعين به في أعماله ، ولكن الغلام كان يشعر بأنه أرفع من ذلك المكان فضلاً عن ميله الفطري الى الخروج والجولان ، فلم يستطع المواظبة ، فشقّ ذلك على أبيه فتوعده اذا لم يثابر على العمل بأن يدخله في سلك الملاحة عقاباً له ، فلم يكن ذلك إلا موجباً لسروره ، فأدخله في مهنة البحرية سنة ١٨٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثـة عشرة من عمره فأعجبه جوب البحـار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار حتى كانت حروب ترافلفار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون الشهير والاساطيل المتحدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلينوف وأميرالين اسبانيين ، وكان الفوز



سليمان باشا الفرنساوي (١٧٨٧م - ١٨٦٠م)

للانكليز ، لكن صاحب الترجمة أظهر على صغر سنه اعمــالاً تدل على استعداده للشؤون الحربية ، وكان المنتظر ان ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر ، فاتفق انه تخاصم وأحد رؤسائه وكان سيف عنيفاً خشناً فجرّتهما المعاتبـة الى المضاربة فبدأ الضابط فضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهمّ بالضابط وما زال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه وحوكم فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لا مردّ له .

ولكن العناية سخّرت له رجلاً من الأشراف اسمه الكونت بول دي سيغور يقال ان سيف كان قد أنقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجميل

فلما علم بالحكم عليه توسط في امره فأنقذه وأرسله الى الجيش الفرنساوي الذي كان اذ ذاك في ايطاليا .

ولما شبّت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها ، وأظهر في أثناء وقائعها الهائلة بسالة أوجبت التفات نابليون الخصوصي حتى أراد ان يقلده نيشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فآنس منه استخفافاً فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف ، على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (اميرالاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ .

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالأسر والنفي فقضى على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانقطاع الى التجارة التماساً للتعيش ، ولكن أنى للجندي المحارب ان يساوم امرأة او غلاماً على مبيع سلعة فيبح قبل إتمام المبايعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك ، فألفت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في أثناء ذلك ان شاه العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند ، فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه الى الشاه ، فنصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر .

تاريخه وأعماله في القطر المصري :

جاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية ، فأحسن محمد علي باشا مقابلته وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر ، ولكنه

لم يعثر على شيء منه ، فعاد الى القاهرة ، واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية .

وكان محمد علي باشا لحسن نظره واهتمامه في تأييد دولته ما زال يفكر في سبيل يوسع به ملكه . وتوسيع الملك لا يكون إلا بتعزيز الجند ، والجند لا يقوم إلا بالنظام ، وكان قد شاهد الجنود الفرنساوية بمصر وأعجبه نظامها ، وهو النظام الذي وضعه بونابرت وتمكّن به من التغلب على معظم دول الارض . وكانت الجنود المصرية الى ذلك العهد لا تزال على النمط القديم لا يعرفون الخطوط ولا المربعات ولا ما شاكل ذلك من النظامات العسكرية ، بل كانوا عبارة عن فرق او وجاقات ، وفيهم الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم ولكل من هذه الفرق قائد فاذا نزلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستلّ حسامه او بندقيته او رمحه وهجم على ما يتراءى له .

فرأى محمد علي باشا رحمه الله ان يجعل جنده نظامياً ، ففاوض الكولونيل سيف بالامر فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية ، فشقّ ذلك على جماعة الارناؤوط وغيرهم لأن ذلك النظام في اعتبارهم بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار فلم يقبلوا الاذعان ونفروا وتمردوا وتجمهروا حول القلعة يطلبون الرفق بهم ، فرأى محمد علي ان يعاملهم بالحسنى فأجاب ملتمسهم وأغضى عن تعليمهم ، ولكنه رأى ان يدخل ذلك النظام بين جماعة الوطنيين لقربهم من الاذعان ، فأنشأ مدرسة حربية في الخانكاه قرب المطرية تُعلم فيها اللغات والحركات العسكرية ، وجعل سراي مراد بك بالجيزة مدرسة للفرسان ، وأنشأ مدرسة للطوبجية ، ثم أنشأ في القاهرة معامل لسكب

المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند وعهد بذلك كله الى الكولونيل سيف ، وكان قد أسلم وسمى نفسه سليمان ، فصار يُعرف باسم سليمان بك الفرنساوي ، وأحبه المصريون وأذعنوا له ، فنظّم جنداً نظامياً بلغ عدده ٢٥,٠٠٠ جندي كانوا له عوناً في حروبه بالمورة والشام وغيرهما .

ولما كانت حروب المورة المشهورة منذ سنة ١٨٢١ أنفذ الباب العالي الى محمد علي باشا ان يجند جيشاً لمحاربة المورة فأرسل عمارة بقيادة ابنه ابراهيم باشا سنة ١٨٢١ وكان سليمان بك من جملة أبطالها وتمكن ببسالته من الاستيلاء على جزيرة ميسولونغي سنة ١٨٢٦ ثم عين حاكماً لتريبوليتزا فساس امورها . ثم انقضت مشكلة المورة بمداخلة الدول الاوربية فعادت الجنود المصرية وعاد سليمان بك ومعه فتاة يونانية على مثل ما كان يفعل ابطال اليونان القدماء .

ولكن هـذه الحرب أثقلت كاهل الجندية المصرية ، فأعاد محمد علي اهتمامه في اصلاحها ثم كانت الحوادث التي قضت بتجريد الجنود المصرية على يد عبد الله باشا والي عكا سنة ١٨٣١ بقيادة المرحوم ابراهيم باشا ، وفوّض قيادة الطوبجية الى سليمان بك فسارت الحملة الى الشام في حرب عكا ثم فتحها عنوة فقبض ابراهيم باشا على واليهـا عبد الله باشا وأرسله الى الاسكندرية وأوغل في الشام وسليمان بك ساعده الأيمن في كل المواقع الكبيرة ، وكان قائداً لستة آلاف جندي ، فأنفذ الباب العالي جنداً كبيراً لقهر الجند المصري فوكل ابراهيم باشا مقابلة جانب من هـذا الجند الى سليمان بك وسار هو لمقابلة الباقين فحارب سليمان فرقة كبيرة قرب حمص فتغلب عليها في بيلان ثم في الاسكندرونة ثم في قونية وكانت قد تعززت بنجدات قوية . فأعجب ابراهيم باشا بشجاعة هذا الرجل ومهارته في الحركات

العسكرية ورقاه الى رتبة باشا . وكان في عزم المصريين البقاء على الزحف لو لم تتداخل الدول وتقرر الصلح فعـادت الجنود المصرية الى السكينة ولكنها مـا لبثت ان عادت الى الحرب لهياج حدث في بيت المقدس فساروا ومعهم سليمان باشا فأخمدوا الفتنة .

وبعد قليل اصدر محمد علي باشا امره برجوع سليمان باشا الى مصر ثم عادت الحرب في سوريا ، فعاد اليها ابراهيم باشا ، وما زال يحارب بسيف المصريين حتى اقتضت السياسة الاوربية انسحاب الجنود المصرية من سوريا ، فرجع سليمان باشا معها الى مصر وتميَّن رئيساً عامـاً للجيش المصري ، وما زال فيها عالي الكلمة مرعي الجانب ، حتى اراد ابراهيم باشا السفر الى جبـال البيروني للاستجمام ، فانتدب سليمان باشا لمرافقته فرافقه ، وساعده الحظ ان يرى وطنه رأي العين بعد ان غاب عنه اعواماً طوالاً . ولما شفي ابراهيم باشا من مرضه زار فرنسا ثم لندرا وصاحب الترجمة معه ، فسرّته تلك الرحلة لأنه تمكن بها من تفقد الثكنات العسكرية في اكبر عواصم اوربا وملاحظة الحركات الحربية ، ثم عاد الى باريس وابراهيم باشا لا يزال في لندرا ، وبرح باريس الى بلجيكا وهولندا ، ثم عـاد الى ليون مسقط رأسه ، فأقام فيهـا مدة بين اهله وذويه ، ثم رجع الى الاسكندرية فمصر ، ورفع الى محمد علي باشا تقريراً بمـا رآه ولاحظه في اثناء سفره ، وعاد الى الاهتمام في تدريب الجند ، وما زال عاملاً مجتهداً حتى توفي ابراهيم باشا فصار الامر الى عبـاس باشا الاول ثم الى سعيد باشا فتوفي صاحب الترجمة على عهده في ١١ مارس (آذار) سنة ١٨٦٠ .

صفاته وأخلاقه :

كان ربعـة ممتلىء الجسم قوي العضل شديد التعلق بالجندية ، وكان

عنيداً مع ميل الى خشونة المعيشة العسكرية . ومما يروى عنه من هذا القبيل ان عباس باشا الاول رغب اليه مرة ان يخرج بتلامذة الحربية الى النزهة ففعل ، فلما كان وقت الغذاء ارسل اليه عباس باشا طعاماً شهياً متقناً فرفضه وقال لحامله : « سحقاً لهذا الغذاء ، ألا يعلم عباس باشا اننا جنود لا نأكل إلا مثل أكل الجنود » . وأصرّ على ارجاع الطعام بالرغم من تقدّم نجل عباس باشا اليه في قبوله . وله نوادر كثيرة تدل على صلابة طباعه وخشونته . وقد يتوهم بعضهم ان الخشونة والصلابة لازمتان في قيادة الجند ، ولكن اللين اولى بها ، والجند يطيع رئيسه اذا خشنَ طاعة الخائف ، وأما اذا لان فانه يطيعه طاعة المحب ، وبينهما فرق واضح . اما سليمان باشا مهما قيل في اخلاقه فانه كان ماهراً في قيادة الجند وتدريبه ، وكان طالباً للعلى فتمكن منه بجده واجتهاده .

عمر باشا

هو نمساوي الاصل وكان ابوه ضابطاً في الجند النمساوي ، وُلد له هذا الغلام في (بلاسكي) على حدود بوسنه غرباً سنة ١٨٠٦ م فسمّاه ميخائيل وأدخله في المدرسة الحربية في يورن قرب كرستات ، وحب الجندية موروث فيه . فلم تمض مدة حتى تعيَّن في احدى فرق الجند النمساوي وارتقى الى درجة معاون في مساحة الطرق والجسور . وفي الثامنة والعشرين من عمره، نزح من وطنه وترك منصبه فيه ، وجاء (بوسنه) العثمانية فاعتنق الدين الاسلامي لسبب لا نعلمه وسمى نفسه عمر وتولى تعليم ابناء بعض تجار الاتراك هناك . ثم زار الاستانة ومعه تلامذته ففتح له باب التدريس في مدرسة للعسكرية أنشأتها الدولة هناك ، وكان



عمر باشا (١٨٠٦ م — ١٨٧١ م)

ناظر الجهادية يومئذ خسرو باشا ، فأنس في ذلك الشاب اقتداراً عسكرياً فأضافه الى اركان حربه وجعله تحت عنايته وقدمه في مصالح الدولة فأدى خدمات حسنة في امارات الدانوب ، ثم سعى له في وظيفة تعليم في البلاط السلطاني فتعيّن مدرساً للسلطان عبد المجيد قبل توليه السلطنة . وفي سنة ١٨٣٩ م كان عمر باشا في جملة ضباط الحملة التي أنفدتها الدولة لمحاربة ابراهيم باشا المصري في الشام ، وبعد ثلاث سنوات تعيّن قومنداناً عسكرياً في احدى ولايات سوريا .

وفي سنة ١٨٤٨ ارسلت روسيا جنداً لإخماد ثورة المجريين ، فدخل جندها بلاد الفلاخ فتعيّن عمر باشا قائداً لجند عثماني أقام هناك للمراقبة . ثم انتدبه الباب العالي لإقماع بعض ولاة البوسنة ، فأقمعهم وعادوا الى كنف الدولة . وفي سنة ١٨٥٣ سار في عشرين الف جندي لمحاربة رجال

الجبل الاسود وإرجاعهم الى الطاعة ، ففاز بذلك فوزاً عظيماً فانتدبه الباب العالي لقيادة الجند العامة في البلغار ، وكان على ضفة الدانوب الاخرى جند الروس بقيادة البرنس غورتشاكوف الشهير . وحدث بين الجندين والقائدين حركات عسكرية ومناورات دلّت على مهارة عمر باشا في الجندية حتى بهر البرنس المشار اليه . على انه ما زال يحاربهم والنصر رفيقه في اكثر المواقع ، حتى اضطروا الى الانسحاب عن ضفاف الدانوب . وتعيّن سنة ١٨٥٥ في حرب القرم المشهورة ، فغلب الروسيين في يوباتوريا غلباً صريحاً فانتدبته الدولة لإنقاذ القرم ، ولكنها سلمت قبل وصوله .

وبعد الفراغ من الحروب تعيّن والياً في بغداد ، ولكنه ساء الحكومة وأغضب الباب العالي ، فنُفي ثم أُعيد في السنة التالية . وفي سنة ١٨٦١ انتدبه الباب العالي لإخماد ثورة البوسنة والهرسك ، ففعل وهاجم الجبل الاسود وافتتح اعظم مدنه . وفي سنة ١٨٦٩ تقاعد عن الاعمال العسكرية وقد نال رتبة الوزارة وصار من مشيري الدولة ، حتى توفي سنة ١٨٧١ وقد نال اعظم الرتب العسكرية العثمانية ، ونال من روسيا رتبة فارس من صنف القديسة حنه . وكانت له منزلة رفيعة لدى رجال الحرب ، ولكنه كان شديد البطش صعب المراس ، وذلك شأن رجال العسكرية على الاكثر .

عبد القادر الجزائري

هو الامير عبد القادر ناصر الدين ابن الامير محيي الدين الحسيني ، يتصل نسبه بالإمام الحسين ، وُلد في شهر مايو (ايار) عام ١٨٠٧ في قرية القيطنة التابعة لإيالة وهران في جزائر الغرب ، وكان والده من أكابر



عبد القادر الجزائري (١٨٠٧ م – ١٨٨٨ م)

العلماء العاملين محترماً لدى أعيــان الجزائر لبسط يده وكرم اخلاقه ودعته .

وقد بذل قصارى جهده في تثقيف ابنه لما آنس فيه من الذكاء والدراية حتى انه تمكن بمدة قصيرة من اكتساب جانب عظيم من العـلم ، وحفظ القرآن حفظاً جيــداً . واشتهر في السابعة عشرة من عمره بشدة البأس ، وقوة البدن والفروسية ، حتى كان يُشار اليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها ، وكان يطارد الخنزير البري في الغابات ويصطاده . على ان ذلك لم يشغله عن القيام بواجباته الدينية .

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٢٥ صحب والده الى الحرمين لأداء فريضة الحج فمرّا بحاشيتها بالاسكندرية وزارا القــاهرة وفيها المغفور له محمد علي باشا فأكرمهما . ومن القاهرة قصدا الحجاز عـن طريق السويس وعرجا بعد الحج نحو دمشق قضيا فيها زمناً وسارا منها الى بغداد لزيارة

مقـام سيدي عبد القادر الكيلاني فنالا كل رعاية وإكرام . ثم عادا من هناك الى الحرمين ثانية ومنها الى وطنهما فوصلاه في اوائل عام ١٨٢٨ .

ولم يزدد عبد القادر بعد هذا السفر إلا شغفاً في العلم فاعتزل لتحصيله ولازم الخلوة يطالع كتب العلم والفلسفة فدرس رسائل افلاطون وفيثاغورس وارسطاليس وتعمق في درس الفقه والحديث والجغرافية والفلك والتاريخ وكتب العقاقير وجمع مكتبة من اثمن مكاتب تلك الايام .

وفي عـام ١٨٣٠ استولى الفرنساويون على الجزائر ونشروا المنشورات الرسمية بامتلاك البلاد واستخراجها من ايدي العثمانيين فشق ذلك على القبائل العربية القاطنة في تلك الانحاء وانتفضوا على الفرنساويين . وكان الفرنساويون تحت قيادة الجنرال برمونت وقد بلغوا جبل الاطلس فاضطروا للتقهقر الى الشطوط وأخذوا في تحصينها ثم عادوا فاستولوا على مدينة وهران .

وتسبب عـن تداخل الفرنساويين وخروج جانب من تلك البلاد من حوزة الدولة العلية اختلال الاحوال فسادت الفوضى واجتمع المرابطون ورؤساء القبائل وفي جملتهم الامير محيي الدين والد صاحب الترجمة وتشاوروا في الأمر فقر رأيهم على الانضمام الى سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن فبعثوا اليه بذلك فوافقهم فدخلت الجزائر في سلطانه وخطب الجزائريون له وبايعوه فغضب الفرنساويون وبعثوا الى مولاي عبد الرحمن يهددونـه بالحرب او يسحب جنوده من الجزائر ففضل الانسحاب فاجتمع كبار اهل الجزائر وتفاوضوا في امرهم فقر رأيهم على ان يقيموا عليهم الامير محيي الدين سلطاناً يرجعون اليه فذهبوا الى القيطنة (بلدته) وطلبوا اليه قبول اقتراحهم وأرادوا مبايعته فأمسك عن الاجابة فأصروا عليه وهددوه

بالقتل اذا تمنع فأجابهم على ان تكون تلك السلطة لولده عبد القادر فقبلوا وكان عبد القادر يحارب الفرنساويين في مكان يقال له حصن فيليب فبعثوا اليه وبايعوه وسنه إذ ذاك ٢٥ سنة فذهب الى الجامع وصلى وحثّ الناس على الطاعة والسير بمقتضى الشرع الشريف والاقتداء بالخلفاء الراشدين . وأول شيء باشره جمع كلمة القبائل وضمها بعضها الى بعض حتى يقووا على مقاومة العدو الاجنبي وإخراجه من بلادهم . وحارب بهم عدة مواقع فاز في بعضها ولا سيما في موقعة وهران فإنه انتصر فيها انتصاراً مبيناً وكانت الجنود الفرنساوية تحت قيادة الجنرال ميشيل فصار يهابه الفرنساويون ويخشون بطشه .

وكانت فرنسا على رغبتها في التفرّد بلسطتها في الجزائر لا تحب المخاطرة بجملة كبيرة من جندها تقهر عبد القادر فأوعزت الى الجنرال ميشيل ان يعقد معه معاهدة صلح فخابره بذلك وتمت المعاهدة سنة ١٨٣٤.

ولما هدأت الاحوال تفرغ عبد القادر لإصلاح شؤون داخلية بلاده واعداد المعدّات الحربية لاعتقاده ان الحروب لا بدّ من العود اليها فأنشأ معامل لعمل الاسلحة وصب المدافع واصطناع البارود ونظم الجند . فاضطر من اجل كل ذلك للنفقات الطائلة فطالب القبائل بالزكاة عن المواشي فانتفض عليه بعضهم ولكنه تمكن بحسن درايته من اخضاعهم ولمّ شعثهم فاتسعت سلطته وامتد نفوذه فشق ذلك على الجنرال دي اورلين القائد الفرنساوي إذ ذاك فبعث اليه ان يلازم حدوده ولا يمد يده الى خارج وهران ، فأجابه ان دائرة سلطانه غير محدودة بمقتضى المعاهدة المارّ ذكرها . فدارت المداولة بين الفريقين بالمسالمة ، ولكن مطالب عبد القادر لم تحُزْ قبولاً لدى الفرنسيين ، فأضمر لهم الشر وأمر بعض القبائل المقيمة

بجوار وهران ان تنزح الى داخل البلاد ، فخاف هؤلاء بطش الفرنسيين وطلبوا حمايتهم ، فطلب الامير الى الفرنسيين ان لا يحموهم ، فاستاؤوا وأشهروا عليه القتال وساروا في خمسة آلاف ماشٍ وعدة من الفرسان وبعض المدافع ، ولكنهم رأوا من رجاله ما اضطرّهم الى الانسحاب حالاً فعلم الامير بجهة انسحابهم فسار لملاقاتهم في مضيق وهم لا يعلمون ، فلما بلغوا المضيق هجم عليهم برجاله فأبلوا فيهم ولم يُبقوا إلا على نفر منهم .

وكان لهذه الغلبة رنّة في باريس وقام الخطباء يحثون الحكومة على ارسال القوات اللازمة لقتال ذلك الامير البدوي وقهره . وكان عبد القادر يعرف كل ما يدور في باريس من هذا القبيل ، لأنه كان يطلع على الجرائد الفرنسية بواسطة تراجمة يحسنون فهمها ، فكان على بيّنة من مقاصد عدوّه .

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٣٥ قدمت الجنود الفرنسية الى وهران لمحاربته ، فقاتلهم ولكنه لم يفز فتفرّق رجاله ، فعاد الى عاصمته (مسكرا) ونزل في بلد على مقربة منها وهو في حالة اليأس الشديد خوفاً من نهوض الفرنسيين عليه وكانوا معسكرين في مسكرا ، فأصبح يوماً وقد أخلوها لغير سبب يعلمه ، فعاد هو اليها ونزلها فعاد اليه رجاله واشتد ازره وأخذ في مقاصة الذين عصوه .

اما الفرنسيون فاحتلوا تلمسان فلاقاهم اهلها بالترحاب ولكنهم ضربوا على يهودها ضريبة كبيرة اعتذروا عن دفعها فأجبروهم ، فندم هؤلاء على التسليم وصاروا يودّون العود الى عبد القادر ، وكان ذلك مما شدّد عزم الامير ، فجاء وطارد الفرنسيين وأخرجهم من تلمسان .

وغضب الفرنسيون في باريس فبعثوا بالنجدات القوية فحاربها عبد القادر

مراراً ، ولكنه انكسر في واقعة منها انكساراً ردیئاً انتقض من أجله العرب عليه ، وفي جملة المنتقضين قاضٍ يقال له سيدي ابراهيم كان في نيته خلع عبد القادر والاستيلاء مكانه ، فحمي غضب الامير لتلك الخيانة فجرّد سيفه وعلّقه بسرج جواده وركب وأقسم انه لا يغمد ذلك السيف حتى يقطع رأس ذلك الخائن . فلما بلغ منزله أمر بإحضاره فأحضروه وهو يرتعش ، فضربه ضربة قطعت رأسه ، فكان لذلك وقع عظيم في قلوب رجال عبد القادر ، فاجتمعوا اليه واستهانوا الموت في سبيله ، فحمل بهم على مواقع الفرنسيين وضايقهم مضايقة عظيمة حتى قلّت المؤن لديهم وقلّت الذخائر لديه ، فدارت المخابرة بين الفريقين في ان يتبادلوا التجارة ، فيبتاع كل من الفريقين ما يحتاج اليه ، وتمّ الاتفاق على ذلك وهدأت الاحوال .

وبعد ذلك بيسير قدم الجنرال بوجيد من جانب حكومة فرنسا الى وهران يستحث الجند الفرنسي على القتال حتى يبيد الامير ورجاله او يقبل بهذه الشروط ، وهي :

١ — اعتراف عبد القادر بسيادة فرنسا .

٢ — تحديد مملكته الى نهر الخليف .

٣ — أداؤه الجزية لفرنسا .

فعظمت هذه المطالب على عبد القادر وأجاب انه لا يحق لفرنسا ان تشترط هذه الشروط وهي ليست المنتصرة في مواقع الحرب معه وهدّدها . فشقّ ذلك على الفرنسيين ولكنهم فضّلوا الصلح على الحرب لعلمهم ان عدوّهم عنيد باسل .

وبعد المخابرات والأخذ والردّ ، رأى بوجيد ان الحرب أولى له لأنه لم يستطع التوصُّل الى وفاق موافق لدولته ، فعرض عساكره فاذا هم لا يستطيعون مناوأة عدوهم ، فاستأنف المخابرة بشأن الصلح وطال الجدال بشأنه حتى تمّ القرار عليه في ٢٠ مـايو (ايار) سنة ١٨٣٧ ، فعُقدت المعاهدة المعروفة بمعاهدة التافنا ، وفي جملة بنودها ان لا يسلم الامير شيئاً من شواطىء بلاده لدولة اجنبية إلا بعـــد مشورة فرنسا ، وان يكون لكل من الامير وفرنسا قناصل في بلاد الآخر .

ولما ارتاح الامير من قبيل المعاهدة ، وجّه انتباهه الى اصلاح الداخلية وتنظيم مملكته والاستعداد للحرب ، لأنـه علم لحسن فراسته ان الحرب لا بد من استئنافها ، فعصاه بعض القبـــائل فأخضعهم بالسيف وُحسن الدراية ، وكان الفرنسيون ينصرونه عنـد الحاجة . وفي جملة القبائل التي أقلقت راحته بعصيانها قبيلة ارازق ، ولكنه ما انفك حتى أذلّها وأدخلها تحت لوائه .

ثم ابتنى مدينة دعاها تقدمة وجعلها مركزاً تجارياً ، وأنشأ كثيراً من المعاقل ، ونظم جيشاً على النمط الافرنجي الحديث تحت قيادة قواد اوروبيين وأنشأ معامل للمدافع والاسلحة في تلمسان وغيرها ، واستخرج المعـادن ونشط الصناعة والزراعة والتجارة ، وأخذ بناصر العلم ، فافتتح المدارس حتى في الاحياء الصغيرة ، وكان في عزمه انشاء مدرسة جامعة في (تقدمة) تجمع بين العلوم الدينية الاسلامية والعلوم الحديثة . وضرب نقوداً فضية ونحاسية نقش على احد وجهيها : « هذه مشيئة الله وعليه توكلت » وعلى الوجه الآخر : « ضرب في تقدمـة السلطان عبد القادر » . وكان شديد السهر والتيقظ على مصالح بلاده ، حتى كان يتفقدها بنفسه .

ولكن الاقدار لم تسمح باستمرار الامن لأن الفرنسيين بعد ان استولوا على قسطنطينة أرادوا مدّ سلطتهم على البلاد الواقعة بجوارها ، وكانت في حوزة الامير ، فعارضهم بدعوى ان معاهدة (التافنا) تقضي له بها ، فأصروا على عزمهم وأنكروا عليه الأمر بتحريف كلمة من كلمات المعاهدة ، فاستأنف أمره الى باريس فلم تنصفه الحكومة الفرنسية ، فأخذ على نفسه الدفاع بالقوة ، وحصّن الأماكن التي عليها الخلاف وبعث الى قائد الحملة الفرنسية والى المسيو تييرس وزير فرنسا الشهير إذ ذاك ينذرهم بأن الاصرار على طلبهم لا يفيدهم إلا سفك الدماء ، فلم يعبأوا بتهديده ، ولكنهم قوّوا جندهم وأخذوا يتأهبون للحرب ظناً منهم انه يخاف عَددهم وعِددهم فيذعن بدون حرب ، وكان الامر بالعكس ، فانه ثبت على عزمه حتى نشبت الحرب وتقهقر الفرنسيون الى الشطوط .

فعظم الامر على الحكومة الفرنسية وبعثت بالنجدات القوية ، فاشتد أزر الفرنسيين وقاتلوا الامير بجوار جبال الاطلس وتغلبوا عليه ، وكان جنده على النظام الفرنجي ، فعدل عنه الى النظام القديم فقوي على اعدائه وأعادهم على أعقابهم ، وكان يفوز عليهم في كل موقعة ، ودامت تلك الوقائع ست سنوات . فتعبت فرنسا منه وهو لم يتعب ، فأبدلت قائد الحملة ، وبعثت القائد القديم الجنرال بوجيد ومعه الجيوش المجيشة ، ولكنه لم يثبت امام ذلك البطل المغوار .

ولما رأى الامير ان البلاد اصبحت برمتها ميداناً للحرب ابتنى مدينة نقّالة دعاها (الزملة) يلجأ اليها المنهزمون بنسائهم وأولادهم ويقيم فيها الصناع والعمال والخفر ، فحيثما انتقل الجند انتقلت تلك المدينة معهم ، وهي مؤلفة من خيم جعلها على نظام المدن ، فاذا نقلت من مكان الى آخر

يعرف كل واحد خيمته . وأمر رجاله ان لا يقتلوا اسيراً ، وأجاز من يأتي بالأسير حياً . وعلم الفرنسيون بـ (الزملة) وبما لها من المنفعة للأمير ورجاله ، فاهتدوا اليها بخيانة بعضهم وهاجموها ، فأحرقوا وقتلوا ونهبوا ولم يبقوا عليها ، وكانوا قبل ذلك بقليل قد احرقوا (تقدمة) المدينة التي ابتناها الامير لنفسه .

وكان الامير في أحراج (سيرسو) فبلغه خبر حريق (الزملة) و (تقدمة) فتكدر كدراً لا مزيد عليه لعلمه أن ذلك يقلل من نفوذه ويقود رجاله الى الفشل ، ولكنه اظهر الجَلَد وقال لمن حوله : « لا تخافوا ولا تحزنوا لأن اخواننا الذين قُتلوا قد مضوا الى النعيم » . ثم نهض وجدّد قوّته وألف (زملة) جديدة واستنجد حكومة انكلترا فلم تنجده ثم استنصر سلطان مراكش فلم ينصره ، فاضطر لأن يقوم بأعماله بنفسه وهو ثابت العزم لا يثنيه شيء ولا يخيفه امر .

ولكن فرنسا انجدت جندها وأغرت سلطان مراكش على معاضدتها ، فاشتدّ الامر على الامير ووقع في وهدة اليأس حتى حدثته نفسه بنشر راية الجهاد والمسير برجاله الى مكة المكرمة تاركاً البلاد خراباً لمحتليها . وفيما هو يفكر في ذلك جاءته نجدات عديدة من بعض القبائل ، فاشتد عزمه وعاد الى الحرب حتى اصبحت الجزائر بجملتها ميداناً للقتال ، وما زالت الحال كذلك الى نهاية سنة ١٨٤٦ م فملّ العربان وانحاز جانب منهم الى سلطان مراكش ، فاغتنم الفرنسيون تلك الفرصة وأثاروا المراكشيين وأنهضوهم على قتل الامير وقتاله ، فبعثوا اليه جيوشاً حاربته في اماكن مختلفة ، وكان الامير يقاتل بالأمر الممكن لا تثنيه كثرة اعدائه ولا شدتهم ، ولكنه استاء من خيانة سلطان مراكش ، فبعث اليه يذكره

بالصداقة القديمة ، فأجابه أما ان يسلم نفسه او ان يرحل الى براري الجزائر، فكظم الامير على نفسه وفضّل الاعتزال عن الناس على التسليم، فأقام على الصلاة وتلاوة القرآن الشريف .

وفي اواخر سنة ١٨٤٧ علم بقدوم المراكشيين لغزو (زملته) ولم يكن فيها اكثر من خمسة آلاف والمراكشيون يزيدون على الخمسين الفاً ، فخاف الامير على رجاله وإن يكن لم يعرف الخوف قبلاً . فعادت اليه نخوته فهجم ليلاً بذلك الجيش القليل وفرّق شمل المراكشيين ثم عادوا فاجتمعوا ثانية وهاجموه فطاردهم وظهر عليهم ولكنه خسر جانباً من رجاله فرأى الانسحاب افضل له فرجع الى الجزائر فوصل مكاناً علم بعد وصوله اليه ان الجيش الفرنسي على مسافة ثلاث ساعات منه ورأى ان جيشه قد انهكه السفر والحرب فخشي ان يقع هو وزملته في يد الفرنسيين لأنه لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه — ولكنه عاد فرأى ان يبذل قصارى جهده فجمع اليه رجاله وخطب فيهم مفصحاً عما هم فيه من الضيق وقال : « اراكم قد وفيتم بما بايعتموني عليه وبذلتم جهدكم في معاضدتي . وأما الحالة الراهنة فتقضي علينا بالتسليم للعدو وعندي ان التسليم للفرنسيين خير من التسليم للمراكشيين فما رأيكم » .

فأجابوه انهم على رأيه فنظر اليهم فإذا هم عدة من احسن الرجال وأشدهم وقد رافقوه في حروبه خمس عشر سنة فشق عليه ان ينتهي جهاده هذا بالتسليم للعدو ولكنه اذعن لحكم الضرورة قسراً وهو غير خائب لأنه جاهد الجهاد الحسن مدة ١٥ سنة حتى نفدت الحيلة .

وأراد ليلة ٢١ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٤٧ كتابة شروط التسليم فلم يستطع لتساقط الامطار وهبوب العواصف فبعث اثنين من خاصته

دفع اليهما ختمه شاهداً على صدق نيابتهما عنه امام قائد المعسكر الفرنسي الجنرال لامور يسير فذهبا وعرضا الشروط ومن مقتضاها ان يبارح الامير بلاده ويسكن في الاسكندرية بمن معه من الرجال والنساء والاولاد او في مدينة بورصة . فقبل الجنرال الشروط بدون تردد وسرّ لانتهاء متاعب فرنسا في حروب هــذا الامير وأخبر فرنسا بذلك فابتهجت باريس . وهكذا سلم الامير ولكنهم احتفلوا به عند قدومه المعسكر احتفالاً عظيماً .

وفي ٢٥ منه سافر الامير بمن اراد مرافقته من رجاله وعددهم ثمانون على دارعة الى طولون فقوبلوا بالترحاب ثم طلبوا اليه التنازل عن اشتراطه السكنى في الاسكندرية او غيرها من المدن العثمانية وأن يقيم في فرنسا بكل احترام وبكل ما يحتاج اليه من النفقات فأبى ثم انقلبت حكومة فرنسا من الملكية الى الجمهورية وبعد اخذ ورد اجابوه الى ما اراد ولكنهم اشترطوا عليه ان يتعهد بعدم الذهاب الى الجزائر فتعهد بذلك كتابة هو ورجاله في مارس (آذار) سنة ١٨٤٨ وبات ينتظر الأمر بالذهاب . فورد عليه الجواب على غير المراد ومفاده ان الجمهورية تعتبره اسيراً كما تركته الحكومة السالفة وزجوه في السجن مع رجاله . فتكدّر الامير كدراً لا مزيد عليه ولكنه كان يتأسى في سجنه بالكتابة والتأليف ورأى رجاله يتذمرون من الأسر فألحّ عليهم ان يتركوه ويذهبوا لأنهم غير مكلفين باحتمال الأسر من اجله فأبوا إلا مرافقته في السراء والضراء وبقوا في ذلك الأسر الى اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٨٥٢ .

فقدر الله ان البرنس نابوليون كان متجوّلاً في انحاء المملكة فمرّ بابيس حيث كان الامير مأسوراً فزاره ووعده بالإنقاذ وبعد بضعة ايام اطلق سراحه ودعاه لزيارته في باريس فقوبل فيها بالتجلة والإكرام والباريسيون

مطلون من الشبابيك والكوى لمشاهدة الامير البدوي الذي شغل دولة فرنسا ١٥ سنة بالحروب . ثم دعي لزيارة البرنس نابوليون في قصره فسار مع اربعة من اخصائه وكانت الحفلة حافلة فتكلم الامير معتذراً عن عدم معرفته العادات الجارية في فرنسا وطلب الاغضاء عما ربما يأتيه مما يخالف ذلك وتعهّد له بعدم الرجوع الى الجزائر ، فشكره البرنس ، وبعد الغداء طاف به في القصر وأهداه جواداً عربياً ، وبالاختصار ان احتفال البرنس نابليون بالامير عبد القادر كان عظيماً جداً ، وبعد مضي شهر في باريس اتفق إجماع الفرنساوية على إرجاع الامبراطورية ، فكان الامير في جملة المنتخبين ، ووقع الانتخاب على البرنس نابليون ، ولما تنصّب زاره وهنأه فلاقى منه كل رعاية وأعطاه سيفاً مكتوباً عليه « من الامبراطور نابليون الثالث الى الامير عبد القادر ابن محيي الدين » . وفي ٢١ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٥١ برح الامير فرنسا فوصل الاستانة فاحتفل به سفير فرنسا هناك احتفالاً شائقاً ، وبعد ايام سار الى بورصة على نية الإقامة فيها وله نفقات معينة من فرنسا تبلغ اربعة آلاف جنيه سنوياً تنفق عليه وعلى رجاله ، ولم يطب له المقام هناك فاستأذن بالعود الى فرنسا فعاد ومكث فيها مدة ثم عاد الى بورصة وقضى فيها بضعة اسابيع ريثما أعدّ نفسه ورجاله ومتاعه وبرحها الى بيروت فوصلها في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٥٦ ومنها الى دمشق فخرج للقائه جماهير كبيرة بالاحتفاء اللائق رجالاً ونساء حتى وصل المحل المعدّ لإقامته ، ثم اتخذ مسكناً له في محل يقال له العمارة في دمشق وقام فيه وقد طابت له المعيشة في تلك المدينة الفيحاء الى آخر ايامه لما لاقى من لطف اهلها وإنسهم ، وكان يقضي معظم وقته في المطالعة والصلاة والتأليف ، ولا يخلو مجلسه من العلماء والفضلاء .

وفي سنة ١٨٦٠ ، كانت الثورة المشهورة في دمشق ، وهي المذبحة التي ذبح فيها المسيحيون ، وكان الأمير من اكبر المعارضين لإجرائها . ولما نفدت حيلته في منعها ، اصرَّ على بذل قصارى جهده في كف الاذى عن المسيحيين .

فلما علم يوم الاثنين في ٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ بابتداء المذبحة ، تكدّر جداً ، وبعث حالاً الى كل مغربي في دمشق ، وفرّقهم في أحياء المدينة لإنقاذ من يستطيعون إنقاذه من المسيحيين ، فكانوا يهجمون كالاسود بقلوب لا تهاب الموت ، ورؤوس قد ثارت فيها الحمية والمروءة ، فيأتون بمن يستطيعون إنقاذه ، رجالاً ونساءً وأولاداً الى دار الامير . ولما علم النصارى بما عزم عليه الامير ، راحوا يفرّون اليه من تلقاء انفسهم ، ويقيمون في بيته حتى غصت داره ، فأخذ البيوت المجاورة له وأخلاها ، وأقام فيها اللائذين به ، وفي جملتهم قناصل الدول وغيرهم ، وكان ينفق عليهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام وغيره ، وممن عاضدوه في هذا العمل الخيري ، العالمان الشريفان محمود افندي حمزه وأخوه أسعد افندي رحمهم الله اجمعين .

في ثالث يوم من المذبحة ، هجم الأكراد الثائرون على بيت الامير للقبض على النصارى ، فدافعهم الأمير ورجاله والشريفان بكل ما في وسعهم ، فعاد الأكراد خاسرين . ثم ان والي دمشق اذ ذاك ، وعد النصارى إذا سلموا ودخلوا القلعة انهم يكونون فيها آمنين من القتل ، فاجتمع فيها نحوٌ من خمسة آلاف . وكأنه أراد بهم الغدر بعد ذلك ، بجماعة من الدروز كانوا قادمين للنهب ، فخرج اليهم الامير ورجاله وهدّدهم بالرصاص فخافوا وكرّوا على أعقابهم . وبقيت الثورة سبعة ايام

متوالية لم يفتر فيها الامير لحظة عن نصرة المظلومين وإنقاذهم من القتل وتطبيب الجرحى وتعزية الثكالى والأرامل واليتامى .

وكان يقضي اكثر الليالي ساهراً والبندقية في يده حرصاً على مَن هم في حِماه ، فاذا غلب عليه النعاس أسند رأسه الى فمها قليلاً . وفي ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ ، جاء دمشق والٍ جديد وعُزل القديم وأخذت الاحوال في الهدوء ، وقد كان في حمى الامير من النصارى يوم جاء ذلك الوالي نحو اربعة آلاف نفس وفي القلعة نحو ستة آلاف ، وبعد يسير جاء فؤاد باشا لتحري المسألة ومقاصة المعتدين وهكذا انتهت المذبحة .

أما النصارى فهم كافة مدينون لفضل هذا الرجل العظيم لأنه جاء عملاً برهن على عظم نفسه ومروءته وشهامته ، وقد نال جزاءه من الدول الاوربية فبعثت اليه بوسامات الشرف ورسائل الثناء ، وخصوصاً الدولة العلية أيدها الله .

ولما هدأت الاحوال عاد الى السكينة وعكف على المطالعة والصلاة والتدريس .

وفي سنة ١٨٦٣ استأذن الامبراطور في الذهاب الى الحج فأذن له فزار الحرمين وقضى فروض الحج كما يجب وزار الطائف والمدينة المنوّرة وكان حيثما حلّ يلاقي كل رعاية وإكرام ، وفي أثناء عودته من الحجاز سنة ١٨٦٤ مرّ بالاسكندرية وانتظم في سلك الجمعية الماسونية في ١٨ يونيو (حزيران) من تلك السنة . وبعد ايام عاد الى دمشق وعكف على ما اعتاده من التديُّن والصلاة ، واشتهر بالتقوى حتى كان الصوفيون يعتبرونه مكاشفاً وينزلونه منزلة سيدي محيي الدين ابن العربي والشيخ عبد الغني

النابلسي وكان له في قلوب اعيان دمشق منزلة رفيعة جداً . وقد كتب كتباً في التصوُّف والتوحيد ، ولم يترك ملابسه العربية مطلقاً . ونظراً لمحافظته على عهوده مع نابليون كان يدعوه صديقه الباسل .

وكانت معيشته في بيته في غاية البساطة مع الترتيب ، وما زال معظماً مكرّماً محترماً لدى كل من عرفه حتى توفاه الله سنة ١٨٨٨ في منزله بدمشق فأسف الناس عليه واستعظموا المصاب فيه وأبّنه الكتّاب والعلماء ورثته الجرائد في سائر الاقطار رحمه الله .

عثمان باشا الغازي

هو عثمان نوري باشا القائد العثماني الشهير . ولد في طوقات إحدى مدن سيواس في شمالي آسيا الصغرى . قدم الاستانة صغيراً وكان شقيقه حسين افندي استاذ اللغة العربية في المدرسة الاعدادية هناك فأدخله في تلك المدرسة فتلقى فيها مبادىء العلم ثم انتظم في سلك المدرسة الحربية فنبغ بين رفقائه وخرج منها سنة ١٨٥٣ ضابطاً ملازماً في فرقة الفرسان (سواري) .

ولما انتشبت حرب القرم ألحق بأركان حرب عمر باشا القائد الشهير وشهد مواقع كثيرة اظهر فيها بسالة استلفتت انتباه رؤسائه فلما عاد من الحرب ترقى الى رتبة يوزباشي في الحرس الشاهاني بالاستانة .

وكان عثمان باشا في جملة رجال العسكرية الذين توسطوا في اصلاح شؤون الحوادث السورية عام ١٨٦٠ وهو في رتبة بكباشي . واشتغل سنة ١٨٦٦ في اخماد ثورة ظهرت في كريد فارتقى على أثر ذلك الى رتبة



عثمان باشا الغازي (١٨٣٢ م – ١٩٠٠ م)

قائمقام . وعاد الى الاستانة فارتقى هناك الى رتبة اميرالاي . وترى مما تقدم انه إنما كان يرتقي على أثر اعمال تؤهله للارتقاء .

وفي سنة ١٨٧٤ احرز رتبة لواء وفي السنة التالية صار فريقاً وتولى قيادة الفيلق الخامس وخرج لمحاربة الصرب ففاز في كل المواقع وعاد وقد حمل الصربيين على التماس الصلح كما سيأتي فصدرت الإرادة السنية بترقيته الى رتبة المشيرية مكافأة له .

وفي سنة ١٨٧٧ انتشبت الحرب الشهيرة بين الدولة العلية والروس فتولى قيادة ٦٨ طابوراً و١٧ كوكبة و١٧٤ مدفعاً وحارب جند الروس في مواقع كثيرة . وفي هذه الحرب نال هذا القائد شهرته الكبرى .

حرب الروس :

وسبب هذه الحرب ان البوسنه والهرسك في غربي بلاد الروملي تمردتا على الدولة العلية سنة ١٨٧٥ وامتنع اهلهما عن دفع الرسوم الاميرية وربما كان سبب ذلك متصلاً بمطامع النمسا فيهما وتفاقم امر هذه الثورة حتى خيف منها على السلم العــام . فاجتمع قناصل الدول العظمى في مستار بالهركس في سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٥ وأقروا على تسوية تقضي على الباب العالي ببعض الاصلاح وعلى الثائرين بالامتثال فلم يجد سعيهم نفعاً . فأنفذت الدولة العلية جندها لإخماد الثورة بالسيف . فجرت مواقع كثيرة سفكت بها دماء غزيرة ولكنها لم تقرر النصر لأحد الفريقين .

وتوقفت الحكومة العثمانية في اكتوبر من تلك السنة عن دفع فائــدة الدين العمومي وأصدر الباب العالي بلاغاً الى الدول يعدهن فيــه بدفع نصف المطلوب معجلاً واتخــاذ الاحتياطات اللازمة لدفع النصف الآخر ولكنه لم ينجز الوعــد . فوضع الكونت اندراسي رئيس وزارة النمسا لائحة طلب بها من الدولة العلية مطاليب اصلاحية صادقت عليها روسيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وانكلترا ورفعوها الى الباب العالي في ٢١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٧٦ ، فوعد بإجراء ذلك . ولكن البوسنة والهرسك لم تقبلا لأن الدول لم تشركهما في كيفيــة التسوية . وفي مارس (آذار) من تلك السنة عادت الحرب الى ما كانت عليه .

ووقع في ٦ مارس (آذار) المذكور خصام بين المسيحيين والمسلمين في سالونيك قُتل فيه قنصلا فرنسا والمانيا فاحتجّ سفيرا هاتين الدولتين في الاستانة على الحكومة العثمانية ، فأمر الباب العالي بقتل الجانين وعوّض على عائلتي القتيلين ووعد بتجنب مثل هذه الحوادث في المستقبل .

ولكن ذلك لم يمنع مطالبة الدول بإجراء الاصلاح ، فاجتمع البرنس غورتشاكوف وزير روسيا والبرنس بسمارك وزير المانيا والكونت اندراسي وزير النمسا في منزل البرنس بسمارك في برلين في ١١ مايو (ايار) عام ١٨٧٦ ، واتفقوا على مذكرة وضعها غورتشاكوف يطلب فيها انفاذ لائحة اندراسي . فأبت انكلترا المصادقة على هـــذا الطلب ، لأنه يقضي باتحاد الدول الست على استخدام السلاح اذا لم يتم مـــا طلبوه . وزد على ذلك ان البوسنة والهرسك لم تقبلا بتلك المذكرة ، فألغيت .

وفي أثناء ذلك الشهر نزل المغفور له السلطان عبد العزيز عن العرش العثماني وحصل مـــا حصل من الاضطراب ، وعلى اثر خلعه تولى السلطان عبد الحميد .

وكانت امـــارة الصرب منذ ثورة البوسنة والهرسك واقفـــة وقوف المتحفز للقتال ، وكذلك الجبل الاسود فانه انتصر للهرسك . فأصبح الباب العالي في حرب مع البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود بدأت في يوليو (تموز) عام ١٨٧٦ وقُتل فيها كثيرون حتى جرت الدماء سيولاً . وكانت الجنود العثمانية تحارب الصرب بقيادة عثمان باشا صاحب الترجمة ، ودرويش باشا وحافظ باشا وسليمان باشا وعبد الكريم باشا وغيرهم . وكان الفوز نصيبهم في معظم المواقع ، اما في الجبل الاسود والهرسك فكان الجند العثماني بقيادة مختار باشا وسليم باشا والبلاد هناك اكثر وعورة ، فقاسوا فيها عذاباً شديداً . وأخيراً تضايق الصربيون فالتمسوا الصلح في سبتمبر (ايلول) عام ١٨٧٦ .

وكانت الثورة قد ظهرت في بلغاريا من مايو (ايار) السابق ، فأرسل

الباب العالي بعض الشراكسة والباشبوزق لإخمادها ، فارتكبوا في اثناء ذلك فظائع تقشعرّ من ذكرها الابدان دوى صداها في سماء اوروبا ، فقام شعب الانكليز قومة واحدة يطلبون توسّط دولتهم في هذه الشؤون ، فتوسطت والتمست من الباب العالي تحرّي تلك الفعال ومعاقبة الجانين ، فوعد ولكنه أبطأ في الإنجاز وأصدر منشوراً يقول فيه انه سيوقف دفع الدين ريثما تخمد الثورات القائمة في ولاياته . وكان لانكلترا اكبر حصة في هذا الدين ، فآل ذلك الى فتور بينها وبين الدولة العلية .

وعرضت الدول من الجهة الاخرى شروطاً للصلح بين الدولة العلية ومحاربيها طال أمد المخابرة بشأنها ، وأخيراً رفضها الباب العالي فاعتبر الروس رفضها مهيناً لهم لعلاقاتهم الجنسية والدينية بالصرب ، فنشأت الضغائن بين الدولتين . وتداولت الدول بشأن الاصلاح ، فاقترحت روسيا ان تتوسط الدول جميعاً يداً واحدة في شؤون تركيا ، فرفضت فرنسا وانكلترا والنمسا هذا الاقتراح . فصرحت روسيا بميلها الى مساعدة الصرب وهو اول ما ظهر من رغبتها في الحرب ، فطلب الباب العالي هدنة ستة اشهر ، فلم تسمح روسيا إلا بستة اسابيع وأذاعت ذلك بمنشور على الدول العظمى قالت فيه انها اذا لم ينفّذ طلبها هذا حملت على تركيا واكتسحتها . فاهتزّت اوروبا لهذا التهديد ، وأخذت كل دولة تتحفز وتتأهب وخصوصاً انكلترا فانها استاءت من الروس لأنهم لم يساعدوها على طلب التعويض عن فظائع بلغاريا .

اما روسيا فعبأت الجند في بندار وتفليس وقد عولت على محاربة الدولة العلية في اوروبا وآسيا معاً ، والدول تسعى من الجهة الاخرى في التسوية وسعيهن ذاهب هدراً ، وما قُدّر فقد كان .

وليس من غرضنا البحث في مـا دار من المخابرات ولا مـا لعب من الايدي ، اذ لا محل له هنا . وإنما المراد انه لما تقررت الحرب بين الدولتين زحف الروس على بلاد الدولة في اوروبا وآسيا . فزحف ١٧٥,٠٠٠ مقاتل بقيـادة الغراندوق ميخائيل والجنرال مليكوف نحو بلاد الدولة في آسيا الى ارمينيا ، وقلوب الارمن مع الروس ايضاً .

ولا حاجة بنـا الى الدخول في تفاصيل هذه الحرب ، ولكننا نقول بالاختصار انه كان من نصيب صاحب الترجمة ملاقاة الروس في الروملي ومعه عبد الكريم باشا وسليمان باشا ، ولم ينقضِ شهر مايو (ايار) سنة ١٨٧٧ م حتى احتلت جنود الروس ضفة الطونا (الدانوب) الشمالية من (كلفات) الى غلاتس . على ان معظمهم كان في جورجيفو مقابل روستجق . والطونا كما لا يخفى فاصل بين رومانيا وبلغاريا ، وكان عدد الجند العثماني في جنوبي ذلك النهر نحو مئتي الف مقاتل بقيـادة عبد الكريم باشا ، ومركز المعسكر في شملة على حدود البلقان ، ولكنهم احتلوا كل الحصون على ضفة الطونا الجنوبية ، وأصبح الموقف حرجاً وصرحت الدول بحيادتها وهدأت الحال شهرين والطونا فاصل بين الجيشين . ثم حاول الروس عبور النهر وعددهم ٤٠٠,٠٠٠ مقـاتل ، وفي يونيو (حزيران) من تلك السنة عبروه من اماكن مختلفة واحتلوا بعض المـدن في بلغاريا وزحف البعض الآخر الى جبال البلقان . وفي طريقهم هذه من الطونا الى البلقان لقيهم صاحب الترجمة في بلافنا وردّهم الى الوراء في ٧ يوليو (تموز) .

ولكن قائداً روسياً اخترق حدود البلغار في جبال البلقان بشجاعة غريبة ، فكان لخبر تقدمه هذا وقع موجع في الاستانة . فنقل الباب العالي قيادة الجند من عبد الكريم باشا الى محمد علي باشا ، وهو بروسياني واسمه

الاصلي شلوتز . وأصبح الجند العثماني في ساحة الحرب اربع فرق يقودها اربعة من القواد العظام ، وهم عثمان باشا في ويدين على ضفة الطونا في الغرب ، ومحمد علي باشا في شملة بالشرق ، وكلاهما شمالي جبال البلقان ، وأما القائدان الباقيان وهما سليمان باشا ورؤوف باشا ، فكانا في جنوبي تلك الجبال .

حصار بلافنا :

وفي ٣٠ يوليو (تموز) هجم اربعون الفاً من الروس على بلافنا وفيها عثمان باشا وخمسة آلاف جندي ، فدافع العثمانيون دفاعاً حسناً ، ولكن الروس لكثرتهم وفقوا في اول الامر للاستيلاء على ذلك المكان الحصين . وكأن صاحب الترجمة نفخ في جنوده روحاً حية فانقضّوا على الروس انقضاض الصواعق وصبّوا عليهم ناراً حامية ، فتقهقر الروس وعاد العثمانيون الى حصونهم فتجدد القتال في اليوم التالي والفوز لا يزال مع العثمانيين ، ففرّ الروس من ساحة الوغى وقد تركوا خمسة آلاف من جندهم بين قتلى وجرحى ، وحدث فشل عظيم في معسكرهم .

وفي ٦ سبتمبر (ايلول) ١٨٧٧ م عاد الروس الى بلافنا بمدافعهم وبنادقهم وأطلقوا القنابل على حصونها يومين متواصلين فاستولوا على تلال في جنوبها في مساء ٨ منه وواصلوا الاطلاق طول الليل واليوم التالي والذي بعده ، وفي ١١ منه فتحوا حصن كريفتزا بعد جهاد اليأس . اما العثمانيون فتشددوا في اليوم التالي بتشجيع قائدهم الباسل وانقضوا على الروس بقلوب لا تهاب الموت فطردوهم واسترجعوا كل الحصون إلا كريفتزا . وخسر الروس في هذه المعركة سبعة آلاف رجل بين قتيل

وجريح . ولما بلغ خبر هذا النصر الى الاستانة انعم جلالة السلطان على صاحب الترجمة بالنيشان العثماني المرصع مع لقب « غازي » .

وعــاد الروس مرة ثالثة بقيادة الجنرال تودلبن بطل سباستبول ، فحاصروا بلافنــا وصبّوا عليها النيران من مدافعهم . وفي ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) فتحوا حصن كريفتزا الثاني بعد ان ارتدوا عنه مرتين . على ان العثمانيين عادوا فاستولوا عليه في تلك الليــلة بقوة السلاح وبنوا سوراً آخر داخلياً لزيادة المناعة .

ونظر صاحب الترجمة في مركزه الحرج فعلم انه يحتاج الى النظام اكثر منه الى الرجال ، فأمر كل من كان معه من الشراكسة والباشبوزق بالخروج من بلافنا ، وثبت هو بمن بقي من جنده فيها ثبات الجبال .

وكان الروس في اثنــاء ذلك يحاربون ما يحيط ببلافنا من الحاميات العثمانية ويطاردونهم حتى خلت تلك البقاع من الجند العثماني إلا بلافنــا فانهــا ظلت ممتنعة الى ١٠ ديسمبر (كانون الاول) وقد نفدت مؤونتها وانقطع عنهــا المدد . فخرج عثمان باشا من حصنه وهو ينوي أن يخترق صفوف المحاصرين لعله ينجو من حصاره . فسار في مقدمة رجاله ومشوا جميعاً الى جهة واحدة والروس يطلقون عليهم النار وهم لا يبالون ، فاخترقوا خطين من خطوط الجند الروسي ، ولم يبق لنجاتهم إلا خــط واحد كادوا يخترقونه لو لم يروا بطلهم عثمان باشا سقط الى الارض هو وجواده وقــد أصيب برصاصة اخترقت فخذه وأصابت الجواد ، فظنوه قتل ففشلوا واضطروا للتسليم . فسلموا اسلحتهم بلا شرط وعددهم اربعون الفاً ، فضلاً عن ٢٠٠٠٠ بين مريض وجريح . فلما سلم عثمان بعث اليه



القيصر اسكندر الثاني

قائد الروسيين مركبة يركب فيها الى بلافنا لمداواة جراحه فركب . وهو في الطريق لقيه الفراندوق نيقولا ومعه البرنس شارل امير رومانيا فأوقفا عربته وسلما عليه مصافحة .

وفي صبيحة اليوم التالي سار صاحب الترجمة يتوكأ على طبيبه الخاص الى القصر الذي نزل به القيصر اسكندر الثاني ببلافنا . فلما أقبل عثمان وقف له القيصر وسلم عليه وأثنى على بسالته وأمانته وأعجب بما أبداه من الشجاعة في محاولته الخروج من بين صفوف المدافع والبنادق الى ان قال : « وهذا سيفك أردُّه اليك إقراراً ببسالتك وأهليتك ولك ان تتقلده في بلادي وهـذه مركبتي وهؤلاء حرسي تحت امرك اذا شئت ركبت وإن شئت مكثت » .

ولا يخفى ما في ذلك من الإكرام الذي لم يصدر من هذا القيصر إلا لما يعتقده من فضل هذا القائد العظيم . ومما يزيد فضله في هـذا الحصار

ان الذين حاصروا بلافنا يزيد عددهم على ١٥٠٠٠٠ ومعهم ٦٠٠ مدفع وقوات هذا الغازي لم تكن أكثر من خمسين الفاً وثمانين مدفعاً ، وقد رأينا مع ذلك انه لما يئس من الزاد والذخيرة لم يطلب التسليم وهو داخل الحصون ولكنه خرج مستقتلاً فإما ان يسلم وإما ان يسلم . وكان لسقوط بلافنا دويٌّ عظيم ففرح الروسيون واستاء العثمانيون .

اواخر ايامه :

وبعد انقضاء تلك الحرب وعقد شروط الصلح مع الروس في مارس (آذار) ١٨٧٨ عاد عثمان باشا الى الاستانة وتعين قائداً للحرس الشاهاني وفي ١٠ يونيو (حزيران) من تلك السنة عُيّن مشير المابين ثم والياً لجزيرة كريت .

وفي آخر تلك السنة انتدب لوزارة الحربية وتقرّب من الحضرة الشاهانية نال كل التفات ورعاية ، وتقلب في احسن مناصب الدولة وأشرفها ، ونال أشرف وساماتها ووسام كومندور اللجيون دو نور من فرنسا .

ومن غريب ما تقوله الناس على اثر ما ظهر من بسالته في حصار بلافنا ان كل امة حاولت ان تدّعيه لنفسها فقال الاميركان ان الرجل اميركاني الاصل وقال الفرنساويون انه فرنساوي وقال غيرهم غير ذلك ولكنهم تحققوا بعدئذ انه تركي لا شك فيه .

وكان صاحب الترجمة في آخر اعوامه مشير المابين الهمايوني وقائد الفيلق الخاص ، ولا يجتمع مجلس في سراي يلدز إلا وهو من اعضائه . واليه النظر في شؤون جند المابين وملاحظة كل ما يتعلق بالمابين وكل ما يحدث فيه . وله دائرة خصوصية هناك يقيم فيها وله الكتاب والمأمورون .

وبما ناله من التفات جلالة السلطان ان اثنين من اولاده تزوجا بكريمتي جلالته . ثم أصيب بمرض عزّ شفاؤه فتوفي في الاستانة في اوائل افريل (نيسان) ١٩٠٠ وهو لم يتجاوز الثامنة والستين من عمره وفي موته خسارة كبرى على الدولة العثمانية لأنه من أعاظم أفرادها .

حميد بن محمد المرجبي

فاتح الكونغو

لم يتعود قراء هذا الزمان الاطلاع على اخبار الهمم العالية والنفوس الكبيرة وظهور نوابغ القواد ورجال الدهاء إلا بين اهل الغرب . ويعجبهم على الخصوص اذا قرأوا عن قائد او وزير او ملك نبغ من بين العامة وتسنم عرش السيادة بجده وسعيه . ولكن بين اهل الشرق اليوم نوابغ لا تقل نفوسهم كبراً ولا هممهم سمواً عن اولئك فقد ينبغون في اواسط آسيا وأفريقيا ويأتون بمعجزات السياسة والدهاء والقيادة ولا نعرف اخبارهم . واليك ترجمة رجل منهم ولد في الفقر والضنك وارتقى بهمته وسعيه حتى قاد الالوف وفتح البلاد – نعني به حميد بن محمد بن جمعة المرجبي الملقب بتيبوتيب فاتح الكونغو بأواسط افريقيا وقد بعث الينا برسمه وترجمة حاله حضرة الشيخ ناصر بن سليمان بن ناصر اللمكي ساكن زنجبار فاثبتناهما مع الثناء على غيرته في نشر مآثر الشرقيين قال :

تمهيد :

كانت الاقطار الزنجبارية ملكاً للبرتغال كما لا يخفى على ذوي الالمام بالتاريخ فلما اراد العرب تخليص هذه الاقطار من يد الافرنج بقوة سلطانهم



حميد بن محمد المرحبي

سيف بن سلطان اليعربي جهزوا جيشاً من بلاد عمان مؤلفاً من قبائل شتى من العرب وفيهم القبائل المراجبة . فبرح هـــذا الجيش مسقط في سفن شراعية فوصل الى ممبسة سنة ١٦٦٥ مسيحية وهناك جرت بينهم وبـين البرتغال وقائع كثيرة قضى الله بعدها بانجـلاء البرتغال من تلك الاقطار واستلم العرب ازمة الملك . ولمـا رجع السلطان الى مسقط احب بعض اصحابه الاقامة في تلك الاقطار فأقاموا وفيهم العائلات من قبائل الحواتم والنباهنة واليعاربة والمراجبة واتخذ كل فريق منهم المناخ الموافق له ولا

تزال هـذه القبائل باقية هناك الى الآن . ولكن رجالها لا يتكلمون إلا اللغة الزنجبارية وإنمـا حفظوا اسم القبيلة فقط . فالمراجبة اختاروا قرية بجنوب دار السلام اسمها مبوماجي مناخاً لهم ولا يزالون فيها الى اليوم .

ثم آل امر تلك الاقطار مـع توالي الزمن الى الانحطاط حتى جاءها سعيد بن سلطان الازدي جد العائلة المالكة الآن في زنجبار وعمان فأخذت في التقدم وفتحت ابواب التجارة وجعلت عاصمة المملكة جزيرة زنجبار ثم رحل اليها العرب من عمان كما رحل اليها قبائل البراري والأفرنج .

ترجمة حاله :

في هذه الجزيرة ولد صاحب الترجمة وهو حميد بن محمد بن جمعة المرجبي في سنة ١٢٤٨ هجرية وقد نشأ في عصر مظلم وبلاد مظلمة . ولم يرَ بين يديـــه إلا اقواماً لباسهم الجهل وطعامهم الفقر خالين من كل فضيلة متردين بكل رذيلة لا يميزون بين الخير والشر . ولمـا بلغ السنة الخامسة من العمر اجتهد والده بتعليمه القراءة والكتابة وكتاب الله ، فأخذ منه بالقسط الأوفر في اقرب وقت ، ثم مكث في حـالة الفقر عدة سنوات كأنه على النار إذ كان يشعر في نفسه بشيء يستحثه على طلب العلى وهو لا يدري بأية وسيلة يسمو اليها . واتفق ان والده سافر الى داخل البلاد لطلب الرزق وترك ولده في زنجبار ، فالولد لم يقرّ له قرار لأنه رأى في نفسه ضيقاً شديداً لم يعلم له سبباً ، ذلك هو دأب عظماء الرجال يحسّون بالكبرياء والعظمة وهم في المهـــد ، فاذا أتيحت لأحدهم الوسائط لقضاء مراده ، وجد لذلك طريقاً يسهل عليه الامر واستعمل الحيلة والمال لبلوغ أربه . ولكن المترجم لم يجد لنيل بغيته طريقاً مع مطالبة نفسه بهـا ،

وظلّ كذلك حتى تطرّق الى قلبه اليأس ، فأخذ في طلب مـــا يسدّ به رمقه .

ولما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ، اقترض اثني عشر ريالاً اشترى بها ملحاً سافر به الى دار السلام ومنها الى داخل البلاد للاتجار ، ولبث شهوراً يتردد في بيع الملح وقـــد ذاق حلاوة الجد والاجتهاد ، وكانت اسفاره لا تزيد عن مسير يومين او ثلاثة ، ثم طال سفره شيئـاً فشيئاً واطمأن اليه التجار بأموالهم فاتجر في الثيـاب والمأكولات والكوتشوك وغيرها حتى اجتمع عنده شيء يسير من المال . ثم بلغه ان والده وصل الى مدينة تبوره وتزوج بابنة سلطان الانيموز (قبيلة من الزنوج لا يختتنون وهم كثيرو العدد) ، فشمّر عن ساعد الجدّ وعزم على اللحاق به الى تلك البلاد ، فسافر من باجمويو وبعد مسير ثمانين يوماً في البراري والقفار وصل الى تبوره فوجدها كبيرة وفيها من العرب نحو خمسمائة نفس وجملة سكانها اربعون الفـــاً ، ثم واجه السلطان وهو صهر والده ، فلقي منه إكراماً وأهدى اليه عاجاً وقرّبه منه ، فقوي نفوذه لديه وبقي هناك متاجراً .

ثم حصل خـلاف بين صهر والده وسلطان آخر من سلاطين الزنوج فتحاربا مدة وخرج حميد بن محمد لنجدة صهر والده ببعض الزنوج والمماليك فدخل بلاد العدو ليلاً وأحرقها واستباحها قتلاً وسلباً وجمع الكثير من العاج واستتب امره في تلك البلاد حـتى صارت ملكاً له وأطاع اهلها امره . ولمـــا عاد الى والده منصوراً اخذ ما كان معه من العاج وقفل راجعاً الى زنجبار فحظي بمقابلة سلطانها يومئذ ماجد بن سعيد بن سلطان ثم باع ما معه من العاج ووفى ما عليه من الديون وأخذ في تجهيز مـــا يحتاج اليه في سفره فلما تمّ ما اراد تجهيزه عمد الى السفر .

نشأته السياسية :

لقي حميد في هذه النشأة من المصاعب والمشاغب ما تشيب له الولدان لأنه كان يسافر الى مكان لم تطأه اقدام اسلافه ولكنه لم يتهيب من ذلك بل كان يسافر والسعد حليفه والعناية تساعده والاجتهاد نصيره على المصائب. برح زنجبار ومعه من الثياب والخرز والبارود والرصاص ما قيمته تسعون الف ريال حتى وصل باجمويو ثم برحها في سنة ١٢٧٩ هجرية وبعد مضي ١٥ يوماً من سفره قطع اللصوص الطريق عليه وأرادوا نهب مـــا معه فدافعهم لكنهم اخذوا بعض امواله فلم يرهبه ذلك وقـد اصابت رجاله الشمس. فمكثوا ٥ ايام يشربون بول الدواب ثم اصابهم طاعون فمات منهم خمسمائة رجل ولم يجد من يحمل الخمسمائة حمـل التي كانوا يحملونها فتركها ومضى الى حال سبيله وسار مجدّاً حتى وصل تبوره وقد انهكه التعب ومعه نصف امواله فتاجر بـــه سنتين ثم مضى الى البلاد التي كان قد اخذها قبلاً فوجد سلطانها استنجد بسلطان آخر فحاربها فانكسر شر انكسار وضل عـــن الطريق وتشتت اصحابه من الهزيمة فوصل تبوره مقهوراً مدحوراً ثم برحها الى اوجيجي فربح منها اموالاً طائلة وركب في بحيرة تنكنيكه فوصل الى الجانب الثاني منها سنة ١٢٧٤ هجرية فمكث هناك نحو سنة ونصف سنة بين الزنوج وقد خاف ان يسافر الى الكونغو لقلة معداته فعاد الى الوجيجي ومنها الى تبورة سنة ١٢٨٦.

وبعد سنة وصلهم الخبر بوفـاة سلطان زنجبار ماجد بن سعيد وتعيين اخيه برغش بن سعيد مكانه فكتب حميد بن محمد لسلطان زنجبار كتاباً يهنئه بالملك ويطلب منه بارودا ثم سافر لمحاربة السلطان المغتصب للبلاد التي كان قد اخذها فوصل اليه فوجده متحصناً في مدينته فحاصره ستة اشهر ولم يقدر



الافيال في اواسط افريقيا

عليه فجمع اصحابه وحفروا قناة حوّلوا اليها النهر الذي يشرب اهل المدينة منه فانقطع الماء عن المحصورين فأسلم السلطان نفسه بشرط ان يسلم ما له لحميد بن محمد ويكون خاضعاً لأمره فرضي السلطان وقويت شوكة حميد وهابه الاهالي فرجع والسلطان معه . وقبل وصوله الى تبوره جاءه احد اصحابه بكتاب من سلطان زنجبار برغش بن سعيد يخبره انه ارسل اليه ألفي رطل من البارود فلما وصلته عزم على السفر الى اوجيجي فأخذ امواله وأرسل العاج الى تبوره ليبيعوه ويبتاعوا له بثمنه الثياب ، فنزل اوجيجي وأقام فيها حتى وصلته البضائع فقطع بحيرة تنكنيكة في اواخر سنة ١٢٨٧ هـ وسار قاطعاً البراري بين همجية الزنوج وأنياب الضواري يتلقى الاهوال مرة بالعطايا وتارة بالسيف والنصر حليفه والشهرة تتقدمه فترتعد الملوك خوفاً منه ، فيصالح المطيعين ويحارب العاصين ، ولم يشغله هذا عن البيع والشراء من العاج والثياب . اتجه جنوباً وعاد الى الشمال الغربي فوصل الى نهر الكونغو عند المدينة التي يسمونها (ستانلي

فولس) ولبث فيها مدة يلتمس الراحة . ولمـــا عزم على السفر في نهر الكونغو بلغه ان احـــد سلاطين الزنوج قطع عليه السبيل ليأخذ أمواله فتركها في تلك المدينة وجهّز جيشاً من رعاياه ومماليكه ُقدّر ٣٠٠٠٠ نفس وأمرهم بالسير الى الشرق فالشمال ليأتوا العدو من ورائه ، وجهّز جيشاً آخر وسيّره على شاطىء الكونغو بحـــذاء قواربه وعددها ٤٠٠ قارب . فاستمر السير شهرين كان في خلالها يبيع ويشتري ، وبعد هـــذه المدة التقى به العدو وكان شديداً عزيز الجانب والجيش الذي بعثه المترجم في البراري لم يصل بعد فانكسر حميد شر انكسار وغنم العدو القوارب واستولى على شيء كثير من ماله ، وبعد ١٤ يوماً من الهزيمة وفد الجيش فعاد به الى عدوه وهجم عليه فتحارب الفريقان ثلاثة أشهر انجلت عن قتل السلطان واستيلاء حميد بن محمد على أملاكه . وأقام هناك مدة رتب فيها جيشه على اربعة اقسام : قسم مؤلف من ٢٠٠٠٠ نفس أنفذه في الطريق الذي جاء منه ليصلوا الى ستانلي فولس ويخبروا اهله وأصحابه بالنصر ويحفظوا الاموال التي له هناك ويذهبوا منها الى الشرق حتى يبلغوا وسط المنيا في مكان عيّنه لهم . وقسم مثل الاول عدة وعدداً سيّره من المكان الذي هو فيه من الجنوب الشرقي ليدعوا الناس لطاعته ثم يتحولوا الى المحل الذي عيّنه للقسم الاول . وقسم مؤلف من ٢٠٠٠٠ نفس امرهم بالبقاء في ذلك المكان ، وخرج بمن معه وهم ٦٠٠٠٠ نفس لمحاربة قبائل نيام نيام .

ومن ينظر في هذه السياسة ينذهل لصدورها من رجل لم يتعلم فنون الحرب ولم يدخل مدرسة حربية وقد اتخذ نقطاً عسكرية لحفظ خطوط الرجعة . أما الجيش الذي كان يقوده بنفسه فوصل الى قبائل نيام نيام

وحاربهم وانتصر عليهم وأخذ اموالهم وسبى اولادهم ، ثم اتجه نحو الشرق فالجنوب فوصل الى النقطة التي عينها لأصحابه فوجدهم سبقوه ، ولم يلق في طريقه هذه المرة حرباً ، فاستتبّ الامن وأمنت السبل قليلاً . وأدركه العرب من اصحابه وانفتحت طرق التجارة الى باجويو فكثرت مداخيل زنجبار .

وقد يقول القارىء كيف يمكن لحميد بن محمد ان يجيش مائة الف وكيف كان يطعمهم ويكسوهم فنقول : انه لا محل للدهشة لأن الثوب الذي قيمته فرنك في زنجبار كان يباع هناك في ذلك الزمان بألف رطل من الارز . ثم ان الاهالي كانوا يحبون متابعته ليغنموا عند انكسار العدو . ولما استتب الامن عاد بأمواله وبعض مماليكه الى زنجبار تاركاً ولاية الامر لإخوته وصحبه . وفي عودته هـذه عبر بحيرة تنكنيكه في السفن الشراعية . واتصل به في اوجيجي نمي والده محمد بن جمعة فبكى عليه وحزن لأنه لم يجن شيئاً من ثمار اعمال ابنه ، ومرّ على (تبوره) فوجد ارملة والده وصهره ، فأقام عندهما ريثما استراح من عناء السفر ، ثم واصل السير حتى دخل دار السلام ، وقبل وصوله اليها لقيه في الطريق اخوه من أمه محمد ابن مسعود الوردي ، وأرسل سلطان زنجبار السيد برغش رجلاً يسلم عليه من قِبله او يهنئه بما ناله من النعمة والشهرة وكتب اليه كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من برغش بن سعيد الى حضرة الشيخ الافخم حميد بن محمد بن جمعة المرجبي سلمه الله تعالى ، وبعد السلام عليك اخبرني المحب ابن مسعود بأنك واصل الينا قريباً فوجبت علينا التهنئة لك وأرسلنا هذا الكتاب للسلام عليك والسلام » .



الاخطار في اواسط افريقيا

وصل حميد بن محمد دار السلام ومعه ٧٠,٠٠٠ رطل من العاج وغيره من انواع التجارة فسافر الى زنجبار بحراً فوصلها في اوائل سنة ١٢٩٤ ﻫ وباع ما كان معه من العاج وغيره فاجتمع عنده مبلغ ٣٠,٠٠٠ جنيه صافية بلا ديون .

ثم تجهز للسفر فاشترى بضائع كثيرة خرج بها من زنجبار سنة ١٢٩٦ ﻫ الى باجمويو ومنها الى داخل البلاد يقتحم الاخطار والمفاوز . وبعد عشرة أشهر وصل البلاد التي اتخذها عاصمة له فوجد الامر على غير ما كان يعهده إذ شاهد التجارة كثيرة والأرزاق واسعة والتجار من الفرنج والهنود والعرب عديدين . أما اهل البلاد فكانوا على ما تركهم من السذاجة والجهل ، وكان الامن متزعزعاً فتكبد مشاق جسيمة في محاربتهم ومضت أيامه في الحروب ولكنها لم تشغله عن التجارة بل كانت هي تجارته الرابحة

لأنه كان يكسب منها اموالاً طائلة غير العاج والعبيد والغنم ، وكان جميع ما يحصّله يرسله الى زنجبار لوكيله ويطلب منه البضاعة الصالحة للزنوج .

فلما توفر عنده المال والرقيق عاد الى زنجبار سنة ١٣٠٠ ه وباع ما جلبه من البضائع فيها واشترى ما اراده ثم برحها سنة ١٣٠٢ ه قاصداً الجهات الداخلية ، ولسنا ذاكرين هنا جميع ما اصابه في طريقه من الحرب والجوع والعطش وما لقيه من اللصوص والوحوش وإنما نقول انه وجد هناك عند وصوله هذه المرة رجلاً بلجيكياً قنصلاً لدولته وكان الخطر محدقاً به لأنه طلب من سيف بن حميد بن محمد أن يأتيه بجميع العاج الموجود هناك ليكتب عليه اسم الدولة البلجيكية فقبض عليه سيف وأرسله الى سردار الجيش راشد بن محمد فحكم عليه بضربه خمسين جلدة وحبس سنتين ، ولولا وصول حميد بن محمد في تلك الايام لنال البلجيكي جزاء شديداً . وكان البلجيكيون قبل ذلك يهاجمون العرب مراراً فيصدهم هؤلاء ويقتلون منهم كثيرين . وربما يسأل القارىء عن الرجال الذين كانوا ينصرون البلجيك إذ كان جميع الزنوج رعايا العرب ، فالجواب ان العرب كانت لهم عادة يكرهها الزنوج ، وهي انهم كانوا يحملون اولاد الزنوج يبيعونهم في زنجبار . فلما دخل الفرنج تلك الديار خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول بأنهم سيحررونهم ويعملون كيت وكيت من الخير وما زالوا بهم حتى استمالوهم واستعانوا بهم على محاربة العرب . ولم تخف على حميد بن محمد هذه الحيلة ، فكان دائماً يعرض عن محاربة الفرنج ويعدهم خيراً ، وكان يقول : « دخلت هذه البلاد صغيراً فقيراً وملكت هذه الرقاب جميعها ولم يكن لدي مال ولا سلاح فهل اقوى بهم على الفرنج » .

وكان يكلم اولاده دائماً بهذا المعنى ويحذرهم من غدر الزنوج . ولما باع

تجارته هناك رجع الى زنجبار فوصلها سنة ١٣٠٤ هـ فوجد الانكليز له بالمرصاد ، وقد اخبره قنصل الانكليز بما تمّ عليه الاتفاق وأن البلجيك سيدخلون الكونغو ، ونصحه بعدم معارضتهم وأنهم لا يريدون سوى التجارة وأنه سيكون كسابق امره ، مطلق الحرية ، وتدفع دولة البلجيك له مقابل تجارتها ٦٥ جنيهاً شهرياً ، فأبى اولاً ، فقال له قنصل الانكليز ان انكلترا تعهدت بمساعدة البلجيك وإنه اذا أصرّ على إبائه فأول شيء تفعله هو منعه عن السفر مرة اخرى .

فلم يجد بداً من القبول ، وعندئذ قيل له ان اي شيء يطلبه من انكلترا يعطى له وتتحقق امانيه فيه ، فطلب من القنصل تحميل عبيده من باجمويو الى زنجبار ، وكان الانكليز متشددين في منع بيع الرقيق وتحميله ولكنهم اذنوا له بذلك لحاجة كانت في نفوسهم ، فحمل حميد بن محمد سبعماية عبد من باجمويو الى زنجبار ، ثم وصلت الاخبار من الكونغو ان البلجيك هجموا على العرب مراراً فصُدّوا عنهم وأن العرب اخرجوا جميع الفرنج من تلك البلاد فلم يبق بها بلجيكي ولا الماني وكلما اراد البلجيك المسير اليهم التقوا بهم على ضفاف نهر الكونغو ورموهم بالرصاص ، فشق هذا الخبر على الانكليز وطلبوا من حميد بن محمد ان يعجل بالسفر الى الكونغو ومعه المعتمدان الانكليزي والبلجيكي ، فسافروا سنة ١٣٠٥ في باخرة عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصلوا الى مدينة الكاب ومنها الى بناناتا عند مصب نهر الكونغو ، ثم سارت الباخرة في النهر ٤ ساعات ، فوقفت بسبب الشلالات فركبوا الفلك وساروا بها شهرين حتى وصلوا الى مدينة ستانلي فولس . ولما أطلّ العرب على هذه الفلك ورأوا فيها الافرنج رموهم برصاص البنادق ، فأشاروا اليهم انهم ليسوا محاربون فلم يقبلوا ، وأخيراً

رمى حميد بن محمـد نفسه في النهر ، فلما رأوه عرفوه ، وأمسكوا عن اطلاق البنـادق ونزل هو والافرنج الذين معه وبوّأ لهم مكاناً وأمّنهم ، وبواسطته تمّ الاتفاق بين العرب والفرنج . وفي غضون ذلك أتتهم الاخبار بوفاة برغش بن سعيد سلطان زنجبار وارتقاء خليفة بن سعيد سلطانـاً مكانه ، فمكث حميد يتاجر بماله الى سنة ١٣٠٧ ثم عقد النية على الرجوع الى زنجبار فسافر ، وبعد مسير عشرة ايام اتاه الخبر بوفاة خليفة بن سعيد وولاية علي بن سعيد مكانه فواصل السير حتى بلغ (تبوره) وفيها أصيب بمرض فتأخر هناك ، وبعد شهرين وصل اليه ولداه سيف وثابت فوجداه مريضاً ، فكانا قاصدين الكونغو فأمرهما بالسفر اليهـا ، ومكث هو في (تبوره) سنة حتى اذا عوفي من مرضه برحها الى زنجبار فبلغهـا سنة ١٣٠٩ ، وبعـد ان صفا الجو للبلجيك هجموا على العرب مراراً فصدوا عنهم وطلبوا منهم أن يسافروا جميعـاً الى زنجبار فأبوا ، ولمـا أعيت البلجيك الحيـلة خدعوا الزنوج وزخرفوا لهم القول فانفضوا عن العرب وانحـازوا الى البلجيك ثم هجموا على العرب فهزموهم وغنموا اموالهم ، وقتل سيف بن حميـد ، وهرب ثابت اخوه ومحمـد بن سعيد وغيره ، واستولى البلجيك على اموال حميد بن محمد ويقدّرونها بمائة الف جنيه ، وكان حميد بن محمد يتمثل دائماً بقول الشاعر :

ومَن يفعل المعروف مع غير اهله ... يلاقي كما لاقى مجير أم عـامرِ

حيث ذهبت امواله وقتل ولده جزاء احسانه الى البلجيك .

وفي سنة ١٣١١ وصلت اخبار الهزيمة الى زنجبار ووصل ثابت واخوته وأنفار من العرب اليها ، امـا بقية اولاد محمد بن سعيد فأسرهم البلجيك وبقوا في أسرهم الى سنة ١٣٢١ حيث اطلقوا سراحهم وسمحوا لهم بالعودة

الى زنجبار فبلغوها في حالة يرثى لهـا . وهكذا انتهت دولة العرب في افريقيا الوسطى وتقلص ظل ملكهم منها ، وكانت نهاية امرهم انهم عاشوا في زنجبار فقراء .

لكل أجَل كتاب :

ولما وصل حميد بن محمد الى زنجبار سنة ١٣٠٩هـ. حسبَ ثروته فوجدها نيفاً ومائة الف جنيه ، إلا ان وكيله الذي كان في زنجبار احتال عليه وقدّم وأخّر في دفاتره ، فاختلس من تلك الثروة نحو ٣٠,٠٠٠ جنيه ، و ٢٠,٠٠٠ جنيه كانت في يد هندي أعطيت اليه للتجارة ، فذهبت ولم يحصل إلا على ٤٠٠٠ ، و ٧٠٠٠ جنيه أعطاها محمـــد بن خلفان الذي ادعى الشركة في ملكه ، وحكمت له محكمة دار السلام بدفع هذا المبلغ ونحو ١٦,٠٠٠ جنيه دفعت الى المحامين عنه في دعاويه حينما اراد الدفاع عن نفسه في امر الشركة وغيرها من الدعاوى ، وكان دائماً يقول : « ذهب ربع ملكي في أفواه المحامين » .

والذي بقي عنده اشترى بـه بيوتاً وبساتين فعاش من ريعها . وفي سنة ١٣١٠ هـ توفي سلطان زنجبـــار علي بن سعيد وعُيّن حمد بن ثويني مكانه فنال منه رتبة . وفي سنة ١٣١٤ هـ توفي حمد بن ثويني وهبّت ثورة في البـلاد فأطلق الانكليز القنابل على القصر السلطاني ثم عُين حمود بن محمد بن سعيد سلطاناً . وفي سنة ١٣٢٠ توفي السيد حمود بن محمد فخلفه ابنه علي بن حمود .

مضى هذا الزمان وحمد بن حميد بين الدعاوى والشكاوى . وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٢ هـ. أصابه مرض الاستسقاء ثم عوفي منه ولكن صحته

بقيت ضعيفة فاشتدّ به الألم حتى كانت الساعة الخامسة من ليلة الاربعاء عاشر ربيع الثاني (١٤ يونيو) قبضه الله اليه ، وما شاع هذا الخبر حتى توافدت الجموع الى منزله وفي مقدمتهم قنصل جنرال اميركا وفيس قنصلها وتتابعت الجموع وسار في جنازته أناس كثيرون ، وفي الصباح جاء قنصل جنرال الانكليز وقنصل الالمان وغيرهما من معتمدي الدول والتجار الاجانب وأعيان العرب والهنود والزنوج لتعزية أهله ونقل البرق خبر وفاته الى العالم المتمدن فأتت جرائده مملوءة بالكلام عن سيرته .



علي بن حمود سلطان زنجبار

- ٤ -

رجال الادارة والسياسة

المعلم جرجس الجوهري

كان للأقباط في أثناء دولة أمراء المماليك شأن كبير في مصالح الدولة فنبغ منهم في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر رجال اشتهروا بالحزم والدراية ونالوا نفوذاً عظيماً لدى الامراء حتى كانت الامور كلها اليهم . منهم المعلم رزق كاتب علي بك الكبير ، والمعلم ابراهيم الجوهري رئيس كتّاب الامير ابراهيم بك ، وكان لهما تأثير كبير في تاريخ الامة القبطية وقد ذكر الجبرتي ان النصارى اعتز جانبهم في ايامهما بما كان لهما من التأثير على صاحب الأمر والنهي . وجاء في تاريخ الأمة القبطية لمؤلفه يعقوب بك نخله روفيله تفاصيل مهمة من اخبارهما ومن هذا الكتاب استخرجنا ترجمة المعلم جرجس هذا . وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري المتقدم ذكره فلما توفي اخوه قلده ابراهيم بك رئاسة الكتاب كما كان اخوه قبله ورافق اعمال هذا الامير الى آخر ايامه .



المعلم جرجس الجوهري * (توفي سنة ١٨١١ م)

وقـــد جاء ذكره في كتاب الجبرتي بين وفيات عام ١٢٢٥ هـ.وهاك نص قوله :

« ومات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين بالديار المصرية وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري . ولما مات اخوه في زمن رئاسة الامراء

(*) نقلت هذه الصورة بالفوتوغراف عن رسم له بباريس ولكنها أخذت من موضع منحرف فظهرت كما ترى .

المصرية تعين مكانه في الرئاسة على المباشرين والكتبة وبيده حل الأمور وربطها في جميع الاقاليم المصرية نافذ الكلمة وافر الحرمة . وتقدم في ايام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندي . ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو بجانب شريف افندي الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور . وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوي والبن ويعطي ويهب . وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والازبكية وأنشأ داراً كبيرة وهي التي يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وإبنه (ابراهيم) الدواوين عند قنطرة الدكة . وكان يقف على ابوابه الحجاب والخدم ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالي وتداخل في هذا الباشا وفتح له الابواب لأخذ الأموال والمعلم جرجس يدافع في ذلك وإذا طلب الباشا طلباً واسعاً منه يقول له هـذا لا يتيسر تحصيله فيأتي المعلم غالي فيسهل له الأمور ويفتح له ابواب التحصيل فضاق خناق المعلم جرجس وخاف على نفسه فهرب الى قبلي ثم حضر بامان كما تقدم وانحط قدره ولازمته الامراض حتى مات في اواخر شعبان وانقضى وخلا الجو المعلم غالي وتعين بالتقدم ووافق الباشا في اغراضه الكلية والجزئية وكل شيء له بداية وله نهاية والله اعلم .

ذكر صاحب تاريخ الامة القبطية عن سبب خوفه وهربه الى الوجه القبلي « انه لما كثرت معارضته لمحمد علي باشا وتوقفه له في تحصيل النقود التي كان في غاية الاحتياج اليها ؛ قبض عليه ومن معه من الاقباط بحجة



مراد بك احد امراء المماليك في اواخر القرن الثامن عشر

انه متأخر عليه مبالغ من حساب التزامه وحجزهم ببيت كتخداه وأحضر المعلم غالي وكان كاتباً عند الالفي (احد كبار المماليك وعدو محمد علي باشا الألدّ) وعيّنه رئيساً مكانه وكلفه بعمل حساب التزامه عن الخمس سنين الماضية . وبعد سبعة ايام أمر بالافراج عنه ومن معه على شرط ان يدفع اربعة آلاف وثمانمائة كيس ، فقام هو بدفع مبلغ عظيم من هــذا المقدار ووزّع الباقي على الكتاب والصيارف ما عدا المعلم غالي وشخص آخر يقال له المعلم فلتاؤوس لأسباب اختلفت فيها الاقوال نضرب صفحاً عن ذكرها ، فحصلت له ولهم مضايقات شديدة اضطرته الى التنازل عن

أفخر أملاكه ولا سيما التي كانت على بركة الازبكية وقنطرة الدكة ولم تزل باقية في وقف القصر العالي الى الآن . ومن ذاك الحين أخذ نجم المعلم جرجس في الافول ونجم المعلم غالي في الظهور والصعود ، فلم يسعه غير الهرب الى الوجه القبلي حيث كان الأمراء المماليك . ثم نزع محمد علي باشا البلاد التي كانت تحت التزامه وطرحها في المزاد على الراغبين فأخذها القادرون . وفي رواية انه لم يهرب ، بل ان محمد علي باشا نفاه الى الصعيد . وقبل قيامه الى الصعيد إما هارباً او منفياً كما قيل ، جمع كل حجج أملاكه وسلمها الى البطركخانة لتنفق من ريعها على اهل بيته ، فوضعت اليد عليها وبقيت في حوزتها .

وبعد اربع سنين صرّح له الباشا ان يعود بأمان الى القاهرة ، فوصلها في اليوم الثالث عشر من شهر شوال سنة ١٢٢٤ هـ . قال الجبرتي : « ولما حضر ذهب الى الباشا فقابله وأكرمه ونزل في بيته الذي بحارة الونديك وفرشه له المعلم غالي وقام له بجميع لوازمه ، وذهب الناس مسلميهم ونصرانيهم وعالمهم وجاهلهم للسلام عليه » . وفي سنة ١٢٢٥ هـ مات ودُفن بمصر العتيقة بدير مار جرجس ، ولا يزال قبره موجوداً ولكنه تخرّب وليس من يفكر في اصلاحه .

المعلم غالي

توفي سنة ١٨٢١ م

هو من مشاهير رجال الادارة من الاقباط ، نبغ في أوائل ايام محمد علي باشا الكبير . قال صاحب كتاب تاريخ الامة القبطية : « انه كان في

الاصل كاتب الامير الالفي من أمراء المماليك ، ثم تركه لسبب غير معلوم وتعلق بخدمة محمد علي باشا . وكان على جانب عظيم من الذكاء والنباهة ، ويعرف من أين تؤكل الكتف ، فلم يظهر للباشا معارضة في أوامره بل كان يساعده على تنفيذ أغراضه بتسهيل الامر له ولا سيما فيما يختص بتحصيل الاموال . وقيل انه كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها ، فأحبّه ورفع منزلته وعوّل عليه في الاعمال المالية وركن اليه وعمل برأيه وفكره فيها .

« ولما قصد محمد علي باشا تأسيس حكومة منتظمة ، وكان لا يخفى على المعلم غالي انه توجد أراضٍ كثيرة يزرعها اصحاب الاقتدار بغير دفع اموال عليها ، شرع في مساحة عموم أراضي القطر المصري فأخذ جملة أراضٍ فربطت عليها الاموال ، وبذلك نمت الإيرادات فكانت هذه خدمة وطنية عظيمة قام بها . وقسّم اطيان كل بلد الى حيضان وقبائل وجعل لكل بلد زماناً مخصوصاً ، وغير ذلك مما لا تخفى فائدته فلا حاجة لإطالة الشرح فيه .

« ولما نكب المعلم جرجس الجوهري وأُسندت رئاسةُ الكتاب اليه ، طلب منه الباشا الف كيس فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها في أقرب وقت . ولكن جمعها بسرعة كان موجباً لغير ما يتوقعه المعلم غالي وسبباً في جلب الضرر عليه وعلى غيره ، فان الباشا بعد قليل أوقع الحوطة على بيته وبيت المعلم جرجس الطويل وحنا اخيه وفرنسيس اخي المعلم غالي والمعلم فلتاؤوس واثنين آخرين وأخرجوهم منها بصورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم ، فلما حضروا بين يديه قال لهم : اريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه ، وأمر بحبسهم إن لم يدفعوا ثلاثين الف كيس .

وبعد ايام أفرج عنهم بواسطة شخص يسمى حسين افندي الروناجي على شرط ان يدفعوا سبعة آلاف كيس فقاموا بدفعها ، ولكن لم تمض سبعة شهور حتى قبض عليهم ثانية وحبسهم في القلعة وختموا على دورهم ، ثم أنزلوا المعلم غالي والمعلم فلتاؤوس في مركب ليسافرا الى دمياط كمنفيين ، وكان على ديوان الجمرك رجل يقال له المعلم منصور صريون ومعه كاتبان آخران يسمى احدهما بشاره والآخر رزق الله الصباغ والبعض يقول ان الثاني من عائلة المعلم جرجس الجوهري فأحضر الباشا المعلم منصور وقلده مباشرة الدواوين ، ثم سعى الساعون في مصالحة المعلم غالي ورفقائه فقبل الباشا العفو عنهم والرضا عليهم بشرط ان يدفعوا اربعة وعشرين الف كيس . ولما حضر المعلم غالي من دمياط طلع الى القلعة وقابل الباشا فخلع عليه وألبسه فروة سمور وتنازل له عن اربعة آلاف كيس وأمر ان ينزلوا به الى داره وأمامه الجاويشية بالعصي المفضضة وأعاده الى الرئاسة كما كان امام المعلم منصور فجعله كاتباً لابنه ابراهيم باشا .

« وتكرر حصول ذلك من الباشا فكان يغضب عليه تارة ويعزله ويقلد غيره من رفاقه ويرضى عليه اخرى فيرده الى منصبه بعد دفع مبلغ طائل لا يستطيع القيام به من ماله الخاص فيختص هو بجانب منه ويوزع الباقي على زملائه وغيرهم من رؤساء الكتبة فنتج من ذلك انه داخل بعض رفقائه الغيرة منه ، فانفكت رابطتهم وتفرقت كلمتهم ، وكان هذا غاية مقصد الباشا .

« واتفق ان الباشا كان قد توجه الى الاسكندرية لمهمة واحتاج لنقود فحوّل على المعلم غالي صرف ستة آلاف كيس كانت باقية عليه فاعتذر بعدم الاقتدار على إدائها في الحال بدعوى انها بواقٍ على اربابها وهو ساع

في تحصيلها ، فلم يقبل هـذا العذر منه ، وأرسل الى كتخداه في مصر بالقبض عليه وعلى اخيه فرنسيس وأمينه المدعو المعلم سمعان وسجنهم في القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ . وخاف المعلم جرجس الطويل وحنا اخوه سوء العاقبة وكان في نفسيهما شيء من جهة المعلم غالي فتحاملا عليه ووسوسا للباشا انه اذا حوسب يظهر عليه ثلاثون الف كيس وتعهدا بأنـه اذا فوّض لهما عمل حسابه ولم يظهر عليه هـذا المقدار فيكونان ملزومين بإدائه للخزينة ، فاشتدّ غضبه عليه وعزله من رئاسة الكتابة وولى آخر مكانه يسمى المعلم منقريوس البتانوني وضيّق عليه في الحبس وأهانه إهانة شديدة وكرّر الضرب على أمينه حتى أشرف على الهلاك ، وبعـد ذلك أفرج عن اخيه وأمينه ليسعيا في التحصيل ، أما المعـلم غالي فبقي في الحبس مدة ، وبعد قليل شرع الباشا في تغيير هيئة الدواوين واستبدالها بأنظم منها بحيث تعود بالفائدة على الخزينة فرضي على المعلم غالي وأناطه بذلك فقسم البلاد الى مديريات وأقسام والأطيان الى احواض وقبائل .

« وبعد ان غاب المعلم غالي نحو سنة في الصعيد وهو يشتغل في ذلك عاد الى مصر ، وكان المتولي امارة الصعيد رجلاً يدعى محمد بك الدفتردار فلما قصد المعـلم غالي العود الى مصر زوّده بكتاب منه للباشا يمدح فيه نصحه وسعيه في فتح ابواب تحصيل الاموال للخزينة وانه ابتكر أشياء وحسابات يتحصل منها مقادير وافرة من المال فقابله الباشا بالرضى وأثنى عليه ومن ثم اتخذ كاتباً لسره وخصّه بمباشرة الاعمال الحسابية التي ابتكرها فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الاقاليم ، واستمر في هذا المنصب الجليل الى ان قتل سنة ١٨٢١ لأسباب لا تزال حقيقتها خافيـة علينا . وبقيت جثته ملقاة في الخلاء ببعض بلاد مديرية الشرقية يومين الى ان استأذن احد الاقباط في رفعها فأخذها ودفنها » .

علي باشا تبه دلنلي

بطل البانيا

البانيا :

هي بلاد الارناؤوط يحدها الجبل الاسود من الشمال وبلاد اليونان من الجنوب والروملي من الشرق والبحر الادرياتيكي من الغرب وتقسم الى ثلاثة اقسام يسمى كل منهـا ايالة وهي : (١) ايالة اشقودرا في الشمال وقصبتها مدينة اقشودرا (٢) ايالة يانيا في الجنوب وقصبتها يانيا وبلاد ابيروس داخلة في حكمها . (٣) روميليا في الوسط وقصبتها موناستير . ويقسم الالبانيون باعتبار اصلهم الى ثـلاث قبائل : (١) قبيلة نجيج او الغيج ويقطنون في اشقودرا وما جاورها . (٢) التوسك ويسكنون اواسط البانيا في لبرات والباسان غربي موناستير . (٣) الليار وهم احقر سكان البانيا ويقطنون الجبال بين التوسك وحدود ابيروس .

والالبانيون معروفون بقوة الابدان ويضرب المثل بشدة بطشهم ولكنهم لانقسامهم وتنازعهم فـيما بينهم لم تتحد كلمتهم ولا تمكنوا من تأسيس الممالك ومـا برحوا عرضة لمطامع الدول العظمى من اول عهد العمران . وكانوا مع ذلك يدافعون عن اوطانهم دفاع الاسود فلا يرضخون للسلطة إلا بعد شق الانفس فدخلوا اولاً في حوزة دولة اليونان حتى اذا مالت شمسها استقلوا ثم طمع فيهم البلغار فحاربهم الالبان وردوهم فلما ظهرت الدولة العثمانية وفتحت الروملي وجهت اسنتها نحوهم على عهد السلطان محمد الفاتح . وكان على الالبان قائد شهير اسمه جورج كستريوت ويسميه

الاتراك اسكندر بك قاد الالبانيين بمهارة وحذق فردوا الاتراك عن بلادهم ولكنهم دخلوا في حوزة الدولة العلية قهراً سنة ١٤٧٨ بعد موت اسكندر بك ولا يزالون حتى الآن على انهم ما انفكوا منذ اول رضوخهم للدولة يتذمرون ويتمردون فيكلفونها تجنيد الجند لقمع عصيانهم حتى لقد كان خيراً لها لو تخلت عنهم على انها استخدمت بعضهم في بعض حروبها . ثم لم ينل الالبان استقلالاً بعد ذلك إلا ردحاً من الزمن على عهد علي باشا التبه دلنلي صاحب الترجمة واليك ترجمة حاله :



علي باشا تبه دلنلي (١٧٤١ م — ١٨٢٢ م)

ولد هذا الرجل في بلدة دبيلين على نهر فوبوتسا بجوار جبل كليسورا بولاية موناستير . ومنها لقبه بالتركية « تبه او دبه دلنلي » وهو من قبيلة التوسك وكان اسلافه من اشرافها ويلقبون ببكوات دبيليني ويتصل هذا

اللقب في اعقابهم بالارث ولما كان حصار اهل البندقية لجزيرة كورفو سنة ١٧١٦ كان جد علي باشا إذ ذاك في جملة المدافعين عنها فقتل هناك فورث اللقب ابنه (والد علي باشا) ويقول بعض عارفيه انه كان رقيق الجانب محباً للسلام ونظنه كان ضعيفاً فسطا عليه جيرانه وسلبوه املاكه فلا نعد ذلك حباً منه للسلام بل هو عجز . أما والدته فكانت عظيمة الانفة فلم يعجبها تصرف زوجها وقد توفي وعلي في الرابعة عشرة من العمر فبذلت جهدها في تربيته على الخشونة وأرضعته حب الانتقام وكره الذين اختلسوا اموال والده . فشبّ على النهب والسلب والسطو والغزو شأن اكثر شبان البانا فقضى شبابه الاول في الجبال مع زمرة من اصحابه يصادرون المارة ويسطون على اعداء والده ويحاربونهم حتى تمكن من استرجاع بعض املاكه في دبيليني . ويقال انه قتل اخاه وسجن والدته وأن والدته لم تعش بعد سجنه إلا مدة قصيرة .

فلما استرجع املاكه وصار بيكاً تاقت نفسه الى السلطة بتوسيع دائرة سلطانه ، واتفق ان والي اشقودرا إذ ذاك كان متمرداً على الدولة فعرض علي على الباب العالي ان يخرج هو لتسكين الثورة فأذن له بذلك فحمل عليه وقتله فكافأته الدولة بحق التمتع بكل املاكه وعيَّنته معاوناً لدرويند باشا الروملي وهو لقب يسمى به حامي الطرق ومانع اللصوصية في الجبال . ولكنه طمع بالمال وحاد عن واجباته ، فكان يشارك اللصوص بسرقاتهم ويطلق سراحهم ، فعلمت الحكومة بذلك فاتهمت رئيسه بالأمر وحاكمته وحكمت عليه بالأعدام ، أما علي فنجا بمساع خصوصية استخدم فيها الاصفر الرنان .

ثم كانت الحرب بين العثمانيين والروس سنة ١٧٨٧ وكان علي باشا في

جملة القواد فأظهر بسالة شديدة نال عليها إنعاماً عظيماً فتعيَّن والياً على تريكالا من تساليا (اليونان) ودروينند الروملي في وقت واحد مع لقب باشا ، فلم يمض زمن قصير حتى طهَّر البلاد من اللصوص بترغيبهم في الخدمة العسكرية ، فأدخل في خدمته جماعة كبيرة منهم فألف تحت لوائه جنداً كبيراً . وكانت يانيا متمردة على الدولة فخرج عليها بجنده فأخضعها سنة ١٧٧٨م وأصلح احوالها ، فلما رأت الدولة منه ذلك ثبتته على كرسيها وسمي من ذلك الحين « والي يانيا » وهو اللقب الذي ما زال يعرف به الى اليوم . فلما رأى نفسه حاكماً وأنه توصل الى الحكومة بعدّته ورجاله حدثته نفسه ان يوسع دائرة سلطانه ، فجعل ينتحل اسباباً يسطو بها على جيرانه كما فعل محمد علي باشا لما تولى مصر . وقد يرى القارىء مشابهة في ترجمة حياة هذين الرجلين من بعض الوجوه ، وسنأتي على ايضاح ذلك في ما يلي ، فسطا علي باشا على حدود اليونان ففتح غربي شماليها وهي المقاطعة التي كانت تسمى ليفاديا وطمع في جبال سوليوتس في الجنوب الغربي من ابيروس وحاربهم طويلاً فلم يخضعوا فضيّق عليهم الى سنة ١٨٠٣م فقبلوا باخلاء جبالهم والمهاجرة الى جزيرة كورفو فعاهدهم على ذلك ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون حتى لقيهم رجاله وذبحوهم غدراً .

وعلم علي باشا ان مطامعه هذه لا تسلم من عقاب الدولة إلا اذا تحصن وأكثر من العدة ، فاتفق سنة ١٧٩٧ ان الفرنسيين استولوا على البندقية ، وكان كلما سمع ببسالتهم ونهضتهم اظهر اعجابه ولمح انه يريد المسير على خطواتهم ولكنه يحتاج الى الحصون والمعاقل ، فخابر بونابرت إذ ذاك بالأمر فبعث اليه مهندسين بنوا له حصون يانيا التي لا تزال باقية الى هذه الغاية فضلاً عن حصونها الطبيعية . وكان عدد سكان تلك المدينة إذ ذاك ٣٥,٠٠٠ بين مسيحيين ومسلمين وبوهيميين .

ولم يمض قليل حتى فشل نابوليون في مصر فاغتنم علي باشا تلك الفرصة واستخرج بريفيزا عند خليج ارطا من ايدي الفرنسيين ، ثم نال مصادقة السلطان على ما فتحه من البلاد فأصبحت مملكته شاملة كل البانيا من الجبل الاسود الى ابيروس ، ولم تأت سنة ١٨١٧ م حتى انضم اليها ابيروس وبعض تساليا والجزء الغربي من شمالي اليونان ، وتولى احد اولاده حكومة المورا فأصبح سلطانه واسعاً واتضحت مطامعه لدى الباب العالي فلم ترَ الدوله طمأنينة إلا بقتله وكان قد بلغ الثمانين من عمره فلم تجد سبيلاً الى ذلك وهو يتظاهر بموالاتها مع الاستعداد للدفاع فلم تسمح العناية ببقاء دولته كما سمحت ببقاء دولة محمد علي في وادي النيل . فاتفق ان ضابطاً من جنده انتظم في جند الاستانة فغضب علي باشا ، وبعث اليه من يقتله سنة ١٨٢٠ فشق ذلك على الباب العالي فبعث الى سائر ولاة الدولة في تركيا وأوربا ان يزحفوا عليه فلم ينالوا منه مأرباً لمناعة يانيا بالحصون ، فلم يرَ الباب العالي بدأ من العدول الى السياسة ، فبعث اليه خورشيد باشا اول سنة ١٨٢٢م ان يسلم فينال العفو السلطاني فأذعن الشيخ تخلصاً من الحروب . وفي ٥ فبراير (شباط) سنة ١٨٢٢ م دعا خورشيد باشا علياً اليه ليسلمه الخط الشريف الناطق بالعفو عنه ، فجاء وهو لا يدري ما نصب له فدخل عليه وجلسا برهة يتحادثان ، ثم مدَّ خورشيد يده فاستخرج الفرمان المؤذن بقتله ودفعه اليه ، فلما رآه علي اجفل واعترض ودافع عن نفسه دفاعاً شديداً ولكن الكثرة غلبته فقتلوه وأرسلوا رأسه الى الاستانة وانقضت دولته بعد حكومة بضع وثلاثين سنة .

علي باشا ومحمد علي باشا :

لا يقرأ المطالع ترجمة علي باشا إلا ويتذكر سيرة رجل مصر المغفور له محمد علي باشا لمشابهة بينهما في غرضهما الاساسي وهو تأسيس الدول. فقد سعى كل منهما في تأسيس دولة يستقل بها تمثلا بمن سبقه او عاصره من الرجال العظام. والمثال الاول لديهم بونابرت الذي كان معاصراً لهم وارتقى بإقدامه وشجاعته وتدبيره من أدنى رتب الضباط الى أسمى رتب الملوك، فكان قدوة رجال في الإقدام ومثال القواد العظام. وطبيعي ان ظهور مثل هذا الرجل ينبّه اذهان معاصريه الى الاقتداء به، فضلاً عن النهضة العمومية التي نشأت في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن على اثر الحروب وإشراق شمس العلوم وما نتج عنها من الاكتشافات والاختراعات، فتحركت الهمم وثارت الافكار وكان ذلك بمنزلة الاحتكاك للاذهان، فظهرت القوى الكامنة في الناس على اختلاف مراتبهم وأصقاعهم فنبغ مَن نبغ ومات مَن مات عملاً بناموس الارتقاء العام.

وكان في جملة مَن ثارت قواهم وظهرت مواهبهم العسكرية: علي باشا في البانيا ومحمد علي باشا في مصر وكلاهما من ولاة الدولة العلية، فسعيا سعياً متشابهاً يلتمسان غرضاً متشابهاً، فانتهى بأحدهما الى الانقضاء وبالآخر الى البقاء. فبعد ان بلغ علي باشا اوج سعده واستقل تقريباً بألبانيا وبعض ملحقاتها سقط وامّحى أثره، وظلّ محمد علي باشا سائراً في خطته وأسّس دولة يتوارث الحكومة فيها اعقابه من بعده (تحت رعاية الدولة العلية). فما هي الاسباب التي قضت بزوال الدولة الاولى وبقاء الثانية؟

يلوح لنا ان السبب الاول في ذلك اختلاف الرجلين في الاخلاق الغريزية، فقد كان علي باشا شجاعاً شديد البطش كبير المطامع طلّاباً

للعلى ، ولكنه لم يكن عادلاً حسن السياسة ليّن العريكة مثل محمد علي . يدلك على ذلك معاملته لأهالي سوليوتس المتقدم ذكرهم وفتكه بأهل كارديكي من ولايته ، وذلك انه علم بأن بعضهم ذكر والدته بالسوء ، فأعمل السيف فيهم وذبح منهم مذبحة هائلة . على حين ان محمد علي لم يكن يترك وسيلة في استرضاء المصريين واستجلاب طاعتهم بالبذل وإجراء العدل ونشر العلوم وضبط الادارة .

وقد يُعترض على محمد علي بذبحه المماليك غيلةً في القلعة ، ولكنه فعل ذلك مضطراً استبقاء لسلطته وتنفيذاً لأوامر الباب العالي السرية . اما علي باشا فانه فضلاً عن تنبيه ذهن الباب العالي لمطامعه ، مدّ يده الى كرامة عاصمة الدولة فقتل احد ضباط الجند العثماني في وسط الآستانة كما تقدم ، وفي ذلك من ضعف السياسة ما فيه . اما محمد علي فكان عوناً للدولة العثمانية في كثير من حروبها ، فدوّخ لها الوهابيين وأعانها في إخماد ثورة اليونان وإن لم ينجح .

ثانياً : ان محمد علي باشا استعان في تأييد حكومته بمصر ونشرها الى ما يجاورها بواسطة اولاده ، فقد حارب الوهابيين بقيادة ابنه طوسون ، وحارب الشام والمورة بقيادة ابنه ابراهيم القائد العظيم ، وأخضع السودان بابنه اسماعيل وأيّد سلطانه فيها كلها بحسن سياسته مع الدولة العلية والمحافظة على علاقته بها بالحسنى .

ثالثاً : ان المصريين فضلاً عن قربهم من الطاعة وسهولة حكومتهم ، فقد سبق محمد علي قبل ولايته وطبع على اذهانهم صورة حسنة من عدله وكرمه حتى حملهم على ان يطلبوا ولايته من الباب العالي رأساً ، فلما تولاهم أحسن معاملتهم ورقى شؤونهم وحافظ على رضاهم فلم يأتِ عملاً

يوجب نفورهم ، وحافظ مع ذلك على رضاء جنده القديم من الالبانيين وغيرهم الذين كانوا له عوناً في ارتقاء أريكة الملك ، حتى اذا أراد تنظيم جند جديد ورأى منهم تمرداً اقتصر على تنظيم ذلك الجند من أهالي البلاد الاصليين بلا مقاومة ، وأضمر للمتمردين من رجاله وسيلة يتخلص بها منهم فأنفذهم لفتح السودان على ان يفتحوها او يبيدوا فيها وهم لا يشعرون ، وفي ذلك من الدهاء والسياسة ما لا يخفى على اللبيب . اما علي باشا فقد كان مطمعه في الولاية محصوراً في ما يرجوه من النفع المؤقت . وزد على ذلك ان الالبان قوم يصعب التسلط عليهم لما تقدم من خشونة طباعهم وصعوبة مراسهم .

رابعاً : ان مصر نظراً لبعدها عن مركز الخلافة كانت اقرب للاستقلال الاداري من البانيا لأن هذه في الروملي قريبة من الاستانة وكان الالبانيون انفسهم كثيراً ما يتجندون في خدمة الدولة العلية مأجورين فلم يكونوا قلباً واحداً مع واليهم فلما قتل لم يبدوا مقاومة . ناهيك بغنى هذا القطر وما بذله محمد علي من المساعي الخيرية في تحسين الزراعة وتنشيط التجارة والصناعة ففتح المعامل ونظم الجند ونشط العلم فدرّت مصر ذهباً وفضة فلقي اهلها رغداً وعيشاً هنيئاً أنساهم ما كانوا يقاسونه من البلاء على عهد المماليك . ولم يتأتّ لعلي باشا ان يفعل شيئاً من ذلك ، ولعلّ طبيعة البلاد الخشنة من جهة وانطباعه على السلب والنهب من جهة اخرى كانا من أكبر العقبات في سبيل الاصلاح .

خامساً : ان مساعي محمد علي في الولاية إنما كانت تحت ظل مصلحة الدولة وفتح ما فتحه من البلاد باسمها فلم يأت عملاً يوجب الضغينة عليه منها إلا في حربه في الشام فلما سئل الرجوع عنها أذعن وتوسطت بعض

الدول فجعلت لكل من الجانبين حدوداً رضي بها الفريقان ونال على اثر ذلك الامتيازات المعلومة .

سادساً : وأخيراً ان علي باشا هذا انخدع باقتراح خورشد باشا انخداعاً آل الى قتله وانقراض حكومته مما لا نظن محمد علي ينخدع به لو كان في مكانه ، يدلنا على ذلك انه لما كان قائداً لفرقة الالبانيين قبل ان يخطر بباله امر الولاية ، وتأخرت فرقته عن نجدة عساكر خسرو باشا في حرب المماليك أراد خسرو الفتك به غيلة وطلب مقابلته سراً في منتصف الليل فأدرك محمد علي بذكائه ودهائه انه انما يريد بـه شراً فلم يقبل دعوته ، بل كان ذلك سبباً قوياً في سعيه الى الولاية .

بوغوص بك

هو بوغوص بك يوسفيان ولد في ازمير سنة ١٧٦٨ وتثقف في مدارسها حتى برع في اللغات الارمنية والتركية واليونانية والايطالية والفرنسية تكلماً وكتابة وتعاطى في اوائل شبابه التجارة عملاً بمشورة ابيه ثم تعين مترجماً في قنصلية انكلترا .

وفي سنة ١٧٩٠ توفي والده فقضت عليه الاحوال ان يأتي رشيد بالقطر المصري فجاء وتعين في بعض مصالح الكمرك ثم انتقل الى كمرك الاسكندرية حتى اذا كانت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت هاجر بوغوص الى وطنه ولما انسحب الفرنسيون سنة ١٨٠١ عاد الى الاسكندرية .

وكان كمرك الاسكندرية إذ ذاك يحتكر بالمزايدة ، ففي سنة ١٨١٠ م انتهى المزاد عنده على ان يدفع خمسين كيساً في العام ، والكيس يساوي



بوغوص بك (١٧٦٨ م – ١٨٤٤ م)

خمسمئة غرش . وكان محمد علي قد تولى عرش الحكومة المصرية فلما دنا انقضاء مدة الاحتكار استدعاه اليه لتجديد الشروط ، وكان محمد علي على بينة من مقدار دخل الكمارك ، فلما اجتمع به طلب منه خمسمائة كيس في العام لمدة خمس سنوات . فلم يقبل بوغوص في بادىء الرأي خوف الخسارة ، فتعهد له محمد علي اذا قلّ دخل الكمرك عن ٥٠٠ كيس في السنة أتمّ له المبلغ من جيبه واذا زاد على ذلك قسم الربح بينه وبين الحكومة المصرية . فقبل بوغوص بك بذلك لعلمه ان محمد علي لا يقدم على هذا الامر إلا وهو ينوي للاسكندرية خيراً ، وبالواقع انه احتفر الترعة

المحمودية فتسهلت وسائل النقل وعظمت تجارة الاسكندرية فربح بوغوص ارباحاً حسنة اقتسمها هو ومحمد علي فأصبح شريكاً للحكومة المصرية . وكان محمد علي قد جعل فوق يد بوغوص كاتباً يراقب حساباته فوشى به سنة ١٨١٣ بأنه قبض مبلغاً لم يدونه في دفاتره ، فاستدعاه محمـد علي اليه ، وكان يومئذ في دميـاط ، وحاكمه فأثبت الواشي دعواه بالحساب ، فأمر محمـد علي باعدام بوغوص ، فساقوه الى السجن على ان يقتـلوه في صباح الغد ، وتولى الاحتفاظ به تلك الليلة رئيس حرس الباشا ، وهـو كردي الاصل ، وكان لبوغوص فضل عظيم عليه لأنه انقذه مرة من القتل ، فعوّل هذا على مكافأته بالمثل .

فلمـا امره محمد علي بإعدامه ساقه الى منزله في ذهبية على النيل ، وجاء في الصباح التالي الى السراي ، فلما رآه محمد علي سأله عن بوغوص فأجابه بقوله : « أطال الله بقاء سمو مولاي » ففهم محمد علي على انه قتله فلم يعد يذكره قط .

واتفق بعد بضعة ايام ان محمد علي قدم القاهرة لتعهد شؤون حكومته فسمع باختلال احوال الولاية ، وكانت التقارير ترد عليـه من الكشاف (المديرين) تناقض بعضها بعضاً ، فشق ذلك عليه وتذكر بوغوص لأنـه كان عمدته في حل هذه المشاكل . فصاح بأعلى صوته قائلاً : « من لنـا ببوغوص الآن ... كيف اني قتلته » . وكان رئيس حرسه حاضراً فامتقع لونه واضطرب ، فأدرك محمد علي ذلك فقال له والغضب ظاهر على وجهه : « ادعه إليّ حالاً » . فخاف الكردي خوفاً شديداً واصطكت ركبتاه ، فترامى على قدمي الباشا ، فرفسه محمـد علي برجله ولم يزد على قوله : « ادعه إليّ » . فجاءه به وبوغوص يرتعد خوفاً ورهبة . أما الباشا فلم يبد

ملاحظة ، ولكنه استشاره في حل المشكلة التي وقع فيها ، فتناول بوغوص الاوراق فتلاها وحل رموزها واستطلع ما بطن منها وما ظهر . فأصدر محمد علي حكمه فيها طبقاً لمشورة بوغوص . ولما انقضت الجلسة وانصرف الكتبة دعاه للطعام معه فتناولاه ، ولما همّ بوغوص بالانصراف قال له محمد علي : « قد تناولت الخبز والملح معك ونسيت كل ما مضى فاذهب الى الاسكندرية بسلام » . فالتمس بوغوص منه ان يعفو عن رئيس الحرس فعفا عنه على شرط ان لا يرى وجهه بعد ذلك . فأخذه بوغوص معه وأسكنه في اهله زمناً طويلاً ثم اراد النزوع الى وطنه فجهزه بمال يكفي لمعيشته بالرخاء والنعيم كل حياته .

وأصبح بوغوص بك من ذلك الحين موضع ثقة محمد علي ومرجع مشورته ولم تبق ثمة حاجة الى تجديد شروط احتكار كمرك الاسكندرية ، وأصبح بوغوص بك من موظفي الحكومة المصرية بلا راتب معين ، فكان يستولي على ما اراده من دخل الكمارك بلا حساب ، على ان محمد علي لم يرَ منه طمعاً ولا اسرافاً فرقّاه الى رتبة فريق مع لقب بك وأطلق له التصرف في كل اعماله . ولما نظم محمد علي حكومته وأنشأ فيها النظارات ولاّه نظارة الخارجية والتجارة ، فقضى في ذلك المنصب نحواً من عشرين سنة ومحمد علي يعتمد عليه اعتماداً تاماً في كل ما يتعلق بعلاقاته السياسية والتجارية مع الدول الاخرى . وكانت كل محاصيل القطر المصري تمرُّ تحت يده كأنه ناظر المالية ، ونظم له اقلام الحسابات ، فاكتسب صداقة محمد علي فضلاً عن ثقته .

وتوفي بوغوص بك في الاسكندرية اول عام ١٨٤٤ م عن ٧٦ عاماً ، وكان محمد علي يومئذ في القاهرة فحزن حزناً شديداً ، فأصدر أمره ان

يحتفلوا بجنازه على نفقة الحكومة فدفنوه في كنيسة الارمن الغريغورية في الاسكندرية . ولم يكن من أقاربه في مصر يومئذ إلا نوبار باشا وكان سنه ١٩ فخدمه في أثناء مرضه .

وكان محمد علي لما سافر الى السودان عام ١٨٣٩ لتفقد أحوالها سلم بوغوص بك اوراقاً مختومة على بياض لاستخدامها في ما يقتضي إصداره من الاوامر او المنشورات سريعاً ، فبعد انقضاء مدة الحداد فتحوا صناديقه فوجدوا تلك الاوراق لا تزال كما كانت عليه ومعها جواهر ومصاغ كان محمد علي قد عهد اليه بها قبل سفره ، ويدل ذلك على أمانته وإخلاصه في خدمته .

وكان ربعة مع ميل الى القصر قوي البنية يتقلد العمامة ويلبس القفطان والجبة لا يختار من ألوان الألبسة إلا المظلمة ولا يلبس الطربوش قط . لم يخلف بوغوص اولاداً فورثه اخوه بدروس يوسفيان وكان يقيم في تريستا ولم يعش بعده إلا قليلاً .

مصطفى رشيد باشا

هو الوزير الخطير والسياسي العثماني الشهير المعروف بحبه لوطنه وحسن خدماته لدولته وأمته ابن مصطفى افندي روزنامه جي الاوقاف الهمايونية ولد سنة ١٢١٥ ﻫ بالاستانة العلية وتهذب على ايدي والديه الى سن الشبوبية فأدخل بقلم مكتوبجي الباب العالي وكان يختلس الفرص ويذهب الى المساجد لتناول العلوم العربية عن أئمتها .

وكان رؤساءه يحبونه لاستعداده ودرايته فترقى بمدة وجيزة وصار من



مصطفى رشيد باشا (١٢١٥ – ١٢٧٤ هـ)

الكتّاب الممتازين في القلم المذكور ونال فوق ذلك رتبة رئاسة التعليم ، ولم تكن تُعطى لحديث السن مثله ، وكان على صغره يفصل المشاكل المهمة فصلاً يقصر عنه الشيوخ فكان يسمع مدحه وتنشيطه من الرؤساء فيزداد همة ونشاطاً ، وكان برتو باشا الشهير من جملة من قدّر مزيته واقتداره .

ولما ارتقى الى درجة باش خليفة (باشكاتب) أرسلته الدولة العلية الى المورة برفقة الاردو الهمايوني تحت قيادة خسرو باشا فابتدأ من ذلك الحين يصرف ذهنه الى استطلاع اسباب تلك الحادثة وما يضمن رجوع النفوذ العثماني .

وبعد رجوعه من المورة أرسل الى القطر المصري مرتين برفقة برتو باشا على عهد المغفور له محمد علي باشا فأظهر من الدراية في حل المشاكل ما اشتهر بين الخاص والعام .

ولما تبوّأ السلطان عبد المجيد خان كرسي السلطنة كان المشار اليه

بمأمورية آمدي الديوان الهمايوني وكانت المذكرات جارية بمجلس الوكلاء (الوزراء) إذ ذاك بشأن إصلاح الدولة لوقوعها في ارتباك عظيم بمسألة المورة واستقلال اليونان وإلغاء أجواق الانكشارية ومحاربة روسيا ، وكان السلطان حريصاً على امته وصيانة ممالكه حتى كان يود إصلاح ذلك كله دفعة واحـدة ، ولكن مقاصد الوزراء إذ ذاك متباينة متضادة مثل ما كانت احوال الولايات . ولما لم ينتج من تلك المذكرات نتيجة فعّالة ضاق السلطان ذرعاً فجاء يوماً بغتة الى البـاب العالي ودعا الوكلاء اليه وكان من جملتهم رشيد بك صاحب الترجمة .

فأخـذ السلطان في تلك الجلسة يبين الخطر العظيم المحيط بالدولة من جميع اطرافها وطلب الى الوكلاء ابداء آرائهم في تخليص الممالك والأمة فلم يكن جوابهم إلا التأوّه والتأسف فأثر ذلك برشيد بك تأثيراً فوقف وصرّح برأيه بكل احترام وأدب ووعد بأن يقدم رأيه خطاً للأعتاب السلطانية وهكذا فعل فإنه قدم لائحة كانت السبب الوحيد لخلاص الأمة والمملكة من تلـك الوهدة المخطرة ونال بسببها الشهرة العظمى فوجهت اليه رتبة الوزارة مع لقب باشا ثم ارسل سفيراً الى باريس ولوندره لحل مسألة مصر وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر وزد على ذلك انه كان يجهل اللغات الغربية فأرسل برفقته ترجمان يسمى المسيو كور . ولكنه رأى ان لا بدّ له من دراسة لغة اوربية فتعلم الفرنسية وطالع بواسطتها نظامات الممالـك وأسباب نجاحها وثباتها وكان ينظر الى تلك الممالك نظرة وإلى حال دولته نظرة اخرى ويقابل بين الحالتين توصلاً الى دواء يشفي الدولة مما كانت فيه من الامراض العضالة .

وكان الغربيون ينظرون الى الشرق نظر الاحتقار لما كان يتصل اليهم

من المبالغات بشأنه فكان صاحب الترجمة يبذل جهده لتكذيب تلك الاراجيف بالدليل والقياس استجلاباً لحسن ظنهم بالدولة العلية وكان الملك جورج (ملك انكلترا) إذ ذاك يصغي الى كلامه حتى اقتنع منه بأن المحافظة على قوام الدولة العلية ووقاية ملكها يعودان بالنفع على سائر ممالك اوروبا فانعقدت المعاهدة المسماة (بروتوكول لوندرة) ومن مقتضاها التخلي لمحمد علي باشا عن ولايتي مصر وعكا طول حياته ولكن محمد علي باشا لم يوافق على ذلك فاضطرت دولة انكلترا إذ ذاك ان ترسل سفنها الحربية الى تلك الامصار وكانت النتيجة احتراق السفن الحربية المصرية امام بيروت وإخراج عساكرها من البلاد السورية وإعادة البلاد التي افتتحها الى الدولة العلية وحصر ولاية محمد علي باشا بالقطر المصري مدة حياته ثم يتوارثها اكبر اولاده بموجب الشروط المذكورة بالفرمانات الهمايونية . وترى ذلك مفصلاً في كتابنا تاريخ مصر الحديث .

وكانت دول اوربا حينئذ تنظر الى الدولة العلية نظرها الى المغتصب ولم تكن تصادق على تملكها ولا تعد الدولة العلية من جمعية الدول الاوربية وربما كان ذلك ناتجاً عن اهمال عمال الدولة وما تمكن من الخلل في داخليتها حتى شغلهم عن علاقاتها الخارجية .

وكان السلطان عبد المجيد خان قد تحقق صداقة رشيد باشا فصار يعتمد عليه الاعتماد التام فاتخذه مستشاراً خاصاً وفي سنة ١٢٥٦ هـ قام على الكرسي العالي بالنيابة عن جلالته في ميدان الكلخانة وقرأ الخط الشاهاني المعلن المساواة بين سائر اصناف العثمانيين فاعتقد الدول الاوربية فلاح الدولة العلية بذلك وابتدأت تثق بالباب العالي كل الوثوق وكان هذا الخط الشريف صورة من لوائح صاحب الترجمة قد افرغت بقالب رسمي .

وعلم ايضاً ان قلة الرجال المقتدرين يقف عثرة في طريق الاصلاح فأخذ يرقي اصحاب اللياقة والاقتدار من شبان الوطن الى أعلى المراتب بمدة قليلة وفي جملة من ترقى على يده فؤاد باشا وعالي باشا وأحمد وفيق باشا الذين اشتهروا بخدماتهم للدولة العلية .

ولما وجهت اليه الصدارة العظمى كانت الاحوال وخيمة جداً كما اتضح مما تقدم ، فأخذ بإصلاح الامور الملكية والعسكرية فأسس سفارات دائمة في برلين وباريز وفيانه ولوندرة فكان يطلع بواسطتها على الحقائق السياسية في حينها ويتخذ الاحتياطات اللازمة والتدابير المصيبة لصيانة حقوق الدولة والملة . وإن ما ناله من التوفيق في مسألة إعادة المجرمين التي ظهرت بعد الاختلال الكبير في المجر سنة ١٨٤٩ كان نتيجة ما اتخذه من المسلك القويم في طرق السياسة وبرهاناً على فرط حميته وغيرته : وتفصيل ذلك انه لما ضيقت روسيا والنمسا على المجريين التجأ جماعة منهم الى حدود المملكة العثمانية فطلبت الدولتان المشار اليهما الى الدولة العلية تسليمهم اليهما وهددتاها بالحرب اذا خالفت طلبهما . فأصدر رشيد باشا لهما رداً وفقه على الحقوق الدولية وصان شرف الدولة وكان السلطان يؤيد كل ما يقوله او يعمله ومن جملة كلام جلالته بهذه المسألة قوله : « ومن المحال ان اسلم هؤلاء المساكين وقد التجأوا الى باب سلطنتي السنية وهذا ما تقتضيه الحمية والعدالة وقد اختار الحرب على تسليمهم » فعلمتا ان الدولة ساهرة على حقوقها وشرفها بهمة وزيرها رشيد باشا فأذعنتا الى ان يتلافى الأمر بالمخابرات السياسية والقانون الدولي وتحققتا ان التهديد لا يفيدهما شيئاً .

وتقلب رشيد باشا في مناصب متعددة على مقتضى الاحوال ، فتقلد منصب الصدارة ست مرات ونظارة الخارجية اربعاً وتقلد سفارات

متعددة وتعين والياً لأدرنه مرة واحدة . وكان الفوز مرافقاً له في كل امر شرع فيه . وأول جريدة عثمانية نشرت في الاستانة « تقويم قائع » كان هو مؤسسها . وقد أسَّس ايضاً نظارة المعارف ومجلس المعارف ونظامناه المعارف وسالنامه الدولة والمكاتب الرشدية وغيرها من عوامل الارتقاء .

واتفق في ايامه ظهور مسألة القدس وهي الاختلاف الذي حصل بين الكاثوليك والارثوذكس بحق التصرف في الكنيسة ، وتدخلت روسيا في امره وأرسلت (منشيقوف) الشهير الى الاستانة ليبلغ الدولة العلية مطاليب الدولة الروسية الباهظة ، فاتخذ رشيد باشا الاحتياطات اللازمة فأودع المسألة حالاً الى مؤتمر فيانه وطلب تسويتها وفقاً لقانوني الدول والملل . فأصدر المؤتمر لائحة الى الدولتين فقبلتها الدولة الروسية ولم تقبلها الدولة العلية لاشتمالها على شروط تحتاج الى التعديل فطلبت تعديلها وإجراء المذاكرات بذلك ، فصرحت الدول الاوروبية بأنها لا تستطيع مماضدة الدولة العلية ، واذا لم تقبل بالشروط المذكورة فالمسؤولية تعود عليها اذا آلت الحال الى حرب .

فنهض رشيد باشا حينئذ بهمّة وغيرة فائقتين ، وجمع الوكلاء والوزراء والعلماء والأمراء والمأمورين والاعيان في الباب العالي بموجب ارادة سنية وشرح المسألة وأبان لهم ان بعض مواد تلك اللائحة مخلٌ بحقوق الدولة العلية وان الدولة الروسية لم تقبل تلك الشروط إلا رغبة بمواد فيها قابلة للتأوّل . ثم أخذ رأيهم ودارت المذاكرات بذلك ، فأعلنت الدولة العلية الحرب على دولة روسيا سنة ١٢٦٩ هـ . وكان رشيد باشا عالماً بقصور الدولة عن مناهضة الروس اذ ذاك ، ولكنه رأى قبول الشروط

اكثر ضرراً من الحرب فاختار أهون الشرّين . ولم تمضِ برهة على ذلك حتى تأكدت فرنسا وانكلترا وسردينيا ان الدولة الروسية قد تجاوزت الحدّ فأعلنّ عليها الحرب وأوقفنَها ، وكانت نتيجة تلك الحرب الاعتراف بحقوق الدولة العلية وإدخالها في عداد الدول الاوروبية سنة ١٢٧٣ هـ ، وهذا ما كان يتمناه رشيد باشا ويسهر الليل والنهار لأجله ، وهي خدمة تكفي لتخليد ذكره الى الأبد .

وكان – رحمه الله – طويل الباع في الكتابة والاوراق المحفوظة بخطه في الباب العالي دليل واضح على ذلك .

وفي سنة ١٢٧٤ هـ وافاه الأجل فلبّاه وأودع حسرة في قلوب العثمانيين كافة ، ولم يزل العثمانيون يذكرون اسمه بكل احترام وإكرام .

فؤاد باشا

السياسي العثماني الشهير

وُلد في الاستانة سنة ١٢٣٠ هـ ووالده عزت ملا بن كيجه زاده احد الشعراء والعلماء في زمانه . سلك فؤاد باشا في عهد شبيبته المسلك العلمي ، ثم دخل المكتب الطبي الذي أسسه السلطان محمود الثاني في سراي غلطة وحصل فيه العلوم الطبية بنسبة زمانه واستعداده وارتقى لرتبة قائمقام . وعند ذهاب طاهر باشا بن جنكل والياً لولاية طرابلس الغرب تعين فؤاد (افندي) طبيباً للآلاي في معيته .

وفي سنة ١٢٥٣ كان مصطفى رشيد باشا في نظارة الخارجية وتوسم في



فؤاد باشا (١٢٣٠ — ١٢٨٥ ﻫ)

صاحب الترجمة مستقبلاً عظيماً في السياسة ، فحرّضه على ترك الطب فتركه وتعين مترجماً في الباب العالي. ثم صار مترجماً اول للديوان الهمايوني. وفي سنة ١٢٥٤ﻫ سافر رشيد باشا الى لوندره سفيراً موقتاً فاصطحب فؤاد افندي كاتباً اول للسفارة المذكورة. وبقي المشار اليه في لوندره ثلاث سنوات ثم عزل الى الاستانة وبقي فيها سنتين معتزلاً .

ولما تعين رشيد باشا سفيراً في باريس للمرة الخامسة تعين فؤاد افندي سفيراً موقتاً لإسبانيا والبرتغال وبقي فيها سنتين ، وبعد عودته للاستانة نال الرتبة الثانيــة المتمايزة وتعين ترجماناً للديوان الهمايوني في شهر جمادى الآخر من سنة ١٢٦١ﻫ وفي ربيع اول سنة ١٢٦٣ﻫ أحسن اليه بالرتبة الاولى من الصنف الاول وتعين في ديوان (آمدىء همايون) أي ديوان الاستقبال الهمايوني .

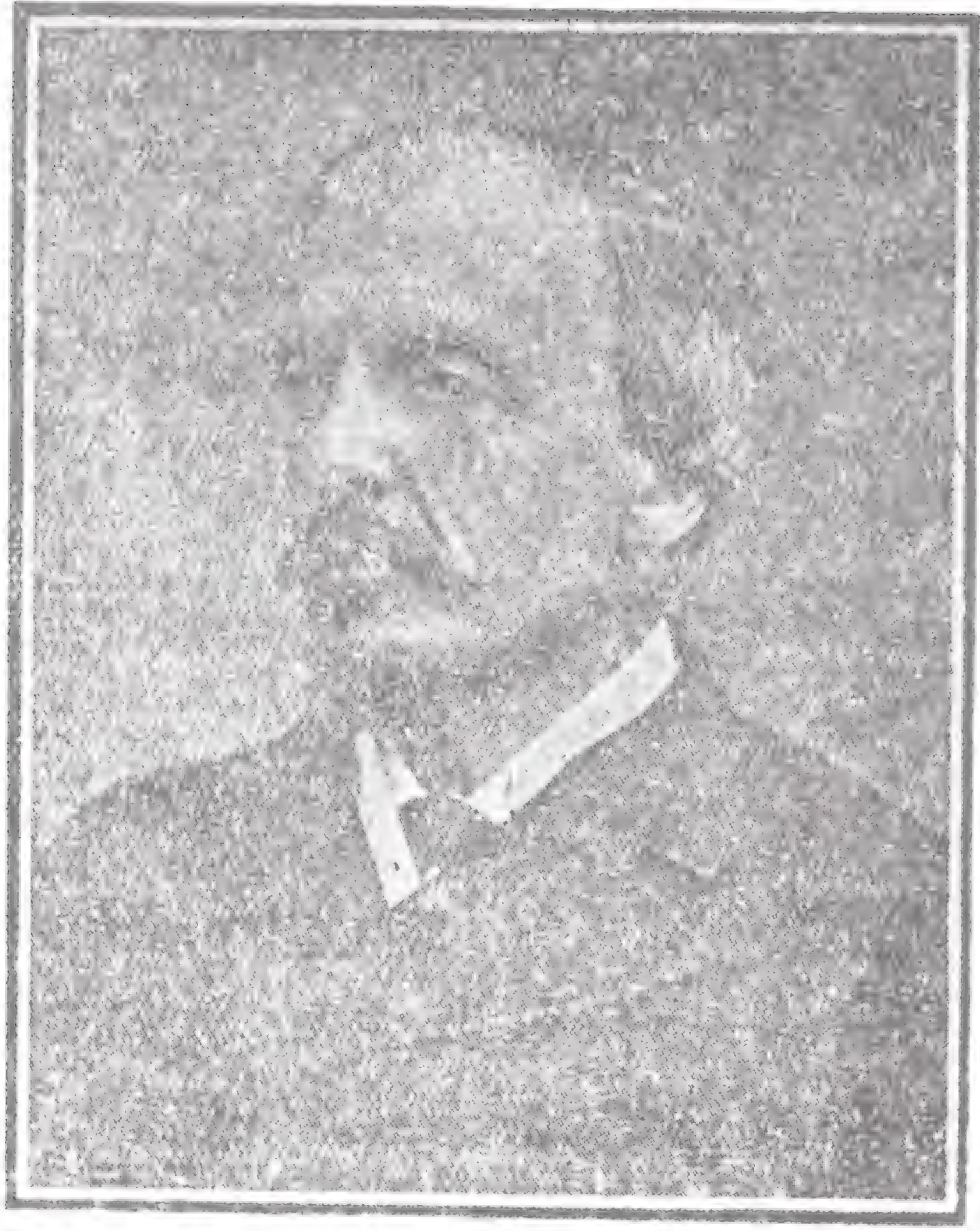
وفي سنة ١٢٦٥هـ أرسل الى عاصمة الفلاخ والبغدان بمأمورية مخصوصة فقام بها حق القيام وبرهن على ما فطر عليه من الاقتدار الباهر فأرسل من هناك الى بطرسبرج سفيراً ، وفي أثنـــاء وجوده في بطرسبرج عُين مستشاراً للصدارة العظمى وأُعطيت له رتبة بالا في محرم سنة ١٢٦٨هـ .

وهـذه اول خطوة خطاها نحو مرامي الشهرة البعيدة والمجد الباذخ ، ثم أرسل الى مصر بمأمورية مخصوصة بتعليمات من رشيد باشا فتكلل سعيه بالنجاح وحصل على رضاء السلطان عبدالمجيد ورشيد باشا ومدحه على اجراءاته وولاه السلطان نظارة الخارجية مكافأة له . وكان فؤاد افندي الى هذا التاريخ مديناً بما أحرزه من التقدم الى رشيد باشا وغريس نعمته ، ولكنه بعد ذلك خالف رشيد باشا في مسلكه السياسي ووطّد اركان اقباله بالاتحاد مع عالي باشا تارة والانفراد بنفسه تارة اخرى .

وكان المنتظر من فؤاد باشا تعضيد رشيد باشا ومضافرته في كبح من يعارضه في ترقية الأمة والوطن لا مخالفته والتهالك وراء الرفعة والاقبـال . وحب ترقية الأمة الذي كان فؤاد باشا مفطوراً عليه يقضي عليه بذلك .

وفي محاربة القرم أرسل الى يانية لتأديب أشقياء اليونان فتمكن من إعادة الامن لتلك الجهات في ستة أشهر وفي سنة ١٢٧١هـ وُجهت اليه رتبة الوزارة .

وفي سنة ١٨٥٦ م تعين مندوباً لمؤتمر باريس المنعقد لعمل معاهدة السنة المذكورة وكان ناظراً للخارجية في ذلك التاريخ ورافق عالي باشا بصفته مرخص ثان اه . هـذا ما رواه ابو الضياء من ترجمة هذا الرجل ، في كتابه « نمونه ء ادبيات » .



اللورد دفرين

وفي سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٦٠ م) حدثت الحوادث الشهيرة في بلاد الشام ، فاهتمت اوروبا بشؤون المسيحيين فيها . وكان البادىء بذلك الاهتمام فرنسا ، فخابرت انكلترا واتفقتا على تكليف الباب العالي بتشكيل لجنة دولية من مندوب عثماني ومندوبين من سائر الدول العظمى ، تسير الى سوريا للبحث عن اسباب تلك الفتن ومعاقبة مسبّبيها وتقرير الخطة التي تضمن الأمن في المستقبل ، وأن يرفعوا بذلك تقريراً الى الباب العالي . فتشكلت اللجنة المشار اليها ، وأعضاؤها هم :

فؤاد باشا	من قبل الدولة العلية
اللورد دفرين	« « انكلترا
الموسيو بيكلار	« « فرنسا
« نوفيكوف	« « روسيا
« ويكبيكر	« « اوستريا
« ريفوس	« « بروسيا

واجتمعت اللجنة اجتماعها الاول في بيروت في ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٦٠، ثم واصلت الاجتماع خمسة اشهر متوالية دارت في أثنائها المداولات للقيام بالمهمة التي تألفت اللجنة لأجلها ، وأهمها :

١ – إعادة النظام والامن .

٢ – إرجاع المسيحيين المهاجرين الى قراهم وبلادهم .

٣ – تقدير ما لحقهم من الخسائر وتعويضها عليهم .

٤ – تعيين الاشخاص الذين سبّبوا تلك الثورة ومقاصتهم .

٥ – الاتفاق على حكومة تضمن للبنانيين ارواحهم وأموالهم وراحتهم .

وقد طال البحث في تفاصيل هـذه الشؤون واحتدم الجدال خصوصاً بين فؤاد باشا المندوب العثماني واللورد دفرين المندوب الانكليزي ، وكلاهما من أعظم رجال السياسة .

فكتبت القوائم بأسماء المنكوبين حسب قراهم ومقاطعاتهم ودُفعت لهم مساعدة وقتية ، فأصاب كل واحد منهم نحو عشرة غروش مصرية . وفرّقوا فيهم الدقيق والأقمشة وأنشأوا المستشفيات لجرحاهم ومرضاهم ونحو ذلك مما يخفف مصائبهم وقتياً .

فلمـــا سدّ الناس رمقهم عادت اللجنة الى البحث عن مقدار التعويضات اللازمة ، فقدّروا خسائر اللبنانيين وحدها بثلاثة ملايين جنيه ، وشخصت اللجنة الى دمشق للنظر في ما لحق تلك المدينة ايضاً فقدّروا خسارتها بمليون جنيه . فرجعت اللجنـة الى بيروت لإعادة النظر في هذه الشؤون ، فجعلوا خسائر دمشق ٧٠٠,٠٠٠ جنيه فقط وقرروا ان يُجمع هـذا المال من مسلمي الولاية . ثم والت اللجنـة اجتماعاتها والآراء مضطربة . وفي اجتماعها الخامس عشر صرح فؤاد باشا ان مسألة التعويضات اصبحت من خصائص الاستانة وللباب العالي وحده الحق في ذلك ، فأرادت اللجنة مقاومته والاعتراض على قوله فلم تفلح ، وبعـــد مخابرات طويلة تقرر ان تكون تعويضات دمشق ٣٥٠,٠٠٠ جنيه فقط تدفع تدريجاً . وطال الجدال ايضاً في المسائل الاخرى مثل معاقبة الجانين ومحاكمتهم وأظهر اللورد دفرين ورفقائه ثباتاً كثيراً ولكن فؤاد باشا تغلب عليهم وأجرى ما رآه اضمن لمصلحة دولته وأحفظ لاستقلالها والدول الاوربية تراه مجحفاً بحقوق المسيحيين هناك .

وكان في جملة مطالبهم سرعة تنفيذ القصاص على الدروز الذين ثبتت الجناية عليهم ولكن فؤاد باشا تغلب على سياستهم في ذلـك وأجل القصاص وغيّر اوجه المسألة وخفف الجريمة فانتهت تلك المهمة الى مـا هو مشهور من امرها وقد تغلب فيها رأي فؤاد باشا بوجه الاجمال .

وفي سياحة السلطان عبد العزيز الى اوربا الحق فؤاد باشا بمعيته لأنه كان ناظراً للخارجية . وتعين وكيلاً لعالي باشا الصدر عند سفره الى كريد ولبث فيها مدة سنة . وأصيب فؤاد باشا في اواخر حياته بمرض في القلب اشتدت وطأته عليه حتى ألزمه اطباء فرنسا الذهاب الى (نيس) فذهب اليها وتوفي فيها سنة ١٢٨٥هـ وعمره خمسون سنة وتقلد صاحب الترجمة منصب الخارجية

خمس مرات ثلاث منها في عصر السلطان عبد المجيد. واثنتان في عهد السلطان عبد العزيز والسر عسكرية. وتعين رئيساً للمجلس العالي (مجلس والا) وكان فؤاد باشا في صدارته الاولى يوقع على الاوامر بختم محفور فيه عبارة (الوزير الأعظم محمد فؤاد) وفي صدارته الثانية انضمت له السر عسكرية وأحسنت اليه الذات الشاهانية بعنوان (ياور اكرم مقبل صادق) .

ولفؤاد باشا شهرة طائرة في عالم السياسة ويذكرون له وصية اصلاحية لم نقف عليها كلها .

محمد شريف باشا

هو الوزير الخطير الجامع بين العلم والسياسة والفضل والرئاسة والشهير بين اقرانه الوزراء بالغيرة على الوطن المصري غيرة خالصة من كل شائبة كما سيتضح لك من سيرة حياته رحمه الله .

ولد في القاهرة في سنة ١٨٢٣ من عائلة تركية الاصل عريقة في الحسب والنسب وكان والده قد جاء الديار المصرية في ايام المغفور له محمد علي باشا بمنصب قاضي القضاة فأقام فيها زمناً ثم عاد الى الاستانة حتى أذن ساكن الجنان السلطان محمود الثاني نقاد الرجال بتقليده منصب القضاء في الحجاز فمرّ في طريقه بمصر اقام فيها اياماً وولده صاحب الترجمة معه وسنه إذ ذاك بضع سنين . وكان محمد علي باشا رحمه الله لحسن فراسته ينتقد الرجال بمجرد النظر اليهم فلما رأى الغلام تنبأ بعظم مواهبه وفرط ذكائه فاستبقاه عنده وجعله كأحد اولاده فأدخله المدرسة العسكرية التي انشأها في الخانكاه بضواحي القاهرة وجعل فيها اولاده وأولاد الأمراء والأعيان . وبعد ان درس فيها



محمد شريف باشا (١٨٢٣ م - ١٨٨٧ م)

مدة بعثه محمد علي باشا في الرسالة المصرية التي كان يبعث بها الى اوربا للتخرج في العلوم وكانت تلك الرسالة مؤلفة من ثلاثة وأربعين تلميذاً ارسلوا الى المدرسة المعدة لأبناء مصر في باريس وكان في جملة تلك الرسالة محمد سعيد باشا ابن محمد علي والي مصر واسماعيل باشا الخديوي الاسبق وغيرهما من ابناء العائلة الخديوية وعلي باشا شريف وعلي باشا مبارك ومراد حلمي باشا وعلي باشا ابراهيم وغيرهم من ابناء الأعيان والوجهاء .

وكان صاحب الترجمة رحمه الله ميالاً ميلاً طبيعياً الى العلوم العسكرية والحركات الحربية ولا سيا في إبان شبيبته فاختار تعلمها لأن التعلم كان في تلك الرسالة اختيارياً ، فأدخلته الحكومة مدرسة سان سير المعدّة لتعليم الضباط العسكرية سنة ١٨٤٣ م وبعد سنتين أتمّ دروسها وامتاز عن رفاقه فانتقل منها الى مدرسة تطبيق العلوم العسكرية قضى فيها سنتين أظهر فيهما كل ما دلّ على النجابة والذكاء فانتظم في الجند الفرنساوي للتمرّن عملاً بمقتضى قوانين

تلك المدرسة حتى توفي المغفور له ابراهيم باشا ووالده محمد علي باشا سنة ١٨٤٩م فلما تولى المرحوم عباس باشا حلمي الاول استرجع الرسالة المصرية فرجع صاحب الترجمة وقد نال رتبة يوزباشي اركان حرب في الجيش الفرنسي وأُلحق بالجيش المصري ولقب من الحين بالفرنسي وما زال معروفاً بين عامة المصريين بشريف باشا الفرنسي الى هذه الغاية .

وكان اعظم قواد الجنود المصرية إذ ذاك سليمان باشا الفرنساوي (راجع ترجمته صفحة ٢٣٢) فلما رجع صاحب الترجمة من فرنسا كما تقدم ألحق بأركان حرب سليمان باشا وتقرب منه حتى تمكنت علائق المودة بينهما كثيراً وبقي في الجيش المصري الى سنة ١٨٥٢ ، فلما رأى انه لم يرتقي عن رتبته التي جاء بها من فرنسا اعتزل العسكرية ودخل في خدمة البرنس حليم باشا بوظيفة كاتب يده الى سنة ١٨٥٣ ، فلما توفي المرحوم عباس باشا الاول استقدمه خلفه سعيد باشا وأنعم عليه بما كان يستحقه من الالتفات ورقّاه الى رتبة اميرالاي لحرسه الخصوصي ، وبعد سنتين منحه رتبة لواء ، أما علاقته مع سليمان باشا فكانت لا تزال ودية حتى تصاهرا ، فتزوج صاحب الترجمة بابنة سليمان باشا ، وأخذت مواهبه بالظهور من ذلك الحين ، فاشتهر بالحزم والعفة والاستقامة . فرأى المرحوم سعيد باشا ان الادارة احوج اليه من العسكر فعيّنه ناظراً للخارجية سنة ١٨٥٧م ، فلما توفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣م خلفه اسماعيل باشا فعيّنه ناظراً للداخلية مع بقائه على الخارجية نظراً لما كان له من المنزلة الرفيعة في عينيه ، فأقام بما عهد اليه أحسن قيام ، وأظهر من الغيرة الوطنية والاخلاص في خدمة الديار المصرية ما زاد مولاه ثقة فيه حتى ولاه سنة ١٨٦٥ النيابة الخديوية اثناء غيابه في الاستانة العلية .

ولما عاد اسماعيل باشا من الاستانة قلده نظارة المعارف مع نظارة الخارجية ثم رئاسة مجلسه الخصوصي سنة١٨٦٧م ثم مناصب اخرى حتى لم يبق منصب من المناصب المصرية الرفيعة إلا تقلده بين داخلية وخارجية وحقانية ورئاسة مجلس النظار وغيرها في ايامه وأيام الخديوي السابق المرحوم محمد توفيق باشا .

وكان صاحب الترجمة معروفاً بين الاهالي بالوطنية الخالصة ، حتى ان الاحزاب العرابية الذين قاموا بالدعوة الوطنية ولم يثقوا بأحد من وزراء مصر تقريباً ولم يرضوا سواه لتولي رئاسة مجلس النظار يوم حادثة عابدين الشهيرة وقد تردد زمناً في قبولها لما كانت فيه البلاد من الاضطراب ولكنه قبل بها غيرة على الامن العام ، وهو الذي أسس مجلس النواب المصري مراعاة للأمر الخديوي ولرغبة الاحزاب الوطنية إذ ذاك،ولما اشتدت الأزمة العرابية تنحى عن الوزارة ، ثم عاد اليها بعد تدمير الاسكندرية وبقي فيها الى عام ١٨٨٤ فتنحى عنها ولم يعد يتولاها ولا سواها من مناصب الحكومة .

وتنحّيه هذا جاء مؤيداً لإخلاصه للوطن المصري وصدق طويته وعزة نفسه . وسببه ان المتمهدي السوداني كان قد استفحل امره في الاقطار السودانية البعيدة وافتتح كردوفان ودارفور وتهدد الخرطوم،وكانت الحكومة المصرية قد بعثت حملة هيكس باشا وبادت عن آخرها ، فأشارت الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وتركها للعصاة،فلم يقبل شريف باشا بتلك المشورة بدعوى ان السودان كلفت الحكومة المصرية مالاً ورجالاً منذ افتتحها محمد علي باشا الى ذلك الحين ، وهي مصدر ثروة تجاري للقطر المصري فضلاً عما يتهدد مصر من الخطر بسبب اخلائها ، الى غير ذلك من الأدلة القاطعة . ولكن الانكليز أصرّوا على مشورتهم وطالت المخابرات بين مصر ولندره وهو لم

يتحول عن رأيه . ولمــا رأى من الحكومة المصرية ميـلاً لموافقة الحكومة الانكليزية ، تنحّى عن الوزارة حتى لا يكون هو المؤذن بإخلاء تلك الاقطار ولكي لا يجري عمــلاً غير مطابق لما يناجيه به ضميره . ومن تتبع الحوادث المصرية السودانية من وزارة شريف باشا الاخـيرة الى الآن ، يتحقق صواب رأيه وأفضلية استبقـاء الاصقاع السودانية تحت كنف الحكومة المصرية ، ولكن حكم القضاء ونفذ المقدّر .

وبقي رحمه الله معتزلاً الاعمال الادارية منقطعاً الى الدرس والمطالعة حتى أُصيب بداء الكبد في أوائل سنة ١٨٨٧م ، فأشار عليه الأطباء بتغيير الهواء فسافر الى الاقطار الاوروبية ، ولم يكد يصل مدينة غرانس من اعمال النمسا حتى فاجأه المنون فتوفاه الله عن ٦٤ عاماً . ولما بلغ الحكومة الخديوية أمرت بإقفال الدواوين يوماً كاملاً حداداً عليه ، وبعث رئيس النظار رسالة برقية الى ابن الفقيد يقول فيها : « اننا أسفنا على الفقيد بقدر حبنا له » .

وجيء بجثته الى القـاهرة في ٢٧ ابريل (نيسان) من تلك السنة ودُفن بالتجلة والإكرام والنـاس يتأسفون على فقده ويستمطرون عليه الرحمــة والرضوان .

وكان شريف باشا حسن الخَلق والخُلق ، مهيباً جليلاً ممتلىء البدن طويل القامة تظهر في عينيه وجبينه ملامح الذكاء وحدّة الذهن ، وكان متمكناً من اكثر العلوم العصرية وخصوصاً علم الفلك ، حليم الطبع لين العريكة ، وقـد أجمع المصريون على ولائه ونال من انعام الحكومة الخديوية والحضرة الشاهانية وسائر الدول العظام من الرتب والنياشين ما تتحلى به صدور الرجال وتفتخر بنيله كرام الأنام . رحمه الله وتغمّده برحمته ورضوانه .

رستم باشا

هو الوزير العثماني الشهير سفير الدولة العلية في لندرا مؤخراً وأصله ايطالي، وُلد سنة ١٨٠٦م من عائلة كونتية عريقة في الحسب والنسب، ولكنه انتظم في خدمة الدولة العليـة وتخلـَّق بأخلاق رجالها وأتقن لغتهم فضلاً عن لغته ولغات اخرى كما فعل كثير من خدَمة الدولة العليـة من الاوروبيين ، وكانوا غالباً اذا انتظموا في سلك خدمتها اعتنقوا الاسلام . اما رستم باشا فبقي على مذهب آبائه وهو النصرانية ، وكان منـذ نعومة أظفاره جريئاً مقداماً حاد الذهن ذكياً ، فما لبث ان انتظم في خدمتها حتى أخـــذ يرتقي ويتقلب في المناصب حتى تعين سفيراً للدولة العليـة في ايطاليا على عهـد ملكها فيكتور عمانوئيل الثاني ، ومـا زال في ذلك المنصب الى سنة ١٨٧٣ فاستقدمه الباب العالي ليتولى متصرفية لبنان .

وكان الجبل قد حال بين احكامه والعدل نفوذ ذوي الوجاهة والرئاسة وخصوصاً طائفة الاكليروس وكان رستم باشا لحزمه وصرامته يتوخى القسط ولا يقبل الوساطة فشق ذلك على بعض جماعة الاكليروس وحاولوا استخدام نفوذهم فلم يروا منه إلا البقاء على عزمه فنتج عن ذلك نفور بينه وبين جماعة منهم . وتمكن النفور حـــتى آل الى حكمه على المطران بطرس البستاني بالنفي الى القدس سنة ١٨٧٩ بواسطة قنصل فرنسا لنفور موقت كان بينهما . والمطران المشار اليـــه من ذوي الرأي والوجاهة والكلمة النافذة في الطائفة المارونية فتزعزعت اركان لبنان واشتدت الأزمة فعادت فرنسا النظر في الأمر فتحققت



رستم باشا (١٨٠٦ م — ١٨٩٥ م)

خطأ قنصلها فعزلته ووافقت الدولة العلية على إعادة المطران الى كرسيه. على ان هذا الحادث كان عبرة لسائر الاحزاب والعصب في لبنان فسارت الاحكام على ما يرام من العدالة والقسط وساد الأمن وعرف كل ذي حق حقه .

ويقول المدافعون عن المطران بطرس ان سبب النفرة بينه وبين رستم باشا ذود المطران عـن حقوق منحتها الدولة العلية لمواطنيه فأغرى رستم باشا ان تقويض نظام لبنان وإثقال كاهله بضرائب جديدة يكسبانه رضاء الباب العالي ولعلمه انه لا يستطيع التسلط على اعضاء الإدارة والمطران على يمينه سعى في إبعـاده .

وبقي رستم باشا في ولايته هذه عشر سنوات ولا يزال اهل الشام كافـة

وخصوصاً اهل لبنان يتذكرون حكمه وعدالته وقد شهد عقلاؤهم على اختلاف اغراضهم ونزعاتهم ان ولايته على لبنان خطت به خطوة كبرى نحو الاصلاح والتمدّن. وفي سنة ١٨٨٣م عند انتهاء المدة المعينة لحكمه ابدل بالمرحوم واصه باشا فتوفي سنة ١٨٩٢ فخلفه دولتلو نعوم باشا ثم ابدل سنة ١٩٠٢ بمظفر باشا.

أمـا رستم باشا فتعين سفيراً للدولة العلية في لندرا وهي اخطر سفاراتها وذلك دليل على ثقة الدولة به وما زال هناك حتى توفـاه الله سنة ١٨٩٥ وله من العمر زهاء تسعين سنة ولم يخلف عقباً .

وكان ربعاً نحيفاً سريـع الحركة حاد العينين والذهن صارماً حرّاً وقد نال بسبب ذلك شهرة كبرى لدى رجال اوربا حتى صرح اللورد سالسبوري وهو يذكر وفاته ان بموته ماتت رجال الدولة العثمانية كأنه يريد انـــه فريد في الدولة وهو قول لا يخلو من المبالغة ولكنه يدل على منزلة هـذا الرجل عند قهارمة السياسة في اوربا .

نوبار باشا

احد وزراء مصر العظام

امتازت مصر عن سائر ممالك الارض بتعدد الجنسيات واختلاط اهلها بسائر اصناف الناس . وقـد خدم حكومتها رجـال من أمم شتى ، وفيهم الفرنسيون والانكليز والألمان وغيرهم من أمم اوروبا ، والأتراك والأرناؤوط والأرمن والشركس والسوريون وغيرهم من رعايا الدولة العلية .

وقد تناوب رئاسة وزاراتها من اول عهد العائلة الخديوية الى امد غير بعيد



نوبار باشا (١٨٢٥م - ١٨٩٩ م)

ثلاثة من كبار الوزراء ، اثنـان تركيان همـا المرحوم شريف باشا وصاحب الدولة رياض باشا وواحد ارمني هو نوبار باشا صاحب الترجمة . وقـد اشتهر الأرمن بالإقدام وعلو الهمة والذكاء والثبات ، وقضت عليهم بيئاتهم بالاغتراب وتجشم الأسفار التماساً للرزق بعرق الجبين والصبر والمواظبة فـلم يعدموا حيثما حلوا نصيباً حسناً من ثمار اتعابهم ، فنبغ بينهم رجـال اشتهروا بالسياسة ، وآخرون بالثروة ، ومنهم في الاستانة جماعة كبيرة من اهل اليسار ، وجـاء بعضهم مصر على عهد المغفور له محمـد علي باشا فتولوا أعظم المناصب الادارية

وخدموا الحكومة المصرية خدمات تستحق الاعتبار ، وأشهرهم بوغوص بك وأرتين بك ونوبار باشا .

وُلد نوبار باشا في ازمير من اعمال آسيا الصغرى سنة ١٨٢٥م، وتلقى العلم في مدارس سويسرا ثم فرنسا ، فخرج من المدرسة وهو في السابعة عشرة من عمره ونفسه تتطلب المعالي فقدم الديار المصرية سنة ١٨٤١م وقد حبب اليه الاقامة فيها بوغوص بك وكان ناظراً للتجارة والأمور الخارجية فيها على عهد المغفور له محمد علي باشا وكان من ذوي قرابته فقدمه الى محمد علي فعينه سكرتيراً للأمور الاجنبية ، ثم صار سنة ١٨٤٤ سكرتيراً ثانياً ومترجماً في مجلس محمد علي . ولم يمض قليل حتى ظهرت نجابته وعرف قدره فارتقى الى رتبة سكرتير اول ومترجم المغفور له ابراهيم باشا ، ولما شخص هذا القائد العظيم الى اوربا لتبديل الهواء سنة ١٨٤٥ سار نوبار في معيته وشهد ما لاقاه ابراهيم باشا هناك من الحفاوة والإكرام .

وفي سنة ١٨٤٨ توفي محمد علي وابراهيم وارتقى عباس باشا الاول الى منصة الاحكام ، فأدخل نوبار في خدمته كما كان عند عمه ابراهيم ورقّاه الى الرتبة الثانية مع لقب بك ، وحدث خلاف يتعلق بحقوق ورثة الاريكة المصرية فأنفذه عباس باشا الى لندرا سنة ١٨٥٠ لإثبات تلك الحقوق ، فعاد منها ظافراً ، فعرف عباس باشا له ذلك فلم يصبر عن مكافأته فسماه وزيراً وهو في فينا . وما زال في هذا المنصب حتى توفي هذا الوالي سنة ١٨٥٤ ، وتولى عمه سعيد، فأسرع هذا الى خلعه . ولم تمض سنتان حتى استقدمه وعهد اليه انشاء مصلحة تتولى شؤون البضائع الصادرة الى الهند ، فقام بتلك المهمة قياماً دلّ على ذكائه وحكمته .

فلما تولى اسماعيل باشا الخديوي الاسبق سنة ١٨٦٣ انتدبه للمسير الى

الاستانة لهذا الشأن وللمفاوضة بأمور اخرى هامة . فلما عاد انعم عليه اسماعيل باشا بالرتبة المتمايزة، وبعد قليل نال رتبة اللواء من السلطان عبدالعزيز اثناء مروره بالاسكندرية في سياحته الى اوربا . ولم يزدد اسماعيل باشا إلا ثقة في نوبار واعتماداً عليه ، فلما نشأت مشكلة قنال السويس بين الحكومة المصرية وشركة القنال سنة ١٨٦٤ عهد اليه السعي في حلها، فسوّى ذلك على اسلوب رضي به الفريقان . فعيّنه اسماعيل باشا عند عودته ناظراً للأشغال العمومية . وفي سنة ١٨٦٦ وكل اليه وزارة الخارجية .

وفي السنة التالية دارت المخابرات بين الباب العالي واسماعيل باشا بشأن وراثة الحكم ، وكانت لا تزال في اكبر اعضاء العائلة واسماعيل يريد حصرها في نسله ، فأنفذ نوبار باشا الى الاستانة لتسوية ذلك ، فعاد اليه بالفرمان القاضي بترقيته الى رتبة الخديوية مع توسيع دائرة استقلاله وحصر الحكومة في نسله .

وفي تلك السنة شخص نوبار باشا الى اوربا مندوباً مفوضاً من اسماعيل باشا لمخابرة الدول العظمى في انشاء لمحاكم مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين ، فقضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في اثنائها بين ممالك اوربا ويفاوض عظماءها وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فأنفق أموالاً طائلة ولكنه عاد ظافراً غانماً . وكان قد عهد اليه سنة ١٨٦٧ ايضاً النيابة عن الحكومة المصرية في مؤتمر النقود في باريس فحضره .

ولما قضى مهمته في انشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٤ اعتزل الاعمال مدة ثم عاد اليها .

وأصاب مصر في اثناء ذلك ازمة مالية مما تراكم عليها من الديون ، لما أتاه اسماعيل من النفقات في سبيل عمـــارة القاهرة وغيرها كما هو مشهور ، حتى افضى الامر الى مراقبة الدول والسعي في غلّ يديه وضبط الميزانية والاقتصاد فيها . ورأت الدول ان تقيـد حكومته بالشورى ، فاقترحت عليه تشكيل مجلس النظار على ما هو عليه الآن ، فلم يرَ اسماعيل خيراً من نوبار لتشكيل ذلك المجلس ، فاستقدمه اليه وكلفه بذلك سنة ١٨٧٨ ، فألفه وجعل في جملة اعضائه عضوين اجنبيين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن والآخر فرنسي وهو المسيو دي بليفير ، يراقبان سير الاعمال بالنيابة عن انكلترا وفرنسا . ولكن ذلك لم يكن ليرضي اسماعيل باشا ، فلم تمضِ على تلك الوزارة الشورية سبعة اشهر حتى حلّها اسماعيل ، فحدثت ثورة عسكرية نسبها الى الوزيرين الاجنبيين وحمل نوبار على خلعهما ليلقي تبعة الامر عليه فاستعفى نوبار ، وكان ما كان على اثر ذلك من تدخّل الدول في خلع الخديوي ، فصدر الامر الشاهاني في ٢٦ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٩ بخلع اسماعيل باشا وتولية نجله المغفور له توفيق باشا . وسافر نوبار باشا من مصر ، على انه كان يتردد اليها حيناً بعـد آخر ، فحدثت الثورة العرابية وعقبتها الحوادث السودانية فظهر المهدي وفتح كردوفان ، ونوبار باشا معتزل الاعمال مشتغل بأحواله الشخصية . ثم استفحل امر المهدي وأشارت انكلترا على الحكومة المصرية سنة ١٨٨٤ بإخلاء السودان والتخلي عنـــه للدراويش ، وكانت الوزارة المصرية اذ ذاك برئاسة المرحوم الطيب الذكر شريف باشا فلم يوافق انكلترا على مشورتها فألحّت عليه ففضّل الاستقالة على ركوب ذلك الخطأ ، فاستقدم الخديوي نوبار باشا وعهـــد اليه تشكيل وزارة جديدة فشكلها وتولى هو ايضاً نظارة الخارجية ووافق انكلترا على اخلاء السودان . وما زال في ذلك المنصب الى ٧ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٨ ، فاستقال منـــه وانقطع الى خصوصياته حتى أصابه المرض الاخير ،

فسافر الى اوروبا للاستشفاء فأدركه القدر المحتوم هناك ، فنُقلت جثته الى مصر ودُفنت فيها بما لاق بمقامه من الإكرام والوقار .

فترى مما تقدم ان صاحب الترجمة خدم الحكومة المصرية خدمات ذات بال ، فعاصر كل ولاتها من محمد علي باشا الى الخديوي عباس باشا الثاني ، وهو يعمل بنشاط وحكمة ، فلم يقم فيها مشروع عظيم إلا كانت له فيه باع طولى . وقد نال من رتب الدولة العلية الى رتبة المشيرية ، وحاز نياشين شتى منها ونيشان اوفيسيه دي لجيون دنور دونور من الحكومة الفرنسية ، وغير ذلك.

وكان - رحمه الله - ذكياً حازماً حسن السياسة ليِّن العريكة ، وقد احرز ثروة طائلة وهو يعدّ من أغنى سكان وادي النيل . وكان كريماً غيوراً على مصلحة ابناء جلدته ، فنال الارمن في ايام وزارته مساعدات كثيرة بذل لهم فيها المال الكثير .

جواد باشا

هو نجل المرحوم مصطفى عاصم بك من اعضاء دار الشورى العسكرية المعروف بقبا اغاجلي وأصله من بلدة قرا حصار. وُلد صاحب الترجمة في دمشق الشام سنة ١٢٦٥ (رومية) الموافق ١٢٦٧ للهجرة . فسماه والده (احمد جواد) ليدل جمله على سنة ولادته . وتلقى مبادىء العلم في مدارس بورصة وأتمه في الاستانة ونال الشهادة العسكرية الرسمية واتقن اللغتين التركية والفرنسية مع مبادىء اللسان العربي .

فخرج من المدرسة وفيه ميل شديد الى خدمة العلم فألف كتابين احدهما « المعلومات الكافية في الممالك العثمانية » والآخر « تاريخ عسكري



جواد باشا (١٢٦٧ هـ — ١٣١٨ هـ)

عثماني » ثم انشأ مجلة سماها (يادكار) أي (تذكار) اصدر منها ٢٤ عدداً فقط . وترجم رسالة في علم الهيئة الى اللغة التركية سماها (سماء) وأخرى في تطبيق الصناعة على الكيميا أو أخرى في المباحث الرياضية الدقيقة . وشرع في تأليف تاريخ مطول للدولة العثمانية لكنه مات قبل اتمامه .

فترى مما تقدم ان الفقيد فطر على حب العلم فجعل الاشتغال فيه باكورة اعماله ولكن الاحوال قضت عليه بعد ذلك بالتحوّل الى السياسة والإدارة فانتظم في خدمة الحضرة الشاهانية وارتقى فيها حتى صار من القرناء برتبة بكباشي سنة ١٢٨٩ هـ. ثم عين استاذاً للرياضيات في المكتب الهندسي الملكي ثم مأموراً في الفيلق الخامس في دمشق الشام مسقط رأسه . ويذكرون من مآثره في تلك الخدمة انه بنى ثكنة عسكرية في جبل الدروز فكوفيء بزيادة راتبه . وما زال في ذلك الفيلق حتى انتشبت

الحرب في السرب فنقل الى جند الطونة رئيساً لاركان حرب عزيز باشا وهناك ارتقى الى رتبة قائمقام سنة ١٢٩٣ هـ. ثم صار رئيساً لاركان حرب نجيب باشا ثم ارتقى الى رتبة اميرالاي . وتنقل في عدة قومندانيات تولى رئاسة اركان حربها في تلك الاثناء . وشهد مواقع ستان كوي وفانسلوي وعين بعد عقد الصلح مندوباً ثانياً لتحديد تخوم السرب بمكافأة شهرية مقدارها ٢,٥٠٠ غرش فوق راتبه الاصلي ثم صار مندوباً اول ولما انتهت مهمة الحدود انعم عليه ملك السرب بنيشان طاقوا من الدرجة الثالثة .

مختار باشا الغازي

ولما توجه المشير مختار باشا الغازي لتحديد تخوم اليونان صحبه جواد باشا ثم تعين على تخوم الروس من جهة الاناضول وانتهى اخـــيراً الى تخوم بايزيد وأحسنت عليـــه الدولة العلية إذ ذاك بالنيشان العثماني الثالث وأهداه القيصر نيشان القديسة حنة من الدرجة الثانية .

وما زال يرتقي من منصب الى آخر في الاستانة وفي الجبل الاسود وتتوالى عليه الانعام والنياشين والرتب حتى صار سنة ١٣٠٦ هـ فريقاً . وكان عضواً في لجنة التفتيش العسكري فانتقل الى رئاسة اركان حرب جزيرة كريت ثم صار وكيلاً لها ، ثم تعين والياً على كريت وأحسن اليه بالميدالية الذهبية . وفي سنة ١٣٠٨ هـ ارتقى الى رتبة المشيرية وصار راتبه ٣٢,٥٠٠ جنيه، وفي السنة التاليـة وجّه اليه مسند الصدارة العظمى وأنعم عليه بالنيشان المرصع العثماني ولقب بياور اكرم . ثم اهدي اليه النيشان المجيدي المرصع وتقـلد ميدالية اللياقة الذهبية فنيشان الافتخار المرصع فميداليـة الصنائع النفيسة فنيشان الامتياز المرصع .



مختار باشا الغازي

وتوالت عليه الوسامات من الدول الاجنبية غير ما تقدم . فنال من ملك الصرب نيشان طاقوا من الدرجة الاولى ، ومن حضرة البابا نيشان بي نوف الاول، ومن امبراطور المانيا نيشان النسر الاحمر المرصع ، ومن جمهورية فرنسا نيشان اللجيون دونور الاول ، ومن شاه ايران نيشان شير خورشيد المرصع ، ومن ملكة اسبانيا نيشان الصليب الاول، فضلاً عن ميداليات الجمعيات العلمية وغيرها .

وفي أواخر سنة ١٣١٢ هـ ُفصل من الصدارة العظمى وتقلّب في مناصب مختلفة في كريت ، وانتُدب سنة ١٣١٤ هـ لاستقبال امبراطور المانيا اثنـاء

زيارته فلسطين ، وتعين على اثر ذلك مشيراً للفيلق الهمايوني الخامس بدمشق وما زال في هذا المنصب حتى اعتلّ مزاجه ، فانتقل الى الاستانة حيث قضى فيها بضعة ايام ثم وافاه الأجل المحتوم .

احمد عرابي المصري

نشرنا ترجمة هذا الرجل مراراً في تاريخ مصر الحديث وفي الهلال . ثم كتب هو الينا ترجمة حياته بخط يده فآثرنا نشرها دون سواها ، ومَن أراد زيادة التفصيل فليراجع الحوادث العرابية في كتابنا تاريخ مصر الحديث ، وفي أهلَّة السنة الخامسة والسنة التاسعة . وأما ما يقوله احمد عرابي عن نفسه فهو :

نشأتي الاولى :

وُلدت في ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هـ من ابوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسي البطائحي ومقامه الشريف بقرية فاقوس بمديرية الشرقية ، وهو اول من قدِم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق في اواسط القرن السابع للهجرة ، وهو من ذرية الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم من سلالة الإمام الحسين بن علي بن ابي طالب وابن فاطمة الزهراء البتول بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم . واسم والدي محمد عرابي بن السيد محمد وفى ابن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله ، الى آخر السلسلة الشريفة . واسم والدتي فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد ، تجتمع مع والدي في جدي الثالث عشر المسمى ابراهيم مقلد رحمه الله تعالى . ومولدي كان بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي بندر الزقازيق وهي



احمد عرابي المصري

ولد سنة ١٢٥٧ ه‍ ونفي سنة ١٣٠٠ ه‍ وعاد من منفاه سنة ١٣١٩ ه‍

بلدة قديمة جداً من ضواحي مدينة بوباسطة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق ابن نمرود التي يقال لها الآن (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها، وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى أن توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ ه‍ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة وأربعة اولاد وست بنات . وكنت ثاني اولاده الذكور وسني ٨ سنوات ، وترك لنا ٧٤ فداناً ، ولو شاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ، ولكنه كان رحمه الله تعالى يراعي صالح ابناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة. باسماء المشايخ توزعونها بمعرفتهم على اهل بلادهم بحسب الاحتياج ، الى عهد المغفور له عباس

باشا الاول، وهو اول من كلف الاطيان باسماء الافراد وألزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميري ويسمونه المتروك . وكان والدي ، عليه سحائب الرحمة والرضوان ، عالماً فاضلاً ، تقياً نقياً ، اقام بالجامع الأزهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير ، وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشايخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار . ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدّد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية المذكورة ، وفيه اربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة ، وانشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف، وجعل له فقيهاً صالحاً عالماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازي ، وألزم الاهالي بتعليم اولادهم ، وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً عالماً ، ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوي من علماء الجامع الأزهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصيلحي نفع الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات أرسلني والدي الى المكتب المذكور ، فأقمت فيه ثلاثة أعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمري إذ ذاك ثماني سنين وبضعة شهور ، فلما توفي والدي كلفني اخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ هـ رحمه الله تعالى وأخذت عنه مبادىء علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض أشغال الزراعة ، ثم بدا لي المجاورة في الأزهر حين بلغت اثني عشر عاماً فكنت أجود القرآن على اقاربي وأهل بلدي نهاراً وأتوجه الى بيت عمتي ليلاً وتلقيت شيئاً قليلاً من الفقه والنحو ، وبعد سنتين رجعت الى بلدي .

سعيد باشا :

وكان المرحوم سعيد باشا ، عليه سحائب الرحمة والرضوان ، قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ هـ وأمر بدخول اولاد مشايخ البلاد وأقاربهم في العسكرية، فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر في شهر ربيع اول سنة ١٢٧١ هـ وجعلت فيها وكيل بلوك امين من اول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضور ابراهيم بك امير الالاي وحسن افندي الألفي حكيم الالاي ثم ترقيت الى رتبة بلوك امين في شهر رجب من السنة المذكورة بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة احد غير الجد والاجتهاد . وبعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاوشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني ، وعلمت ان البلوك امين لا يرتقي إلا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يفني عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاي وطلبت منه ترتيبي في رتبة جاويش في اورطة كانت افرزت لإرسالها الى مدينة المنصورة ، فسألني الامير الاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش اقل ١٠ غروش من راتب البلوك امين ، وإن كانت الرتبتان متساويتين ، فأفصحت له عما خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل عليّ الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط .

فعجب لذلك الخاطر وأمر في الحال بجعلي جاويشاً فمكثت في هذه الرتبة سنتين ، وفي تلك المدة حبّب اليّ الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبير في معانيها حتى أتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الآلاي . وفي اوائل عام ١٢٧٤ هـ أمر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة

قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقـــال : ان أفندينا بلغه انكم تقولون في ما بينكم كيف يصير ترقي الصف ضباط الجدد وتأخير من هو أقدم منهم في الرتب وانه امر ان لا يترقى احـد بعد الآن إلا بعد الامتحان علماً وعملاً فمن فاق أقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن أراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام . فعند ذلك تقدمت امام سعادته وأحجم الآخرون خوفاً وهلعاً ظناً منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك. ولما كرّر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسمعيل باشا الفريق فكنت اول فائز في الامتحان . ثم صار جميع الضباط والصف ضباط بمعرفة سعادة راتب باشا الذي كان وقتئذ اميرالاي ، وصار طلبي امام الجميع ووضع في صدري نيشان الباشجاويش وأعلن ترقيتي الى هـــذه الرتبة . وبعد عام أي في اول عام **١٢٧٥** هـ صار امتحان الباشجاويشية بحضور سعادة راتب باشا ايضاً والمرحوم اسمعيل سليم باشا الفريق فكنت الفائز الاول وترقيت الى رتبة الملازم ثاني التي كنت أدأب في الحصول عليها منذ البدء.ثم بعد سبعة أشهر صار امتحان الضباط في القصر العالي فكنت اول فائز فيه وكُتب اسمي في اول جدول الامتحان . ولمـــا عرض الجدول على ساكن الجنان سعيد باشا امر باعادة امتحاني وانتدب لذلك المرحوم سليمان باشا الفرنساوي رئيس رجـــال العسكرية . فطلبت ثانياً الى الامتحان وكان يوماً مشهوداً ، وبعـد الامتحان التمس سليمان باشا المشار اليه خروج الخديوي المرحوم الى ميدان الامام الشافعي رضي الله عنه وهناك يصير امتحاني في الميدان بأورطة من العساكر بحضرته الخديوية . فسأله الخديوي عما يقصده بذلك فقال انه مستحق لرتبة الميرالاي لأن الذين ترقوا الى هذه الرتبة من المدارس الحربية لم يقروا في أجوبتهم مثله . فقال الخديوي رحمه الله تعالى

لا يمكن ذلك . فقال له يحسن اليه على الاقل برتبة بكباشي فأبى عليه ذلك وقال يلزم انـه يتدرج في كل رتبة ليعرف واجباتها وأحسن اليّ برتبة ملازم اول وأمر باعتبار جدول هذا الامتحان وان يكون الترقي على مقتضاه بدون تجديد امتحان لـمدة مجهولة ، وقبل مضي شهرين احسن عليّ برتبة يوزباشي ، والتحقت بمعيته . وفي اوائل سنة ١٢٧٦ هـ ترقيت الى رتبة صاغقول اغاسي في بني سويف .

وبعد العودة الى مصر صار ختان المرحوم الطيب الذكر طوسن باشا النجل الوحيد للمرحوم سعيد باشا فأولم المرحوم الخديوي وليمة شائقة دعى اليها جميع اعضاء العـائلة الخديوية في قبـة عظيمة حضرها جميع الضباط والذوات وغيرهم من الاجانب، وبعد الطعام انتصب الخديوي رحمه الله تعالى قائماً وقال خطبة ارتجالية ذكر فيها « ان من أمعن النظر في تاريخ بلادنا هـــذه وتوالى حوادثها المحزنة لا يسعه غير الاسف والتعجب كيف توالت الامم الاجنبية على اهلهـا وهم يظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الاسلام والترك والاكراد والشركس وغيرهم بعـد الاسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون ، واني عزمت على تثقيف أبناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بأيديهم بصفة كوني مصرياً منهم وبالله الاستعانة » . فوقع هذا الخطاب على من حضر من غير المصريين وقوع الصواعق ، وتهللت وجوه المصريين وشكروا ودعوا وانقضت الحفلة . ثم في اواخر سنة ١٢٧٦ هـ ترقيت الى رتبة بكباشي ، وفي اوائل سنة ١٢٧٧ هـ أحسن اليّ برتبة القائمقام الرفيعة كما أحسن بها على السيد محمد باشا النادي وعلى المرحوم راشد باشا راقب الذي استشهد بحرب الحبشة في سنة ١٢٩٣ هـ وعلى المرحوم عثمان باشا رفقي الذي صار ناظراً للجهادية قبل الثورة الوطنية . فكنا اربعة قائمقامات اثنين مصريين واثنين شركسيين وكل

منا استلم قيادة آلاي بيادة. وفي السنة المذكورة سافرت بمعية المرحوم سعيد باشا الى المدينـــة المنوّرة – على ساكنها افضل الصلاة وأتمّ السلام – برتبة القائمقام كما ذكرتم ذلك في كتابكم « تاريخ مصر الحديث » .

وفي سنة ١٢٧٨هـ رأى سعيد باشا ان الحكومة سقطت فيدين يبلغ مقداره ٦ ملايين جنيه مصري ، وذلك يساوي إيراد الحكومة في ذاك الوقت سنة كاملة تقريباً، وكان ذلك المبلغ ثمن اسلحة ومهمات حربية وملبوسات وذخائر عسكرية موصى عليها في معامل اوروبا وردت بعد وفاته رحمه الله تعالى . فأمر برفت جميع الالايات وأبقى اورطة واحـــدة كان فيها يوزباشي سعادة مصطفى فهمي باشا رئيس النظار ، وعلي فهمي باشا الذي ُنفي معنا الى سيلان. وأمر باستيداع الضباط بالمحافظات والمديريات على حسب رغبتهم ومن له بلد يتوجه الى بلده ويصرف لهم نصف مرتباتهم في مـدة استيداعهم ، وأمر ان تضاف مرتباتهم على الاطيان موقتاً ريثما يتمّ تسديد الدين . فخصّ الفدان الواحد ٥٠ فضة اي غرش واحد وربع . وقد حصل ذلك فعلاً ثم صار بيع الخيول ومأكولات العساكر ومفروشاتها وكانت من البوسطى وغيرها ، وكذا الفضيات الموجودة في خزائن الامتعـــة والمسافرخنات ، وكذا الفوريقات الموجودة في جميع القطر المصري والاطيان المتروكة في كل المديريات كل ذلك رجاء تسديد الدين .

وفي أوائل سنة ١٢٧٩هـ سافر المرحوم سعيد باشا الى اوروبا لمعالجة نفسه من داء السرطان ، وكان بمعيته المرحوم محمـد علي باشا الحكيم المصري الذي استشهد في حرب الحبشة سنة ١٢٩٣ هـ ، فصدر امره الكريم الى قائمقـــام خديوي فخامة اسماعيل باشا بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم وإقامتهم في قصر النيل ومداومتهم على التدريس في القوانين العسكرية يقول فيه : « ان

الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ، ولو تركناهم على هذا الحال الذي لا يؤول عليهم منه إلا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبرة لمن يعتبر . وبما اننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم في هذا الحال الذي ذكرناه ، فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكنهم من نسائهم حتى ولا بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلاً ونهاراً في قصر النيل » .

وبناء على هذه الارادة صار اجتماعنا في قصر النيل . وفي ربيع الاول انتدبتُ لفرز الصف ضباط في الوجه القبلي وتعين معي حكيماً للفرز المرحوم سالم باشا سالم الحكيم وكان برتبة قائمقام ايضاً .

وفي ٢٧ رجب من تلك السنة توفي المرحوم سعيد باشا ودُفن في الاسكندرية بالمدفن المجاور لمسجد النبي دانيال عليه السلام، بعد عودته من اوروبا، وجلس على الاريكة الخديوية ابن اخيه اسماعيل باشا ، وصار ترتيب الإلايات فكان ترتيبي قائمقام ٦ جي الاي بياده . وأما سعادة نادي باشا فتعين على الاي جميع ضباطه من المصريين المترقيين في زمن سعيد باشا وأرسل الى السودان .

وحاصل الامر اني دخلت العسكرية نفراً بسيطاً في أوائل سنة ١٢٧١ هـ وبلغت رتبة القائمقام في أواخر سنة ١٢٧٧ هـ بجدّي واجتهادي وسهر الليل والنهار على حد قول القائل : « ومَن طلب العلى سهر الليالي » . ونجح كثير من تلامذتي نجاحاً تاماً حتى كانوا في مقدمة جميع الضباط في الامتحانات العمومية . وكان السبب في هذا الاجتهاد الغريب الذي فاقوا به المتخرجين من المدارس الحربية، وكان اغلبهم اميين ، رغبة المرحوم سعيد باشا في تقدُّم ابناء الوطن ومساواتهم لغيرهم كما ذكر ومحبته لهم وانعطافه اليهم ومعاملته



احمد عرابي وابنه في حديقته في سيلان

للجميع بالعدل والمساواة مع تفقد احوالهم ومراعاة سيرهم وحسن سلوكهم كأنهم اولاده، وكفى بالامر الصادر منه وهو في بلاد اوروبا في حقهم المذكور آنفاً ، برهاناً صادقاً على حسن معاملته للوطنيين كأنه كان وصية منه عليهم لمن يخلفه . وهـذا هو الذي اوغر علينا صدور اخواننا من الترك والشركس وغيرهم . ولقد قال لي مرة – رحمه الله تعالى – وأنا برتبة قائمقام : ان جميع الناس عادوني حتى اهلي رجالاً ونساء بسبب مساواتكم بغيركم ، فحققوا أملي فيكم . فأجبته : « ولكن الله سبحانه وتعـالى يرضى عنك والامة المصرية ترضى عنك بمراعاتك للحق والانصاف » . هذا وبسبب عدله وقناعته أثرت

البـلاد في زمنه وأخصبت الارض وانتعشت الامة حتى صار الرجل المزارع بعمل يده يحصل له فوق ٢٠ جنيهاً في السنة ، وهذا ما حفظ مصر من الافلاس في مدة خلفه الذي بلغ دين الحكومة في زمنه مـاية الف الف وألف الف جنيه كما هو مدوّن في بطون الدفاتر .

نشأتي الثانية :

ولما تولى الخديوية المرحوم اسماعيل باشا وأمر بانشاء ٦ آلايات بيادة كنت قائمقاماً في الآلاي السادس وكان المرحوم خسرو باشا اميرالاياً على الآلاي الثاني ثم ترقى الى رتبة لواء باشا وكان رحمه الله متعصباً لأبنـاء جنسه تعصباً أعمى وترتب قومندانا على الآلاي ٥ و ٦ ولما وجدني وطنياً قحاً عظم عليه وجودي في الآلاي وسعى في رفتي من الآلاي لأجل إخلاء محلي لترقية احـد أبنـاء المماليك مصطفى افندي سليم بن سليم بك المشهور بالحجازي . ولأجل هذه الغاية صار يترقب الفرص للايقاع بي ، الى ان صدر امر الجهادية بامتحان الضباط لأجل استكمال النقصان . وبعد ان صار الامتحان وتحررت العرايض للمستحقين ، وختم عليها من ارباب الامتحان ، وكنت من ضمن اعضاء مجلس الامتحان تحت رئاسة الباشا المذكور ، أرسل لي عريضة احـد الملازمين اسمه سيد احمـد افندي وطلب اخـذ ختمي من عريضته والختم على عريضة ضابط آخر من اورطة مصطفى افندي سليم البكباشي لكونه دائمـاً يباشر خدمة منزل البكباشي المذكور . فشقّ عليّ هـذا الامر وتوجهت الى مركز اللواء باشا وأخبرته ان يعفيني من الختم على عريضة من لا يستحق . فقال لا بدّ من الختم لأجل خاطر البكباشي المذكور . فقلت ان هذا ظلم لا أفعله واذا كنت تراعي خاطر البكباشي في الظلم فأولى لك ان تراعي خاطر رئيسه في العدل. وذكرته بمعاقبة هـذا الامر اذا تشكى المظلوم الى ديوان الجهادية وطلب

امتحانه مع الآخر كما حصل مثل ذلك في زمن المرحوم سعيد باشا وصار عزل جميع اعضاء مجلس الامتحان مع رئيسهم بسبب ظلم نفر مستحق رتبة اونباشي وهي أدنى رتب الصف ضباط . ثم ذكرته بعاقبة الظلم غداً بين يدي العزيز الجبار . فحنق لذلك حنقاً شديداً وذهب الى ناظر الجهادية المرحوم اسماعيل باشا سليم وأخبره اني لا أطيع له امراً ولا أعبأ بأوامر ديوان الجهادية. وناظر الجهادية عرض للخديوي الاسبق بذلك ثم صدر الامر برفتي من الجهادية بالقول اني قوي الرأس شرس الاخلاق (وما بي والله من شراسة ولكن جبلني الله سبحانه على حب العدل والانصاف وكره الظلم والاعتساف) فترتب على ذلك رفتي من الخدمة وحرماني من المايتي فدان التي صدر امر الخديوي بالاحسان بها على كل من القائمقامات الجهادية عقيب مناورة عسكرية حضرها الخديوي وكنت من ضمن من حضرها ، وكان اصدر ارادة سنية للمديريات بوجه بحري بتسليم تلك الاطيان الى المنعم بها عليهم . فصدرت ارادة سنية ثانية بتوقيف التسليم فيما يخصني وقد حصل . ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون فانتقم بعدله ممن ظلم من غير إمهال وذلك انه صدر امر الخديوي في الأسبوع الذي رفت فيه بالغاء الالاي ٥ و ٦ اي اللواء الثالث ، وأرسل خسرو باشا الى السودان ، وأصيب حسين باشا الطوبجي بالفالج ، ومحمد بك امين القبرصلي بالفالج ايضاً حتى ماتا ، وأمين بك رئيس قلم تركي بديوان الجهادية انتحر بعد تكبيله في الحديد وإرساله الى السودان، وهكذا كل من اشترك في هذه المظلمة أصيب بقارعة عظيمة . وأما مصطفى سليم المذكور فقد رُفض ايضاً وأقام في بيته مرفوتاً نحو عشر سنين حتى أذله الله . وأما اسماعيل سليم باشا ناظر الجهادية فانه مات في حرب كريد ، ولكن ليس شهيداً ، بل مات بسبب أكلة من فريك القمح ، فانعقدت امعاؤه وقضى نحبه وجيء بجثته الى مصر ودفن فيها ، سامحه الله تعالى . وفي شهر ربيع اول عام ١٢٨٣ هـ عرضت

للخديو بواقعة الحال والتمست انصافه فصدر امره في ١٦ رمضان عام ١٢٨٣ﻫ نمرة ١٦ ، وهاك صورته :

« ديوان جهاديه ناظري سعادتلو باشا حضرتلري

٦ جي بيـاده سابق قائمقامي احمد عرابي بكك اشبو عرضحال منظورم اولدى خطاسني عفو ايتمش اولد يغمدن حـاله مناسب خدمه ظهورنده استخدام ايتدير لمسى حقنده ايجابتي اجراء ايلمكز ايجون اشبو امرم اصدار قلندى » .

وحيث ان ناظر الجهادية المذكور كان مساعداً لخسرو باشا كرهت الخدمة في العسكرية وطلبت احالتي على ديوان المالية . وفي التـاريخ المذكور صار تعييني محافظاً على بحر مويس وجزء من البحر الاعظم بمديرية الشرقيـة زمن فيضان النيل بمعرفـة المرحوم الشهيد المخنوق في خرائب دنقلة اسماعيل باشا صديق . وبعـد انقضاء زمن النيل من غير ان يحدث ادنى ضرر في مـديرية الشرقية كما حصل من الغرق بقطع نادر وقطع بطره وغيرهـا ترتبت مأموراً لتشهيل بنـاء قناطر فم الاسماعيلية بقصر النيل وتشهيل قطع الاحجار في معامل طره والدقيقة بالعباسية والجبل الاحمر بالبساتين وشحنها بالمراكب الى القناطر المذكورة والى سد فم الرياح في شبرا والى القناطر الخيرية والى جميـع مديريات الوجه البحري وتشهيل مراكب النقل وتفريغها بقناطر الاسماعيلية وسد الرياح في شبرا ، وكان عملاً شاقاً جداً من غير مراعاة الحكومة لأسباب التسهيل . فكنت اتنقل في كل يوم الى المحـلات المذكورة على ظهر فرسي او حماري حتى جاءت سنة ١٢٨٥ ﻫ. فانتدبت لتشهيل بناء كبري قشيشه العظيم بمديرية بني سويف وكبري الرقة بمديرية الجيزة وكبري ابو راضي على سكة الحديد الفيوم ، وبعـد تمام تلك الاشغال كوفىء غيري بخمسة آلاف جنيه

مصري لكوني وفرت عن طلب المقاولين من الاجانب ٢٥ الف جنيه مصري. ثم أُحيل على عهدتي تمديد سكة الحديد من محطة المنيا الى محطة ملوي، وبعد نهوها تصادف جعل المرحوم قاسم باشا فتحي ناظر الجهادية، وكان يعرف قدر اعمالي واقتداري فطلبني وكلفني الانتظام في سلك العسكرية ثانية ، فأجبته الى ذلك وترتبت قائمقاماً في ٣ جي الاي بياده في أوائل سنة ١٢٨٧ ، وفي سنة ١٢٨٨ انتقلت الى رئاسة ٢ جي الاي بياده ولكن برتبة القائمقام ، وفي أواخر سنة ١٢٩٠ توجهت بالالاي المذكور براً الى رشيد للإقامة فيها ، وفي ٢٤ شعبان سنة ١٢٩٢ انتدبت الى ترتيب عساكر محافظين للقلاع الحجازية من أهالي تلك الجهات وإرسال العساكر النظامية المصرية الى مصر ، فتوجهت اليها وحيداً فريداً على مصاريف نفسي من اول يوم من شهر رمضان حتى وصلت الى قلعة نخل ورتبت لها العساكر اللازمة للمحافظة عليها وجعلت فيها مكتباً لتعليم أبنائهم القراءة والكتابة ، ثم ذهبت الى قلاع العقبة والمويلح والوجه وأجريت فيها كما أجريت في قلعة نخل ، وأرسلت العساكر النظامية الى مصر ثم عدت قافلاً بحراً الى بندر القصير ثم براً الى قنا وبحراً الى اسيوط وبراً الى مصر . ولما عرضت انتهاء مهمتي على ناظر الجهادية فخامة صاحب الدولة حسين باشا كامل قال لي : اني لاعتمادي عليك ووثوقي بك قد عينتك مأموراً للحملة الحبشية ، فاستعد لذلك بعد عشرة ايام . فانتخبت مَن اعتمد عليهم من الضباط والكتبة وسافرنا جميعاً الى مصوع، وبعد انتهاء تلك الحرب المشؤومة عدت الى مصر ، فأمرني دولة المشار اليه ان أعود الى السويس لتشهيل المحضرين من مصوع وزيلع وإرسال الذخائراللازمة لتلك الجهات بدل المرحوم علي غالب باشا حيث انه تعين مديراً لمديرية الدقهلية ، فذهبت اليها . وبعد انتهاء تلك المأمورية ايضاً عدت الى الالاي الذي بعهدتي برشيد . وفي أوائل سنة ١٢٩٦ صدر لنا الامر بحضور الالايات الموجودة برشيد الى مدينة

القاهرة وتسليم الاسلحة والمهمات وإرسال العساكر الى بلادهم ، فحضرنا وكنا ثلاثة الايات ، وسلمنا المهمات في يوم وصولنا . وفي اليوم الثاني صباحاً ذهبت الىمنزل سعادة محمد نادي باشا وكان اميرالاي احد الالايات المحضرة من رشيد حينذاك ، فما نشعر إلا وأحد الضباط اسمه احمد افندي نجم حضر وأخبرنا ان تلامذة الحربية وبعض الضباط أحاطوا بالمالية فجاءت العساكر من ١ جي الاي وضربت عليهم بالسلاح ، فاندهشنا لهذا الخبر المريع وأرسلنا غيره من الضباط ليستكشف الامر ويأتينا بالحقيقة ، فذهب وعاد وأخبرنا بما صار . وبعد يومين صار طلبي وطلب نادي باشا بطرف سر تشريفاتي خديو سعادة عبد القادر باشا حلمي ، فذهبنا اليه في بيته فأخبرنا « ان الخديوي بلغه انكما وعلي بك الروبي قد أغريتم التلامذة والضباط على حصر المالية وانه سيجري تحقيق ذلك ، فإن ثبت هذا عليكم صارت مجازاتكم بأشد الجزاء » . وصار يهددنا تارة ويوعدنا بالسلامة تارة اخرى ، فأجبناه بقولنا : « يا سبحان الله ! اننا حضرنا امس من رشيد وكنا مشغولين بتسليم الاسلحة والمهمات بمخازن العسكرية وصرف العساكر الى بلادهم ، فكيف يتصور اننا نغري تلامذة الحربية والضباط ونحن لسنا موجودين بالقاهرة ولا كان احد من ضباط عساكرنا موجوداً في هذه الحركة اصلاً ، على أن هذا العمل الخارج عن حد التعقل يلزم تدبيره وترتيبه من قِبل اجراءاته بمدة ؟ فضحك لأنه يعلم ان تلك الحركة كانت بايعاز الخديو نفسه ، وعمل جاهين باشا جنج لأجل التخلص من نظارة ويلسن المختلطة ، وأيضاً صار طلب المرحوم علي بك الروبي بطرف مأمور الضبطية محمود سامي باشا البارودي وبلّغه تلك التهديدات بعينها والافتراءات الظاهرة فتنصل منها . وبعد ذلك صار تشكيل مجلس عسكري فوق العادة تحت رئاسة رئيس اركان الحرب اسطون باشا الاميركي وعضوية سعادة افلاطون باشا والمرحوم مرعشلي باشا وجميعهم يعرفون الحقيقة كما

يعرفون آباءهم ولكن المسألة خرجت عن مركزها المعين . ثم بعد ذلك صار طلب الضباط والمتهمين من رتبة بكباشي فما فوقها بسراي عابدين ، وقام الخديوي يطيب خواطرنا ويوعدنا بخير ولكن ...

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيبُ

هكذا قلت لسعادة محمد باشا النادي والمرحوم علي باشا الروبي المتهمين معي في مسألة الاحاطة بديوان المالية . وفي ذلك الاجتماع صار جعلنا نحن الثلاثة من ضمن الياوران ، الذين بمعيته – عجباً وألف عجب – لكن بعد اسبوع ، انخلع علي الروبي من العسكرية ، وتعيّن رئيساً لمجلس المنصورة ، وأبعد نادي باشا بالايه الجديد الى الإسكندرية. ثم صار طلبي الى ديوان المالية ، فذهبت الى ناظرها المرحوم راغب باشا ، فأخبرني ان أهالي جرجا وأسيوط ومديريات الوجه القبلي قد انتخبوني أميناً من طرفهم في تسليم ٧٠٠ الف أردب قمح وشعير وفول الى بنك قطاوي ونيحة واجيون باسكندرية لسداد ما عليهم من الديون – والله أعلم ان الأمر غير ذلك وانا اعلم ايضاً . ومع ذلك توجهت الى الإسكندرية واديت تلك المأمورية التي حقيقتها سلفة نصف مليون ننتوا، أخذتها الحكومة لتسديد بعض الأقساط من أرباح الدين المصري. وفي ٧ رجب سنة ١٢٩٦ هـ صار خلع المرحوم اسماعيل باشا وتولية المرحوم توفيق باشا . وشاهدت الاحتفال بتوديع الخديوي المخلوع بحق حين انزاله في السفينة من اسكلة سكة الحديد منفياً الى بلاد ايطاليا ، كما انزل منها عمه حليم باشا منفياً الى القسطنطينية ، فانظر الى آثار قدرة الله تعالى واعلم انه يكال لك بالكيل الذي تكيل به . وعلى هذا انتهت مدة ولاية اسماعيل باشا كما علمت ولم أنل منه رتبة ولا نيشاناً ، ولا اختصني بجارية من جواريه ولا أصبت منه خيراً قط ولا اقسمت على الدفاع عنه كما ذكرتم ولا خدمت بمعيته

اصلاً ولا انتهرني ابداً ولا صحت حول سرايه ولا قال عني ما ذكرت ان صوتي اكثر قعقعة او قرقعة من الطبل وأقل نفعاً منه ، وقد تحملت مدة ولايته بكل صبر وثبات جأش على تحمل الظلم والاستبداد بل الاستعباد ، ومكثت برتبة القائمقام ١٩ سنة وأنا انظر الى اليوزباشية والملازمين الذين كانوا تحت ادارتي ، وقد صار بعضهم اميرالاي وبعضهم امير لواء وبعضهم امير الامراء اعني باشوات وفرقاء وانهمرت عليهم سحب الانعامات والاحسانات فاقتطعوا الاقتطاعات الواسعة وأخذوا القصور العالية وأغدقت عليهم الخيرات وهم يعلمون قوتي واستعدادي . ولقد اجتهد صاحب الدولة حسين كامل باشا عم الحضرة الفخيمة الخديوية إذ ذاك في ترقيتي الى رتبة اميرالاي ، ولكن لم يقبل منه ، وأخيراً قال لي : « اني بذلت ما في وسعي في طلب ترقيتك ، ولكن قيل لي انك من رجال سعيد باشا » ، فعجبت لذلك وقلت له اني من رجال الوطن وبلدي اسمها هرية رزنة بمديرية الشرقية ولست مملوكاً لأحد . فطيب خاطري ولاطفني وقال لي : « لا تفتر همتك وسأواصل السعي في انصافك » فشكرت له وخرجت وأنا اشعر بأني لا انال خيراً في مدة ابيه وكنت اتوسم كل خير في المرحوم توفيق باشا ، ولكن من اعتمد على غير الله سبحانه وتعالى اخلاه الله منه لأنه سبحانه غيّور على عباده المؤمنين .

خاتمة امري :

ولما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية وحضر الى الاسكندرية أحسن علي برتبة اميرالاي على الآلاي الرابع ، فتوجهت الى رأس التين وقدمت تشكراتي وامتناني الى حضرته الكريمة ودعوت له بخير ، ثم جُعلت من ضمن ياوران الخديوي ، ولما صار المرحوم عثمان رفقي باشا الشركسي ناظر الجهادية في وزارة مصطفى رياض باشا واستبدوا بالادارة لا يسأل كل من النظار عما



احمد عرابي امام منزله في سيلان

يفعل في ادارته واستخفوا بأمر الخديوي كل الاستخفاف وخصوصاً عثمان رفقي لجهله وعجبه ، خيلت له نفسه ان يمنع ترقية المصريين من العساكر العامل في الآلايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية، وصدرت اوامره بذلك. ثم أردفها بإحالة عبد العال حلمي بك اميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاونــاً ، وكان عمره إذ ذاك اربعين سنة ليس إلا ، ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاي المذكور ، وكان سنه فوق الستين ، وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية ، وبرفت احمــد بك عبد الغفــار قائمقام السواري وترتيب شاكر بك طمازة من جنسه بدله وهو طاعن في السن، ثم ختمت تلك الاوامر وصار قيدها بدفاتر الجهادية . وكنت لا اعلم بشيء من ذلك اصلاً وإنما دعيت الى وليمة وسماع تلاوة القرآن الشريف بمنزل المرحوم

نجم الدين باشا لمناسبة عودته من اداء فريضة الحج الشريف ، وكان ذلك ليلة ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ هـ. ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصاً بالذوات العسكرية وغيرهم، فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الأصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف ، فأخبر نجيب بك بما صار وأنه نصح ناظر الجهادية بالإعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ، ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه . فأخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل: « أحق هذا ؟ » فقال: « نعم ، وأعطيت الأوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له : « ان تلك لقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رفقي على هضمها » .

وبعد تناول طعام المأدبة حضر لي احد الضباط وأخبرني بأن كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبدالعال بك حلمي وعلي بك فهمي، فأسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل ، فقلت لهم : « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون ؟ » فقالوا : « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتذاكرون في تاريخ دولة المماليك في كل ليلة بحضور عثمان رفقي باشا ويلعنون حزبك ويقولون : قد حان الوقت لردّ بضاعتنا ، وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا انهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك المماليك ». وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره ، فقلت لهم : « وماذا تريدون اذاً ؟ » فقالوا : « انما جئناك لأخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم ». فقلت لهم : « أرى ان تطيبوا نفوسكم وتهدئوا من روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا

لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لهم رئيساً منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون امره ويحفظونه بمعاضدتكم » . فقالوا كلهم : « قد فوضنا اليك هذا الامر وليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك » . فقلت لهم : « لا .. انظروا غيري وأنا اسمع له وأطيع وأنصح له جهدي » . فقالوا : « لا نبغي غيرك ولا نثق إلا بك » . فقلت : « ارجعوا لأنفسكم ، فان هذا امر عصيب لا يسع الحكومة إلا قتل مَن يقوم به او يدعو اليه » . فقالوا : « نحن نفديك ونفدي الوطن بأرواحنا » . فقلت لهم : « اقسموا لي على ذلك » . فأقسموا .

وفي الحـــال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لجنسه والإجحاف بحقوق الوطنيين والتمست فيهـا :

اولاً : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذاً للامر الخديوي الصادر ابان توليته .

ثانياً : إبلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً تطبيقاً لمنطوق الفرمان السلطاني .

ثالثاً : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع اصناف الموظفين ، بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب .

رابعاً : تعيين ناظر الجهادية من ابنـاء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بأيدينا .

ثم تلوت العريضة هـذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها ، فأمضيتها بإمضائي وختمتها بختمي وختم عليهـا ايضاً علي فهمي بك اميرالاي الحرس الخديوي وعبـد العال بك اميرالاي السودان . ولما تمّ ذلك صار ترتيب مـا يلزم لحفظ الذات الخديوية وحفظ اعضاء العائلة الخديوية وحفظ الوزراء والأمراء

الوطنيين اذا حدث اي حادث من الضباط الشراكسة الطامعين في التغلب على البلاد ، مع ترتيب اللازم لحفظ البيوت المالية وبيوت التجـــار من الاجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ، وحفظنا ايضاً من بطش الحكومة اذا أرادت الإيقاع بنا . وارفض الاجتماع على ذلك .

ومـا دعانا الى طلب إنشاء مجلس نواب للأمة ينظر في صوالحها ومصالحها إلا ما حلّ بالمرحوم اسماعيل صديق باشا الحائز لرتبة المشيرية التي من لوازمها حفظ صاحبها ولو باستعمال السلاح في عهـــد الخديوي الاسبق اسماعيل باشا بسبب كلمة حق قالهـا . وما حلّ بحضرة السيد حسن موسى العقـاد بسبب كلمة عدل أراد بهـا مساواة الاهالي الذين دفعوا للحكومة سبعة عشر مليوناً (١٧,٠٠٠,٠٠٠) من الجنيهات المصرية باسم المقـابلة ، و (٥,٠٠٠,٠٠٠) اخرى باسم السهام بالاجانب اصحاب الديون . ومـا حصل لكثير من القتل والخنق في السجون بغير حق ولا تحقيق ، بل بمجرد ظلم وإجحاف واستعلاء على الناس بالقهر والجبروت بما تأباه النفوس الشريفة .

وفي ضحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة المذكورة الى دولة رئيس النظار ، فقال لنا : « سأنظر في هـــذا الامر وأتكلم مع ناظر الجهادية » . وبعـــد يومين ذهبت الى بيت الرئيس المذكور ومعي الأميران المذكوران ، فلما تمثلنا بين يديه وسألناه عما تمّ في هذا الامر فقـال : « ان هذا الطلب مهلك وهو أشد خطراً من العرض الذي قدمه احمـد افندي فني الذي أُرسل بسببه الى السودان » .

وتحرير الخبر ان احمد افندي فني هذا كان كاتباً بديوان المالية وكان قـد طلب المساواة مع خدمة الديوان المذكور لظلم حاق به، فكان جزاؤه ارساله الى مقبرة الابرياء من المصريين بالسودان .

فأجبته بأننا لم نطلب إلا حقاً وعدلاً وليس في طلب الحق من خطر على اننا نعتبرك أباً للمصريين، فما هذا التعريض وما هذا التهديد ؟ فقال انه ليس في البلاد من هو اهل لمجلس النواب . فقلت له : عجباً ، انك مصري وباقي النظار مصريون والخديو ايضاً مصري ، اتظن ان مصر ولدتكم ثم اعقمت ، لا بل فيها العلماء والفضلاء والنبهاء والبلغاء ، وعلى فرض انه ليس فيها من يليق كما ظننت ، أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية وبعد خمسة اعوام يتخرج منها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية . فانبهر لذلك وقال لنا : سننظر بدقة في طلباتكم هذه . فانصرفنا على ذلك .

ولما كان يوم غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨ هـ انعقد مجلس تحت رياسة الخديوي بعابدين حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين ، وكلهم من الترك والشراكسة ، إلا قليلاً من الاوربيين ، وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة امراء الآلايات الذين أمضوا على العريضة المتقدمة الذكر ثم اجراء محاكمتهم في مجلس مخصوص مختلط من رجال الجهادية .

فقال رئيس النظار رياض باشا: « اني ارى انه اذا صار توقيف الميرالايات المذكورين يلزم ايضاً توقيف ناظر الجهادية لأنه في عدم توقيفه مثلهم خطراً عظيماً ، وذلك لما رأيته فيهم من الجرأة » . فلم يوافق المرحوم الخديوي على ذلك ، وتعهد ناظر الجهادية المذكور بأنه ضامن لأخذنا بسهولة . وفي الحال دعي المرحوم احمد خيري باشا الشركسي ، وكان مهردار الحضرة الخديوية وصاحب الرأي النافذ، فحضر وتلا بالمجلس المذكور امراً فحواه: « ان هؤلاء الثلاثة الامراء أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي مفسدون في الارض وأنه يقتضي توقيفهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم ومجازاتهم بأشد انواع

الجزاء في مجلس عسكري فوق العادة تحت رياسة ناظر الجهادية ويكون من اعضائه اسطون باشا رئيس اركان الحرب (وهو اميركي) وناظر المدارس الحربية أرفي باشا (وهو فرنسي) .

فوقّع الخديوي عليه وسلمه الى ناظر الجهادية عثمان رفقي باشا وارفضّ المجلس بعد ذلك . وفي المساء ارسل ناظر الجهادية لكل منا تذكرة يدعونا فيها للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل في غد يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٨هـ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية المرحومة جميلة هانم ، وكان وقت زفافها لم يحن بعد ، فتيقّنا انه يريد خدعتنا والبطش بنا ، فالتجأنا الى جانب الحق سبحانه وتعالى ، وأخذنا حذرنا ، ثم اعددنا ما يلزم لنجاتنا اذا اقتضت الحال ذلك . وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصاً بجمع الشراكسة من رتبة الفريق الى رتبة الملازم الثاني وجميع شبانهم بأيديهم الطبنجات ذوات ٦ طلقات مملوءة بالخراتيش ، وكلهم في فرح ومرح ، ولا فرح هناك ولا زفاف . فلما حضرنا دعينا للحضور امام مجلس الهلاك ، فأجبنا طائعين ، وتلي الامر الخديوي الآنف ذكره، ثم أُمرنا بتسليم سيوفنا، فأطعنا على هذا التسليم وما يعقبه من السجن وهو مخالف للفظ الحكم بالتوقيف ، ثم تعين بحضرتنا من يستلم أمرة الآلايات وساقونا الى السجن في قاعة بقصر النيل . فمررنا بين صفين من الشراكسة المسلحين، وبعد اقفال باب السجن جاء خسرو باشا ، وكان رجلاً صلفاً جاهلاً ، فوقف خارج السجن وقال : « ايه زنبيل لي هرفلر » يعني (فلاحين شغالين بالمقاطف) ولما اقفل علينا باب الغرفة قال علي فهمي بك احدنا : « والله لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار » وجزع جزعاً شديداً ، فأردت تثبيته وقلت له متمثلاً بقول الإمام الشافعي رضي الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

فلا وأبيك مـــا كان إلا هنيهة حتى جاءت اورطتان من آلاي الحرس الخديوي بقيادة الشهم الهمام محمـد افندي عبيد البكباشي وأحدقوا بديوان الجهادية ، ثم اسرع بعض الضباط والصف ضباط وفتحوا الابواب وأخرجونا من السجن ، وقد فرّ ناظر الجهادية الغشوم هارباً وكذا رجال المجلس وغيرهم من المجتمعين . ولمـا فرج الله علينا اسرعت الى العساكر وحذرتهم وأنذرتهم وقلت لهم : « لا تمدّوا ايديكم بسوء الى احـــد من الجراكسة فانهم موالينا وأخواننا استأثروا بأنفسهم علينا ونريد الانصاف والمساواة معهم ليس إلا » ثم نظرت فوجدت بجانبي المرحوم اسماعيل كامل باشا أنفت نفسه ان يفرّ مع الفارّين ، فأخذته بيده وضممته الى صدري امام العساكر ، وقلت : « هـذا جركسي كما تعلمون ولكنه اخي حرام عليّ دمـه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من الجراكسة » . فانصرفوا بانتظام على بركة الله ، ثم سرنا جميعاً الى قشلاق عابدين وكانت الاورطة الاولى من الحرس الخديوي حكمدارية البكباشي المرحوم احمد افندي فرج واقفة امام سراي الخديوي لحفظها منها عسى ان يطرأ من الامور كما أمرت بذلك من قبـل اميرالاي الحرس علي فهمي بك ، ولما تم وجود عساكر الالاي المذكور أمر امير الالاي العساكر بحمل اسلحتهم بحركة (سلام دور) وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوي ونادوا جميعاً « يعش الخديوي » ثلاثاً ، وذلك كان اشارة وإعلاناً للقوم بأننا على اخلاصنا للحضرة الخديوية . وكان جميع الذوات الذين كانوا بديوان الجهـــادية التجأوا الى حمى الحضرة الخديوية . ثم انهم تشاوروا فيما بينهم فقـال اسطون باشا الامريكي : هذا عصيان ظاهر والواجب حصر القشلاق المذكور بالطوبجية وآلايات البيادة

ويطلب من هـذا الالاي تسليم الثلاثة امراء ، فإن أبوا تضرب عليهم المدافع وتمطر عليهم البنادق ناراً حامية حتى يضطروا الى التسليم . فاستحسن الجميع ذلك الرأي الامريكي ، ولكن ابتـدره المرحوم اسماعيل كامل باشا المذكور آنفاً وقال : « انا اعتقد اتفاق جميع اصناف العساكر على رأي واحد ، فلا يجدي هذا الرأي نفعاً » . وفي اثناء مفاوضتهم حضر آلاي السودان من طره وانضم الى الاي الحرس ، ثم عزفت الموسيقى بالسلام الخديوي وهتفوا جميعاً : « افنـد مز جوق يشا » . وأنا العـاجز الضعيف كتبت الى وكيل فرنسا السياسي في مصر الكونت « دورنج » من غير ان يكون لي به ولا بغيره من قناصل الدول الاوروبية سابق معرفة ولا مقـابلة ، ألتمس منه مخابرة باقي قناصل الدول بما حصل بيننا وبين حكومتنا من الخلاف ، وأطلب منهم التوسط في اصلاح ذات البين .

ثم بتنا على ذلك ، وفي صباح الغد حضر لنا المرحوم احمـد خيري باشا مهردار الخديوي ومعـه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف ، من قبل الخديوي ، وقالا لنا : « ماذا تريدون ؟ » . فقلنا : « العدل والمساواة » . قالا : « ثم ماذا ؟ » . قلنـا : « استبدال ناظر الجهادية برجل وطني ، وتشكيل مجلس نواب للأمة ينظر في مصالحها وصوالحها ، وتعديل قوانين العسكرية ، وإبلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً . ونحن على طاعتنا للحضرة الخديوية » .

فذهبا الى الخديوي ، ثم رجعا وقالا : « قد عزل عثمان رفقي ، فمن الذي تريدونه ناظراً للجهادية ؟ » . قلنا : « الذي يختاره الخديوي من الوطنيين » . فذهبا وعادا ثانية وقالا : « ان الخديوي يقول اختاروا انتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقي » . فقلنا : « قد اخترنا هـذا محمود سامي باشا ، وهو من اولاد المماليك الاول ولكنه صدق معنا ولم يقصد

الغدر بنـــا » . ثم صدرت الأوامر الخديوية بإعادة كل منا الى آلايه وعزل عثمان رفقي ، وصار توليـة محمود سامي باشا على نظارة الجهـادية مع نظارة الاوقاف ، وأخذ في سنّ القوانين العادلة وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها .

ثم لمـــا شاعت الأراجيف الكاذبة في اوروبا بخروج العساكر المصرية عن الطاعة ، حضر من الحكومة العثمانية وفد برئاسة المشير علي نظامي باشا وبمعيته احمد راتب باشا والي الحجاز وقتذاك لتحقيق امر العصيان ، فردّه الخديوي قائلاً : ان عساكري على طاعتي وان ليس ثمة عصيان . وبعد ذلك اجتهدت الحكومة في غدرنا وأخذنا على غرة او بحيلة من ضروب الحيل . ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامي باشا على نواياها ، صار عزله بتذكرة من رياض باشا رئيس النظار وتشدد عليه بأن لا يجتمع بنـا ولا يقيم بالعاصمة ، وتعين مكانه داود باشا يكن وهو عديل الخديوي ولكنه رجل جاهل احمق مشؤوم فأسرع بإصدار أوامر لا يستطاع قبولها ، فردّت اليه ونفرت القلوب منه . فكتبت له في ٩ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨١ بأننا سنحضر بجميع العساكر الموجودين في القـاهرة الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا على فخامة الحضرة الخديوية في الساعة الرابعة بعـــد الظهر من يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨١ وكلفته عرض ذلك على الحضرة الخديوية ، ثم كتبت الى جميع قناصل الدول بذلك وأعلنتهم بحفظ جميع رعاياهم فلا خوف عليهم ولا على اموالهم .

وفي الوقت المعين اجتمعت الالايات البيادة والسواري والطوبجية في رحبة عابدين ، وكان ما هو مسطر في بطون التواريخ وهو إسقاط الوزارة وترتيب مجلس النواب وإبلاغ الجيش الى القدر المحدد بالفرمان السلطاني . وقـد حبانا المرحوم الخديوي بإجابة تلك الطلبات العادلة .

وقد تعرّض لنا المستر كوكسن قنصل انكلترا بالاسكندرية حين ذاك وهددنا فلم نعبأ بتهديده لاعتمادي على صدق عزيمتي وطهارة ذمتي . ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيساً للوزارة على حسب اختيارنا له ، وتعين محمود سامي باشا ناظراً للجهادية ثانية ، وقد توقف شريف باشا في قبوله ٧ ايام ثم رضي بعد ذلك وصار توظيفي وكيلاً للجهادية . وفي تلك النظارة صارت الامتحانات وترقي كثير من الباشاوات وأمراء الآلايات والقائمقامية وغيرهم من جميع الرتب ، واستكملت الآلايات وأنشئت القوانين العادلة ، وتعدلت الرواتب والماهيات بنسبة كل رتبة الى ما دونها ، وصرفت الحقوق الموقوفة من زمن مديد، وأنشأ مجلس النواب وجعل رئيسه ابو سلطان باشا ، وعمّ العدل واستقامت الامور ، وحين ذاك عُرضت عليّ رتبة لواء (باشا) فرفضتها لئلا يُقال اني إنما اشتغل لمصلحتي فقط ، وبقيت في رتبة الميرالاي مدة وكالتي للجهادية . وأما رفقاي عبد العال حلمي وعلي فهمي فقد تشرفا برتبة الباشوية الرفيعة . ثم ان مجلس النواب قرر في لائحته الأساسية ان يكون لهم الحق في نظر ميزانية الحكومة ومعرفة كيفية إيرادها ومصروفها بشرط عدم الخروج عن دائرة التعهدات الدولية وقانون التصفية ، فلم يجبهم المرحوم شريف باشا لذلك لأنه سامحه الله اخذ رأي السير مالت وكيل انكلترا السياسي في مصر وقنصل فرنسا ايضاً فأشاروا عليه بعدم قبول لائحة المجلس فأصر مجلس النواب على الطلب في تنفيذ لائحتهم، فلم يوافقهم وقدّم استعفاءه واستعفت هيئة نظارته ، ثم تشكلت هيئة جديدة تولى رئاستها محمود سامي باشا وجعل من رجالها حسن باشا الشريعي رحمه الله تعالى والمرحوم سليمان باشا أباظه والمرحوم عبد الله باشا فكري والمرحوم محمود باشا فهمي وسعادة مصطفى باشا فهمي رئيس الوزارة المصرية ، وجعلوني ايضاً ناظراً للجهادية ، لأجل اطمئنان خاطر العسكرية الذين لا يأمنوا غيري في ذلك الوقت فقبلت

ذلك . ثم احسن عليّ برتبة لواء باشا من لدن المرحوم الخديوي توفيق باشا ، وكنت لا أريد ولكن قالوا انه لا يليق ان يكون ناظر الجهادية برتبة اميرالاي وفي نظارته اللواءات والفرقاء . فقبلتها للضرورة وشكرت للحضرة الخديوية وقد انتظمت الامور وهدأت الاحوال وصارت العساكر في امن من الغدر ، ولكن اوربا لا يروق في نظرها انتظام حكومات الشرق ، فأقلقوا حكومة الدولة العلية فأرسلت وفداً مندوباً من طرفها تحت رئاسة المشير المرخص درويش باشا لتحقيق ما يقال من العصيان فجاء درويش باشا وبحث في الامر وكتب للحضرة السلطانية بأن العساكر على الطاعة ، وكذلك كتب المرحوم الخديوي بالحقيقة فأرسلت الحضرة السلطانية الى الحضرة الخديوية اربعمائة نيشان من انواع مختلفة للاحسان بها على المستحقين من ضباط العساكر وأحسن عليّ بنيشان الدرجة الاولى المجيدي وحضر بوابور مخصوص يحمله سعادة سليم بك ياور الحضرة السلطانية فأبيت استلام النيشان المذكور إلا من يد مولاي الخديوي.ثم كتبت تلغرافاً الى المابين الهمايوني برفع تشكراتي الخيرية للحضرة المقدسة السلطانية وتشرفت تلغرافياً بقبول تشكراتي لدى جلالة السلطان الاعظم وحصول المحظوظية لدى جلالته ، كذا قيل بالتلغراف .

وفي شهر مايو (ايار) سنة ١٨٨٢ جاءت الاساطيل الحربية الانكليزية والفرنسية الى ثغر الاسكندرية ، وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة من دولتي فرنسا وانكلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية ، وتقدمت نسخة منها للخديوي فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديوي فاستعفت النظارة من وظائفها . وهاجت الافكار العمومية وطاشت العقول الزكية واجتمع مجلس النواب وجميع قناصل الدول حولي كعرف الضبع يطلبون مني حفظ الأمن والراحة العمومية ، فقلت لهم : لا قدرة لي على ذلك



احمد عرابي وحفيده الى جانبه

لأني قد استعفيت . فذهب وفد من مجلس النواب وطلب من الخديوي إعادتي الى نظارة الجهادية حفظاً للنظام والراحة ، فصدر الامر الخديوي بإعادتي الى النظارة المذكورة ، ثم دُعيت الى الحضرة الخديوية فوجدت عنده جميع قناصل الدول ما عدا وكيل انكلترا السياسي وبحضرته درويش باشا المندوب السلطاني ، فأخذ عليّ تعهّد بحفظ رعايا الدول الاجنبية ، وصار اعلان جميع مصالح الحكومة بذلك .

وفي ١١ يونيه (حزيران) سنة ١٨٨٢م حدثت حادثة الاسكندرية المشؤومة بتدبير ذوي الغايات لأجل تشويه اعمالي في نظر اوروبا وخدش تعهّدي بالحفظ والأمن العمومي ، فأسرعت بإرسال العساكر الى الاسكندرية حتى مُلئت

شوارعها بالعساكر ، وانتهت الفتنة التي ابتدأ بهـــا احد المالطية من التبعة الانـكليزية مع احد حمـــارة الاسكندرية بإيمـاز وتعليم ، ثم صار الشروع في تحقيقها في مجلس مختلط تحت رئاسة ذي الفقار باشا محافظ الثغر. ومن الغريب العجيب انه لم يبحث اصلاً في الدماء التي سُفكت، بل كان البحث قاصراً على معرفة مقدار البضائع التي انتهبها الرعاع ليس إلا. وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديوي تحت رئاسة المرحوم الطيب الذكر راغب باشا وكنت من رجالها ايضاً ، ثم انتقل الخديوي ودرويش باشا الى الاسكندرية .

وفي يوم ١١ يوليو (تموز) سنة ١٨٨٢ وردت إفادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف اميرال الاسطول الانكليزي يقول فيها انه جاري تهديد العمارة الانـكليزية بترميم القـلاع والاستحكامات ، وانه يطلب تخريب القـلاع وهدمها بأيدي العساكر المصرية ، وإلا ضرب الاسكندرية وخرب المدينـــة ودمّرها. فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديوي حضره درويش باشا المندوب العثماني وقدري بك من رجال الوفد المذكور وجميع النظار وكبار الذوات المتقاعدين. وبعد المذاكرة أجمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب ، ولكن لا يبدأ بها إلا بعـد اطلاق ثلاث قنابل من الاسطول الانكليزي حتى لا نكون نحن البادئين بالحرب ، فأعطيت الأوامر بذلك .

وعنـد إشراق يوم ١٢ يوليو (تموز) بدأت مراكب الانكليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر والحكومة الانـكليزية. وأما الأسطول الفرنسي فاعتزل جانباً كالمتفرج . وضربت الطوابي حتى تهدمت استحكاماتها . وفي اثناء الحرب خرج سكان المدينة مهاجرين منها خوفاً وهلعاً . وفي اليوم الثـــامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطاً دفاعياً وتراجع المنهزمون إليّ. وفي ١٤ يوليو (تموز) ارسلت

القطار الخديوي لاستحضار الخديوي ومعيته ومن معه من النظار، ولما وصلت القطارات الى سراي الرمل لركوب الحضرة الخديوية ورجوعه الى عاصمة بلاده أبى ان يعود وأسرع في الذهاب الى رأس التين بعائلته ومن بمعيته وانحاز الى العدو المحارب لبلاده . واستدام الحرب الى ان قدّر الله تعالى شأنه بالخذلان المظيم في التل الكبير كما هو معلوم للجميع ، وتمّ الامر بنفينا الى جزيرة سيلان ، وخرجنا من مصر في يوم ١٦ صفر الخير سنة ١٣٠٠ هـ على قطار مخصوص الى السويس ، وفي سبعة عشر منه بارحنا الثغر المذكور على مركب انكليزي اسمه (مرتوطة) . وفي اول شهر ربيع الاول خرجنا من السفينة الى ثغر (كولومب) ومكثنا بها تسع عشرة سنة الى ان تشرفت جزيرة سيلان بزيارة كريم الشيم عظيم الرأفة والحنوّ الدوق (كرنوال ويورك) ولي عهد الحكومة الانكليزية ، وتشرفت بزيارة سموّه في مدينة كندي . وتفضل عليّ بالسؤال عن حالي وما اقاسيه من تباريح الغربة وذلّ النفي ، فقلت لسموّه الامبراطوري اني اعتبر تشريف سموّه الى هذه الجزيرة وتشريفي بإقبال سموّه عليّ سبباً عظيماً لإنالتي نعمة الحرية والعود الى وطني العزيز من لدن مولاي الخديوي عباس باشا الثاني .

فقال لي : وهل تعرفه ؟ فقلت : نعم ، وقبّلت يد سموه مذ كان في سن ١٠ اعوام فوعدني خيراً فشكرت ودعوت ثم أحسن عليّ بسيجارة ملوكية قبلتها أدباً لحفظها تذكاراً للطف سموه ولم احرقها بنار . وفي ٦ صفر الخير سنة ١٣١٩ هـ صدرت الارادة الخديوية بالرخصة لي بالعود الى مصر والاقامة فيها . واني أرجو من مكارم سمو مولاي الخديوي عباس باشا تمام رضاه وقد أعرضت لسموه العالي تشكراتي ودعواتي الخيرية الصادرة عن صميم الفؤاد وإخلاص النية وقد تفضل حفظه الله سبحانه وتعالى بحملي وعائلتي الى مصر

على مصاريف حكومته الخديوية . فأرجو من الله ان يوفقني لما يحبه ويرضاه هذا واني أبرأ الى الله من حولي وقوتي في كل ما ذكرته او فعلته. وأنى يكون للمخلوق العاجز الضعيف مثلي من قوة يدافع بها ارادة اوربا وقوة انكلترا العظمى فضلاً عن بطش حكومة مصر الاستبدادية القادرة وموافقة جلالة السلطان الاعظم على الاعلان بعصياني في جورنال الجوائب وانحياز حاكم البلاد الى المحارب لبلاده وإنما كان بقضاء الله وقدره ولا رادّ لقضائه وقدره، وليس لي فيه إلا مجرد الكسب الاختياري الذي أثاب او أعاقب عليه ، ولم يخطر ببالي أصلاً الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين كما ذكرتم ولا بتأليف دولة عربية كما أرجف المرجفون ، لأني أرى ذلك ضياعاً للاسلام عن بكرة ابيه وخروجاً عن طاعة الله ورسوله ﷺ ، والبرهان على ذلك ارتفاع صوتي بالمحافظة على حياة المرحوم الخديوي السابق كمحافظتي على نفسي بكرة وعشياً مع احترام اعضاء عائلته الكريمة ، يشهد لي بذلك ما هو واضح بدفتر الأخبار اليومية المحفوظ بالديوان الخديوي وإرادته الخديوية الصادرة الى مجلس التحقيق بعد الخذلان المظيم بالتل الكبير وسجننا مع جميع رجال العسكرية وأعيان البلاد وحكامها وعلمائها وقضاتها وتجارها مما هو معلوم لدى الجميع وغني عن البيان. والله الذي لا إله إلا هو فالق الحب وبارىء النسمة اني ما خدمت بذلك دولة انكلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة ما ولا للخديوي الاسبق المرحوم اسماعيل باشا ولا للمرحوم حليم باشا ولا أوصي إليّ بمساعدة الدولة العلية من عرش عظمتها . وإنما كنت أجتهد في حفظ استقلال بلادي مع نيل الحرية والعدل والمساواة لأهل بلادي المساكين وأنا خادم لهم وناديت سراً وإعلاناً بتأييدها وتأييدات الذات الخديوية ، ولكن المقادير الالهية غالبة فانعكست المرئيات وتوالت الصعوبات لنفاذ ما هو كائن في علمه أزلاً سبحانه وتعالى . واني والله لا أكره شركسياً ولا روسياً وإنما أكره الأعمال المغايرة للعدالة

والانسانية والآداب الشريفة، وأحب العدل والمساواة بين جميع بني الانسان، والحمد لله اولاً وآخراً والشكر لله وللحضرة الفخيمة الخديوية التي منحتني نعمة العود الى وطني العزيز لأحظى برؤية ذاته الكريمة ورؤية أبنـاء وطني الكرام قبل ان أفارق هذه الحياة الدنيا والحساب على الله .

خادم وطنه العزيز مخلصكم
احمد عرابي الحسيني المصري

لي هونغ تشانغ

الوزير الصيني الشهير

ترجمة حاله :

وُلد لي هونغ تشانغ في بلده « سوي تشو » من مقاطعة « نجان هواي » في شرقي الصين في ١٦ فبراير (شباط) سنة ١٨٢٣ م . وفي سنة ١٨٤٩ نـال رتبة « هـان لين » وهي من رتب الشرف عند الصينيين . وفي السنة التالية مات امبراطور الصين « تاو كوانغ » وكان محبـاً للاصلاح ، وقد اشتغل في اواخر ايامه بادخال الصنائع الفرنجية الى بلاده حتى كادت تزهو وتنمو ، فلما مات خلفه ابنه « هيانغ فونغ » وكان ضعيف الرأي متعسفاً، فعمل على هدم ما بناه ابوه، فشق ذلك على بعض رجال النفوذ، وهاج الشعب الصيني وطلبوا خلع الامبراطور وطرد التتر من بلادهم . ورأس العصاة رجل اسمه « تيـان تيه » كان قد تثقف على يد بعض الفرنج ، وتعلَّم مبادىء الديانة المسيحية ، فنهض نهضة دينية وزعم انه معيدٌ عبادة « تشانغ تي » . وجعل يعلم التعاليم والشرائع مما استخرجه من التوراة ، وادعى انـه سلطان اهل الارض قاطبة



لي هونغ تشانغ (١٨٢٣ م — ١٩٠١ م)

وسمى اتباعه « ناي ينغ » اي امراء السلام، وكان الانكليز يومئذ ناقمين على الصينيين لاختلاف سياسي فخابر « تان تيه » الانكليز وعرض عليهم المساواة بالتي هي احسن .

وكان « لي هونغ تشانغ » في تلك الاثناء من حزب الامبراطور وعمل على مساعدته وإصلاح ما فسد من اموره . وطالت ثورة « تاي بنغ » ١٤ سنة وانتهت أخيراً على يد صاحب الترجمة لحسن سياسته . فانتحر زعيم الثورة

وقبض الامبراطور على سائر قوادها وقتلهم سنة ١٨٦٤ .وكان لي هونغ تشانغ في اثناء ذلك قد تقلب في مناصب عديدة فتولى قضاء مقاطعة « تشي كيانغ » ثم حكومة « كيانغ سو » سنة ١٨٦١ م . فلما قدم الجنرال غوردون سنة ١٨٦٣ م الى « كيانغ سو » لمطاردة العصاة كان صاحب الترجمة عوناً له في اخراجهم من تلك المقاطعة . فانقضت الثورة سنة ١٨٦٤ م وكان الامبراطور هيانغ فونغ قد توفي سنة ١٨٦٢ م وخلفه ابنه « تونغ تشي » فعرف هذا الامبراطور له فضله فخلع عليه الجاكت الصفراء وقلده ريشة الطاووس وهما شعار الاشراف . فأصبح لي هونغ تشانغ شريفاً من الدرجة الثالثة يتوارث اعقابه ذلك الشرف من بعده . وفي سنة ١٨٦٦ م تعيَّن حاكماً عاماً لمقاطعة « ليانغ كيانغ » . وفي اثناء ذلك ثار المسلمون في المقاطعات الجنوبية بقيادة قائد منهم اسمه السلطان سليمان وحاولوا خلع نير الصين والاستقلال، فحاربهم الامبراطور حرباً عنيفة استعان بها برأي لي هونغ تشانغ وقيادته ، فأنفثأت نار هذه الثورة سنة ١٨٧٣ م. فتناول السلطان سليمان السم فراراً من الوقوع في الأسر .

وكان فوز (لي هونغ تشانغ) في هذه الحرب سبباً في ارتقائه الى ولاية مقاطعة تشيلي أرقى مقاطعات الصين لأن بكين واقعة فيها ، وأصبح من ذلك الحين محل ثقة الامبراطور وسائر اهل البلاط . فتقلب بعد ذلك في عدة مناصب رفيعة فتعين مستشاراً اعظم للامبراطور ومندوباً سامياً في الامور الخارجية ومديراً عاماً للقوات البحرية في الثغور وناظراً للتجارة في الشمال وقائداً عاماً لجند الصين في مقاطعات الشمال . ولما انتشبت الحرب بين الصين واليابان ثم أرادت الصين المخابرة بأمر الصلح لم ترَ خيراً منه للتوسط في ذلك. فانتدبته سنة ١٨٩٥ م لمخابرة اليابان كما انتدبته بعد ذلك لمخابرة دول اوربا .

وفي سنة ١٨٩٦م بعد انقضاء حرب اليابان رحل الى اوربا رحلة تحدث بها الناس زمناً طويلاً ولم تبق جريدة من جرائد العالم لم تذكر تلك السياحة او تصف (لي هونغ تشانغ) وتعدّد مناقبه وأخلاقه فنشروا في ذلك المقالات الضافية وكلهم مجمعون على منزلة الرجل من التعقل والحكمة والدراية . على ان بعضهم بالغ في غرابة ما ظهر من عاداته مما يخالف عوائد الافرنج هناك فذكر احدهم في بعض الجرائد ان احد رجال السياسة أهدى (لي هونغ تشانغ) كلباً من جنس (البولدوك) المشهور بسمنه واكتناز لحمه فلما قابله في اليوم التالي سأله اذا كان مسروراً من ذلك الكلب فأجابه : « انه سمين لكن لحمه مالح وقاس » فعلم صاحبنا ان رجل الصين ذبح الكلب وأكله .

وكتب بعضهم الى جريدة الستاندرد يصف فيها اخلاق هذا السياسي من حيث المقابلات الرسمية قال : اذا جاءه رجل في امر استعجله في بيان غرضه وهو يصغي لسماع ما يقوله مخاطبه فاذا أطال الكلام أظهر رغبته في قطع الحديث باشارة يعرفها الذين عاشروه، وهي انه يرفع فنجان الشاي الى شفتيه ومعنى ذلك « اني مسرور بمقابلتكم لكنني لا أحب تعويقكم أكثر من ذلك ». وفي حديثه مع الاجانب من الافرنج كثيراً ما كان يظهر الفظاظة والاستبداد في الرأي ، وكلما لان له جليسه زاد هو قسوة ، فاذا رأى القسوة من جليسه لان هو . فكأنه من هذا القبيل يتشبه بما نقلوه عن معاوية بن ابي سفيان داهية الاسلام إذ قال : « اني لا أضع سيفي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» فقيل له: «وكيف ذلك يا امير المؤمنين؟» قال : « كنت اذا شدُّوها أرخيتها واذا أرخوها شددتها » .

ويكرم لي هونغ تشانغ زائريه بالسيكارة والخمر ، وأما هو فلا يدخن غير الشبق (الغليون) وله خادم خاص لإصلاحه ، وقد يتناول كأساً من المرق

او الارروط بين يدي زائريه ولا يعدّ ذلك مخالفاً لآداب المجالسة . وربما انصبّ بعض المرق على لحيته او صدرته فلا يلتفت هو الى ذلك لأن بجانبه خادماً بيده منشفة يمسح بها ما انصبّ . على انه لم يكن أكولاً ولم يشرب الخمر إلا نادراً ولم يتعاط الافيون مطلقاً .

المارکيز ايتو

أكبر سياسي اليابان

ترجمته :

اسمه هيروبومي ايتو وُلد في ولاية تشوشو من أعمال اليابان سنة ١٨٤١ م وتلقى العلم فيها على قدر ما كانت تسمح به حالة تلك الايام . فلما تجاوز العشرين من عمره تاقت نفسه الى اكتساب العلوم العالية . وكانت ذكرى اوربا ترنّ في أذنيه فجاء انكلترا سنة ١٨٦٣ م فاطلع على علومها وتفقد أسباب تمدنها فأضاف معارف الغرب الى معارف الشرق واتخذ من المزيج قوة أهّلته لأكبر المناصب فكان هذا الرجل أكبر وسيلة ساعدت امة اليابان على النهوض تلك النهضة التي أدهشت العالم وبهرت العقول .

وأخذ منذ عاد الى بلاده يتدرج في المناصب حتى بلغ أعلاها جميعاً . فتولى سنة ١٨٦٨ م حكمدارية هيوجو وكانت في حال تدعو الى والٍ ذي دراية في السياسة الخارجية فلم يروا أليق منه لذلك ، ولكنه لم يلبث سنة في هذا المنصب حتى رأت الحكومة انها تحتاج اليه في إصلاح المالية فولته وكالة نظارة المالية ، وشخص في السنة التالية (١٨٧٠ م) الى اميركا قضى فيها سنة يدرس



الماركيز ايتو (ولد سنة ١٨٤١ م)

نقودها وما يتعلق بهـــا ، فلما عاد الى منصبه ظهرت نتائج أبحاثه في سرعة تقدمه فترقى سنة ١٨٧٣ م الى رتبة الوزارة وأخذت مراكزه العمومية ومنزلته ترتفع في عيني الامبراطور يوماً عن يوم فلم يزل كذلك حتى عهد اليه بتشكيل الوزارة ، فتولى رئاسة النظار ثلاث سنوات متوالية، ثم اعتزل هذا المنصب وتنقل في مناصب اخرى بخدمة الامبراطور ، فكان تارة رئيس الخاصة وطوراً صاحب الختم وآونة رئيس مجلس الشرفاء ، وأنعم عليـه الامبراطور بلقب كونت .

وعاد سنة ١٨٩٢ م الى الوزارة وما زال فيهـا الى سنة ١٨٩٦ م وجرت الحرب بين اليابان والصين في تلك الأثناء فأبان فيها من الدهاء والحزم ما خلد له الذكر الجميل ، فلمـا انقضت الحرب كافأه الامبراطور بلقب ماركيز . ثم

عاد الى الوزارة ثالثة سنة ١٨٩٨ ورابعة سنة ١٩٠٠ ولكنه لم يمكث في كليهما إلا بضعة أشهر ، ثم اقتضت صحته ومصالح بلاده انتقاله الى اوربا ، وهذه هي سلسلة المناصب التي تولاها على وجه الاختصار .

الشورى :

ترى من سرعة ارتقاء هذا الرجل في مناصب الدولة انه ذو مواهب سامية . غير ان المواهب السامية لا تقتضي الاتيان بالمنافع الكبرى حتماً إلا اذا تمهدت لها الاحوال وكان صاحب المواهب راغباً في الاصلاح . أما ايتو فانه وفق الى خدم جزيلة يندر ان تأتي لرجل وخصوصاً في الشرق ، وسبب نجاحه انه لم يشرع في عمل قبل ان يدرسه ويفحصه ، وقد سار الى اوربا وأميركا غير مرة لهذه الغاية . ومن أهم تلك الأعمال انه أدخل الشورى في الحكومة اليابانية ، فبعد ان كانت حكومة مطلقة وقول الملك فيها شريعة المملكة جعلها شوروية . ولا يخفى ما يحول دون ذلك من المشقة في أمة كان يزعم المتمدنون انها من الامم الخاملة .

بدأ بتأسيس الشورى سنة ١٨٨٣ فوضع لها اللوائح وطال به أمر التنقيح والتعديل لغرابة هذا النظام عندهم حتى تقرر رسمياً سنة ١٨٨٩ .

وخلاصة نظام الحكومة اليابانية ان الامبراطور هو رأس المملكة وله سلطة الاجراء بمساعدة مجلس شوراه وهم مسؤولون بين يديه عن أعمالهم وهو يوليهم ويعزلهم . وهناك ايضاً مجلس خاص يبحث في المسائل الهامة المتعلقة بالمملكة مما يعرضه الامبراطور ، وللامبراطور ان يشهر الحرب ويدعو الى عقد المعاهدات . وفي اليابان مجلس للاعيان ومجلس للنواب فلا يسن الامبراطور امراً إلا بمصادقتهما .

الجند :

ومن أعماله ايضاً انه أصلح الجندية اليابانية في البر والبحر وبذل في سبيل ذلك العناية الكبرى . ولولا هـذا الاصلاح ما استطاعت اليابان ان تتغلب على الصين في حروبهـا سنة ١٨٩٢ ، وللماركيز ايتو لائحة في بنـاء السفن لا يزال العمل جارياً بها وقد جعلت اسطول اليابان من أمنع الاساطيل .

الامبراطور :

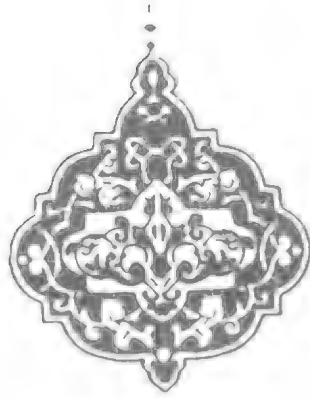
والسر في نجاح مشروعاته وإخراجها من القوة الى الفعل انمـــا هو ثقة الامبراطور فيه وانقياده له ولولا ذلك لذهب سعي الماركيز هباء منثوراً . ولكنه تسلط على رأي الامبراطور تسلطاً عجيباً وهان عليه إقناعه في ما يشرع فيه من الاصلاح ، ولا ينكر ما للامبراطور من الفضل في ذلك . وخلاصة القول ان الله رضي عن اليابان فمنحها وزيراً حكيماً وسلطاناً سامعاً فلم تمض عليها ثلاثون عاماً حتى انتقلت من مصاف الامم الخامله الى أرقى مدارج المدنية .

عيشته الخصوصية :

يقيم الماركيز ايتو في عزبة له اسمها (أويسو) قرب مدينة طوكيو، وهو يحب الرياضة البدنية كثيراً ، ولكنه يفرط فيهـا حتى تتوالى عليـه النزلات الشعبية . قد وخطه الشيب ولكنه يخضب شاربيه ولحيته .

وهو يلبس اعتيادياً اللباس الفرنجي وفوقه القباء الكبير المزرر من الأمام (كما تراه في الرسم) وعلى رأسه طاقية افرنجية، وهو يحسن التكلم بالانكليزية واذا خاطبته وذكرت نهضة اليابان الاخيرة تنسمت من مجمل كلامه اعجاباً بما كان له من الباع الطولى في ذلك .

ومن اخلاقه التي يجب ان تكون مثالاً لكل شرقي -سواء كان من رجال السياسة او العلم او لأي فرد من افراد الناس - انه مع رغبته في اقتباس عوامل التمدن الحديث والاقتداء بآداب المتمدنيين وترغيب مواطنيه في اقتباسها ، لم يكن يقبل عادة افرنجية ولا عملاً افرنجياً إلا بعد ان يلبسه حلة يابانية محافظة على جامعة الوطن واحتراماً لعوائد البلاد وشعائر اهلها . فهان عليه نشر ما اراد نشره من الامور النافعة ولم يحطّ من منزلة امته. فما اجدره ان يكون مثالاً لأناس بين ظهرانينا، نراهم اذا اقتبسوا عادة افرنجية بالغوا في المحافظة على اصلها اكثر من محافظة اصحابها عليها وإن يكن في بعض تفاصيلها ما يخالف الآداب الشرقية .



- ٥ -

رجال الاعمال وأهل البر والاصلاح

كيرلس الرابع

بطريرك الاقباط الارثوذكسيين العاشر بعد المئة

هو احد رجـال الاصلاح الذين يفتخر تاريخ الأمة القبطية بذكرهم نظراً لما له من الايدي البيضاء في اصلاح الكنيسة القبطية في هذا القرن، وقد آثرنا شرح ترجمة حاله إقراراً بفضله أسوة بامثاله من أعاظم الرجال نقلاً عن اصدق المصادر ، وفي جملتها مـا سمعناه من افواه جماعة ممن عاشروه ورأوا اعمـاله رأي العين .

وُلد هذا الرجل سنة ١٥٣٢ قبطية (١٨٠٦ م) في قرية الصوامعة الشرقية من مديرية جرجا في مصر العليا ، وكان اسمه داود ، وكان والده مزارعاً معروفاً بين قومه بالسذاجة وسلامة النية وكان أمّيّاً لا يعرف القراءة ولكنه لم يغفل عن تربية ولديه وهما داود المتقدم ذكره ويوسف وهو اصغرهما ،



كيرلس الرابع

فمني في تعليمها ، فتعلما القراءة والكتابة في اللغتين العربية والقبطية ومبادىء الحساب .

فلما اكمل داود تعلمه على قدر ما سمحت به مدارس تلك الايام عكف على معاضدة والده في اعماله الزراعية ، فكان يقضي يومه بين المزارع والفياض في الاعمال الخشنة ، فنما جسمه وتشددت عضلاته . اما اخوه فاختار الكتابة والحسابة ، فكان يقضي معظم يومه جالساً في الديوان عاملاً فكرته مجهداً عقله ، فنما ضعيفاً نحيلاً خلافاً لداود الذي لما بلغ أشدّه اختلط بالعربان المجاورين لقريته وتعلم منهم ركوب الخيل حتى صار يراكبهم ويسابقهم ويرافقهم في اسفارهم في الجبال والبراري والصحاري ، وألف كثيراً من طرق الصحراء حتى انه لم يحتج الى دليل يرشده الى طرق الدير عندما أراد الترهّب .

وقلما نعلم عن حالة صاحب الترجمة قبل انخراطه في سلك الرهبنة ، وإنما

علمنا انه لم يكن يهمّه شيء من اعمال هذه الدنيا ولم يكترث بعمل من الاعمال العالمية كأن العنـــاية حفظته لخدمة لا يقوم بأعبائها إلا نفر قليلون من بني الانسان . فلمــا بلغ الثانية والعشرين من عمره برح بيت ابيه وفارق اصحابه وخلانه وقصد دير القديس انطونيوس في الجبل الشرقي لمجرد الترهب والانقطاع للعبــادة وخدمة الله ، فوصله بعــــد مسيرة ثلاثة ايام وترهّب على يد القس اثناسيوس القلوصني رئيس ذلك الدير . ولم يلبث هنــاك مدة حتى اشتهر بين رفقــائه الرهبان بالذكاء والورع ودماثة الاخلاق والهمــة والنشاط . فكان الرئيس اذا غادر الدير لغرض له في العزبة او مكان آخر ، يعهد بتدبير الدير لداود دون سواه لما رأى فيه من الاهليــة وحسن التدبير والغيرة على مصلحة الدير والمواظبة على مطالعة الكتب المفيــدة ، حتى رآه يجمع اخوانه الرهبان في ساعات الفراغ ويقرأ عليهم ويشرح لهم ويحثهم على المطالعة .

وبعد دخوله الدير بسنتين توفي القس اثناسيوس المشار اليه ، فأجمع الرهبان كافة على إسناد منصب رئاسة الدير اليه ، فاستحضره الانبا بطرس بطريرك الاقباط اذ ذاك وثبّته في ذلك المنصب ودعــــا له وباركه . فانصرف القس داود الى مقر وظيفته في بوش بمديرية بني سويف ، وشرع في مباشرة المهــام التي عُهدت اليه بهمّة ونشاط ودراية . وكان على كثرة تجواله لقضاء مهام الدير المتعددة في البــلاد المختلفة ، لا يهمل شيئاً من لوازم الدير في الجبل في أوقاتها حتى لا يتخذ الرهبان تأخرها ذريعة لمغادرة الدير والتجوُّل في البلاد من جهة الى اخرى ممــا يخالف عهود الرهبنة . إذ كان في اعتقاده ان الراهب لا يجب ان يبرح ديره إلا اذا دعاه رئيسه الى ذلك ، فاذا خالف احد الرهبان هــذا الامر كان يتظاهر القس داود بالإغضاء عنه ثم يعمل على إجباره بحسن السياسة على إيثار البقاء في الدير على الخروج منه . وما زال ذلك اعتقاده في الرهبنة

الى آخر ايامه، حتى انه لما صار بطريركاً اصدر منشوراً يقضي بملازمة الرهبان أديرتهم وأن لا يخرجوا منها إلا بإذن منه . ولم يبق في العزبة في بوش إلا الرهبان الذين لا غنى عنهم في الاعمال الزراعية ومتعلقاته ، ومن أقواله من هذا القبيل : « ان من يختار ثوب الرهبنة فقد مات عن الدنيا ودُفن في الدير فلا يخرج الميت من قبره . والرئيس الذي يأذن للراهب في الخروج من ديره فقد اخرج ميتاً من قبره » .

ومما يذكر من آثاره في اثناء إقامته في بوش رئيساً للدير انه خصص مكاناً في العزبة جمع اليه ما كان هناك من الكتب وضمّ اليها بعضاً آخر من كتب الدير ، وكان يجمع الرهبان اليه في ساعات الفراغ ويستحثهم على المطالعة والمفاوضة في المواضيع الدينية والأدبية والتاريخية. وأنشأ مدرسة لتعليم شبان بوش الاقباط اللغة العربية بفروعها واللغة القبطية ، واعتنى هو في تعلم النحو والصرف فاكتسب منهما ما يكفي لضبط القراءة والكتابة . وبالجملة ، فقد كان نوراً تنبعث منه أشعة الفضيلة والقدوة الحسنة في سائر مديرية بني سويف وأجمع اهلها على اختلاف المذاهب على حبه واحترامه ومشاورته في مهامهم .

وحدث في أثناء ذلك خلاف بين الانبا سلامة مطران الحبشة واكليروسهم وسببه ان المطران سلامة لما تولى اسقفية الحبشة رأى الشعب واكليروسهم هناك على ما هو مخالف لروح الكتاب ، واستغرب تساهل اسلافه المطارنة في هذا الامر وسكوتهم عنه فأراد ردعهم وإهداءهم الى الطريق الحق ، فغضبوا وأصرّوا على اعتقادهم بدعوى انه اعتقاد اجدادهم ولا يريدون الجنوح الى سواه . فلما يئس من ردعهم بالبراهين الدينية هدّدهم بالسلطة الكنائسية ، فشكوه للبطريرك الانبا بطرس المتقدم ذكره ، وكان مشهوراً بالحلم والوداعة والتقوى ، فكتب الى المطران سلامة يحرضه على معاملة الرعية بالرفق واللين

وتجنب كل ما يؤول الى الشقاق . فلما قرأ هذا الكتاب ، شقّ عليه ما نسب فيه من القسوة والحدة ولو تلميحاً ، فكتب الى البطريرك يُبرىء نفسه من تلك التهم . وقد شرح المسألة شرحاً وافياً ، وقال في آخر الكتاب ان موضوع الخلاف ليس عالمياً حتى يتساهل فيه ، وطاعة الله أولى من طاعة الناس . فلما تناول البطريرك الكتاب سرّ لثبات المطران وإخلاصه ، وكان يرجو ان تنفرج الأزمة على يده . ثم علم بتفاقم الخَطب لتداخل بعض رجال الحكومة هناك ومقاومتهم له ، فخاف العاقبة . فلم يرَ بداً من ملافاة الأمر بالحزم ، فبعث القسيس داود وأسرّ اليه حقيقة الواقع ، وأظهر له أسفه مما حصل ، وانه يخشى وقوع الإنشقاق في الطائفة بسبب ذلك، وانه لشيخوخته لا يستطيع الذهاب الى الحبشة بنفسه لتسوية الخلاف ولذلك فإنه لم يرَ من يليق لهذه المهمة أفضل منه . وعهد اليه بالمسير نائباً عنه لما يعهد فيه من الحكمة والدراية والعزيمة . فأذعن القسيس لأمره ، ولكنه طلب اليه ان يصرّح لكاهن آخر بمرافقته ليكون له عوناً في ذلك ، فأذن له . فاصطحب راهباً اسمه القس برسوم الراهب (ثم صار الانبا يوأنس أسقف المنوفية) . فسار القس داود أولاً الى بوش يتأهب للمسير . وفي اليوم المعين ، سارا بكتاب من البطريرك للمطران وآخر الى القسوس وسائر الشعب الحبشي ، ولما ودعاه قال البطريرك للقس داود على مسمع من الناس : « انك اذا أدّيت هذه المهمة على وجه مرضٍ تنال فيه نصيباً صالحاً عند عودتك مكافأة لك » ، وقال آخرون انه وعده بمنصب مطران عند رجوعه ، فسار على بركة الرحمن سنة ١٥٦٧ قبطية (١٨٥١ م) وقد احسن بمرافقة الانبا يوأنس لأنه جدير بثقته وأهل لمثل ذلك المسعى الخيري .

وفي يوم ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ الموافق (١٨٥٢ م) توفي البطريرك الى

رحمة الله في أثناء غياب القس داود بعد ان أقام في كرسي الكرازة المرقسية نيف وأربعين عاماً وكان رجلاً كاملاً اسف الناس على فقده .

وبعد وفاته بقليل جاء العاصمة اساقفة الوجه البحري والوجه القبلي لكي يتحدوا مع الشعب في انتخاب من يقوم مقامه ، وفي اجتماعهم الاول في دار البطريركية كان اسم القس داود في جملة المرشحين لذلك المنصب ، فاعترض بعضهم على انتخابه لأنهم لا يعلمون من امر حياته شيئاً بدعوى انهم سمعوا بخروجه من بلاد الحبشة منذ مدة ولم يعودوا يعلمون ما كان من امره وألحوا في انتخاب سواه فارفضت هذه الجلسة ولم يتم الانتخاب. ومن غريب الاتفاق انه قبل حلول ميقات الجلسة الثانية ورد من القس داود كتاب لبعض اصدقائه ينبئه بوصوله حدود مصر وانه سيكون في القاهرة بعد قليل ، فسرّ منتخبوه بذلك ، فلما التأمت الجلسة صرّحوا بكتابه وطلبوا انتخابه ، فطلب بعضهم انتخاب الانبا يوساب اسقف اخميم اذ ذاك وأوقفه جماعة من الحضور فاعترض منتخبو القس داود على ذلك وارفضت الجلسة بلا نتيجة ، فأخذ حزب القس داود في كتابة تزكية باسمه وقع عليها كثير من أبنـــاء الطائفة لكي يكون شاهداً لرضاء الجمهور عن انتخابه. وكان في جملة أحزابه تادرس شلبي وتادرس عريان وبرسوم واصف وحنا عبيد ويوسف نصر الله وحنين حنس وأخوه اسطفانوس حنس ورفائيل الطوخي وحنا القسيس وبطرس نخله وابراهيم لطف الله ويوسف مفتاح وتادرس سيدهم وجميعهم من أعيان الطائفة ووجهائها وكان من أشد الناس اهتماماً في ذلك حنا افندي جريس وابراهيم افندي خليل.

وبقي النزاع مدة وصل في أثنائها القس داود الى القاهرة فسرّت أحزابه وتقاطروا للسلام عليه وكانت مدة غيابه هذه المرة نحو ثمانية عشر شهراً .

فلما رأت احزاب اسقف اخميم ميل الجمهور الى انتخاب القس داود عوّلوا

على تنفيذ مآربهم بالحيلة بأن يجتمعوا ذات ليلة ويسيّموا الاسقف بطريركاً فاذا اصبح الناس رأوا السهم قد نفذ وادعى بعض الراغبين في ذلك انه تحصل على امر شفاهي من المغفور له عباس باشا الاول برسم الاسقف بطريركاً . ولكنهم لم يستطيعوا كتم تواطؤهم فعلمت احزاب القس بذلك فجاؤهم في الوقت الذي عيّنوه لذلك وأخرجوهم من الكنيسة بالقوة وأقفلوا الابواب وسلموا المفتاح لرجل حبشي اسمه سلطان كان في البطريركية مع جماعة من أبناء وطنه وكان يدعي انه من عائلة النجاشي ملك الحبشة . ثم اجتمعوا وعرضوا للحكومة يشكون سوء تصرف بعض الاساقفة في هذا الامر وألحوا في انتخاب القسيس لرضاء الشعب عنه بشهادة التزكية التي كتبوها عنه ، فأحالت الحكومة تسوية الامر على الانبا كبريل ورتبيت الارمن اذ ذاك ، فأخفق سعيه لتمسك كل من الفريقين برأيه وغرضه .

ومن الغريب أن تلك المقاومة لم يكن لها اساس حقيقي سوى حب السيادة ونفوذ الكلمة . غير ان حزب القس داود كانوا على بينة مما دعوا اليه لأنهم كانوا يعلمون صفات ذلك الرجل وأنه لائق بذلك المنصب لما عرف به من شدة الميل الى اصلاح الطائفة وسعة اطلاعه وحسن درايته . وأما المتشيعون لغيره فكانوا يظنون انه يكفي لرئيس الطائفة والقابض على ازمتها ان يكون حسن السيرة ، ورعاً ، تقياً ، وقد يلتمس لهم في ذلك بعض العذر لأنهم لم يكونوا يعرفون للبطريرك عملاً غير الصلاة والفصل في بعض القضايا الجزئية كتأييد الصلح بين رجل وامرأته او ما شاكل ، اما مصلحة الامة العمومية فلم يكونوا يفقهون لها معنى .

ولما خابت مساعيهم جعلوا يختلقون على القس داود اقاويل وأراجيف لا اصل لها ، فادعى عليه بعضهم انه تزوج في الحبشة وله ولدان في قيد الحياة ،

وكان المختلق لهذه الاكذوبة قسيساً حبشياً، جاء مصر لضغينة بينه وبين القس داود بسبب ما ذهب القس الى الحبشة من اجله ، وكان في عزم ذلك الحبشي ان يشي به الى البطريرك، فلما رأى البطريرك قد توفي والشعب قائماً على القس داود اختلق عليه تلك الاكذوبة واتهمه بالمداخلة في امور السياسة في الحبشة بما يشبه خيانة الحكومة المصرية ، ولكن حبل الكذب قصير، فما لبثت هذه التقولات زمناً حتى ظهر فسادها ظهور الشمس لذي عينين ، وكان عباس باشا قد تغيّر عليه بسبب ما نسب اليه من المداخلات السياسية ، فلما تحقق الخبر اعتقد صدق طويته .

وما زال الخلاف والنزاع قائماً بهذا الشأن نحو عشرة اشهر انتهت بواسطة وترتيب الارمن بتعيين القس داود مطراناً على مصر ثم اذا اتضح من اعماله انه لائق بالبطريركية تقلدها . فتنصَّب مطراناً في ١٠ برمودة سنة ١٥٦٩ قبطية (١٨٥٣ م) وأخذ من ذلك الحين في مباشرة اعماله وادارة البطركخانة ، وأظهر من الأهلية والهمة والغيرة ما استدر الثناء عليه من القاصي والداني . وأول امر باشره بعد رسمه مطراناً بناء مدرسة للأقباط بجوار البطركخانة وهي اول مدرسة اقيمت لهذه الطائفة، فاشترى عدة منازل وأقام على انقاضها مدرسة ذاع صيتها وفاح اريجها في سائر الديار المصرية وغيرها .

وكان بناء هذه المدرسة ونجاحها من موجبات اجماع الجميع على محبته حتى انتخبوه بطريركاً في ليلة الاحد ١١ بؤونه سنة ١٥٧٠ قبطية الموافق (١٨٥٤ م) بحضور جميع الاساقفة ما عدا اسقفي اخميم وأبي تيج ، ولقبوه انبا كيرلس الرابع .

فلما اصبح مستقلاً في عمله شرع في اخراج مقاصده من حيز الفكر الى الفعل، فأتمّ بناء المدرسة وأحضر لها الاساتذة الماهرين ، وكان يقبل التلامذة

فيها ويصرف لهم الكتب والأدوات المدرسية مجاناً وكان يباشر التعليم بنفسه فلا يمرُّ عليه يوم لا يفتقد فيه حالتها مرة او غير مرة . ولزيادة الاعتناء بها اتخذ له محفلاً فيها ، فإذا اتى اليه زائر من الاجانب او غيره من ذوي المعرفة باللغات والعلوم وطرق التعليم ، كلفه بزيارة المكاتب وفحص التلامذة وإبداء ملاحظته فيما يعود الى تحسين حالتها وتسهيل طرق التعليم فيها . وكثيراً ما كان يطيل الاقامة في المكتب مصغياً لما يلقيه الاستاذ على الطلبة ، ثم يقول مخاطباً التلامذة قبل خروجه : « قد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن اعرفها قبلاً » . وكان أحياناً يلقي على التلامذة عبارات ادبية وتاريخية مما يناسب سنهم وادراكهم . وقد جعل تعليم اللغة القبطية جبرياً ، وكان يلاحظ سير دروسها بنفسه .

ولما رتب مدرسة الازبكية وارتاح باله من جهتها ورأى ان بعض الطلبة يأتون اليها من جهات بعيدة مثل حارة السقايين أشفق عليهم وأنشأ مدرسة وكنيسة هناك ، ولم يكن بها من قبل كنيسة ، وناط المرحوم حنا افندي القسيس بملاحظتها وتقديم ما يلزم لها من المعدات والأدوات، وكان حنا افندي هذا من افاضل القوم الغيورين ، ولم يكتف جناب البطريرك بذلك بل كان يزورها ويفحص حالتها مرة في كل اسبوعين على الأقل، هذا فضلاً عن تكليفه معلمها الاول بتعريفه عن حالتها وكيفية سيرها اول فأول .

ولكن مع كل التسهيلات التي أجراها رحمه الله ، وعدم تكليف الوالدين شيئاً ، لم يزد عدد التلامذة في ايامه بمدرسة الازبكية على مئة وخمسين تلميذاً مع انه لم يكن بمصر واسطة لتعليم ابناء الامة القبطية غير هذه المدرسة ، وكثيراً ما كان يحمل الوالدين على احضار اولادهم الى المدرسة جبراً ، ولكنهم مع ذلك كانوا يفضلون وجود اولادهم بمكاتب العرفان القذرة الرديئة الهواء ،

وكان معظم هؤلاء التلامذة من ابناء وجهاء القوم ومعتبريهم ولذا كان يعاملهم احسن معاملة ويحثّ الاساتذة على تربيتهم التربية الحسنة وبذل الجهد في توسيع عقولهم وتثقيف اذهانهم بالنصائح الادبية والروايات الحكمية كما كان يفعل هو بنفسه في اكثر الاحيان .

وعهـد الى احد قسوس كنيسة الازبكية المسمى القس تكلا المشهود له بإتقان فن الموسيقى والألحان الكنائسية ، ان ينتخب من بين تلامذة المدرسة الشمامسة عـدداً معلوماً من ذوي الاصوات الحسنة ، وناطه بتعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقـة مضبوطة ، وجعل لهم ملابس مخصوصة على طرز جديد لطيف يلبسونها في اثناء وجودهم في الكنيسة في ايام الآحاد والاعياد والمواسم فنتج من هـذا التحسين الظاهري فائدتان : احداهما إظهار مزايا المدارس وترغيب الأهـالي في وضع اولادهم بهـا ، والثانية مواظبتهم على الحضور الى الكنيسة وهم منشرحو الصدور من سماع التراتيل . وهاك مـا قاله ابراهيم افندي الطبيب في كتابه المسمى (مصباح الساري ونزهة القـاري) المطبوع في بيروت سنة ١٢٧٣ هـ في اثناء كلامه عن مصر ومدارسها ، قال :

« وفي حارة الاقباط مدرسة عظيمة يعلـّمون فيهـا اللسان القبطي القديم والتركي والايطالي والفرنسي والانكليزي والعربي ، وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة ، وهذه بناها البطريرك كيرلس القبطي وأنفق عليها نحو ستمائة الف قرش ، وكل هـذا بخلاف ما نعهده في بلادنا من الاكليروس وأوجه الشعب » .

ولم يمضِ زمن حتى خرج من هاتين المدرستين عدة تلامذة . واتفق حدوث مصلحة السكة الحديدية بالديار المصرية ، فانتظموا في خدمتها وانتشروا في جميع

محطاتها وكانوا يؤدون اعمالهم باللغة الانكليزية ، وبعضهم استخدم في البنوكة وعند التجار لمعرفتهم اللغة الطليانية. وقد عرف جناب اسماعيل باشا الخديوي الاسبق مقدار هذه الخدمة الوطنية ، فاستدعى اليه الانبا ديمتريوس البطريرك خلف السعيد الذكر الانبا كيرلس وأظهر ارتياحه للخدمة الوطنية التي قامت بها المدارس القبطية لأن معظم مستخدمي السكة الحديد من تلامذتها ، وأنعم عليه بألف وخمسمائة فدان ليتساعد بإيراداتها على توسيع نطاق المدارس ورتب لها ايضاً مائتي جنيه مصري سنوياً ، ولكن هذه مُنعت عنها فيما بعد بسبب عسر المالية واضطرار الحكومة للاقتصاد .

ووجَّه نظره الى تحسين حالة ادارة البطركخانة ، فأنشأ لها ديواناً وعيّن له المستخدمين الأكفـــاء ، وقسم الادارة الى قسمين : قسم يختص بالاوقاف والمكاتبات الرسمية وغيرها ، وقسم يختص بالاعمال الدينية والشرعية ، وخصّ ابراهيم افندي جليل بالقسم الاول وأحد القسوس ومطران مصر بالقسم الثاني ، وكلاهما تحت ملاحظاته الشخصية . ورأى ان اعمال الاوقاف جارية بطريقة غير منتظمة وكان بعضها ضائعاً ولم يعرف الضائع منهـــا والموجود ، فأمر بإنشاء سجلّ لحصر جميع الاوقاف به من واقع الحجج ، واستخدم لهذا العمل عمـالاً اشتغلوا به زمناً حتى أتمّوه على الوجه الذي كان يريده ، وأنشأ ايضاً مطبعة وبعث يستحضر أدواتها من اوروبا على يد المرحوم الخواجا رفله عبيد السوري الارثوذكسي . وقبل إحضارها اختار من ابناء الامة القبطية اربعـة من شبانهـا النجباء ، ورتب لهم رواتب شهرية وملابس سنوية تصرف لهم في أوقاتها من الدار البطركية ، وتحصّل على امر من المرحوم سعيد باشا بقبولهم في مطبعة بولاق الاميرية ليتعلموا صناعة الطباعة إذ لم يكن في القطر المصري إذ ذاك مطبعة غيرها .

ومما يدلك على شدة احترامه للعلم ورغبته في نشره وتنشيطه انه لما أنبأه الخواجا رفله عبيد المتقدم ذكره بوصول ادوات المطبعة الى الاسكندرية وكان البطريرك في الدير بالجبل بعث الى وكيل البطركخانة بمصر يأمره باستقبال تلك الأدوات عند وصولها القاهرة باحتفال رسمي يقوم فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية يرتلون التراتيل الروحية ، وكان لاستقبال تلك المطبعة احتفال تحدث الناس به زمناً لغرابته ، غير ان التقادير لم تفسح له بالاجل حتى يتم المعدات ويباشر العمل بنفسه فتولى امرها بعده المرحوم رزق بك جرجس وطبع فيها عدة كتب دينية وأدبية ثم صارت المطبعة تحت يد اخيه الخواجه ابراهيم جرجس وعرفت بمطبعة الوطن .

وفي آخر شهر مسري سنة ١٥٧٢ قبطية (١٨٥٦ م) بعثه المغفور له سعيد باشا بمهمة سياسية الى الحبشة فذهب وقلبه عالق بالمدارس فأوصى المرحوم المعلم برسوم واصف بادارة البطركخانة والمدارس . وطالت مدة غيابه في الحبشة فقلق الناس خوفاً عليه ثم سمعوا انه قام من جهة الخرطوم مع اثنين من خاصة ثيودور ملك الحبشة فاطمأن الناس واستبشروا بنجاح مهمته ، وفي ٧ امشير سنة ١٥٧٤ وصل القاهرة فاستقبلوه باحتفال يليق به حتى غصت الشوارع بالناس ولا سيما جهات الازبكية وما وصل البطركخانة حتى تهافت الناس عليه يقبلون يديه ويتبركون به وأعدوا له زينة فاخرة في المدرسة والبطركخانة . ولما انتهت الزينة عاد هو الى مباشرة اعماله في بناء الكنيسة واحتفل بتأسيسها احتفالاً عظيماً جداً حضره جميع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد ورجال الحكومة يوم الخميس ٢٩ برموده سنة١٥٧٥قبطية (٢٢ افريل (نيسان) سنة ١٨٥٩) .

وفي ليلة الاربعاء ٢٣ طوبه سنة١٥٧٧ قبطية (١٨٥١م) توفي الى رحمة الله

وحزن لفقده كل من عرفه او سمع عنه ولا سيما الطائفة القبطية لأنها خسرت بفقده خسارة جسيمة جداً وكانت مدة توليه البطريركية سبع سنوات .

وكان البطريرك كرلس الرابع طويل القامة ممتلىء الجسم قوي البنية صحيح الاعضاء اسمر اللون حاد النظر والذهن كبير الرأس عريض الجبهة كثيف اللحية اسودها طلق الوجه واللسان سريع الاقدام على ما ينويه كثير الأمثال في حديثه فقلما يلقي عبارة لا يسندها الى مثل . وكان عالي الهمة وديعاً فطناً سديد الرأي قريب الرضا سريع العفو لا يشرب الخمر كثير الاحترام للرهبنة محافظاً على اصولها وكان شديد الكره لمقابلة النساء وجمع المال لا يحب الاستبداد في رأيه ولو كان مصيباً وكان كلفاً بمخالطة العلماء ومجالسة الفضلاء ومكالمتهم ومناظرتهم ولم يكن يستنكف من الاقرار بغلطه اذا اتضح له . ومن افضل ما اتصف به رحمه الله حبه لرعيته وسهره على مصلحتهم ورفع كل ما يوجب النفرة بينهم والسعي في كل ما فيه تهذيب الشبان بانشاء المدارس وتسهيل طرق التعليم .

ومن أعماله الحميدة ، ان القسس ، كانوا قبل زمانه ، يعيشون على حسنات الطائفة وصدقاتها. فرتّب هو لهم رواتب شهرية تصرف لهم من البطركخانة. ورغبة منه في رفع منزلتهم وحفظ مقاماتهم ، أصدر منشوراً يقضي بأن الراتب لا يصرف إلا لمن يعرف خدمة القداس باللغة القبطية معرفة جيدة .

وعند عودته من الحبشة ، رتّب للقسس ميقاتاً يجتمعون فيه كل سبت في المدرسة يتباحثون في أمور دينية . وكان هو يحضر معهم يناقشهم ويشرح لهم واجبات القسوس وآدابهم ، وما يكسبهم مقاماً رفيعاً بين الناس . وكان في نيته ان يعقب ذلك بتأسيس مدرسة إكليريكية ، فلم تمهله منيته . وفتح في آخر أيامه مدارس للبنات ولكنها لم تثبت .

وكان كثير التيقظ لإصلاح ما يقع من النفور بين اولاده ، او بين الرجال ونسائهم . على انه كان يكره مواجهة النساء ، حتى انه لم يكن يقابل والدته إلا نادراً .

وكانت العادة في الزيجة ان يعقد القسيس بين الشاب والشابة عقداً يسمونه « عقد تمليك » قبل الإكليل بمدة . غير ان هذا العقد لا يقبل الحل ، او هو بمنزلة عقد الزيجة . فاصدر البطريرك منشوراً يجعل ذلك العقد « عقد صلح وسلام » حتى اذا عرض لأحد الطرفين ما يمنع إتمام الاقتران ، يمكن حله . وهذا لا يزال جارياً في الطائفة الى الآن . وكانت العادة ان يزوّجوا البنات صغيرات جداً ، فأمر ان لا يتم عقد الزواج على الفتاة إلا اذا تجاوزت الأربع عشرة سنة من العمر وجعل الاعتراف قبل الإكليل فرضاً واجباً على العروسين حتى لا يحصل ما يكره أحد الفريقين، بسبب ما كان من التحجب بين الرجال والنساء في تلك الأيام . وامر ان لا يعقد القسس اكليلاً إلا بعد استئذان البطركخانة حتى يسجل ذلك في دفاترها. والبطركخانة لا تؤذن بالإكليل إلا بعد الاطلاع على محضر الاتفاق بحيث لا يكون ما يمنع الاقتران .

ولشدة رغبته في تعليم ابناء طائفته ورفعة منزلتهم ، استأذن المغفور له سعيد باشا ان يدخل تلامذة مدرسته في مدرسة الطب وغيرها من المدارس الأميرية بصفة رسمية .

وخلاصة القول انه كان قدوة البطاركة ، وعنوان رجال الفضل . ولو أمهلته المنية بضع سنين اخرى ، لجاء من الأعمال العظيمة بأضعاف ما جاءه . ولكنها عاجلته ، فلم يتولَّ كرسي الكرازة المرقسية إلا سبع سنين ، عمل في أثنائها اعمالاً لا يعملها غيره باضعاف تلك المدة .

الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية



الشيخ محمد عبده (١٢٥٨ هـ — ١٣٢٣ هـ)

ترجمة حياته

نشأته الأولى :

نشأ الفقيد في قرية صغيرة (محلة نصر) من أبوين فقيرين . فلم يمنعه ذلك من الارتقاء بجده واستعداده حتى بلغ منصب الإفتاء ، وأصبح علماً في الشرق وقطباً من أقطاب الدهر سينقش اسمه على صفحات الأيام ، ويبقى ذكره ما بقي الإسلام .

ولد سنة ١٢٥٨ هـ. وابوه يتعاطى الفلاحة ، وقــد أدخل فيها أولاده إلا محمداً ، لأنه توسّم فيه الذكاء ، فأراد ان يجعله من الفقهاء ، فأدخله كتاب القرية تردد اليه حيناً ثم أرسله الى الجامع الاحمدي في طنطـا أقام فيه ثلاث سنوات ثم نقله الى الجامع الأزهر فقضى فيـه عامين لم يستفد فيها شيئاً وهو ينسب ذلك بالأكثر الى فساد طريقة التعليم .

ثم انتبه لنفسه ولم يرَ بدأً من تلقي العلم، فاستنبط لنفسه اسلوباً في المطالعة وأعمل فكرته في تفهم ما يقرأه فاستلذّ العلم واستغرق في طلبه، فأحرز منه جانباً كبيراً على ما يستطاع ادراكه بتلك الطريقة .

واتفق ان ورد على مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) السيد جمـال الدين الأفغاني ، فيلسوف الاسلام ، وصاحب الترجمة لا يزال في الازهر وقد أدرك الثلاثين من عمره . وتولى جمال الدين تعليم المنطق والفلسفة ، فانخرط الفقيد في سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على جمـــال الدين ، فخرجوا لا يشق لهم غبار ، كأن الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا اعينهم واذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلاً عن العلم والفلسفة روحاً حية أرتهم حالهم كما هي، إذ تمزقت عن عقولهم حجب الاوهام فنشطوا للعمل في الكتابة ، فأنشأوا الفصول الادبيـــة والحكمية والدينية . وكان صاحب الترجمة ألصق الجميع به ، وأقربهم الى طبعه ، وأقدرهم على مباراته . فلمـا قضي على جمال الدين بالإبعاد من هذه الديار ، قال يوم وداعه لبعض خاصته : « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً » .

وتقلب الفقيد في بعض المناصب العلميـة بين تدريس في المدارس الاميرية وتحرير في الوقائع المصرية وكتابة في الدوائر الرسميـة ، حتى كانت الحوادث



جمال الدين الأفغاني

العرابية فحمله اصحابها على السير معهم وهو ينصح لهم ان لا يفعلوا وينذرهم بسوء العاقبة . ولما استفحل امر العرابيين اختلط الحابل بالنابل وسيق الناس بتيار الثورة وهم لا يعلمون مصيرهم . فدخل الانكليز مصر وكان الشيخ محمد عبده في جملة الذين قُبض عليهم وحوكموا فحُكم عليه بالنفي لأنه أفتى بعزل توفيق باشا الخديوي السابق ، فاختار الإقامة في سوريا فرحّب به السوريون وأُعجبوا بعلمه وفضله ، فأقام هناك ست سنوات فاغتنموا إقامته بينهم وعهدوا اليه بالتدريس في بعض مدارسهم .

وانتقل من سوريا الى باريس فالتقى فيها بأستاذه وصديقه جمال الدين وكانا قد تواعدا على اللقـــاء هناك ، فأنشآ جريدة العروة الوثقى وكتابتها منوطة بالشيخ ، فكانت لهـا رنّة شديدة في العالم الاسلامي ولكنها لم تعش طويلاً . وتمكن الشيخ في اثناء إقامته بباريس من الاطلاع على احوال التمدُّن الحديث وقرأ اللغـة الفرنسية على نفسه حتى اصبح قادراً على المطالعة فيها . ثم سعى بعضهم في اصدار العفو عنه فعـاد الى مصر فولّاه الخديوي السابق القضاء ، وظهرت مناقبه ومواهبه فعيّن مستشاراً في محكمة الاستئناف وسمّي عضواً في مجلس ادارة الازهر ، وعُيّن اخيراً مفتيـاً للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ ، وما زال في هـذا المنصب حتى توفاه الله في ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥ م ولم يعقب ذكراً يبقى به اسمه ولكنه خلّف آثاراً يخلّد بها ذكره .

مناقبه وأعماله :

كان ربع القـامة اسمر اللون قوي البنية حادّ النظر فصيح اللسان قوي العارضة متوقّد الفؤاد بليغ العبارة حاضر الذهن سريع الخاطر قوي الحافظة. وقـد ساعده ذلك على احراز مـا احرزه من العلوم الكثيرة الدينية والعقلية والفلسفية والمنطقية والطبيعية ، وتلقى اللغة الفرنسية وهو في حدود الكهولة في بضعة اشهر . وكان شديد الغيرة على وطنه ، حريصاً على رفع شأن ملته ، وذاع ذلك عنه في العالم الاسلامي فكاتبه المسلمون من اربعة اقطار المسكونة يستفتونه ويستفيدون من علمه وهو لا يردُّ طالباً ولا يقصّر في واجب .

ناهيك بما عهد اليه من المشروعات الوطنية، فقد كان القوم لا يقدمون على عمل كبير إلا رأسوه عليه او استشاروه فيه . فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية وألّف شركة طبع الكتب العربية، وشارك مجلس شورى القوانين في مباحثه.

وآخر ما عهد اليه تنظيم مدرسة يتخرج فيها قضاة الشريعة ومحاموها . فضلاً عما اشتغل فيه من التأليف والتصنيف وما يُستشار فيه من الامور الهامة في القضاء او الادارة بالمصالح العامة والخاصة . وبالجملة ، فقد كان كنز فوائد للقريب والبعيد بين افتاء ومشورة وإحسان وكتابة ومداولة ووعظ وخطابة ومباحثة ومناظرة واستنهاض وتحريض وتنشيط وغير ذلك .

اصلاح الاسلام :

على ان عظمته الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من اعماله الخيرية او العلمية او القضائية ، وانما هي تقوم بمشروعه الاصلاحي الذي لا يتصدى لمثله الا افراد لا يقوم منهم في الأمة الواحدة مهما طال عمرها الا بضعة قليلة . وهذا ما اردنا بسطه على الخصوص في هذه العجالة .

العظمة الحقيقية :

تختلف العظمة شكلاً وأثراً باختلاف السبيل الذي يسعى صاحبها فيه او الغرض الذي يرمي اليه. فمنهم العظيم في السياسة او الحرب او العلم او الدين، ومن العظماء من يوفق الى اتمام عمله ، ومنهم من يرجع بصفقة الخاسر من نصف الطريق او ربعه او عشره ، على ان اكثر العظماء انما يأتون العظائم لمجرد الرغبة في الشهرة الواسعة ويغلب ان يكون ذلك في رجال الحرب . وهؤلاء تنحصر ثمار اعمالهم في انفسهم او اهلهم او امتهم على انهم لا يستطيعون نفعاً لأنفسهم الا بضرّ الآخرين ، اعتبر ذلك في سير كبار الفاتحين كالاسكندر وبونابرت وغيرهما ، فكم سفكوا في سبيل عظمتهم من الدماء او ارتكبوا من المحرمات ، وكان النفع عائداً على انفسهم او امتهم ولم يطل مكثه فيهم الا قليلاً .

وأما رجال العلم فعظمتهم تقوم بما ينيرون به الأذهان من الأصول العلمية او يكتشفونه من اسباب الامراض والوقاية منها او يضعونه من النظامات والقوانين او غير ذلك . ونفعهم يشمل القريب والبعيد ، الرفيع والوضيع ، ولا يسفكون في سبيل نشره دماً ولا يرتكبون محرماً ، وهو باقٍ ما بقي الانسان ، وينمو بنموّ المدنية .

وأما رجال الدين ومن جرى مجراهم من واضعي الشرائع والأحكام فتأثيرهم اوسع دائرةً وأعمّ شمولاً لأنه يتناول البشر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً ، وعليهم يتوقف نظام الاجتماع وآدابه وأخلاق الناس وعاداتهم وعلائقهم بعضهم ببعض . وعظماء الدين فئتان ، الفئة الاولى واضعو الشرائع كالأنبياء او من في معناهم ممن ينسبون اعمالهم الى ما وراء الطبيعة . والفئة الثانية المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فساده، لأن الدين اذا مرّ عليه بضعة قرون فسد وتغير شكله وانقلب وضعه تبعاً لمطامع الذين يتولون شؤونه ، فتفسد الأمة وينحط شأنها حتى يقوم من يصلحه ويعيده الى رونقه . ووضع الاديان عمل شاق قلّ من يفوز به، والاصلاح الديني لا يقلّ مشقة عنه . وربما كان ادخال دين جديد ايسر من اصلاح دين قديم . فالديانة المسيحية لم تكلف البشر في قيامها من الدماء اكثر مما كلفتهم في اصلاحها . على ان ما يضيعه رجال الدين في نشره من الدماء يعوضونه بسرعة انتشاره اعتبر ذلك في الفرق بين النصرانية والاسلام في قيامها . ويقال نحو ذلك في الاصلاح ، فقد طلبه وسعى فيه غير واحد من رجال النصرانية فلم يتفق منهم الى اصلاح كبير غير (لوثير) لأن اهل السياسة نصّروه . ولا بدّ من استعداد الاذهان لقبول الاصلاح وتهيئة الاسباب الاخرى . فكم نهض من المصلحين بالسيف فغُلبوا على امورهم وذهب سعيهم عبثاً . وأقربهم عهداً منا صاحب مذهب الوهابية في نجد ، فقد استفحل امره في اوائل القرن الماضي ، وأراد

في الاسلام نحو ما اراده (لوثير) في النصرانية فلم يوفق الى غرضه لأن الجنود المصرية غلبته وفلت عزيمته . امـا المصلحون بالموعظة الحسنة والتعليم فعملهم بطيء ولكنه ارسخ في الاذهان وأصبر على كوارث الحدثان ، والشيخ محمـد عبده واحد منهم .

هو وجمال الدين :

نشأ الشيخ المفتي نيّر البصيرة ، حر الضمير . وربي في الإسلام ، وتعـلم علومه ، فشبَّ غيوراً عليه . ثم اطلع على علوم الأمم الراقية من اهل هـذا التمدن، ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس العمران ، فرأى ان الإسلام في حاجة الى نهضة ترفع شأنه وتجمع كلمته . واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الأفغاني فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة المشرقية . وكان جمال الدين غيوراً على الاسلام ، راغباً في جمع كلمته ورفع شأنه ، فتوافقا في الغاية واختلفـا في الوسيلة . لأن جمال الدين سعى في ذلك عن طريق السياسة، فأراد جمع شتات المسلمين في اربعة اقطار العالم تحت ظل دولة اسلامية واحدة . وقد بذل في هذا المسعى جهده ، وانقطع عن العالم من اجله ، فلم يتخذ زوجة ، ولا التمس كسباً ، وانما جعل همه السعي الى تلك الغاية ، فلم يوفق الى غرضه لأسباب عمرانية طبيعية لا محل لذكرها . وكان الشيخ محمـد عبده رفيقه في كثير من مساعيه ، واطلع علىدخائل اموره ، وعرف اسباب حبوطه . فعلم ان جمـع كلمة المسلمين ورفع شأنهم عن طريق السياسة لا يتيسر الوصول اليه ، فسعى فيه عن طريق العلم . فجعل همه رفع منار الإسلام ، وجمع كلمـة المسلمين بالتعليم والتهـذيب ، وتقريبهم من أسباب المدنية الحديثة ليستطيعوا مجاراة الامم الراقية في هذا العصر . ورأى ان ذلك لا يتأتى إلا بتنقية الدين ممـا اعتوره من الشوائب التيطرأت عليه بتوالي العصور، وتغالب الدول واختلاف

أغراض اصحابها وأئمتها ، كما أصاب النصرانية في القرون الوسطى ، اذ تمسك الناس بالعرَض وتركوا الجوهر ، واستغرقوا في الأوهام ونبذوا الحقائق . والسبيل الوحيد لمغالبة الأوهام والخرافات انما هو العلم الصحيح على ما بلغ اليه في هذا العهد . وعلم الفقيد رحمه الله ان محور العلوم الاسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر او في العالم الاسلامي كافة « الجامع الأزهر » . فرأى انه اذا أصلح الأزهر فقد اصلح الإسلام . فسعى جهده في ذلك ، فاعترضه اناس من اهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه ، واستنصروا عليه العامة ، وغرسوا في اذهانهم ان المفتي ذاهب بالمسلمين الى مهاوي الضلال والبدع . فلم يهمه قولهم لعلمه ان ذلك نصيب امثاله من قديم الزمان — على انه لم ينجح في اصلاح الأزهر إلا قليلاً ، ولكنه وضع الاساس ، ولا بد من رجوع الأمة الى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين ، فيكون له الفضل في تأسيسها .

على ان الجانب الاعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم ، يرون رأيه في اصلاح الدين ورجاله . وبما سبقه كثيرون منهم الى الشعور بحاجة الإسلام الى ذلك ، ولا سيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية . ولكنهم لم يجسروا على التصريح بأفكارهم في غير المجتمعات الخصوصية ، لئلا ينسبهم الناس الى المروق من الدين — فلما جاهر محمد عبده برأيه ، وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بالسنتهم وأقلامهم . فحاجة الاسلام الى الاصلاح ليس هو اول من انتبه اليها ولكنه اول من جاهر بها ، كما ان لوثر ، المصلح المسيحي ، ليس اول من انتبه لحاجة النصرانية الى الإصلاح ، ولكنه اول من جاهد في سبيلها . وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته . واما مصلح الإسلام فكانت السياسة ضده ، وانما حمله على تلك المجاهرة ، حرية ضميره ، وجسارته الأدبية ، ومنصبه الرفيع في الإفتاء .

الاسلام والمدنية :

فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الاسلام الى الاصلاح انقسم المسلمون الى فئتين ، فئة ترى بقاء القديم على قدمه ، وهم حزب المحافظين، وفئة ترى حل القيود واطلاق حرية الفكر والرجوع الى الصحيح من قواعد الدين ونبذ ما خالطه من الاعتقادات الداخلية . وكان رحمه الله زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه وبكل جارحة من جوارحه . وكانت مساعيه من هذا القبيل ترمي الى غرضين رئيسيين، الاول : تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه، والثاني: تقريب المسلمين من اهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علمياً وصناعياً وتجارياً وسياسياً . فأهل العصبية الاسلامية يرون هذا التقريب مغايراً لما يرجونه من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية لأن مجاراة اهل التمدن الحديث بأسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام على زعمهم ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة . ولكن الشيخ المفتي كان يرى ذلك الاجتماع السياسي مستحيلاً في هذه الحال ، فلم يشأ ان يضيّع وقته سدى كما اضاعه استاذه وصديقه جمال الدين وأن يخسر فائدة تقرب المسلمين من اسباب هذا التمدن فسعى في ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا والموقوذة ولبس القبعة ، ونحو ذلك ، مما يقرب المسلمين من الامم الاخرى ويسهل اسباب التجارة .

تنقية الدين :

وأما تنقية الدين الاسلامي من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها انه أطلق لفكره الحرية في تفسير القرآن ولم يتقيد بما قاله القدماء او وضعوه من القواعد التي يحرم الأئمة تبديل شيء منها . فرأى ان يحلّ نفسه من هذه

القيود ويفسّر القرآن على ما يوافق روح هـذا العصر ، فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقـة لقواعد العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ولنواميس العمران على ما بلغ اليه هـذا العلم الى الآن مع مطابقته لأحكام العقل وأصول الدين كما فعل النصارى في تفسير الكتاب المقدس بعـد ثبوت مذاهب العلم الجديد . وهو أوعر مسلكاً في الاسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه . والقرآن اساس الدين والدنيا عندهم فيعلقون على تفسيره أهمية كبرى لأنه مرجع الفقه وغيره من الاحكام الشرعية والسياسية، ولذلك رأى اهل السنة تقييده بأقوال الأئمة الاربعـة ، وخالفهم الشيعة باستبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً فلا يرون بأساً في العـدول عن تفسير الى آخر بشروط يشترطونها في مفسريهم وهم يعرفون عندهم بالأئمة المجتهدين .

التفسير :

وقـد توالى على تفسير القرآن احوال تختلف باختلاف العصور من الاسلام الى الآن ترجع الى اربعة عصور :

اولاً — العصر الشفاهي : وهو ينحصر في ايام النبي وأصحابه ، فقد كانوا عنـد ظهور الدعوة كلما تُليت عليهم سورة او آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ، ولأن اكثرها قيل في احوال كانت القرائن تسهل فهمها ، واذا اشكل عليهم شيء منهـا سألوا النبي فيفسره لهم . وكان التفسير مختصراً بسيطاً لسذاجة الدولة الاسلامية يومئذ .

ثانياً — العصر التقليدي : ونريد به عصر التـابعين او حواليه ، وكانت الدولة الاسلامية قد أخذت في النموّ والارتقاء فاحتاجوا الى التوسع في التفسير وكان اكثرهم أمّيين فاذا اعجزهم تفسير بعض الآيات سألوا عنهـا من أسلم من

اهل الكتاب ولا سيما اليهود المقيمين في اليمن ، وكانوا قد أسلموا وظلوا على ما كان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهاً او كتابة مما لا تعلُّق له بالاحكام الشرعية .

ثالثاً – العصر الفلسفي المنطقي : ونريد به تدوين التفسير وضبطه بالقياس الفلسفي والحكم المنطقي ، بعد ان اختلط المسلمون بأهل العلم القديم في الشام والعراق وفارس ، واطلعوا على علوم القدماء وفلسفة اليونان والهند ، ونقلوا ذلك الى لسانهم واستخرجوا منه علم الكلام . وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معاني الألفاظ وأساليب التعبير ، فنظروا في التفاسير السابقة نظر الناقد ومحّصوها وضبطوها بالقياس العقلي بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضيه الفلسفة اليونانية القديمة على نحو ما فعله لاهوتيو النصارى قبل ذلك .

رابعاً – العصر العلمي الذي نحن فيه : وهو عصر الفلسفة الجديدة المبنية على العلم الطبيعي الثابت بالمشاهدة والاختبار ، ويمتاز عن العصر السابق بإطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التي أغلّت ألسنة اسلافنا وأقلامهم وأوقفت مجاري التمدُّن اجيالاً متطاولة . فالشيخ المفتي رحمه الله أراد ان ينقل التفسير الى روح هذا العصر فيفسر القرآن بما يطابق احكام العقل ويحلّ الاسلام من قيود التقليد . فسار في هذا الطريق شوطاً بعيداً ، فألقى على طلبة الازهر خطباً كثيرة في التفسير نُشرت في مجلة المنار وطُبع بعضها على حدة ، وكان لها تأثير حسن في نفوس العقلاء . ولو مدّ الله في أجله لأتمّ هذا العمل ، ولكنه قضى آسفاً خائفاً ولسان حاله يردّد هذين البيتين ، وقد قيل انهما من قصيدة نظمها في اثناء مرضه ، وهما :

ولست ابالي ان يقال محمدٌ أبلّ او اكظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه احاذر ان تقضي عليه العمائم

على انه خلّف جماعة من تلامذته ومريديه اكثرهم من اهل العلم وأرباب الاقلام وفيهم نخبة كتّاب المسلمين وشعرائهم في هذا العصر . وأكثرهم مجاهرة بنصرته وإذاعة لآرائه رصيفنا السيد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي .

والشيخ محمد عبده زعيم نهضةٍ اصلاحية لا خوف منها على الدماء او الارواح ، وأكثر نهضات الأمم في سبيل اصلاحها لا تخلو من إهراق الدماء ، فهو رجل عظيم يجدر بالمسلمين ان يبكوه وان يقتفوا آثاره في التوفيق بين الاسلام والمدنية الحاضرة وتنقيته مما ألمّ به بتوالي الازمان ، وذلك ميسور لمن أطلق فكره من قيود التقليد واسترشد بما يهديه اليه العقل الصحيح بالاسناد الى العلم الصحيح . على اننا نرجو ان لا تعدم هذه النهضة من يخلف الامام الفقيد في الانتصار لها والعمل بها والله على كل شيء قدير .

مصطفى كامل

صاحب اللواء

مصطفى كامل والنهضة السياسية :

شاهد المصريون في ١٠ فبراير (شباط) سنة ١٩٠٨ م ما لم يشاهدوا مثله من قبل ، شاهدوا حزناً على مصطفى باشا صاحب اللواء عمّ القطر المصري من أقصاه الى أقصاه وانتشر في سائر العالم الاسلامي وسمع دويّه في اوربا والشرق الاقصى مما لم يُسمع بمثله في وادي النيل. توفي صاحب اللواء في اصيل ذلك اليوم ودفن في اصيل اليوم التالي فمشى في جنازته عشرات الالوف واشترك في المصاب اهل القطر على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم . فرثاه الشعراء وأبّنه

الخطباء وبكته الصحف وقضت اياماً في نشر ما يرد عليها من رسائل التعزية نثراً ونظماً ، وأقيمت له المآتم في أنحاء القطر فلم يبق جمعية خيرية او ادبية او نادٍ علمي او مدرسة وطنية للذكور او الأناث في القاهرة والاسكندرية او في الارياف إلا عقدت جلسة لتأبين ذلك الفقيد ، حتى الجمعيـة الماسونية فقد احتفل بعض محافلها بتأبينه ، وبعضهم اقام حفلات تأبين في الازبكية غير ما بعثوا به من تلغرافات التعزية الى ادارة اللواء من الافراد والجماعات كالجمعيات والمشيخات والمدارس ، وتبرّع كثيرون عن نفسه للجمعيات الخيرية ونحوها ، وغير ما جاء من رسائل التعزية من انكلترا وفرنسا وغيرهما من اطراف الهند، ونشرت التلغرافات العمومية والصحف الافرنجية نعيه وتكلمت عنه، وتألفت في القاهرة لجنة لإقامة تمثال يحيا به ذكره ، والناس يبذلون المـال في هذا السبيل ، وعيّنوا يوم ٢٠ مارس (آذار) التـالي للاحتفال بتأبينه بجانب ضريحه بقرافة الامام ، فمن كان هذا وقع مصابه في النفوس جدير بأن ننظر فيترجمة حاله وندرس اخلاقه وأعماله ونبين منزلته من التاريخ. ونقدم الكلام بفذلكة في تاريخ النهضة السياسية المصرية فنقول :

النهضة السياسية المصرية :

فتح العرب مصر في صدر الاسلام فأصبح النفوذ فيها للفاتحين وأعظم مناصب الدولة في ايديهم فتغلب العنصر العربي على سائر العناصر ، ثم دخلت في حوزة الاكراد (الايوبيين) فالشراكسة (المماليك) فالأتراك (العثمانيين) فكان النفوذ ينتقل من امـة الى اخرى حسب ادوار حكمها . على ان العنصر الشركسي ظلّ متسلطاً في أثنـاء حكم الدولة العلية بمصر لأنها ولّتهم الأحكام تحت رعايتها ومنهم امراء المماليك والسناجق وبعض الجنـد . فأصبح العنصر العربي وهم المصريون الوطنيون اضعف سائر العناصر .

فقضى المصريون اجيالاً راضين بما قسم لهم وكان الجهل ضارباً اطنابه فيهم لاشتغال حكامهم بالحروب والخصومة عن ترقية شأن رعاياهم حتى أذن الله ان يتولى حكومتهم المغفور له محمد علي باشا الكبير فاقتضت سياسته ومقاصده إحياء معالم اللغة العربية فأنشأ المدارس وفتح المعامل وسهّل دخول الاجانب الى هذه البلاد وأرسل بعض شبانها الى اوربا لتلقي العلوم واقتباس حسنات التمدن الحديث ، فاستنارت اذهان المصريين وفتحوا اعينهم ففقهوا لما ضاع من حقوقهم ولكنهم لم يطالبوا به لضغط حكامهم على افكارهم بقوة الاستمرار إذ لا يتأتى لهم ان ينتقلوا بغتة من الضغط الشديد تحت الامراء المماليك الى الحرية التامة تحت حكومة العائلة المحمدية العلوية ، فتوالى على حكومة مصر محمد علي فابراهيم فعباس والمصريون ساكتون فلما أفضت الولاية الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ م طلع على المصريين فجر الوطنية ، لأنه كان يعدُّ نفسه مصرياً ، فأخذ يبثّ روح الوطنية في جنده إذ لم يكن للعامة ساعد يرجى ولا سطوة تخشى ، وجاهر بوطنيته في حفلة اختتان نجله طوسون بحضور العائلة الخديوية وضباط الجيش وجماعة من الاجانب ، فوقف وارتجل خطبة قال فيها : « ان من أمعن النظر في تاريخ بلادنا هذه وتوالى حوادثها المحزنة لا يسعه غير الاسف والتعجب حيث تتوالى الامم الاجنبية على اهلها ويظلمون سكانها كالكلدانيين والفرس قبل الاسلام والترك والاكراد والشركس وغيرهم بعد الاسلام وكلهم يفسدون ولا يصلحون ، وقد عزمت على تثقيف ابناء البلاد وتهذيبهم وترقيتهم حتى تكون حكومة البلاد بأيديهم بصفة كوني مصرياً منهم وبالله الاستعانة » .

فكان لقوله وقع شديد على السامعين وفيهم احمد عرابي (باشا) وهو يومئذ صاغقول اغاسي وكان جريئاً فازداد جرأة واتسعت مطامعه وانبثت روح الوطنية في سائر الضباط وارتقوا في رتب الجندية وأكثرهم غير متعلمين وإنما

رقاهم سعيد تنشيطاً للوطنية فشقّ ذلك على الضباط الشراكسة والاتراك وأوغرت صدورهم على الوطنيين ووجدوا على سعيد باشا فأحسّ بجفائهم وتذمرهم فلم يبال ، وربما ذكر ذلك للوطنيين تحريضاً لهم على الثبات .

١ – النهضة العسكرية :

لما افضت الولاية الى اسماعيل سنة ١٨٦٣ تبدلت الاحوال لأنه كان على غير رأي سلفه في امر الوطنيين، وقد بذل قصارى جهده في استقدام الأجانب الى بلاده بما أنشأه من وسائل الرفاه وتسهيل التجارة ، وكان مع ذلك يعنى بتعليم الوطنيين وإرسال الارساليات الى اوروبا ، فازداد المصريون معرفة لحقوقهم . ولكن الخديوي اسماعيل كان يرى من حسن السياسة ان يضغط عليهم ويقيّد افكارهم ويطلق العنان للأجانب على اختلاف اجناسهم وخصوصاً الشراكسة ، فكظم المصريون ما في نفوسهم اعواماً على انهم ظلوا يتهامسون به فيما بينهم ، ولم يكن حديثهم حيثما اجتمعوا إلا التشاكي مما يقاسونه من الضغط مع خروج معظم مصالح البلاد من أيديهم الى الاجانب .

وكان اكثرهم تشكياً جماعة الجهادية لظهور الإجحاف فيهم اكثر مما بسواهم، لأن القوة العسكرية كانت مؤلفة من المصريين والشراكسة وغيرهم . ولم يكن المصريون ينالون من الرتب إلا امارة الالايات فما دونها ، بخلاف الشراكسة الذين كانت الألوية والفرقاء منهم والسلطة والنفوذ في أيديهم، وكلما شاهدوا من المصريين تذمّراً زادوهم تضييقاً ، فاذا اقتضت الاحوال تجنيد حملة الى السودان او غيرها من بلاد الشقاء جنّدوا اليها المصريين وبقي الشراكسة يتمتعون بنفوذهم ورفاهيتهم في القاهرة والاسكندرية ، فلم يكن ذلك إلا ليزيد الوطنيين حقداً وغيظاً . ولما لم يستطيعوا التصريح بشكواهم جهاراً ، ألّفوا الجمعيات السرية يهمسون فيها بما في ضمائرهم سراً

ثم افضت الخديوية المصرية الى المغفور له الخديوي توفيق باشا ، وكان رحمه الله محباً للوطن المصري راغباً في ترقية أبنائه لأنه تربّى تربية وطنية محضة . وكان حرّ الضمير فنظر في شكوى الوطنيين فرفع الضغط عنهم واعترف بما لهم . وهي فضيلة جديرة بكل حاكم ، ولكنها جاءت المصريين اذ ذاك على غير استعداد . فبينما هم تحت الضغط الشديد والنار كامنة في صدورهم إذ رفع الضغط بغتة فاتقدت نيران الثورة وانتشرت في سائر أنحاء القطر .

هذا هو الطور الاول من النهضة السياسية الحديثة ، والعامل فيه كما رأيت اطلاق الحرية فجأة بعد طول الضغط ، وقد قام بها الجند وجاراهم الأهالي وأكثر هؤلاء لا يدركون ماذا يعملون وإن كانوا يرجون بذلك التخلص من امتياز الأجانب . وكان اكثر زعماء الجند من غير المتعلمين فلم يحسنوا التصرف في تلك الحركة ، فبعد ان كانت نهضة وطنية سياسية تحوّلت الى ثورة عسكرية آلت الى الاحتلال الانكليزي وأمره معلوم .

فلما ذهبت دهشة الحرب انتبه عقلاء الامة فوجدوا انفسهم قد نجوا من شر ووقعوا في شرّين، لاعتقادهم انهم سفكوا دماءهم وبذلوا اموالهم للتخلص من شر الشراكسة وهم يختلفون عنهم جنساً ويشتركون معهم في الدين ، فاذا هم قد دخلوا في سيطرة دولة اجنبية تختلف عنهم جنساً وديناً . ونبغ على اثر تلك الثورة جماعة من رجال الفكر والحرية عملاً بسنة العمران على اثر كل حركة اهلية . وكان بعضهم قد مالأوا عرابي وحوكموا ونُفوا ثم عادوا وقد زادتهم الغربة خبرة وعبرة ، ورأوا الاحتلال قد توطدت دعائمه فرضخوا له وهم يعللون انفسهم بجلائه قياماً بالوعد. على ان بعضهم يئس من الجلاء فتقرّب من عميد الاحتلال واستعان به على خدمة مصالح الامة ، والبعض الآخر خدمها بنشر المبادىء الاجتماعية لترقية النفوس وتربية الاخلاق الحسنة، وعمل

آخرون على بثّ المبادىء الاصلاحية في نفوس المسلمين ومحاربة البدع ونحوها مما يباعد بين المسلمين وسواهم .

اما الامة على إجمالها فما زالت تئنّ تحت نير الاحتلال وتتشكى همساً في الأندية الخصوصية او المجالس العائلية لا يسمع لها صوت ، والصحافة مقيدة يومئذ بقانون المطبوعات إلا من كتب في جريدة افرنجية لا سلطة للقانون عليها . وكان اكثر الأجانب تظاهراً بتقبيح الاحتلال الفرنسيون .

ولما توفي المرحوم توفيق باشا وخلفه سمو الخديوي الحالي تجدّدت آمال الامة بانقلاب سياسي يرفع ذلك النير عن رقابهم . وطبيعي ان يكون الجناب العالي اكثر الناس رغبة في الجلاء . ولم يخفَ ذلك على المصريين فزادوا تعلقاً بعرشه وأحس الانكليز بذلك فاستيقظوا وساعدتهم الاحوال على البقاء فبالغوا في استخدام نفوذهم ، وأساء بعضهم معاملة المصريين فازدادوا كرهاً للاحتلال وتعلقاً بالخديوي كأولاد يستغيثون بوالدهم من غريب نزل في دارهم يحاول امتلاكها . ولنفس هذا السبب توجهت الآمال الى الاستانة ، وأكثر المصريون من ذكر الخليفة وسيادته على المسلمين ، وقلما كانوا يفعلون ذلك من قبل .

٢ ـ النهضة المدرسية :

واقتضت سياسة انكلترا في اثناء ذلك اطلاق حرية المطبوعات ، ونبغ جماعة من الكتّاب والمحررين تدرجوا في استقلال الفكر الى نشر مساوىء الاحتلال ، فحدثت نهضة سياسية صحافية انقسمت الصحف فيها الى حزبين، حزب يعرف بجرائد الاحتلال يمتدح اعمال المحتلين ، وحزب يعرف بالجرائد الوطنية ينتقدها ، وعميد انكلترا يطلع على ما يقولون ولا يكلفهم السكوت. وكانت الجرائد الوطنية تعبر عن احساس الوطنيين وتطعن في جرائد الاحتلال

لا يخرجون في ذلك عن المناقشة ، وقلّ فيهم من جاهر بطلب الجلاء . ونشأ في اثنـاء ذلك طبقة من الشبان تخرجوا في المدارس المصرية وتفقهوا في اوربا وتشرّب بعضهم كره انكلترا من معاشرة الفرنسيين . وفرنسا الى ذلك الحين خصم انكلترا تساعد كل من يقوم عليها. وزعماء هذه الطبقة من الناشئة المصرية طلبة الحقوق لما يتعوده طلاب هذا الفن من استقلال الفكر والرضوخ للصواب والتمسك بأهداب الحق ، فتألف من الناشئة المصرية حزب جــاهر بمقاومة الاحتلال ، وانضم اليه سائر طلبة المدارس العـالية وهم في الغالب من ابنـاء الخاصة ويعدون بالآلاف منتشرون في انحاء القطر المصري،فبثوا تلك الأفكار في اهلهم وجيرانهم وهم سواد الأمة ، فتكاثر الناقمون على الاحتلال ، وهي نهضة سياسية مدرسية تختلف عن التي تقدمتها بقوة الاحتجاج والاقتدار على المطالبة بالإقناع.وهي الطائفة التي نصرت مصطفى كامل وهو من طلبة الحقوق.

١ – مصطفى كامل وترجمة حاله :

وُلد في القاهرة من ابوين مصريين في ١٤ اغسطس (آب) سنة ١٨٧٤ م وكان والده علي افندي محمـد مهندساً من جهة الصلية ، اشتهر بين معـارفه وجيرانه بطيب العنصر وحسن الخلق ، ووالدته من جهـة المحجر بالقاهرة . ولما بلغ السادسة من عمره اتاه والده بمدرّس لقنه القراءة والكتابة ثم ادخـله مدرسة عباس باشا الاول. وقبل إتمام دروسه الابتدائية توفي والده فانتقل الى مدرسة القربية وعمره ١٢ سنة فأتم دروسه الابتدائية فيهـا ، وظهر ذكاؤه بامتيازه على سائر الرفاق فنـال جائزة الامتحان الاولى بين يدي المغفور له الخديوي السابق سنة ١٨٨٧ م ثم انتقل الى المدرسة التجهيزية قضى فيها اربع سنين نال في نهايتهـا شهادة البكالوريا ، وكان من النابغين ، واشتهر باستقلال الفكر وصراحة القول من ذلك الحين . وانتبه المرحوم علي باشا مبارك ناظر



مصطفى كامل (١٨٧٤م - ١٩٠٨ م)

المعارف يومئذ لفصاحته وقوة عارضته ، فقال له مرة : « انك امرؤ القيس وستصير عظيماً » . وأخبرنا احد رفاقه في تلك المدرسة ان المرحوم علي باشا مبارك اختصه بجنيهٍ يتناوله كل شهر مدة اقامته في المدرسة، ودوّن اسمه في كشف ماهيات المعلمين ، واضطر مصطفى لنقش خاتم يختم بـه الكشف على اصطلاحهم ، وهو اول عهده بالأختام .

وكان في اثناء اقامته بالمدرسة التجهيزية موضع اعجاب الاساتذة والتلامذة جميعاً لما امتاز به من حسن الالقاء وفصاحة اللسان . ولم يكن ناظر المعارف اقل منهم اعجاباً بـه ، فكان ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه في المسائل العلمية او الاجتماعية ويقدمه الى جلسائه من العلماء والوزراء والكل يعجبون

به ويتوقعون له مستقبلاً مجيداً . فلما أتمّ دروسه التجهيزية سنة ١٨٨٩ م دخل مدرسة الحقوق الخديوية على ان يعدّ نفسه لصناعة المحاماة لأنها احوج المهن الى الخطابة . ورأى في وقته متسعاً فالتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية ايضاً ، فكان يتلقى العلم بالمدرستين حتى نال الكفاية منه فذهب الى طولوز بفرنسا ادى فيها الامتحان ونال الشهادة وهو في التاسعة عشرة من عمره .

وتنبه خاطره وهو يدرس الحقوق الى المسائل السياسية ومدارها على مصر والاحتلال ، وهو وطني حريص على وطنيته مستقل الفكر شديد الثقة بنفسه وقد تشرّب من اساتذته الفرنسيين الاستهانة بانكلترا والوثوق بفرنسا فأصبح همه إنقاذ مصر من الاحتلال ، وكان عضواً عاملاً في عدة جمعيات ادبية يخطب فيها ويباحث ، وأكثر بحثه في مصر والاحتلال والجلاء ، وكان يتردّد على الجرائد الوطنية ليكتب في هذه المواضيع ، ولقي إصغاء وتنشيطاً فألّف رواية فتح الاندلس التمثيلية وكتاباً في حياة الامم والرق عند الرومان وألّف بعد ذلك كتاب المسألة الشرقية وغيره وكلها ترمي الى تحبيب الاستقلال الى المصريين وإحياء الشعور الوطني فيهم ، فالتفت حوله جماعة من المريدين والمعجبين وأكثرهم من رفاقه في المدرسة ومن يرى رأيهم من تلامذة المدارس العالية فأنشأ لهم مجلة شهرية سماها المدرسة يبث فيها آراءه وأفكاره .

واتفق في أثناء ذلك رجوع المرحوم عبد الله نديم خطيب العرابيين الى مصر سنة ١٨٩٢ م وسمع بمصطفى كامل فقرّبه منه واقتبس صاحب الترجمة بعض أساليبه واطلع على دخائل الحوادث الماضية وتبين اسباب الفشل فأصبح قادراً على تجنبها ، وزاد رغبة في إنقاذ مصر من سلطة الاجانب ، ولا يكون ذلك إلا بالالتفاف حول امير البلاد فاستنبط فكرة الاحتفال بعيد الجلوس الخديوي فحرّض رفاقه التلامذة على ذلك فاحتفلوا به في الازبكية في ٨ يناير

(كانون الثاني) سنة ١٨٩٣ م فقرّبته المعية ورضي عنه الجناب العالي . وفي ذلك الاحتفال صرّح مصطفى كامل للمرة الاولى بانتقاد حالة الحكومة ودعا المصريين الى مطالبة الانكليز بالجلاء عن بلادهم قياماً بوعودهم. وكان في جملة الحضور ناظر مدرسة الحقوق فاستدعى مصطفى اليه في الغد وعاتبه على تصريحه فأجابه انه مصري وله الحق ان يبحث بشؤون مصر وشدّد لهجته فرفع الناظر امره الى نظارة المعارف فأصدرت امراً بمنع التلامذة من الاشتراك في مثل ذلك ومن مكاتبة الصحف . فاعتبر مصطفى هـذا الامر موجهاً اليه فازداد تمسكاً برأيه وتضاعفت همته على إخراجه الى حيّز العمل .

وجـاء مصر في ذلك الحين المسيو دلونكل فرنسي كثير التظاهر بالغيرة على المصريين. وكان في مصر يومئذ حزب وطني تألف بطبيعة الحال من اوائل عهـد الاحتلال ، ولم يكن حزباً منظماً له رئيس ونائب وأمين وكاتب مثل احزاب هذه الايام ولكنه ضمّ نخبة النبهاء والوجهاء الذين يكرهون الاحتلال وينتقدون اعمال الانكليز إما رغبة في استقلال مصر او نقمة لذهاب نفوذهم. ولهذا الحزب فضل على أكثر الصحف الوطنية التي نشأت في اوائل الاحتلال لأنهم كانوا يساعدونها مادياً وأدبياً تحت طي الخفاء للاستعانة بهـا على جرائد الاحتلال . وكان مصطفى كامل طبعاً من جملة ذلك الحزب ، وكان دلونكل يحضر مجتمعات الوطنيين ويستحثهم على الثبات. فالتقى هناك بصاحب الترجمة وأعجب بذكائه وفصاحته فرغّبه في السفر الى فرنسا للتبحر في الحقوق فسافر الى باريس آخر سنة ١٨٩٣ م وأعجبته حرية القوم وموافقتهم إياه في انتقـاد الانكليز فعرف كثيرين من رجال السياسة والصحافة فيها . وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٤ م احتفل بعيـد الجلوس الخديوي هناك احتفالاً شهده أكثر المقيمين في باريس من المصريين وهم من التلامذة المرسلين لتلقي العـلم على نفقة الحكومة

المصرية . فألقى مصطفى فيهم خطاباً استحثهم فيه على الثبات في طلب الجلاء فوافقوه وتواطأوا على استنجاد فرنسا في ذلك الطلب على ان تكون حجتهم وعد انكلترا الذي صرّحت به عـــام الاحتلال . وبلغ ذلك نظارة المعارف المصرية فأخرجت المشتركين في ذلك العمل من عداد الارسالية .

وعاد مصطفى في أواسط السنة التالية الى مصر ، وتعاطى المحاماة أشهراً فرآها أضيق من ان تسع مطامعه ، وفي صدره غرض أصبح جزءاً من وجدانه ولم يكتف بما كان ينشره في الجرائد ، فعوّل على إلقـاء الخطب السياسية في المنتديات العمومية . فألقى خطبته الأولى في الاسكندرية ، ونشرتها الجرائد فرأى فيها الناس من شدة اللهجة على الاحتلال وطلب الجلاء ما لم يعهدوه من قبل . فأعجبوا بالشاب وشاركوه في إحساسه. وفيهم من رأى ذلك الطلب بعيد المنال ، ولكن الانسان يلتذ بالانتقاد على غالبه . فأطروه ونشطوه ، فازداد رغبـــة في الخطابة والصحافة ، ولذّت له الشهرة فوطّن النفس على الاستهلاك في طلب الجلاء ، وجعل ذلك وجهته وكعبة آماله ومدار أعماله ، وهو يعلم عجزه عن تلك الأمنية بنفسه وأهـله ، فرأى ان يستعين بفرنسا ، وقد جرأه على ذلك ما آنسه في رحلته الاولى من الحفاوة وما سمعه من التأمين والترغيب على عادة الفرنسيين من الانقياد الى الوجدان . فكف عن صناعته وانقطع للمطالبة بالجلاء فشخص سنة ١٨٩٥ م الى باريس ومعـه رسمٌ كبير يمثل مصر والاحتلال الانكليزي بشكل يرمز عن توسل المصريين الى فرنسا ان تساعدهم كما ساعـدت الأميركان واليونان والبلجيكيين والايطاليين في نيل حريتهم .

رفع هــذا الرسم الى مجلس النواب الفرنسي في ٤ يونيو من تلك السنة ، ومعه عريضة قدمها باسمه ينوب فيهـا عن مصر في استنجاد ذلك المجلس على

الانكليز . وكان لهذا العمل دوي في فرنسا فضلاً عن مصر ، وتحدث الناس يومئذ بجرأة هذا الشاب وعلو همته وإقدامه ، وهو الى ذلك الحين لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . فلم يأت هذا المسعى بالنتيجة المطلوبة ، ولكن الفرنسيين رحبوا بالخطيب المصري ، وتقاطر اليه كتّاب الصحف يقابلونه وينشرون آراءه في جرائدهم. وتسابق القوم يدعونه لإلقاء الخطب في انديتهم وكلها ترمي الى الغرض عينه .

وأول خطبة سياسية القاها على الفرنج في طولوز صدرها بتاريخ الاحتلال وعهوده ، وفصّل احوال النظارات المصرية وسيطرة الانكليز فيها وبالغ في استئثارهم بالوظائف والنفوذ واحتقارهم الاهالي ، وأخذ يبرهن ان وجود الانكليز بمصر يخالف كل المعاهدات وأن اخراجهم منها يوافق مصالح دول اوربا كافة . ثم القى خطباً اخرى ، وراسل الجرائد وكاتب الوزراء ، وكلها ترجع الى انتقاد الاحتلال وطلب الجلاء . وأشهرها خطاب بعث به الى المستر غلادستون من باريس يسأله رأيه في مسألة مصر والاحتلال، فأجابه غلادستون جواباً جاء في جملته قوله : « اننا يجب ان نترك مصر بعد أن نتمّ فيها بكل شرف وفي فائدة مصر نفسها العمل الذي من اجله دخلناها » و « ان زمن الجلاء على ما اعلم قد وافى منذ سنين » .

فلا عجب بعد اعتراف اعظم رجال انكلترا بموافاة زمن الجلاء اذا رأينا مصطفى كامل يزداد ثباتاً في دعوته . فرجع الى مصر في اوائل سنة ١٨٩٥ م وقضى بضع سنوات وهو يخطب ويكتب ويكاتب ويناضل . وكأنه خاف ان تضيق الصحف عن خطبه ومراسلاته فأنشأ جريدة اللواء اليومية لنشر آرائه السياسية سنة ١٨٩٩م وهي الآن في سنتها الثانية عشرة، وصوتها في الدفاع عن مصر والمصريين من أعلى الأصوات .

ولما تمَّ الاتفاق بين انكلترا وفرنسا بشأن مصر والمغرب الاقصى ولم ينل مصطفى من فرنسا غير المواعيد وجَّه احتجاجه الى المراجع الاصلية، إما الى رجال السياسة بانكلترا رأساً او الى جرائدهم ، وسافر الى بلاد الانكليز لهذه الغاية . ثم رأى ذلك لا يفي بمراده ولا يحيط بمدى صوته ، فأنشأ اللوائين الانكليزي والفرنسي لينشر فيهما اقواله عن مطالب مصر حتى يصل النداء الى انكلترا وسائر اوربا وألَّف لهما شركة مساهمة هي اول شركة مساهمة تألفت لإنشاء الجرائد في هذه البلاد ، وذهب بنفسه الى انكلترا واستقدم المحررين .

فطار صيته في الآفاق وأصبح اسمه مرادفاً لاحتجاج مصر على انكلترا ، وهو في خلال ذلك لا يضيّع فرصة لا يحتج بها.ومن اشهر مواضيع احتجاجه مسألة دنشواي ، فقد كان في مقدمة المنادين بظلم الحكم على اهلها واستكتب الاهلين عرائض لالتماس العفو وقـّع عليها ١٢٫٥٠٠ من المصريين ورفعها الى الجناب العالي. وكان في اثناء ذلك يخدم مصلحة الدولة العلية من طرق كثيرة، فأنعم عليه السلطان بالرتب والألقاب حتى بلغ الرتبة الأولى من الصنف الثاني والنيشان المجيدي الثاني . وتعلقت به قلوب المصريين وتعشقوه بما لم يسبق له مثيل ، فلما تشكل الحزب الوطني في العام الماضي انتخبوه رئيساً له طول حياته ولكنه رحمه الله كان قصير الحياة فتوفى في العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، فانتخبوا مكانه رفيقه في جهاده محمد بك فريد رئيساً للحزب ومديراً للألوية الثلاثة .

٢ ـ صفاته وأعماله :

كان رحمه الله متوسط القامة قمحي اللون سريع الحركة جريئاً مقداماً فصيح اللهجة قوي العارضة شديد الثقة بنفسه واسع الآمال طموحاً للعلى

مستقل الفكر صريح القول ، وكان عصبي المزاج والعصبي يغلب فيه الذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر ، وكانت هذه الطبائع ظاهرة في الفقيد ظهوراً واضحاً إذ كثيراً ما كنا نراه في اثناء نضاله يكاد يغلب على رأيه لما يظهر لنا من حجة خصمه فما هو إلا أن يصدر اللواء في اليوم التالي فنراه قد تدرع بدفاع أيده بشواهد تاريخية انتبه لها، وكانت تساعده على ذلك قوة الحافظة.

وكان فيه من طبائع العصبيين سرعة الانفعال . وسريعو الانفعال يغلب فيهم التقلب في الرأي ولم يكن كذلك ولكنه كان شديد الوطأة على مخالفيه ولو كانوا من اساتذته او اقرب الناس اليه . وسرعة الانفعال مع هذه الشدة قد يبعثان على الفشل في الاعمال العظمى لأنها تفتقر الى التساهل والكظم والصبر على المكاره فالفقيد سدّ هذا النقص بجرأته وعلو همته وثقته بنفسه . فكان اذا نهض لأمر اقتحمه اقتحام الاسد فريسته وجاهد في سبيله بيده ولسانه وجنانه لا يعجزه السفر ولا يبالي بالتعب فقضى زهرة شبابه ينتقل من قارة الى قارة ومن عاصمة الى عاصمة لا يتحول عن منبر عربي حتى يعلو منبراً افرنجياً . اذا كتب رأيت الحماسة تتجلى بين سطوره وإذا خطب انقض كالصاعقة او انهال كالسيل . وإذا توهم في احد وقوفاً في طريقه ناهضه وبارزه لا يبالي بمنصبه او مقامه . وكان لا يهاب عظيماً ولا يراعي خليلاً ولا نزيلاً ولا سيما في اوائل ادواره وهذا هو سبب ما كان يبدو في بعض اقواله يومئذٍ من التعريض بالنزلاء او الدخلاء لاعتقاده انهم يخالفون مصلحة مصر . وفهم القوم يومئذٍ انه يعني بالدخلاء السوريين فعاتبوه فصرح انه إنما يعني فئة منهم يعتقد انها تكره مصلحة مصر . فلم يبق لهم حجة عليه لأن القائل اولى بتفسير اقواله . وقد يعذر على تعريضه بالسوريين اذا ساء الظن بهم فقد مرّ بهم اعوام في اواسط الاحتلال لم يقم كاتبٌ يدعي الدفاع عن مصلحة مصر

إلا حمل عليهم واتهمهم بالعداوة تصريحاً او تلميحاً وهم ساكتون دائبون على اعمالهم حتى تحقق العقلاء بتوالي الاعوام ان السوري لا يقلّ غيرة على مصلحة مصر من اخيه المصري وإن السوريين طائفة ذات شأن في المجتمع المصري فعاد الفريقان الى التحاب والتقارب . وكان الفقيد في مقدمة اولئك العقلاء .

وكان رحمه الله نزيه النفس عفيف الازار صادق اللهجة طاهر الجيب لا يلذ له من احوال الحياة غير التفكير في الغاية التي وقف قواه عليها وهي خدمة بلاده بأشرف السبل وأنفعها وكان يعتقد ان الاستقلال اول خطوة يجب السير بها ويعني بالاستقلال خروج الانكليز من مصر بمساعدة دول اوربا ورجوعها الى ما كانت عليه قبله. واستجمع قواه في هذا السبيل فسافر وكتب وخطب وجادل وناقش لهذا الغرض. وكان يرى مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم فكان شديد المدافعة عنه كثير السعي في نصرته. ومن اقصى امانيه ان يكون نصير المسلمين في اربعة اقطار الارض. وقد اطلعنا بعض الاصدقاء على كتاب من بعض رجال ابن الرشيد يؤخذ منه ان الفقيد سعى منذ بضع سنوات في السفر الى نجد لملاقاة ذلك الزعيم هناك . وقرأنا في تأبين بعض مريديه انه كان ينوي استئذان جلالة السلطان في ان يكون خطيب المسلمين في المدينة يوم وصول السكة الحديدية اليها وإنه كان يهيء اسباب الرحيل الى اليابان لحضور معرضها ونقل نتائج الافكار الكبيرة لربط العلائق مع الشعب الياباني على ان يمرّ في اثناء طوافه ببلاد الهند ليرى احوال النهضة الاسلامية هناك – كل ذلك يدل على كبر نفس هذا الرجل وسعة مطامعه . فهل كان مخلصاً في سعيه حسن القصد بما يقوله ؟ فإذا ثبت انه كذلك حق للمصريين ان يبكوه ويعظموه وأن لم يروا ثمر عمله لأن الاعمال بالنيات . وإلّا فلا فضل له . ويظهر لنا من تدبر اعماله انه كان مخلصاً وإليك الدليل :

١ – ثباته في المبدأ الذي قام في نفسه منذ كان تلميذاً لا يسمع صوته إلا رفاقه حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطني وصاحب الالوية الثلاثة – له دعوة واحدة كانت تتجلى في مطالبه اذا كتب او خطب او ناقش او باحث بين الاصدقاء او الاعداء بالعربية او الافرنجية على سواء .

٢ – انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه في سبيلها حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب فلم يتزوج ولا جلس لشرب او لهو ولا التفت الى جمال او طرب . لا يلذ له غير التحدث بالوطن او الاستقلال او الجلاء. وقد يتبادر الى الذهن انه فعل ذلك طمعاً بالمال وهذا باطل ، لأن الرزق من القلم أضيق من شقه . ويقول آخرون ان غرضه الشهرة الواسعة ، وقد نال منها ما لم ينله سواه من اهل هذا الجيل حتى تناقلت ذكره صحف العالم الافرنجي وحدها ١١٥٫٠٠٠ مرة في اثناء جهاده فضلاً عن جرائد الشرق الاقصى والادنى ، وعرف اسمه كثيرون لا يعرفون اسم اعظم رجال مصر. ولكن طلب الشهرة في سبيل المصلحة العامة ليس من المعائب ، بل هو من اكبر دعائم العمران وطلاب الشهرة اعظم رجال العالم .

٣ – اجماع الذين عاشروه من رفقائه وأصدقائه على حبه واعتقاد الاخلاص فيه فضلاً عن الآخرين مما لا يتأتى لغير المخلصين . لأن الانسان اذا سعى في مشروع عمومي طمعاً بمال او جاه لا تلبث حقيقة حاله ان تنكشف لعشرائه الأقربين او شركائه في عمله ، فينفضون من حوله كما أصاب كثيرين من زعماء الاحزاب في العالم القديم والحديث . ففسدت نيات اصحابهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وقد يبقى مع الزعيم المنافق اناس يداجونه ويداجيهم التماساً للكسب . ولكن اصحاب مصطفى كامل ثبتوا في ولائه حياً وميتاً وهم يستهلكون في سبيل نصرته ، وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء ومعظمهم

اكبر منه سناً وأوفر مالاً وأعرض جاهاً وبعضهم أغزر منه علماً، وقد نصروه بعقولهم وأموالهم وقلوبهم ولم يستنكفوا من تصدّره في مجالسهم ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم .

٣ – هل هو رجل عظيم ؟

يختلف الحكم في عظمة الرجال باختلاف الامم والاجيال. فبعضهم يقيسون العظمة بكبر المطامع وسعة الفتوح او بكثرة الاموال ، وبعضهم يقيسونها بمقدار النفع الذي يترتب على ظهور ذلك العظيم . فمن الفرنسيين من يعدُّ بونابرت اكبر رجال فرنسا لكثرة فتوحه وكبر مطامعه ، وبعضهم يقدّم باستور عليه لأنه خدم الانسانية باكتشافاته المكروبية . وآخرون يفضلون رجال الدين والشارعين. وعندنا ان الرجل العظيم إنما يكون عظيماً بما يخلّفه من الإعجاب والأثر الحسن في نفوس معاصريه ، إذ قد يكون عظيماً بنفسه ولا يوفق لإتمام عمله فيؤسس لمن يأتي بعده . وعلى هذا القياس نعدُّ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده عظيمين ، لأن الاول من مؤسسي النهضة السياسية ، والثاني من مؤسسي النهضة الدينية الاصلاحية . وعلى هذا القياس ايضاً نعدّ مصطفى كامل عظيماً لأنه أحيا في الامة المصرية جامعة الوطن، وهو القائل : «لو لم أكن مصرياً لوددت ان أكون مصرياً » . وعلّم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم وأسمع دول اوروبا أصواتهم . فهو من اكبر مؤسسي النهضة السياسية المصرية. ولم يأتِ جمال الدين الافغاني عملاً لا يستطيع مصطفى كامل مثله وأعظم منه لو بلغ الى مثل سنه . ألم يواقف اعظم دول الارض حتى عرّض نفسه للنفي او الطرد ؟ وقد تفانى في خدمة مبدئه حتى مات شهيداً في ريعان شبابه .

على ان ذلك لا يمنعنا من انتقاد اعمـــاله ، لأن العصمة لله وحده ولكل امرىءٍ رأيه. والذي نراه في الفقيد رحمه الله انه كان متطرفاً في آرائه يعادي من ينتقدها او يخالفه فيها . واذا حمل على خصمه بالغ في الغض من فضله وقد ينكر حسناته ولو كانت ظاهرة كالشمس . وكان مغالياً في استسهال مطالبه لأنه طلب الاستقلال العاجل وقرائن الاحوال تشهد ان ذلك الطلب سابق لأوانه . او لعـله تعمّد التطرف جرياً على سياسة المتطرفين (Radical) من احزاب الامم المتمدنة الذين يطلبون البعيد ، فاذا لم ينالوه نالوا بعضه . ومن ثمار هذه السياسة في مصر نهوض المعتدلين وتجرّؤ الخائفين من ارباب الصحف على طلب الاصلاحات الممكنة . ومن ثمـــار سياسة التطرف ايضاً سرعة نموّ الشعور الوطني لما في تلك السياسة من الحمـاسة المثيرة للاحساس والحاملة على التضافر والتعاون .

على اننـا نرى انه لو وجّه تلك الهمة الشماء او بعضها لاستدرار الاموال وإنشاء المدارس العالية ، لكان ذلك اقرب الى الغرض المقصود من سعيه ، بدليل انه إنما قام بمؤازرة ابناء تلك المدارس ، ولولاهم لم يستطع عملاً يذكر فكلما زاد عددهم زاد مشروعه قوة وثباتاً وتهيأت الامة ان تحكم نفسها ، فاذا طلب الاستقلال بعد ذلك لا يجد المحتلون حجة للبقاء. ولم يكن يعجزه إنشاء عدة كليات كبرى بما فطر عليه من قوة العارضة وعلوّ الهمة ، وبما له من المكانة في نفوس الأغنياء . ولا ننكر مـا للفقيد من الأيادي البيضاء في نصرة التعليم والتربية ، ولكننا في حاجة الى اكثر من ذلك كثيراً .

ان الفقيد أحيا الشعور الوطني بحماسته وجرأته ، وجاءه الموت السريـع في ابان جهاده فذهب شهيداً . وعرف المصريون له ذلك ، فاتحدوا في البكاء عليه وتعاونوا في تعظيمه وتكريمه ، فظهر الشعور الوطني بعد موته اكثر ممـا كان

ظاهراً في حياته . فنتقدم الى الساعين في مصلحة الامة من مريديه وغيرهم ان يؤيدوا هذا الشعور بتعميم التعليم العالي ليكون اجتماع الامة عن تعقل وروية، وذلك أدعى الى الغرض المراد والسلام .

سليم صيدناوي

صاحب اكبر محل تجاري في مصر

المراد عندنا من نشر تراجم العظماء إما تدوين اعمالهم ليبقى ذكرهم إقراراً بفضلهم وإعجاباً بمواهبهم ، او نشر تلك الاعمال للاعتبار بسير اصحابها قدوة لسواهم او للسببين معاً . فترجمة بونابرت والاسكندر ومعاوية وبسمارك وغلادستون ، يراد بها تخليد اعمال اولئك العظماء ، والإعجاب بما أتوه من الاعمال العظمى . وترجمة كولمبوس مكتشف اميركا وباستور مكتشف المكروب وغوتمبرج مخترع الطباعة وغيرهم من اصحاب الفضل على المجتمع الانساني يراد بها على الغالب تدوين افضالهم على صفحات التاريخ. وأما تراجم دزرائيلي وبالسي وسليني وروتشيلد وغيرهم من رجال النشاط والاجتهاد الذين ولدوا فقراء واكتسبوا الثروة او العلم او الصناعة بجدهم ونشاطهم فيراد بها فضلاً عن تخليد ذكرهم الاقتداء بأعمالهم وكلما اقتربت سير هؤلاء من حاجات القراء زادت الفائدة من نشر تراجمهم . فترجمة رجال السياسة او الادارة او الحرب لا تفيدنا شيئاً في ما نرجوه من التقدم في اعمالنا . وأما رجال العلم او التجارة او الصناعة اذا كانوا قد نالوا ما نالوه من الثروة او الجاه بجدهم وأمانتهم فترجمة حالهم فيها قدوة حسنة للشبيبة من ابناء هذا الجيل — ودرهم قدوة خير من قنطار تعليم .

وقد جرت العادة ان يقتصر ارباب الاقلام عندنا على ترجمة العلماء او القواد او رجال السياسة ونحن اشدّ احتياجاً الى ترجمة التجار العصاميين الذين اثروا بالطرق القانونية الموافقة لشروط النجاح . لأن التجارة اهم مصادر الارتزاق في بلادنا . ومن الاوهام الشائعة « ان الثروة لا تنال بطريق الحلال وإن الانسان الامين المستقيم يعيش فقيراً ويموت معوزاً وإنما يثري الكاذبون اهل الحيل والنفاق » . ولهم في ذلك اقوال وأشعار وأمثال . وهو عذر الذين يفشلون في سعيهم مع رغبتهم في العمل وسهرهم واستقامتهم فينسبون فشلهم الى صدقهم وسلامة نيتهم . وهم إنما فشلوا لافتقارهم الى بعض معدات النجاح كالذكاء او المعرفة او الثبات او نحو ذلك لأن الاستقامة وحدها لا تكفي ولو رافقها السعي والسهر . وإليك اهم ما يحتاج اليه الانسان من شروط النجاح على العموم :

شروط النجاح :

١ — المعرفة : اول ما يحتاج اليه طالب النجاح في هذه الحياة ان يكون متقناً لعمل من الاعمال الصناعية او التجارية او الزراعية او القلمية كأن يكون نجاراً ماهراً او تاجراً محنكاً في اصناف التجارة او عارفاً الحساب التجاري او مزارعاً يعرف اصول الزراعة علماً وعملاً او عالماً بفن من الفنون القلمية او متقناً مهنة من المهن العلمية كالطب او المحاماة او الترجمة او الانشاء او نحو ذلك . ويكفي ان يعرف مهنة واحدة معرفة جيدة لا ان يعرف غير واحدة معرفة ناقصة فإن المكثر لا يتقن والنجاح يحتاج الى اتقان .

٢ — حسن الاختيار : وهو ان يحسن الانسان اختيار المهنة الملائمة لمواهبه ويضعها في المكان الموافقة له . فلا يتعاطى الصناعة وهو مفطور على التجارة

ولا يشتغل بالعلم اذا لم تتوفر فيه المواد اللازمة له . ويتعاطى عملاً حيث يرجى له رواج كأن يتجر بالاقمشة السميكة في البلاد الحارة او ينشىء معملاً لمصنوعات لا تروج في تلك البلاد او انها تكلف اكثر مما تكلفه اذا حملت اليها من الخارج او نحو ذلك مما لا يمكن حصره وإنما يتكفل بتمييزه الذوق السليم.

٣ – الثبات : كثيراً مـا يفشل العامل ولو توفرت فيه المعرفة اللازمة وحسن الاختبار ويغلب ان يكون سبب فشله استعجاله في استثمار عمله. فإذا لم يذق ثمر سعيه عاجلاً عدل عنه وشكا سوء حظه او نقم على الزمان لأنه لا يساعد غير الجهال .. وقد يأتي بالشواهد القريبة عن اناس افلحوا وهم اقل منه معرفة وقد فاته انهم إنمـا افلحوا بالثبات او بغيره من الاسباب التي لم تتوفر فيه وهي لازمة للنجاح .

٤ – الاستقامة : من الامثال الشائعة على ألسنة صغار الباعة ان هذا الزمان لا ينفق فيه غير النفاق ولا يروج فيه غير الغش وهم يقولون ذلك في كل زمان . وهو غير الواقع لأن الاستقامة والأمانة من اهم شروط النجاح ولا سيما في هذا العصر عصر الحق والحرية وما نجاح الكاذبين إلا الى حين . على ان الاستقامة وحدها لا تفيد شيئاً لأن المستقيم اذا جردته من المعرفة والثبات كان كالعجماوات لأنها سليمة القلب لا تعرف الغش ويندر ان تسرق او تخدع .. وإنما يشترط في الاستقامة ان تكون دعامة للمعرفة لا ان تكون هي رأس مال العامل وحدها .

٥ – الاجتهاد : قد تتوفر في الرجل المعرفة والاستقامة والثبات وحسن الاختيار ولا يصيب إلا نجاحاً قليلاً لكثرة المناظرين له في مهنته او لأسباب اخرى فلا يتم نجاحه إلا بالجد والسهر وقد يكون الرجل متوسط الذكاء والمعرفة فيعوض جده عن ذلك النقص .

٦ – مراقبة الفرص: ان اغتنام الفرص من اكبر اسباب النجاح وهي على الغالب اهم وسائل الاثراء ، إذ قد تسنح للانسان فرصة اذا تنبّه لها واغتنمها أغنته عن سعي كثير او فتحت له باباً للكسب الطائل الذي لا يتوقعه من عمله الاعتيادي .

٧ – اسلوب المعاملة : هذا سر عظيم من اسرار النجاح إذ قد يكون الانسان متقناً ثابتاً مستقيماً مجدّاً ساهراً ولا يصيب نجاحاً كبيراً لأنه لا يحسن معاملة الناس او انه اتخذ في معاملتهم اسلوباً لا يرضيهم . وينبغي لطالب النجاح ان يتحلى بالأخلاق الرضية مع خفة الروح ورقّة الطبع ودقة الشعور، فاننا نعرف غير واحد من اشهر المتقنين لأعمالهم وقد فشلوا لأنهم لم يحسنوا الاسلوب في المعاملة ، وكثيراً ما يتوقف نجاح المرء على حسن اخلاقه اكثر مما على حدة ذهنه وذكائه .

فسليم صيدناوي الذي نحن في صدد ترجمته ُولد فقيراً ونال ثروة طائلة وشهرة واسعة بجده واستقامته وثباته وحسن اسلوبه على ما تراه في ما يلي :

ترجمة حاله :

ُولد سليم في دمشق سنة ١٨٥٦م من عائلة معروفة هناك وكان ابوه المرحوم يوسف صيدناوي سمساراً تجارياً. فربي في حضن والديه وتلقن مبادىء القراءة والكتابة على قدر ما تسمح به احوال تلك الايام ، فقد كانوا اذا اتقن احدهم القراءة في المزامير او الأناجيل وعرف شيئاً من الحساب قالوا : « انه ختم علمه » . وكان والده كثير التفكير في مستقبل بنيه ويرى ان الشاب لا يأمن الفقر ما لم يتعلم صناعة من الصنائع الضرورية ، فأدخل سليماً في محل خياطة فرنجية ، وكانت حديثة العهد في سوريا يومئذ ، فتعلمها وما زال يشتغل بها حتى انتقل الى مصر سنة ١٨٧٩ م .



سليم صيدناوي (١٨٥٦م – ١٩٠٨م)

وكان اخوه سمعان وهو اصغر منه بسنتين قد اتى مصر سنة ١٨٧٧ م وفيه ميل الى التجارة من صغره فخدم، وهو في دمشق ، في محل تجاري نحو ثلاث سنوات مع رغبة ابيــه في تعليمه الصناعة عملاً بالمبدإ الذي قدمناه ، وقد علـّمه صناعة الحياكة ، لكنه كان اكثر ميلاً الى التجارة . وجـاء الى مصر سنة ١٨٧٧م بلا رأس مال فلقي فيها عمه المرحوم نقولا صيدناوي وكان تاجراً في الحمزاوي يبيع الحرائر والخرداوات، فخدم عنده ونفسه لا تطاوعه

على البقاء في الخدمة . واتفق بعد خمسة اشهر من خدمته عند عمه أن تاجراً سورياً اسمه الياس جهامي توفي عن اولاد قاصرين وله محل تجاري في الحمزاوي اراد الاوصياء تصفيته فاغتنم سمعان هذه الفرصة وتصدى لتصفيته فسلموه اليه وعمل في اثناء التصفية على استخدام بعض ما يقبضه من ثمن المبيع في ابتياع بعض الاصناف وتصريفها مع سائر البضائع على أن يكون له نصف ربحها وللمحل النصف الآخر. ولما قارب الفراغ من التصفية بلغت تلك الارباح ٢٨٥ جنيهاً نصفها له . فاتفق مع الاوصياء على استبقائها كلها بيده وأن يدفع عن النصف الآخر وعن ثمن بضائع باقية في المحل قيمتها ١٤٠ جنيهاً فائدة قانونية. فكان رأس مال ذلك المحل نحو ٥٠٠ جنيه ثلثاها دين على سمعان يدفع فائدة ٢٠٠ غرش كل شهر .

فصرف سمعان عنايته في طلب النجاح بالطرق الحلال، وكان سبب نجاحه على الاكثر انه اهتدى بتفكيره وسهره الى المصدر الاصلي للبضائع التي كان يبيعها في محله ، وهي الحرائر والمناديل ، وكان تجار القاهرة يستوردونها من الاستانة ، فعرف هو ان تجار الاستانة يستجلبونها من اوربا ، فاستجلبها من هناك رأساً ، وباعها بأرخص مما كان غيره يبيعها بـه ، فراجت تجارته واتسع شغله .

فلما قدم سليم الى مصر كان سمعان في محله المشار اليه فاشتغل سليم اولاً بالخياطة من طريق التجارة ، فاشترك مع الخواجه متري صالحاني في محل للخياطة والتجارة ، وحصة سليم من رأس المال دفعها اخوه . وبعد قليل احترق المحل وذهب رأس المال كله . وكان بين سليم وسمعان تآلف وتحاب فوق تآلف الأخوة كأنهما شخص واحد . وكان للمرحوم سليم انعطاف على اخيه منذ الصغر ، فلما احترق المحل اغضى سمعان عن تلك الخسارة وشارك

اخاه في الباقي معه ، ففتحا حانوتاً في الموسكي عند مدخل شارع منصور باشا لا تزيد مساحته على اربعة امتار مربعة اقام فيه سليم وظل سمعان في الحمزاوي. وعقدا الشركة رسمياً باسم « سليم وسمعان صيدناوي » سنة ١٨٧٩ م اي منذ ٣١ سنة . وأخذا في العمل بنشاط وأمانة وهما ، عازبان يقيمان في غرفة بوكالة يعقوب بك بالحمزاوي ليس فيها من الاثاث إلا سرير ينام عليه احدهما ومقعد ينام عليه الآخر ، ويأكلان في مطعم بغاية ما يكون من البساطة والاقتصاد . وقد سمعناهما يذكران ذلك بعد ان بلغا من بسطة الجاه وسعة الثروة لا يرون في ذكره حطة ولا صِغاراً .

أساس النجاح :

وأساس نجاحها بعد الشركة حادث يشبه ما يروى عن نجاح بيت روتشيلد يدلُّ على ثمار الأمانة والاستقامة . وذلك ان سليماً وهو في حانوته المشار اليه أتته خادمة من قصر البرنس مصطفى فاضل باشا وابتاعت منه ثوبي دانتلاً بستة عشر غرشاً (تعريفة) وفهمت انه يعني ١٦ غرشاً صاغاً ، فدفعت المبلغ ومضت وهو لم ينتبه لمقدار ما دفعته لاشتغاله بسواها ، ثم عدّ النقود فرأى المرأة دفعت ضعفي ما طلب منها ولم يكن يعرف مكانها . فجاءت في اليوم التالي لتبتاع ثوبين آخرين وبيدها ١٦ غرشاً اخرى ، فأخبرها ان الثمن ٨ غروش وهي القيمة التي بقيت لها بالامس ، وأعطاها الثمن ولم يأخذ منها شيئاً. فدهشت المرأة لهذه الامانة وهي نادرة الوقوع لاسيما في معاملة الاغنياء لطمع الناس بأموالهم . وقصّت ذلك على سيدتها ، فشاع خبر تلك الحادثة في بيوت الوجهاء من الأمراء وأقاربهم ، فرغبوا جميعاً في معاملة ذلك التاجر

المستقيم . وكان سليم يعرف شيئاً من التركية سهّل عليه معاملتهم ، وما زالو يزدادون ثقة بأمانته كل يوم حتى اصبحوا لا يبتاعون فرشاً او ثياباً او قماشاً إلا بمشورته او على يده .

فاشتهر بالامـــانة والاستقامة بين الأغنياء فزادت مكاسبه ، وضاق ذلك الحانوت عليه فانتقل سنة ١٨٨١م الى حانوت اكبر منه في الموسكي ايضاً يطل على الخليج ، ثم وسّعوه من داخله بعـــد ذلك وهو شطر محلهم الحالي وفيه اصناف السجاد والفرش . ولما أخذا ذلك المحل اجتمع الاخوان للتعـاون على العمل ، وظلّ محل الحمزاوي لهما . ومـــا زالت اشغالهما تتسع ورأس مالهما يكبر وكلما ضاق المحل وسّعاه حتى لم يبق سبيل الى توسيعه ، فأخذا محلاً تجاهه جعلاه المحل المركزي وفيه الكتاب والحساب .

ومما يعدُّ خطوة كبرى في طريق النجاح اعتمادهما في المسواق على اوروبا . بدأوا بذلك سنة ١٨٨٥ م في فرصة عرضت لهما ، وذلك ان المرحوم سليماً أُصيب بانحراف في صحته فوصف له الأطباء الاستشفاء بأوروبا، فاغتنم وجوده هناك وخابر المعامل التي تشتغل بأصناف تجارته ، ورأى فرقاً كبيراً بالاثمان فعاملها رأساً فصار ذلك قاعدة في المسواق كل عام. وانقسم الشغل بين الاخوين فتولى سليم المسواق والحسابات، وانفرد سمعان بتنظيم ادارة البيع . وما زالا في تقدم والشغل ينمو ويتسع ويتفرع حتى اصبح محلهما في القاهرة اعظم محل تجاري في الشرق ، عدد عماله يناهز ١٥٠ عاملاً من البـاعة والكتّاب غير المستخدمين الصغار وغير مستخدميهم في اطيانهم وعقاراتهم وأعمالهم الاخرى، فضلاً عن محلاتهم الفرعية في منشستر وليون وباريس والاسكندرية وغيرها . وغير البنك الذي أنشأوه قبل وفاته شركة مساهمة باسم « بنك صيدناوي وظريفة ونحاس وشركاهم » ، وأنعم عليهما الجناب العـالي بالرتبة الثانية مع

لقب بك . وفي ذلك العام جعلا محلهما التجاري بالقاهرة شركة مساهمة اسمها « سليم وسمعان صيدناوي ليمتد »، وظلت شركتهما الاصلية في العقار والطين باسم « سليم وسمعان صيدناوي » . امـا ثروتهم فنحو ثمانماية الف جنيه ثلثاها عقار وأطيان والثلث الآخر في التجارة .

حساب الحق او العشور :

قد رأيت انهما أسسا شركتهما على الاستقامة والأمانة وقد سيّجاها بالاحسان على اسلوب جعـلا الاحسان فيه فرضاً عليهما لا يتوقعان عليه اجراً . وذلك انهما تعاهدا منذ تأسيس الشركة وهما في ذلك الحانوت الصغير ان يخصصا خمسة في المئة من الربح توزع على الفقراء على سبيل الزكاة ، فأصبحا يجردان المحل في كل سنة فاذا عرفا الربح أخرجا خمسة في المئة منه للاحسان وسميا هذا المال «الحق او العشور» ينفق في سبيل البر. وما زال ذلك دأبهما حتى ذلك الحين وقد زادت اموال العشور بزيادة ارباحهما ففتحا لها حساباً خاصاً في دفـاتر خاصة وربما بلغ مقدارها نحو ٢٠٠٠ جنيه في العـام تنفق في اعـــالة الفقراء ، لا يفرقان في ذلك بـين المسلم والمسيحي واليهودي وغيره للكساء او الطعام او المأوى او بتزويج العذارى اللواتي يحول الفقر دون زواجهن . فكم من عائـلة سترها احسانهما وكم من بيوت امست لولاهما خراباً . يفعلان ذلك ولا يعدانه احساناً وإذا اردت التنويه بذكره تجاهلا وقد ينكرانه ولكن الحق يأبى إلا الظهور . فلا عجب اذا رأيت آثار احسانهما ظاهرة في الجمعيات والعائلات والمستشفيات والمدارس والكنائس. وهي امثولة للاغنياء يحسن تحديها والعمل بها . فإن المحسنين بينهم قليلون وإذا عملوا براً نفخوا بالبوق وضربوا بالطبل وأشاعوا ذلك على صفحات الجرائد التماساً لحسن الاحدوثة .

صفاته وأخلاقه :

كان سليم رحمه الله ربع القامة ممتلىء الجسم مخلص الطوية صادق اللهجة لا يحلف ولا يخلف وكان واسع الصدر طويل الاناة شديد الميل الى المسالمة والتساهل صبوراً على العمل شديد المحافظة على الوقت كثير الرغبة في مواساة الحزانى وإعالة المساكين فإذا احتضر والدٌ وعلم قبل موته ان سليم صيدناوي سيكون وصيّاً على اولاده مات قرير العين مطمئن الخاطر ولذلك كثرت الوصايات اليه وهو لا يبالي بما ينفقه في سبيلها من الوقت او الصحة . فضلاً عن اعماله في خدمة اوقاف الطائفة الكاثوليكية وعن توسطه في حل المشاكل بين الشركاء او الاقرباء او الاصدقاء .

ومع كثرة شواغله كان كثير الائتناس بأهله لا يبرح بيته زاهراً مشرقاً بقرينته وهي ابنة عمه نقولا صيدناوي الذي تقدم ذكره في صدر هذه المقالة بما فطرت عليه من الذكاء واللطف والتعقل وحب المطالعة فلم تكن تدخر وسعاً في سبيل راحته فإذا اوى الى منزله خففت عنه متاعب الحياة بلطفها وحسن اسلوبها كما ينبغي ان تكون المرأة الفاضلة . ويعمد هو الى ملاعبة اولاده او اولاد اخيه ومداعبتهم فيذهب تعبه وتتجدّد قواه فيزداد نشاطاً على العمل .

العبرة والموعظة :

نحن في مقام ترجمة المرحوم سليم صيدناوي ولكننا لم نرَ بدّاً من الكلام عن اخيه ايضاً لارتباطهما في العمل وتعاونهما على الخير . أما العبرة بما تقدم فهي ان نجاح هذين الاخوين حجة دامغة على ان الاستقامة والصدق ضروريان للنجاح ولا يكون مأموناً ان لم يتعهده اصحابه بالإحسان زكاة او صدقة

فتزداد المكاسب وينجو صاحبها من غوائــــل الحسد . ليس لأن الحسد يضر المحسودين ولكن الانسان اذا ارتقى بـأي باب من ابواب العمل كثر حساده ومنتقدوه وكلما كبرت نفسه كثر الطاعنون فيه – ومن الناس من لا يهمه ما يقال عنه وإنما يهمه ان تزيد ثروتـه احبه الناس او أبغضوه . ومنهم من لا يهمه الكسب بقدر مــا يهمه حب الناس . فهؤلاء يتلافون الطعن والحسد بالإحسان والتواضع والتلطف وقـد يكون احسانهم عن احساس ديني التماساً للثواب وكلا السببين الآخرين حسن نافع لأن النتيجة منهما اعالة الضعفاء وعمل الخير. وأما الذين يقتصر همهم على جمع المال لا يبالون بما يقال عنهم فإنهم نموٌ غريب في جسم الاجتماع ينمو بامتصاص غذائه ويعود بالضرر عليه .

أما الصيدناويان فإنهما افضل مثال لما ينبغي ان يكون عليه رجال الثروة وأهـل الجاه وهما مع ثروتهما وجاههما يتوخيان البساطة في اساليب معاشهما ويبذلان الالوف في اعـالة الفقراء . وهما مثال في الجد والنشاط يشتغلان من الصباح الى مـا بعد العشاء شغلاً شاقاً يعرفه كل من زار محلهما ورأى حركة العمل فيه .

ومن اسباب نجاحهما غير مــــا تقدم من الامانة والنشاط واغتنام الفرص حسن الاختيار فقد اختارا العمل واقتسماه على حسب استعداد كل منهما سليم للمسواق والإدارة والحسابات وسمعان لإدارة البيع . ومن تلك الاسباب ايضاً الثبات فقد ثبتا في شغل واحد ثلاثين سنة وهو الاتجار بالحرير والخرداوات لم يتحولا عنه وإنما وسعوه بما يلائم ان يكون ملحقاً به . ومنها اسلوب المعاملة وهما مشهوران باللطف والتواضع فـلا يخرج الشاري ولا البائع من محلهما إلا راضياً .

قاسم امين

نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة

أصيب الاسلام في اوائل هـــذا القرن بفقد غير واحد من كبار رجاله ونوابغ عمــاله ، نخص بالذكر اثنين من دعــاة الاصلاح الاجتماعي او الديني ، احدهما الشيخ محمـــد عبده زعيم النهضة الاصلاحية الاسلامية في هذا العصر ، والثاني قاسم بك امين نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة . وقـــد مات كلاهما وبينهما ثلاث سنين ، فخسرنا بذلك خسارة لا يعرف مقدارها إلا الذين يعلمون افتقار الشرق الى ذلك الاصلاح ولا سيما العائلة فانها قوام الأمة وقوام العائلة والمرأة فلا تصلح الأمة إلا باصلاحها .

المرأة العربية قبل الاسلام وبعده :

تبين لنا من أبحاثنا في « تاريخ العرب قبل الاسلام » الذي صدر ملحقـاً للهلال ان المرأة العربية كان لها مقام رفيع في التمدن العربي القديم ، فتعاطت الكتابة وتولت الادارة وعانت سائر أعمال الرجال في الألف الثالث قبل الميلاد اي منذ اكثر من ٤٠٠٠ سنة . وعرفنا دولاً عربية في أعالي الحجاز لا يتولى الملك فيها إلا النساء . ناهيك بما تناقله العرب من اخبار بلقيس صاحبة اليمن والزباء (زينوبيا) صاحبة تدمر ، عدا اللواتي اشتهرن في اثناء الجاهلية من العرافات والكواهن ولا يتولى الكهانة إلا الممتازون بالعقل والتدبير بعد ان ينالوا المقام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع. ويقال بالاجماع ان المرأة في الجاهلية كان لهـا شأن وإرادة وأنفة ورأي وحزم . ونبغ غير واحدة منهن قبيل الاسلام وفي اوائله بالسياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة على



قاسم امين (١٨٦٥ م — ١٩٠٨ م)

أثر مـــا حصل من النهضة في النفوس والعقول يومئذ ، فاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال . وممن اشتهرن بالحزم والرأي خديجة بنت خويلد زوج النبي، وأسماء بنت أبي بكر، وسكينة بنت الحسين وغيرهن[١] .

ظلت المرأة العربية على انفتها وعزّة نفسها وسمو منزلتها في ايام الراشدين وزاد توسعها في طلب المعرفـة إذ اتسع المجال للعقول والمواهب فنبغت غـير واحدة بالشعر والأدب ، وأتت بعضهن اعمالاً يعجز عنها كبار الرجال . فلما أفضت الدولة الى بني أمية في اواسط القرن الاول للهجرة اصاب المرأة العربية صدمة قوية غيرت كثيراً من طبائعها لتكاثر الجواري والغلمان في دور الأمراء

(١) ترى تفصيل ذلك في الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي .

وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغنـــاء والمسكر وتكاثر المخنثين في المدن وتوسطهم بين الرجال والنساء بالباطل .

ولما استبحر عمران المسلمين في العصر العباسي زادوا انغماساً في القصف واللهو والخلاعة وفسدت النيـة بين الرجل وامرأته وهو صاحب الذنب لأنه بدّد شعائره وأمياله بين عدة نساء فقلّت ثقة امرأته به . ولم ينضج التمدن في ذلك العصر حتى تنوسيت المرأة العربية وذهبت حريتها وغيرتها وانحطت نفسها وذهبت انفتها واستقلال فكرها . فاحتقرها الرجل وساء الظن بهـا وصار يعاشرها على غلّ وسوء رأي ويقفل عليهـا الابواب والنوافذ . وأصبح الطعن في طباعها وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة النـاس حتى ألّفوا فيها الروايات والقصص ونظموا بها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . هـذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في العصور الاسلامية الوسطى بعـد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف . وأما الاشعار فإليك ما قاله ابو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لديك عشراً   فلا يدخل على الحرم الوليدُ
وإن خالفتني وأضعت نصحي   فأنت وإن رزقت حجا بليد
ألا إن النساء حبال غيٍّ   بهنّ يضيّع الشرف التليد

وأصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله ابو بكر الخوارزمي إذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته ، وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من غرائب امرها ، لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات

من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة ، فقد استكمل النعمة . واذا زفّ كريمة الى القبر ، فقد بلغ امنيته من الصهر » .

قال الشاعر :

ولم أرَ نعمة شملت كريماً كنعمة عورةٍ سُترت بقبرِ

وقال آخر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت اكرم نزال على الحرمِ

وقال آخر :

وددت بنيتي ووددت اني وضعت بنيتي في لحد قبرِ

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البناتِ

وقال آخر :

سمينها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيتُ

هذا مثال من آراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وقد زادت حطة وصغاراً في الاجيال الاسلامية الوسطى تبعاً للتقهقر العام وبلغت غاية ذلك في القرون الاخيرة قبل النهضة ، وقد تساوت في ذلك الانحطاط المرأة المسلمة وغير المسلمة من نساء الشرق الاسلامي على الاجمال والناس سكوت، لأن القرائح جامدة والنفوس ميتة بما تولى الناس من فساد الاحكام وتفشي الجهل .

فلما اخذ القوم بأطراف التمدن الحديث واستنارت العقول بالعلم ، انتبه العقلاء الى المرأة وعمدوا الى النظر في تحسين حالها ورفع شأنها . بدأ بذلك المسيحيون لكثرة اختلاطهم بأصحاب هذا التمدن ، وقد أصابوا منه حظاً

وافراً إذ ليس في تقاليدهم او عقائدهم ما يمنع حريتها . ثم اخذ عقلاء المسلمين يفكرون في حال المرأة المسلمة ويشعرون بحاجتها الى الاصلاح لعلمهم ان الامة يتوقف اصلاحها على اصلاح المرأة، فطفقوا يتهامسون في ذلك تهيباً من مقاومة تيار العامة الذين يعدّون التضييق على المرأة من حقوق الرجل .

ثم اخذ بعضهم يتظاهرون بنصرتها ، وأنشئت المدارس لتعليمها ، وظهر القائلون بوجوب اصلاحها وليس بينهم من تصدّى للمجاهرة بذلك على الملأ بالكتابة والخطابة ، لأن الشجاعة الادبية كانت قليلة بيننا . وأسبق المسلمين الى طلب الإفراج عن المرأة في هذا العصر الاتراك في الاستانة لكثرة اختلاطهم بالاجانب وسبقهم في الاطلاع على اسباب التمدن الحديث. ولذلك كان كتابهم أسبق الى المجاهرة بوجوب رفع الحجاب، وأول من فعل ذلك من العرب هناك الشيخ احمد فارس صاحب الجوائب .

اما في مصر فما زال العقلاء يتهامسون في هذا الموضوع وفي غيره مما يشعرون بحاجتهم اليه من الاصلاح الاجتماعي او الديني حتى صرح الشيخ محمد عبده بآرائه فلاقى ما لاقاه من المعارضة والنقمة ، وكانت وجهته الاصلاح الاسلامي على العموم بحلّ قيود التقاليد وتحكيم العقل في التفسير والتأويل الى ما فيه ترقية شؤون المسلمين . فكثر مريدوه والمؤمنون على أقواله وإن قلّ المجاهرون بذلك على المنابر او في الصحف . ومن اولئك القليلين فقيد الامس قاسم بك امين ، فانه اخذ على عاتقه القيام بأهم اسباب الاصلاح المطلوب نعني تحرير المرأة . تصدّى لذلك بشجاعة يندر مثلها .

الشجاعة الادبية :

الشجاعة الادبية ان يقول الانسان اعتقاده ، ولو كان فيه ما يسيء

الكبراء او يهيّج عليه العامة ، ممـا يؤول الى الخطر على حياته او مصلحته . وأصحاب هذه المنقبـة قليلون ، ولا سيما في الشرق بعدما توالى على اهلـه من اصناف الذل والخسف. وأما في ابان تمدنه فقد اشتهر من رجاله جماعة تضرب الامثال بشجاعتهم الادبية لسيادة العدل ونزوع ولاة الامور الى نصرة الحق والضرب على ايدي الظالمين . فلم يكن الناس يخافون ان يقولوا مـا يعتقدون حتى كان الرجل من العامة ربما انتقد الخليفة او الامير في وجهه لا يخشى بأساً وقد تعود المسلمون ذلـك من زمن الراشدين . فلما افضت الدولة الى بني امية وعمدوا الى الدهـاء والشدة في تأييد سلطانهم امسكوا على الناس حريتهم . ومع ذلك فقد نبغ غـير واحد بذلوا حياتهم في سبيل شجاعتهم كا اصاب ابا ذر الغفاري وحجر بن عدي الكندي وسعيد بن جبير وغـيرهم . ولا تقتصر تلك الشجاعة على المسائل السياسية او الدينية بل هي لازمة في العلم والأدب فقد عرض غاليليو حياته للخطر لمخالفة الاولين في قولهم عن ثبوت الارض .

والانسان من فطرته حرّ الفكر يدلك على ذلك ما يبدو في كلام الاطفال من الصراحة والحرية ولكن تربيته على الخوف والحذر وتضييق الفكر منـذ الصغر بالخرافات والاوهام تقيدان العقل حـتى يعجز صاحبه عن التفكير إلا على القالب الذي صب عقله فيه – فعلى طالب الاصلاح قبل ان يحل لسانه من خوف العقاب ان يحل فكره من قيود التقليد – هذه هي الخطوة الاولى نحو الشجاعة الادبية . وجمهور العامـــة مقيدو الفكر لا تتمشى افكارهم إلا على الخطة التي رسمتهـــا عاداتهم فتبدو آراؤهم مسبوكة في القوالب التي اقتضتها تربيتهم او معتقداتهم . فقبل ان نطالبهم بحرية القول او الشجاعة الادبية يجب علينا ان نعلمهم « حرية الفكر » أي ان نجعلهم ينظرون في مـا يعرض لهم من المسائل بعين العقل لا بعين الغرض وأن يبحثوا عـــن الحقيقة المجرّدة

بقطع النظر عما غرس في اذهانهم مما يخالفها فيحكموا عقولهم وليس عاداتهم ومعتقداتهم — ذلك ما يعبرون عنه باستقلال الفكر .

فمتى اطلق الرجل فكره من قيود الغرض او التقليد بقي عليه ان يصرح بما يرشده اليه عقله إذ قد يكون في تصريحه مـــا يسوء سواه او يعود عليه بالضرر فيمسك عنه خوفاً او مسايرة فيسكت . وقـد يتمادى في جرّ المنفعة لنفسه فيقول عكس ما يعتقده التماساً لرضى الآخرين . ونرى امثلة من ذلـك شائعة بيننا لهذا العهد .

فالناس من هذا القبيل ثلاث طوائف طائفة غلبت عليها الاوهام وقيدتها التقاليد فلا تنظر في الامور إلا بعين الغرض وبما تقتضيه تلك القيود فلا يلام اصحابها إلا على الجهل . وطائفة حلت افكارها من تلـك القيود ونظرت في الأمور بعين العقل فظهر لاصحابها في شؤون العامة خلل يقتضي اصلاحاً فمنهم من يسكت عن ابداء رأيـــه خوفاً من غضب الجمهور او مراعاة لرئيس او صديق — وهي جبانة وضعف . ومنهم من لا يكتفي بالسكوت عـن الحق بل يجاري تيار الجهلاء فيقول عكس ما يعتقد — وهو النفاق والرياء . ومنهم من يقول ما يعتقده بشجاعة وصراحة لا يبالي بمـا قد يلحقه بسبب ذلك من الضرر — وهي الشجاعة الادبية واصحابها هم رجال الفضل على المجتمع الانساني ومنهم كبار المصلحين والشارعين . وليس المصلح او الشارع إلا رجلاً دعـــا الناس الى غير مـــا الفوه او تعودوه من الاصلاح الديني او الاجتماعي وضحى نفسه او مصلحته في هذا السبيل — وصاحب الترجمة من اولئك المصلحين .

ترجمة حاله :

كان ابوه امين بك ابن امير من امراء الاكراد اخذ رهينة في الاستانة على

أثر خلاف وقع بين الدولة العلية والاكراد. ثم جاء الى مصر على عهد اسماعيل باشا وانتظم في الجيش المصري ورقي فيه الى رتبة اميرالاي وتزوج بكريمة احمد بك خطاب اخي ابراهيم باشا خطاب فولدت له اولاداً اكبرهم قاسم صاحب الترجمة .

وليس في ترجمة قاسم امين ما نراه في تراجم رجال الحرب او السياسة من الحوادث العديدة فقد ربي كما يربى امثاله من اولاد الوجهاء وتثقف في مدارس الحكومة المصرية ، وكان ممتازاً من صغره بالذكاء وحدة الذهن ، ولما أكمل دروسه كان في جملة الذين اختارتهم الحكومة للارسال الىاوربا يتعلمون بنفقتها على جاري العادة في ذلك الحين، فدرس الحقوق في فرنسا وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ م فتعين وكيلاً للنائب العمومي في محكمة مصر المختلطة وما زال يرتقي حتى صار مستشاراً في الاستئناف ، وكان في كل اعماله مثال الامانة والنشاط واستقلال الفكر حتى توفاه الله بالسكتة في ٢١ ابريل (نيسان) الماضي وهو في الثالثة والاربعين من عمره .

صفاته وأعماله :

كان رحمه الله ربع القامة اسمر اللون كثير التفكير قليل الكلام ، وكان حرّ الفكر صادق اللهجة ، وقد زاده التبحر في القوانين والنظر في أقوال الفلاسفة الاجتماعيين استقلالاً في الفكر وصراحة في القول ، لأن القضاء يعوّد صاحبه التمسك بالحق وإجلال قدر الحقيقة وممارسة القضاة الاحكام وتعودهم إذعان الناس لأقوالهم بلا مراجعة يزيدهم جرأة لإبداء آرائهم في كل مسألة تعرض عليهم ولذلك رأيت المحاباة والرياء نادرين فيهم .

وكان كبير النفس شديد الحرص على كرامتها ، ولذلك رأيناه محباً لأمته

راغباً في رفع منزلتها لأن حب الأمة من حب الذات ولا يحب أمته إلا الذي يحب كرامة نفسه ومن يتغالى في خدمة أمته فإنما يفعل ذلك حباً بنفسه .

واطلع قاسم على احوال الامم الراقية في أثناء إقامته بأوربا فتمنى ان تكون أمته مثلها فنظر في اسباب الرقي فرآها كثيرة لا يمكن تناولها دفعة واحدة ولا يتيسر تناول شيء منها قبل إصلاح العائلة لأن الامة تكون كما تكون العائلة والعائلة تكون كما تريد المرأة ، فوجه عنايته الى إصلاح المرأة المسلمة وليس هو اول من رأى ذلك او فكر فيه كما قلنا ولكنه كان حازماً مقداماً لا يكتفي بالقول والتذمر او الاستسلام على عادة أكثر المفكرين بيننا ومنهم طائفة لا يقلون تعقلاً وسداداً عن المفكرين في العالم المتمدن ولكنهم يقولون ولا يفعلون وهي آفة المشارقة . أما قاسم امين فكان فعالاً اذا اقتنع بصواب فكر أخرجه الى حيز العمل ، فلما عرف الطريق المؤدي الى إصلاح أمته بادر الى مباشرته وهو يعلم ما يعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام ، لأن اصلاح المرأة يقتضي منحها الحرية ويتناول تقبيح الحجاب والنهي عن الطلاق وتعدُّد الزوجات مما يعدُّه العامة من قبيل العقائد الدينية وهو ليس من الدين في شيء ، فاضطر ان يبين ذلك في أثناء بحثه . وبعد اعمال الفكرة ألـَّف كتابه (تحرير المرأة) واسمه ينمُّ على منزلة المرأة المسلمة في اعتباره فهو يعدُّها مستعبدة وقد اخذ على نفسه ان يحررها . وعلم ان الناس سيكبرون قوله وينكرن عليه مشروعه ،حتى المرأة لأنها ألفت الذل وتعوّدت ان تعتبر نفسها من ادوات المنزل . فلم يكن يتوقع ان يرى ثمرة سعيه في حياته فرضي ان يضع الاساس لسواه فصدَّر كتابه المشار اليه بقوله :

« وغاية ما أريد هو ان أستلفت الذهن الى موضوع قلَّ المفكرون فيه لا

ان اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني . وقد يوضع مثل هـذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها » .

ثم بيّن حاجة المرأة المصرية او المسلمة الى الاصلاح موجهاً كلامه الى الخاصة والعقلاء فأورد فصلاً في « ان حال المرأة في الهيأة الاجتماعية يتبع حـال الآداب في الأمة » لا يقرأه قارىء إلا توسم من خلال سطوره الحماسة ونصرة الحقيقة وصدق اللهجة فقد افتتح كلامه بقوله :

« اني أدعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وأنا على يقين انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هـــذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها ، فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » .

ثم اخـــذ يبحث في علاقة المرأة بالامة ويورد الأدلة والبراهين التاريخية والاجتماعية ويستنهض الهمم ويستحث القرائح على العمل بعبارات ملؤها الحماسة والاخلاص ، قال :

« ولا يركن الى حب السكينة إلا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى اصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مـا يعدّه اهل الوقت حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى او قضت به المصالح في الازمنة .

« وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوى في الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام . وما يرمي بهذه الكلمة إلا حباً بالتخلص من مشقة الفهم او الخروج من عناء العمل في البحث او الاجراء . كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم وأقالهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية .

« سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فأقول نعم ، اني أتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها » .

وأفاض في بسط الموضوع وتأييده ، فأفرد فصلاً لتربية المرأة وهو يعتقد انها مساوية للرجل لا تختلف عنه إلا بما يستدعيه اختلافها في الصنف . وان تعليمها العلوم الطبيعية والعقلية والادبية يساعدها على القيام بواجباتها المنزلية وترقية نفوس ابنائها . وقسم الكلام في التربية الى التربية بالنسبة الى الوظيفة الاجتماعية وبالنسبة الى الوظيفة العائلية . ثم تكلم في الحجاب ، وكان قد ألّف كتاباً بالفرنسية قبل « تحرير المرأة » ردّ به على كتاب الدوك داركور الذي طعن فيه على المصريين وقبح اخلاقهم وعاداتهم . واختصر قاسم في دفاعه عن الحجاب هناك ، فأفاض هنا في حقيقة الحجاب من الوجهة الدينية ومن الوجهة الاجتماعية ، واستأنف الكلام في « المرأة والامة » وبيّن ارتباطها في فصل طويل .

وختم كلامه بفصل في « العائلة » وتوسّع في الكلام على الزواج وشروطه وبيّن ان الشريعة الاسلامية تأمر بحسن المعاملة وتنهى عن تعدُّد الزوجات وتقبح الطلاق ، مسنداً اقواله الى القرآن والحديث والقواعد الاجتماعية والاحكام

العقلية . وفي كل فقرة دليل على صراحة فكره وصدق لهجته وتفانيه في خدمة امته . ومع ذلك فلم يكد يظهر كتابه وتتناقله الأيدي حتى تصدّى لتخطئته اقوام جاهروا بالسخط على صاحبه بين منتقد وهازىء إما تمسكاً بالقديم او مجاراة لإحساس العامة لارتباط ذلك بمصالحهم وطرق معائشهم . وفيهم من فعل ذلك عن اعتقاد خالص ، ولكن بعضهم تجاوز حد الانتقاد الى الاستهزاء والقول الهراء ، فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وآخرون بالخروج عن الآداب ، وزعم غيرهم انه يرمي الى قلب الهيئة الاجتماعية المصرية وممالأة الانكليز على ضياع البلاد .

اما هو فأغضى عن ذلك كله ورجع الى الموضوع فزاده بسطاً بكتاب آخر سماه « المرأة الجديدة » تكلم فيه عن « المرأة في حكم التاريخ » من أقدم أزمنته الى الآن في الامم القديمة والحديثة ، تأييداً لرأيه في وجوب تحريرها ورفع شأنها وفي « الواجب على المرأة لنفسها » وفصول في « الواجب على المرأة لعائلتها » و « التربية والحجاب » .

ولم يكتفِ بطلب تحرير المرأة ، لكنه وضع لحريتها حدوداً وبين ما يجب عليها وما يحق لها . ووضع للطلاق نظاماً جعله نموذجاً تنسج الحكومة على منواله اذا شاءت تحرير المرأة وإعطاءها حقها الشرعي والمدني . فقيّد ارادة الرجل في الطلاق بحكم القاضي او المأذون بعد ان يرشد الزوج الى ما جاء في الكتاب والسنة من كره الطلاق عند الله وينصحه ويبين له تبعة عمله ، واذا أبى الإصغاء وسّط حكماً من اهله وحكماً من اهلها للإصلاح بينهما فاذا لم يفلح في ذلك كله أذن بالطلاق . ولا يخفى ما في ذلك من تدارك الاضرار التي تصيب العائلات بتسرّع البعض في تنفيذ طلب الطلاق ، وقد يكون طلبه عن غضب مؤقت فإذا ثاب اليه رشده ندم على ما فرط منه .

ظهرت كتابات قاسم في هـذا الشأن من تسع سنوات ، فشغلت الألسنة والأقلام عامـاً او عامين تنبهت فيها العقول وثارت الخواطر وقـام الناس وقعدوا. وقد لاقى من العقلاء اعجاباً كثيراً فنصره بعضهم بألسنتهم وأقلامهم وسكت الآخرون مجاراة للعامة ونصرائهم . وأكثر مجاهرة في نصرته وأخذاً بيده زميلنا ابراهيم بك رمزي ،فإنه أنشأ يومئذ مجلة سماها «المرأة في الاسلام» جعلها وقفاً على هذا المشروع ظهرت سنة ثم احتجبت ثم سكت الناس لا عن اهمال او اغفال ولكنها فترة الحضانة ريثما تتكيف عقول الأمـة لقبول تلك الآراء ، كالتلقيح بالجواهر النـافعة ، فانه يحدث عند دخوله البدن تهييجاً ، وقد يولد صديداً ثم يسكن في الظاهر ويعمل عمله رويداً رويداً. وقد اخذت نتائج ذلك السعي تظهر برغبة النـاس في تعليم بناتهم وإنشاء المدارس لهـذه الغاية . وهذا من أدلة تسرُّب فكر قاسم بالتدريج .

ستتوالى الاجيال وتمر السنون قبل أن تتحرر المرأة المسلمة لكنها ستتحرر وترتقي وتتولى الاعمال الهامة وترفع شأن العائلة كما كانت سالفاتها في جزيرة العرب منذ آلاف السنين ، فاذا بلغت الى ذلك الرقي تذكر انه كان صاحب الفضل عليهـا ويعظم ذكره فيبقى اسمـه منقوشاً بحروف من نور على تاريخ الاجتماع الشرقي في التمدن الحديث .

اعماله في غير تحرير المرأة :

قـد تمرُّ القرون والناس على ما ساقتهم اليه الفطرة في طلب المعاش ، لا يفقهون معنى الحياة ولا الاجتماع ، حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افراداً ينهضون بالأمة الى ما يظنون فيه خيرها ،هؤلاء هم اقطاب العالم ودعائم الهيئة الاجتماعية ، فمنهم من يرى ثمرة سعيه وينـال الفخر بحياته ، ومنهم من يراها خلفاؤه ويطوبونه بعد موته .

وصاحب الترجمة واحد من هؤلاء لم يجنِ ثمر سعيه ولكن معاصريه عرفوا فضله واعترفوا بما طبع عليه من سعة العقل وسداد الرأي والرغبة في خدمة الأمة ، فعهدوا اليه بأعزّ المشروعات لديهم ، نعني انشاء « الجامعة » فولّوه رئاسة اللجنة فلم يدخر وسعاً في سبيلها الى آخر ساعة من حياته .

ذكرنا للفقيد فضله في نصرة المرأة لأنه اظهر اعماله الاجتماعية ولكنه كان راغباً في سائر سبل الاصلاح يطلبها من ابوابها القانونية مع تطبيقها على القواعد الاجتماعية الصحية ، لا يغريه اطراء ولا يخيفه صياح ولا يستغرب نقمة الناس وتخوفهم من كل جديد. وكان يشير الى ذلك في اثناء اقواله ويحتاط له ويدفعه . وله في الاصلاح على اجماله مقالات كان ينشرها في « المؤيد » عنوانها « اسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » لم يذكر فيها اسمه وكان لها وقع حسن .

وله اقوال مأثورة وجمل يتناقلها الناس عنه ويتخذونها قاعدة او مثلاً نشرتها ادارة الجريدة في كتاب سمّته « كلمات لقاسم بك امين » وهو عبارة عن مختارات أفكاره او مذكراته وفيه حكم فلسفية اجتماعية وشذرات علمية يجدر بالأدباء الاطلاع عليها والتمثل بها ، وهذه امثلة منها :

ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك .

اذا استشارك عدوّك فاخلص له النصيحة لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك .

تعصب اهل الدين وغرور اهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم ، وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكر ، بعد كل اكتشاف يتحققه العلم

يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة تحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم اي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين.

ان كان في الوجود انسان يستحق ان يحسد على نعمته فهو العاشق .

من اختباري لأرباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لي ان الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار تتوقد في القلب ، حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثراً بعدها .

لا ادري ما هي غاية الكتاب الذين اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة الاوتوموبيل . ان كان القصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها النـاس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية وإن كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقـد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً إذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها .

لا تكمل اخلاق المرء إلا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه (انتهت اقواله) .

وجملة القول ان قاسم امين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم وتزداد منزلتهم رفعـة وفضلهم ظهوراً بتوالي الاجيال . وفضله يشمل العالم الاسلامي على الاجمال بنصرته للمرأة المسلمة وله فضل خاص على القطر المصري بما نشره بين المصريين من النصائح الخاصة بهم . وبما كان له من القدوة الحسنة

بـين زملائه وأصدقائه وغيرهم . لأنه خدم القضاء ٢٣ سنة كان فيها مثال النزاهة واستقلال الفكر والشجاعة الادبية لا يراعي في الحق صداقـة ولا قرابة ولا مقاماً .

بشاره الخوري

المحسن السوري الشهير

الاغنياء كثيرون في الارض ولكن المحسنين منهم قليلون . وأقـلُّ من هؤلاء من جمع منهم بين الغنى والإحسان والتقوى والمرحوم بشاره الخوري قد اضاف الى هذه الفضائل حسنات يندر اجتماعها في رجل واحد كالدعة واللطف وحب السلام والشهامة والغيرة وحسن الطوية فضلاً عـن النشاط والسهر على العمل والعصامية فإنه جمع ما جمعه من المال بجده واجتهاده كما يتضح ذلك من ترجمة حاله .

ولد رحمه الله في عكا سنة ١٨٣٨ من اسرة كريمة نشأت على التقوى والبر فربي في الفضيلة منذ نعومة اظفاره ثم حدث في سوريا ما حمل تلك العائلة على المهاجرة الى القطر المصري فنزلت الاسكندرية وكان صاحب الترجمة لا يزال غلاماً وقـد احسن القراءة والكتابة فمال الى التجارة فعمل في بعض المحلات التجارية بصفة كاتب ، فلم تمضِ مدة حتى اكتسب شهرة بين التجار بالاستقامة فتهافتوا على استخدامه .

ولكنه أبى إلا الاستقلال بالعمل لحسابه فافتتح محلاً لنفسه فاكتسب ثقة الناس واستمال قلوبهم بحسن معاملته حتى صار مثلاً بالصدق والاستقامة . وطبيعي ان من كانت هذه خصاله لا بد من نجاحه فربح اموالاً طائلة واتسعت



بشاره الخوري (١٨٣٨ م — ١٨٩٨ م)

ثروته بما اكتسبه من مقاولات عقدها مع الحكومة المصرية فغلبت عليه القناعة ومال الى الراحة والتفرّغ الى المبرات فاعتزل التجارة ونزح الى بيروت ، ولم يفتر منذ إقامته هناك عن بذل الاموال في سبيل المشروعات الخيرية والادبية وانتظم في جمعية القديس منصور ثم تولى رئاستها وهي اعظم الجمعيات الخيرية في بيروت ثم تولى رئاسة الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك هناك نحو ١٥ سنة ولم تقتصر حسناته على سوريا وجمعياتها ومدارسها لكنها بلغت الى وادي النيل فبذل الاموال الطائلة في تنشيط المشروعات الخيرية على اختلاف مواضيعها بقطع النظر عن المذاهب والطوائف . ومما يذكر من حسناته المأثورة انه لما احترقت الاسكندرية سنة ١٨٨٢ م أثناء الثورة العرابية كان للمترجم في

الاسكندرية مخازن مملوءة بالارزاق فلم تمسها النـــار مع انها التهمت كل ما جاورها فعدّ الناس ذلك نعمة خصوصية نالها هذا الرجل لتقواه وحسن نيته فلما اخذ مهاجرو المصريين بالعود الى بلادهم وقـد أصابهم ضنك مما تحملوا من تلك الثورة فتح صاحب الترجمة يده بالبذل والعطاء وفوّض الى بعض الاصدقاء الانفاق على سفر اولئك المهاجرين من جيبه الخاص وتظاهر انه انمـا ينفق من اموال المحسنين وبلغ مقدار ما أنفقه في ذلك العام ٢٥٠٠ جنيه .

ومما يروى عنه رحمه الله انه لما أراد الاقتران قصد بعض مدارس البنات في بيروت فالتمس من الرئيسة ان ترشده الى أتقى تلميذاتها بقطع النظر عن حالها من الجمال او المال او غير ذلك مما يبحث عنه شبان هذا العصر فأرشدته الى أتقاهن فتزوجها وعاش معها بالسلام والوفاق وولدت له اولاداً رباهم بخوف الله وغرس في قلوبهم حب الفضيلة وقضى ايامه ساعياً في إلقاء السلام بين اهل الخصام يضرب المثل باحسانه وحسن سريرته حتى توفاه الله في بيروت .

السيد عبد الرحمن الكواكبي

العظمة والشهرة صديقتان يغلب ان تتصاحبا فلا تكون احداهما بدون الاخرى ، ولكنهما كثيراً ما تفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة ، فترى بين اهل الشهرة الواسعة من اذا لقيتهم وسبرت غورهم رأيتهم كالطبل يدوي صوته الى بعيد وجوفه فارغ ، وانهم إنما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل الى نشر محامدهم في الصحف ليقرأها النـــاس ويتحدثوا بها . وقد ينفقون المال ويتحدون أوعر اسباب السعي في هذا السبيل، وترى بينهم من لا محمدة له فينتحل محامد غيره او تكون له حبة منها فيجعلها قبة،



السيد عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥ هـ — ١٣٢٠ هـ)

فاذا نشر ذلك عنه في صحيفة او نشرة او كتاب حمله وطاف به في الاهل والأصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقى من آيات الاعجاب وخصوصاً في هذه البلاد — بلاد المجاملة التي يزداد فيها المغرور غروراً إذ لا يسمع من الناس إلا اطراء وإعجاباً ولو كانت حاله تدعو الى التقريع والتعنيف — ويعدّون ذلك من آداب الحديث .

فما كل شهير عظيم ولا كل عظيم شهير، فكم بين ظهرانينا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الاسباب لأتوا بالامور العظام . وقد تظهر مواهبهم من خلال اعمالهم وإن ضاقت دائرة العمل . ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لا يعرف اسماءهم إلا القليلون، فاذا أصابهم سوء أذاع مريدوهم اخبارهم وتحدثوا بأفضالهم .

ومن هذا القبيل المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي ، فقد جاء مصر سنة ١٣١٨ هـ وأقام في قلب العاصمة ، ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكره احد ولا عرفه إلا الأصدقاء والأخصاء . وهناك اناس يقصرون عن ادراك بعض منزلته علماً وفضلاً ، ولكنهم لا تطأ اقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف اخبارهم بما ينشرونه فيها من نفثات اقلامهم او ثمار قرائحهم — وقد لا تكون تلك الثمار شهية — وإنما يعمدون الى نشرها رغبة في الشهرة. فالكواكبي رحمه الله لم يكن من اولئك ، ولكن همه كان منصرفاً الى خدمة الوطن ونشر المبادىء الصحيحة فيه بالتأليف والتلقين بعد ان قضى معظم العمر في خدمة الحكومة العثمانية في حلب وقاسى اموراً صعاباً من وشايات ذوي الاغراض . فلم يلقَ تربة تصلح لغرس مبادئه فجاء مصر ونشر بعض كتبه ، فعاجل الأجل فمضى ومضت معه أمانيه وهي شبيهة بأماني المرحوم السيد جمال الدين الافغاني ، وقد استهلك في سبيلها كما استهلك ذاك من قبله .

ترجمته :

آل الكواكبي اسرة قديمة في حلب هاجر اليها اجدادهم منذ اربعة قرون ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع في حلب والاستانة . يرجعون بأنسابهم الى السيد ابراهيم الصفوي احد امراء اردبيل العظام . ولهم آثار مشهورة منها المدرسة الكواكبية في حلب . ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الادارة ومنهم فقيد الامس السيد عبد الرحمن ، وقد وُلد في حلب سنة ١٢٦٥ هـ وأبوه الشيخ احمد الكواكبي احد مدرّسي الجامع الاموي الكبير .

تلقى السيد عبد الرحمن مبادىء العلم في بعض المدارس الاهلية ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبية وأتقن العربية والتركية وبعض الفارسية

ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة . وكان ميّالاً من حداثته الى صناعة القلم فاشتغل في تحرير جريدة « فرات » التي كانت تصدر في حلب باسم الحكومة وهو في السابعة والعشرين من عمره . حررها خمس سنوات وأنشأ في اثناء ذلك جريدة سماها « الشهباء » . واشتغل بخدمة الحكومة فتقلب في عدة مناصب علمية وادارية وحقوقية وأهل النقد يذكرون فضله في كل واحدة منها كبيرها وصغيرها ، لأن اقتدار الرجل يظهر في الصغائر كما يظهر في الكبائر. وكان حب الاصلاح وحرية القول والفكر باديتين في كل عمل من اعماله . فلم يرق ذلك لبعض ارباب المناصب العليا فوشوا به ، فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من املاكه . فلم يقلل ذلك شيئاً من علوّ همته ، فغادر الوطن وطلب بلاد الله فجاء مصر ثم خرج منها سائحاً فطاف زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربيها ثم رجع الى مصر .

ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره انه رحل رحلة لم يسبقه احد اليها ويندر ان يستطيعها احد غيره . وذلك انه اوغل في اواسط جزيرة العرب فأقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين يوماً فقطع صحراء الدهناء في اليمن . ولا ندري ما استطلعه من الآثار التاريخية او الفوائد الاجتماعية، فعسى ان يكون ذلك محفوظاً في جملة متخلفاته . وتحوّل من هذه الرحلة الى الهند فشرقي افريقيا ايضاً وعاد الى مصر وكان اجله ينتظره فيها .

كان الكواكبي واسع الصدر طويل الأناة معتدلاً في كل شيء ، وكان عطوفاً على الضعفاء حتى سماه الحلبيون « ابا الضعفاء ». وجاء في الرائد المصري انه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من اصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين .

وكان واسع الاطلاع في تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص ، وله ولع في علم العمران . وألّف كتباً لم ينشر منهـا إلا كتاب «طبائع الاستبداد» وهو فريد في بابه قرظناه في الهلال. وكتاب «أم القرى» ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها فقد كان بعيداً عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة .

ومن يقرأ ترجمـة الكواكبي والأفغاني وغيرهما من رجـال هذه النهضة ، ويدرس اعمالهم والأحوال المحيطة بهم ، يعترف بفضلهم في نصرة الحقيقـة ، وتأييد الحق والحرية .

مدحت باشا (١)

ابو الأحرار

١ ـ نشأته الأولى :

وُلد مدحت باشا في الاستانة سنة ١٨٢٢ م ووالده الحـاج علي افندي ، اصله من روستشوك . نشأ مدحت في حجر ابيه ولم يتلقّ من العـلم في صباه إلا المبادىء الأولية ، وكان يتنقل مع ابيه ويقيم حيثما اقـام حتى استقر في الاستانة سنة ١٨٣٦ م وشبّ هناك وفيه ذكاء وهمة . وأهل الهمم والمطامع في ذلك العهد كانت تتوجه رغائبهم الى خدمة الحكومة، فألحق مدحت اولاً بسكرتارية الصدارة العظمى في الاستانة ، وتنقل منها الى مناصب مختلفة في

---

(١) كان ينبغي ان ننشر ترجمته مع رجال السياسة ولكنها تأخرت سهواً .



مدحت باشا (١٨٢٢ م — ١٨٨٣ م)

الولايات فأقام في دمشق سنتين ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٤٤ م وبرحها الى قونيـة سكرتيراً لمجلس تألف تحت رئاسة سامي بكير باشا ، وارتقى سنة ١٨٤٩ م الى سكرتير ثاني لمجلس الولاية ، وفي سنـة ١٨٥١ م صار سكرتيراً اول له .

واتفق ان قبرصلي محمد باشا قائد جند الشام أساء التصرف في بعض الشؤون المتعلقة بالاموال غير الاميرية في دمشق وحلب فاقتضت الحـال انتداب من يتحرى الاسباب ويحكم بما يتراءى له فانتدبوا مدحت فسافر ، وبعد ستة أشهر عاد وقد نظم مسألة الجمـارك هناك وردّ الى خزينة الدولة ١٥٠,٠٠٠ ليرة عثمانية . وأثبت اشتراك القائد المشار اليه في الاضطرابات التي حصلت وأشار بعزله ، وأظهر مدحت في قضاء هـذه المهمة ذكاء واقتداراً استلفتا انتباه

الصدر الاعظم رشيد باشا فولاه منصباً هاماً في المجلس العـالي فبقي في ذلك المنصب أثناء صدارة رشيد باشا وعلي باشا ورفعت باشا . وفي هـذا المنصب عرف دخائل الامور واطلع على المخابرات المهمة التي دارت بين رفعت باشا وهو وزير للخارجيـة والبرنس منتشكوف مندوب قيصر الروس قبل حرب القرم .

وفي سنة ١٨٥٤ م أفضت الصدارة الى قبرصلي محمد باشا الذي كان مدحت قد أشار بعزله عن الشام فأراد الانتقام لنفسه من ذلك الشاب الجريء ، فعهد اليه حلّ أعقد المسائل السياسية وأدقهـا يومئذ وهي مسألة البلقان . وكانت ثائرة وقـد تكاثرت فيها العصابات المتمردة فوكل اليه تسكين الثورة وتنقية البلاد من العصابات . فذهب في هذه المهمة ونجح فيها نجاحاً باهراً . ولما عاد من سفرته كان رشيد باشا قـد رجع الى الصدارة ودارت المداولة بينه وبين عالي باشا بشأن منح الولايات العثمانية استقلالاً ادارياً Decentralisation وأخذ في وضع القوانين اللازمة لذلك . فقدّم مدحت تقريره عن مهمته فأعجب الصدر الاعظم باقتداره فعقد له على أهم ولايات الطونة (بلغاريا) على ان يجرب فيها الاستقلال الاداري فحدث تغيير فجائي في الوزارة حال دون كل اصلاح .

وتعين بعد مدة قصيرة مندوباً خصوصياً لتفتيش ولايتي ايدن وسيلسترية لأنهما كانتا قـد تمردتا على الدولة فقضى تلك المهمة كما قضى مهمة سوريا من قبل واطلع بذلك على مواضع الضعف في نظام الولايات ورأى الخلل السائد فشكى الولاة فسعوا لدى الباب العالي في تبرئة انفسهم فأمر السلطان عبدالمجيد يومئذ بإعادة النظر . وخاف العقلاء ان يتغلب الباطل فرفع خير الدين افندي احد العلماء المشهورين في الاستانة تقريراً أيّد به أقوال مدحت .

وتوفى رشيد باشا سنة ١٨٥٨ م وخلفه عالي باشا فأعطى مدحت اجازة ستة أشهر يقضيها سائحاً في اوربا يتفقد احوال دولهـا ويدرس نظام بعض الادارات الاوربية . فسافر وهو في السادسة والثلاثين من عمره فزار باريس ولندن وفينا وبروكسل . وامتاز بين رجـال الدولة من ذلك الحين بمهارته الخصوصية في تدبير شؤون الولايات ، فلا تحدث ثورة او اضطراب او خلل في ولاية ويحتاجون الى من يصلحها إلا انتدبوه لذلك .

فانتدب مرة اخرى لتدبير شؤون بلغاريا وكان اهلها المسيحيون قد خافوا على حياتهم وأموالهم فأخذوا يهجرونها بعائلاتهم وأموالهم والجند لا يستطيع منعهم . فعهد بذلك الى مدحت ومنح رتبة الوزارة (١٨٦١ م) فسافر وفي عزمه ان يصلح الامور بالمسالمة . فحالما وصل الى بلغاريا بعث الى أعيان البلاد وجمعهم في مؤتمر عرضوا فيه شكواهم فطلب اليهم ان يشتركوا معه في إصلاح الحـالة . وكانت تشكياتهم ترجع الى أمرين رئيسيين : الاول خلو البـلاد من وسائل النقل والمخابرات التي تساعد الاهالي ولا سيما المزارعين على نقل حاصلاتهم وتصريفها . والثاني شيوع اللصوصية والعصابات المتمردة حتى اصبح الناس لا يأمنون على ارواحهم ولا أموالهم . ولهذين السببين فضّل البلغاريون الهجرة الى بلاد السرب لأنها أقرب الى الامن فرأى مدحت انهم محقون في شكواهم ، فأخذ يبحث مع اولئك الاعيان في سبل الاصلاح وأشار عليهم ان يستخدموا نفوذهم اولاً في إيقاف النـاس عن المهاجرة وعاهدهم على اصلاحات وافقوه عليها . وقـد برّ بوعده فأعاد الجند الى معسكراتهم وأخذ في تنظيم الطريق الاعظم بين نيش وصوفيا وفروعه الكثيرة . وبذل جهده في مطاردة العصابات وإنشاء الجسور وغيرها ، وبالجملة لم يغادر أمنية يحلم بهـا البلغاريون إلا حققها لهم ، وأقام نقطاً عسكرية على الحدود تمنع تعدي السربيين . فلما

تمت هـــذه الاصلاحات عادت العائلات البلغارية من مهاجرها الى مواطنها ؛ وأدخلت اصلاحات كثيرة أثرت في اخلاق القوم وعاداتهم ، وألـّف فرقة الجندرمة ، ونظـّم تحصيل الضرائب ، ومنع الاضطهادات الدينية ، وأنشأ المدارس والمستشفيات للبلغاريين بلا تمييز بين اديانهم او طبقاتهم ، فاستتب الأمن وتعاقد القوم على السعي في مصلحة بلادهم .

٢ ـ تنظيمه اعمال البلقان :

ان ما ادخله مدحت باشا من الاصلاح في بلغاريا وفي ايدن وسليسترية وقع وقعـــاً حسناً لدى الباب العالي في صدارة فؤاد وعالي خليفتي رشيد باشا . فاستقدماه الى الاستانة سنة ١٨٦٤م للمداولة في نظام جديد يضعونه للولايات وقوانين يجري عليها الولاة. فأعدوا ذلك النظام وقرروا ان يعهد الى مدحت بتنفيذه في ولايات سيلسترية وايدن ونيش على ان تتحد كلها باسم ولاية الطونة (١٨٦٥ م) رغم مقاومة حزب التقهقر بإيعاز سروري افندي، ولهذا الرجل شأن في الحكم على مدحت سيأتي ذكره .

وخلاصة النظام المشار اليه قسمة الولاية الى سبعة سناجق ويقسم السنجق الى أقضيـــة والقضاء الى نواحي وفي كل ولاية مجالس خصوصية لوضع الاموال الاميرية وجمعها ، وتولى مدحت هذه الولاية على هذا الطراز ، وألغى السخرة ومهـّد ٢٠٠٠ كيلو مـــتر من الطرق وبنى ١٤٠٠ جسر وأنشأ سفناً تجري في الطونه (الدانوب) عليهـــا العلم العثماني ، وأبطل اللصوصية ونظم جندرمة ، وأنشأ مصارف وطنية لتسليف فقراء المزارعين .

وقاعدة هذا النظام اشتراك الاهالي في تدبير شؤون بلدهم مع الحكومة في تقدير الاملاك وتعيين خراجها فلا يحصل فيهـــا حيف . فباتت تلك الولاية

بسعادة استلفتت انظار اهل الاستانة الى مدحت فجاءته التهـاني من المابين والباب العالي. وصدرت الأوامر الى سائر الولاة في المملكة العثمانية ان يجعلوا نظامات ولاياتهم مثل نظام مدحت في ولاية الطونه ، فتوسم الناس مستقبلاً مجيداً لهذه الدولة .

وانتبه مدحت ايضاً الى أمر ذي بال كان سبباً في اكثر متاعب الدولة في البلقان ، وذلك ان بعض البلغاريين كانوا يرسلون ابناءهم للتخرج في جامعات اودسا او خركوف او كيف وكلها في بلاد الروس ، فكانوا يتشربون حب الجنس السلافي ويعودون لبث تلك الروح في الاهالي فيثيرون التعصب الجنسي او الديني ، فيعود ذلك بالقلاقل والمتاعب على الدولة . فارتأى مدحت ان يتلافى ذلك بانشاء المدارس العالية في الولاية نفسها بحيث يغني النـــاس عن ارسال ابنائهم الى الخارج ، فضلاً عن تآلف الشبان على اختلاف مذاهبهم اذا شبوا في مدرسة واحدة وتربّوا تربية واحدة.ورفع بذلك لائحة للباب العالي وقسم النفقات اللازمة لهذا العمل الى نصفين،النصف يؤخذ من فضلات الخراج في الولاية ، والنصف الآخر يكتتب به الأهالي .

فلما وصلت هذه اللائحة الى الاستانة علم بها اغناتيف سفير روسيا هناك، فقاومها بكل قوته لأنهـــا تخالف الترتيب الذي رتبه الروس لتحويل قلوب البلغاريين عن دولتهم ، وبذل جهده في إيغار صدر السلطان عبد العزيز على مدحت ، فأوهمه ان الخطة التي يتخذ ها في الولايات تنافي سيادة الخليفة المطلقـة وتأول الى تشتت شمل المملكة العثمانية باستقلال كل ولاية بشؤونها . فلم يصغ السلطان لوشايته في بادىء الرأي ، لكنه وفق الى غلطة وقعت في لائحة نشرها مدحت في الجريدة الرسمية يطلب فيها تعيين اعضاء مجلس الاهالي المشتركين مع الحكومة في تدبير شؤون الولاية فسمّاهم « نواب » ولم يغفل

اغناتيف عن تنبيه ذهن السلطان الى ذلك ، فاقتنع بسوء عاقبة تلك البدع وأبى المصادقة على طلب مدحت تجنباً للنفقة ، ولم يذكر السبب الحقيقي .

فذهبت اعمال مدحت في سبيل الاصلاح ادراج الرياح ، وأيد اصحاب اغناتيف غرضه باستنهاض بعض العصابات في البلقان للتعديات ونحوها . فما احس مدحت إلا وقد ظهرت عصابات فتكت بالمسلمين وقتلت اطفـالاً من الرعاة ، فنهض المسلمون لمثل هذا العمل في المسيحيين ، فركب مدحت بنفسه وقبض على بعض المتمردين من النصارى فوجد باستنطاقهم انهم رسل من جمعية السلاف في بوخارست وفي كشنو ، فحـكم المجلس على الرؤساء بالإعدام وعلى الآخرين بأحكام اخرى ، فانقضت الثورة وعادت السكينة . على ان جرائد اوروبا شددت النكير على تصرف القضاء العثماني في هذا السبيل وعدّوا احكامه بربرية ونسبوها الى مدحت فبرأ نفسه . لكنهم لم يعدموا وسيلة اخرى لنكايته وذلك انه سمع برسل سرية قادمة من غلاتز الى بلغراد لدسّ الدسائس وإعداد مشاكل جديدة ، فقبض عليهم على ظهر باخرة نمساوية عند روستشوك وبعث صورتهم الى قنصل النمسا وطلب اليـه ان يأذن بفحص تذاكرهم ، وأخذت الضابطة العثمانية في تفتيشهم ومعها منـدوب من القنصلاتو النمسوية ، فأطلق احد الرسل مسدساً على الضابطة في قـاعة السفينة فأجابهم العثمانيون والتحم الفريقان وانجلت الواقعة اخيراً عن القبض على اولئك الدساسين وقد جُرحوا جراحاً بليغة .

فكان لهذه الحادثة دويٌ في اوروبا . واتخذ اغناتيف ذلك ذريعة لطلب إقالة مدحت فلم يفلح ، فأخذوا يسعون في قتـله سراً فأطلق عليه احدهم في

روستشوك رصاصة أخطأته . وحاول سربي قتـله ففشل ، ولما قُبض عليه وسُئل عن سبب عمله قال ان اثنين من كبار السرب أغروه على ذلك ، فحوكم الرجل وعوقب .

وبعد هــذه الحوادث بقليل (١٨٦٨ م) استدعي مدحت الى الاستانة ليتولى رئاسة مجلس أنشأوه حديثاً ، فأتاهـا ولكن وقع اختلاف في الرأي بينه وبين عـالي باشا الصدر الاعظم في بعض الشؤون ، فاعتزل مدحت باشا الرئاسة على ان يتولى ولاية بغداد سنة ١٨٦٩ م .

٣ – اصلاحاته في ولاية بغداد :

شخص مدحت الى بغداد فوجد فيها من المشاكل غير مـا في ولاية الطونة اعني مسألة التجنيد . وكانت من المشاكل الصعبة لأن القبائل العربية التـابعة لولاية بغداد لم تكن ترضخ لحكم التجنيد . وكانت يومئذ قد تمردت على الدولة حتى عجزت عن اخضاعها لتفرق الكلمة بين والي بغداد ومشير جندها . ولم يكن اخضاعها ممكناً إلا اذا كانت القوتان العسكرية والادارية في يد واحدة، فأخذ مدحت على نفسه الجمع بين القوتين وعزم على اخضاع الثائرين بالقوة ، ولم يكلفه ذلك إلا الحزم والشدة فأذعن الثـائرون صاغرين بسرعة ادهشت الباب العالي فسماه مشير الفيلق السادس ووالي بغداد .

وكان الولاة قبـله يقاسون في تحصيل الضرائب من اولئك العرب عذاباً شديداً ، فتحدى الشدة في تحصيلها بقوة الجنـد وقد افلح . ولـكنه اعمـل فكرته في حال اولئك البـدو فوجد إذلالهم بالقوة يفضي الى تجديد التمرد ، فرأى ان يتخـذ في اخضاعهم طرقاً اخرى ، فعمل على تغيير نظام ملكية الاراضي فيهم. وذلك ان الفلاح العربي كان يدفع للحكومة اجرة الارض التي

يستثمرها وثلاثة ارباع غلتها وفي ذلك حيف عليه ، فقسم مدحت الارض الى قطع عرضها للبيع بشروط سهلة . فلم تمض مـــدة يسيرة حتى ذاق ثمر ذلك العمل، إذ تكاثر دخل الحكومة وقلّ تمرد العربان وزادت غلة الارض فزادت حركة الاعمال الاخرى . وكان من نتائج ذلك تسيير السفن في دجلة والفرات وتسهيل المواصلات بين المدن القائمة على ضفافهما .

وكانت ادارة السفن هناك بيد شركة انكليزية تشتغل بين بغداد والبصرة، فألف مدحت شركة عثمانية ورمّم السفن القديمة وأوصى على سواها واختزن لها الفحم في مسقط وعدن وبندر عباس وبو شهر . وكانت هـذه السفن اول سفن عثمانية عبرت قنال السويس الى الاستانة. فرأى مدحت نجاح ذلك العمل فوسّعه وأوصل تلك البواخر شمالاً الى آخر ما يستطاع من شواطىء النهرين، فعمر كثير من البقاع واتسعت الارض المزروعة . وعزم على ردم البقـاع التي كان قد أغرقها الفيضان ، فعلقت الآمال ان يعود العراق الى خصبه في الدولة العباسية .

وأنشأ مدحت خط ترامواي بين بغداد والكاظمية طوله سبعة كيلومترات وابتنى معملاً للنسج تام الادوات وأنشأ المدارس في كل قضاء وشاد المستشفيات والملاجىء . فتكاثرت البيوت المالية كالمصارف ونحوها . وأنشأ مطبعة تطبع فيها جريدة الزوراء الرسمية وشكل مجالس بلدية في اهم المدن . واكتشفوا في اثنـاء ولايته منجماً للبترول ، فسهّل الانتفاع به . فتقدم العراق على يـده تقدماً مدهشاً . وقـدم شاه الفرس سنة ١٨٧٠ لزيارة النجف وكربلاء مزار الشيعة، فاغتنم مدحت تلك الزيارة وقرر اشياء كانت محل نظر بين الدولتين، وفي جملتها تعديات الأكراد على ما يمرون به في طريقهم على تركيا ، فاتفقت الدولتان على انشاء نقط عسكرية عند الحدود على نحو مـا فعل عند حدود

السرب من قبل . وبلغه ان في بعض مزارات الشيعة بنجد كثيراً من الجواهر والتحف اجتمعت هنـاك من هدايا الهنود والفرس ولا فائدة من اختزانهـا ، فأشار مدحت باستخراجها وبيعها وهي تساوي نحو ١,٣٠٠,٠٠٠ ليرة عثمانية على ان تصرف في انشاء خط حديدي بين حدود ايران وبغداد او باقامـة المستشفيات والمدارس وغيرها فأبى علماء الشيعة عليه ذلك فأغفل المشروع .

وجمـلة القول لم يدخر مدحت وسيلة لإحياء العراق اقتصادياً واداريا وأدبياً ، فضلاً عن تحسن العلائق مع الأمم المجاورة، من ذلك أنه حمل مشائخ الكويت على الاعتراف برعـاية الدولة العثمانية بعد ان امتنع ذلك على سلفه نامق باشا .

والكويت تبعد عدة اميـال من البصرة على شاطىء نجد ، وهي فرضة تجارية تحكمها أسرة الصباح ، وأصلهم من نجد ، لا يداخل في شؤونهم احد ، وهم يتعاطون التجارة البحرية مع شواطىء الهند وفارس وافريقيا واحتكروا مغاوص اللؤلؤ في البحرين ، وكانوا ينصبون على سفنهم علماً خاصاً بهم ، وربما نصبوا علماً هولندياً انكليزياً لغرض من الاغراض . فمـا زال مدحت يخابرهم بالحسنى حتى قبلوا برفع العلم العثماني على شرط الاستقلال بادارتهم وسائر شؤونهم الداخلية ، فأصبحت الكويت من ذلك الحين سنجقاً من سناجق ولاية بغداد . وفعل نحو ذلك بنجد وغيرها والبحرين مما يطول بنـا بسطه ، وفي كل عمل منه دليل على علو همة مدحت باشا ورغبته في تأييد الدولة العثمانية . فزادت واردات العراق وتعددت السفن العثمانية التي تمخر في تلك البحار ، ولم يكن للدولة هناك قبل فتح قنال السويس إلا دارعتان قد افسدهما الإهمال فأصلحهما في بمباي وأضاف اليها سبعاً أخر وعشراً لسلك الأنهر، ووسع مرفأ البصرة، فاعترفت له الدولة بالفضل بكتاب جاءه من الصدر الأعظم عالي باشا مؤرخاً

سنة ١٨٧١ يثني فيه على همته لتسهيل طريق الحرمين وأرسل اليه ، السلطان سيفاً مرصعاً ، وقد نقش عليه كلمة «نجد».

واتفق في اثناء ذلك ان الاستانة تبدلت احوالها بموت رجليها فؤاد وعالي وبينهما ثلاثة اشهر ، وكانا زعيمي الاصلاح ينصران مدحت في مطالبه واقتراحاته ، فاتفقت وفاتهما على اثر عودة السلطان عبد العزيز من سياحته في اوربا . ولم تكسبه تلك السياحة شيئاً من رغبة ملوك اوربا في الأحكام الدستورية والرجوع الى الشورى، لكنها أكسبته التصريح بما كان يخالج ذهنه من كره المشيرين من الوزراء ، وعاد الى تكليف الماثلين بين يديه بما كان يكلفهم به اجداده القدماء . وتوسّع من الجهة الاخرى في النفقات الباهظة على الدولة وعلى نفسه ، فأمر بابتناء الدوارع وإنشاء القصور الرخامية على شاطىء البوسفور ، وهو لا يقدّر للنفقات عاقبة ، ووافقه على ذلك الصدر الأعظم نديم باشا تملقاً له والتماساً للنفوذ عنده . ففسدت الأحوال وتبدلت النيات ، وامتدّ ذلك طبعاً الى الولايات .

ولما قلّت الأموال في خزائن الاستانة بعثوا يطلبونها من الولايات ويلحّون في طلبها ولو ظلموا الاهالي في تحصيل الاموال مضاعفة ، فآل ذلك طبعاً الى ايقاف المشروعات النافعة فيها ، فضاق مدحت ذرعاً عن احتمال ذلك ، فاستقال من ولاية بغداد ورحل الى الاستانة ، وعلم حال وصوله اليها ان الارادة صدرت بتعيينه والياً على ادرنة ، فعدّ ذلك نفياً لا ولاية ، فطلب مقابلة السلطان فأذن له ، وانطلق لسانه في تلك المقابلة فأفاض بما يكنه ضميره من الانتقاد على الحكومة وبيّن ضعف الدولة والخطر المحدق بها . فأثرت اقواله في السلطان حتى عزل الصدر الأعظم نديم باشا وولى مدحت مكانه سنة ١٨٧٣ م فوجد حوله اعواناً نشيطين أهل نزاهة منهم رشدي باشا

الشرواني وجميل باشا وصادق باشا ، فشرع قبل كل شيء بتنظيم المالية ، وهو عمل شاق ، لاختلال الحسابات وسوء ادارتها وكثرة التلاعب فيها .

فأخذ في تحقيق كل حادثة ومن جملة ذلك مبلغ ١٠٠،٠٠٠ جنيه خرجت من الخزينة ولم يعرف مصيرها ، ثم ثبت انها دخلت على الصدر السابق نديم باشا ، فطولب بها رسمياً بين يدي المجلس فادعى انه إنما أخذها ليدفعها الى القصر السلطاني ، ثم سعى نديم بمساعدة والدة سلطانة وأصدقائها في المابين حتى أفسدوا نية السلطان على مدحت فأمر بنفيه الى أدرنة ومنها الى طرابزون وعاد نديم الى نفوذه. فانقسم رجال الدولة الى حزبين احدهما مدحت ومريدوه الاحرار وفيهم جماعة كبيرة من العلماء وكل الشبيبة العاقلة في الاستانة والولايات. والحزب الآخر نديم ووالدة سلطانة ورجال المابين . ومن اكبر أنصار هذا الحزب اغناتيف سفير روسيا بالاستانة وكان له نفوذ في المابين . ومما جعل السلطان ينفي مدحت ايضاً تصديه لنقد أعمال جرت على يد سلفه وفيها خسارة على الخزينة ومن جملتها امتياز سكة حديدية أعطي للبارون هرش افسد مدحت العقد به .

٤ – خلع عبد العزيز :

غاب مدحت عن الاستانة بضعة اشهر قضاها في سلانيك ثم عاد الى الاستانة وتولى فيها وزارة العدلية ورئاسة مجلس الشورى لكنه اضطر الى الاستقالة لأنه رأى الوزارة سائرة على طريق يؤدي الى خراب الدولة . وقد بيّن ذلك بكتاب بعث به الى سكرتير السلطان (الباشكاتب) في شوال سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) واعتزل الأعمال ولجأ الى منزل له بجوار الاستانة أقام فيها يترصد تبدل الاحوال فلم يرها تزداد إلا فساداً وخللاً ، وكثر تبديل



السلطان عبد العزيز

الصدور فلا يقيم الصدر منهم إلا بضعة اشهر . وممن تناوبوا الصدارة في ذلك العهد محمد رشدي باشا وشرواني رشدي باشا وأسعد باشا ولم يستطيعوا اصلاحاً ولم يرض بالحالة كما هي إلا محمود نديم باشا فتولى الصدارة والمالية في ضيق لا مثيل له . ومع ان الدولة لم تكن دخلت في الدين الاهلي إلا منذ عشرين سنة فقد هددها الافلاس وشعر بذلك الخطر أصدقاء الدولة من الدول الاخرى وصرحوا به على منابرهم وأشار بعضهم بالمداخلة في شؤونها فخاف عقلاء الأمة عاقبة هذا التصريح .

وحدث في صدارة اسعد باشا مناوشة على حدود الجبل الاسود آلت بالاهمال الى فتنة او ثورة عامة . وكان اسعد باشا حسن النية لكنه ضعيف الرأي ساء التصرف وأظهر الضعف لدى الدول فزادت الثورة سعيراً وتوسطت روسيا والنمسا فأقيل اسعد وخلفه نديم باشا سنة ١٨٧٥ م ولم يستطع هذا

إخماد الثورة . فما زالت تنتشر حتى بلغت حدود بلغاريا ، وأحسّ البرنس ميلان صاحب السرب بضعف الدولة فطلب ان تتحول امارته الى مملكة ، وأخذ يهيء معدات الحرب عند الحاجة وفعل نحو ذلك الهرسك . وفي اوائل السنة التالية تضاعف الخطب بثورة البلغار ، وكان الجنرال اغناتيف لا يترك فرصة في أثنـاء ذلك لم يغتنمها لتمشية اغراضه ، فتفاقم الخطب وساد الاضطراب في المملكة العثمانية وأصبح العقلاء ينظرون الى هـذه الحالة نظرة اليأس . فدخل ربيع سنة ١٨٧٦ م وبلغاريا والجبـل الاسود والهرسك تتقد بنيران الثورة والسرب قـد تهيأت للحرب بقيادة ضباط من الافرنج . وهمت رومانيا بأن تقتدي بها . والصدر الأعظم يصغي الى دسائس اغناتيف فينقلها الى السلطان وهذا لا همّ له إلا الانغماس في ملذاته. والدول الاوربية من الجهة الاخرى فتحت المسألة الشرقية وطلبت الاجتماع للنظر فيها وأخذت المذكرات والمفكرات تتساقط على المابين كتساقط المطر . ولم تكن تلك الاحتجاجات الخارجية أقلّ خطراً على الدولة من الاضطرابات الداخلية .

ففي هذه الظلمات المدلهمة انبثق نور ضعيف من منزل مدحت باشا مجتمع عقـلاء الاحرار . وكان مدحت في اثناء تلك الاضطرابات يفكر في وسيلة لإنقاذ الدولة وقد لقي سفير انكلترا وأسرّ اليه رأيـه في جعل الحكومة العثمانية دستورية لأنها اذا ظلت سائرة على هـذه الخطة ذهبت الى الدمار لا محالة . وأظهر امله ان انكلترا تأخذ بيده في تأييد هذا الطلب وإنـه إنما يقتدي بها في هـذا النظام لأنها ام الدول الدستورية . فأجابه السفير جواباً مبهماً لكنه شجعه على عادة رجال السياسة في مثل هذه الحال . وعقب هذه المحادثة تجمهر العلماء (الصفتاء) وتصديهم للبرنس يوسف عزالدين بن السلطان في طريقه الى نظارة الحربية وتقدموا اليه إبلاغ والده ان الشعب يطلب عزل



رشدي باشا

محمود نديم الصدر الأعظم وحسن فهمي افندي شيخ الاسلام. فأجاب السلطان هـذا الطلب فعزلهما وولى محمد رشدي باشا للصدارة وحسن خير الله افندي للمشيخة . وكان رشدي شيخاً طاعناً في السن وأكثر مدحت من التردد اليـه ففهم القوم ان هـذه الصدارة سيديرها مدحت فاستبشروا ولكن فرحهم لم يطل لأن السلطان عين في فروع الإدارة اناساً من الطاقم القديم والناس لا يزدادون بذلك إلا طلباً للدستور على لسان العلماء . وأذاعوا على رؤوس الملأ ان تعاليم القرآن تـأمر بالشورى ومن خالفها لا تجب طاعته . فأصبح مركز السلطان في خطر وما زالوا حتى خلعوه .

٥ – كيف خلعوه :

والعامل الرئيسي في خلعه حسين عوني باشا وزير الحربية وكان جندياً شجاعاً وهماماً حازماً شديد الغيرة على دولته مـع حدة في مزاجة ومضاء في

عزيمته . وكان قد تولى ارقى المناصب العسكرية ثم نفاه السلطان عبد العزيز من الاستانة - وكان يكره محمود نديم ويخافه ولم يكن يدرك حقيقة الحكومة الدستورية كما ادركها صديقه مدحت لكنه كان كثير الاعتماد على آرائه . وتبادل الوزراء الافكار فأقروا على خلع السلطان ولكي يكون خلعه شرعياً استفتوا شيخ الاسلام حسن خيرالله افندي فأفتاهم بالخلع وهذه صورة الفتوى:

« إذا كان زيد الذي هو امير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام في الامور السياسية وما برح ينفق الاموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد اخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرّاً بهما فهل يصح خلعه ؟ الجواب يصح كاتبه الفقير حسن خيرالله » .

فلما حصل الوزراء على هذه الفتوى اسرعوا في تنفيذ قرارهم وقام بتدبير ذلك عوني ورشدي ومدحت : واختلف مدحت وعوني في اسلوب الخلع فكان مدحت يرى ان تصادق الأمة على الخلع اولاً . وأما عوني فكان يرى ان الخلع يجب ان يكون حالاً على عادة العسكرية في سائر احكامها . فأشار مدحت ان يجتمع العلماء وأعيان اسطانبول في مسجد نور عثمانية يبدون أسف الامة ويطلبون ابدال النظام الحالي . فوافقه على هذا الرأي اكثر الوزراء وعيّنوا لتنفيذ القرار يوم ٣١ مايو (ايار) وكادوا يعملون به ، لكن طرأ امر أوجب الرجوع الى رأي عوني ، وذلك ان امرأة من نساء يلدز أتت مدحت في ٣٠ من الشهر المذكور ، وأخبرته ان مؤامرتهم كادت تنكشف للسلطان ، فخاف مدحت العاقبة اذا لم يبادر الى العمل . وتحقق قول المرأة لأن السلطان دعا عوني باشا اليه مرتين في ذلك النهار ، مع انه ادّعى المرض فلم يقبل السلطان عذره . فأقرّ الوزراء على المبادرة في تلك الليلة الى خلعه .

ففي منتصف ليل ذلك اليوم خرج رشدي ومدحت وبين يدي كل منهما خادم يحمل فانوساً والليلة ممطرة ، حتى أتيـــا سركجي فركبا قارباً الى باشا ليماني حيث يقيم عوني باشا على البوسفور . وكان عوني في انتظارهما على أحرّ من الجمر ، فتفاوضوا وافترقوا وذهب عوني نحو سراي طولما بغجه ، وسار رشدي ومدحت الى السر عسكرية. وكانوا قد قرروا ان يجتمع كبار الموظفين الملكيين والعسكريين في ساحة السر عسكرية ينتظرون مجيء السلطان مراد . وكان عوني مكلفاً باستقدامه ، وانهم عنـد وصوله يبايعونه وينادون باسمه سلطاناً وأن يشعلوا ناراً على برج السر عسكرية يعـلم منها اهل الاسطول في البحر بتنصيب السلطان الجديد ، فتطلق الدارعة (احمد باشا) المدافع إيذاناً بذلك .

فمشى عوني الى السراي حيث التقى بسليمان باشا احد مشيري الجند ، وكانا قد تواعدا ليتعاونا على تدبير امر الخلع . وكان سليمان من أقرب اعوان عوني وأنجد انصار مدحت . وكانت الجنود المقيمة في طاش قشله وغيرها قد تلقت الأوامر من رديف باشا قومندان فيلق الاستانة ، ان تكون على الاهبـة لمنع اي اقتراب من جهة البر ، وكان الاسطول بقيادة ناظر البحرية نفسه قيصرلي احمـد باشا ، وقد اعطى الأوامر بقطع الطريق عن القصر من جهة البحر . واصطحب سليمان نخبـة من رجاله الذين يثق بأمانتهم وبسالتهم تحت قيـادة الضباط احمد بك وبدري بك ورفعت بك . وبعـد ان رتب هذا الترتيب توجّه الى قصر البرنس مراد . وكان مراد عالماً بما اعدّوه وعزموا عليه لكنه لم يعلم بتقديم الميعاد المضروب ، فلما جاء سليمان في تلك الليلة وطلب اليه ان يخرج معه الى عوني وأنه ينتظره بباب القصر ليرافقه الى السر عسكرية ، ظن في الامر دسيسة . على انه ما لبث ان تحقق الواقع ، فأطاعهما وسار معهما الى السر عسكرية .

اما سليمان فتقدمها لإتمام المهمة الكبرى التي لا بد منها قبل كل شيء وهي تبليغ السلطان عبد العزيز الخلع . فلما أتى القصر السلطاني (طولما بغجه) اعترضه الخدم فأجابهم انه يطلب مقابلة السلطان لأمر هام فأخذوه اليه . فبلّغه سليمان ما جاء من اجله وقرأ عليه الفتوى بخلعه ، فغضب السلطان وانتهر سليمان ، ولكنه ما عتم ان سمع المدافع تطلق من الدارعة (احمد باشا) فتحقق وقوع القضاء وأدرك حقيقة مركزه وسلم نفسه لسليمان ، فأبلغه انه مكلف بنقله من سراي طولما بغجه الى سراي طوب قبو ليقيم فيها .

وعند ذلك نودي بالسلطان مراد سلطاناً ، فأقرّ الوزارة كما هي وأضاف الى حاشيته الخصوصية كمال بك وأبا الضيا بك وكلاهما من كبار انصار الحرية والدستور. وبوجودهما في الحاشية يأمن الوزراء من الدسائس التي تعوّد المفسدون نقلها الى السلطان .

وطبيعي ان الاحرار لم يدبروا هذا التدبير إلا وقد اخذوا على السلطان مراد المواثيق ان يعلن الدستور الذي أعدّه مدحت ورفاقه . فكادت تتحقق آمال الاحرار ، ولكن حال دون تلك الأمنية عارض أوقفها دهراً طويلاً . وذلك ان عوني باشا لحظ في السلطان مراد في الليلة نفسها التي رافقه فيها من قصره انه مضطرب وأصابته نوبة عصبية . وبعد الاحتفال بمبايعته في اثناء رجوعه الى سراي طولما بغجه ، زادت فيه الاعراض العصبية وكان معه مدحت باشا ، فرأى من الحكمة ان لا يفارقه فمكث معه ثلاثة ايام، واستشار الأطباء فأشاروا بعلاج وحمية ولم يكبروا العلة ، فاتفق في اثناء ذلك حادثتان ازعجتا السلطان وزادتا علته ، وهما :

٦ – موت عبد العزيز :

الاولى موت عبد العزيز : وذلك ان هذا السلطان اقام بعد خلعه خمسة

ايام . وفي صباح ٥ يونيه (حزيران) طلب من خادمه الخصوصي فخري بك مقراضاً ليقلّم اظافره ويصلح لحيته ، فتردد حيناً في إجابة طلبه ثم عرض الامر على والدته سلطانة فأمرت ان يعطى المقراض الذي يطلبه . واتفق بعد حين ان بعض الحاشية أشرفن من احدى النوافذ على المكان الذي كان عبدالعزيز فيه فرأينه جالساً على كرسي وظهره محوّل ورأسه مدلى الى الامام فأسرعن الى الباب فلم يستطعن فتحه وظنن سوءاً فأنبأن والدته فأمرت بخلع الباب ، فدخلوا فرأوا عبد العزيز ميتاً وقد نزف دمه من جرحين في ذراعية ورأوا المقراض بجانبه الايسر كأنه استخدمه بيمناه لقطع اوعية اليد اليسرى ، ثم اراد استخدامه باليسرى لقطع اوعية اليد اليمنى فلم تسعفه قواه ان يتم العمل جيداً .

فاستقدموا الاطباء حالاً فأثبتوا انه ميت ، وخاف الوزراء العاقبة فأمروا بلجنة من الاطباء تتولى فحص الجثة فاجتمع ١٧ من أمهر اطباء الاستانة فأقروا بالاجماع ان الموت انما كان بالانتحار ولا يمكن ان يكون بسواه وكتبوا بذلك شهادة مؤرخة في ٤ يونيه (حزيران) سنة ١٨٧٦ م ثم دفنت الجثة في مقام السلطان محمود بعد غسلها . فلما بلغ السلطان مراد خبر هذه الفاجعة أثرت على اعصابه تأثيراً كبيراً .

٧ – واقعة حسن الشركسي :

ثم وقعت حادثة حسن الشركسي فأتمت عليه ، وكان حسن هذا من ياوران عبد العزيز وأراد عوني إبعاده فأمره بالسفر الى بغداد ليلحق بجندها فأبى ، وأخذ يشيع اتهام عوني بقتل السلطان كما اتهم بخلعه فأمر عوني بالقبض عليه وسجنه . فأرسل حسن بعد يومين يقول انه مستعد لإطاعة اوامره بالسفر الى



حسن الشركسي

بغداد لكنه يستأذنه في البقاء بضعة ايام بالاستانة ليتأهب الرحيل فأذن له .
ففي يوم ١٥ يونيه وهو اليوم المعين لسفره ذهب الى بيت عوني وطلب مقابلته بإلحاح فقالوا انه سار الى منزل مدحت باشا للاجتماع بسائر الوزراء فذهب الى اسطانبول فنزل في مطعم تناول فيه بعض الخمر ثم تحوّل الى منزل مدحت في طوخان طاش فوصله نحو الساعة العاشرة وقد اجتمع الوزراء وهم عشرة ومعهم شريف مكة وقد هموا بافتتاح الجلسة .

دخل حسن الدار كما يدخل صاحب المنزل الى منزله فسأله الحرس عما يريده فقال انه مسافر في الغد الى بغداد وعنده امور هامة يريد عرضها على السر عسكر عوني باشا قبل سفره فأجابه الحارس ان ذلك لا يتأتى إلا بعد انفضاض الجلسة . فوقف حسن ريثما غافل الحرس ووثب الى السلم وتسلقه ليدخل الى قاعة الجلسة فمنعه خادم مدحت ونادى خادم عوني باشا ليشتكي هذا الشركسي لرئيسه . فصعد الخادم لمقابلة عوني وتبعه حسن ليتحقق مجلس

كل الوزراء ولم ينتظر الاذن. فدخل وسلم سلاماً عسكرياً ثم أشار الى عوني ان لا ينقل من مكانه وأطلق عليه المسدس فأصاب صدره فتناثر الوزراء فراراً من القتل ولجأوا الى غرفة اخرى إلا ناظر البحرية فانه حاول ان يقبض على ذراع حسن فأفلت منه وجرحه جروحاً كثيرة في يديه ومنكبيه . وكان عوني لايزال فيه رمق فنهض يطلب السلم فأدركه حسن وطعنه طعنات عديدة وعاد الى القاعة وخاطب الصدر الاعظم وهو في الحجرة الاخرى قائلاً : « اني احتاج الى قيصرلي سلمه إليّ فلا اؤذيك بشيء » . فلم يجبه . فلما يئس ولم يظهر له احد جمع ابسطة القاعة وكراسيها وأوقد فيها النار ، فأدركه رجل من رجال مدحت باشا اسمه احمد اغا وطعنه في قفاه طعنة مميتة ، فأطلق عليه حسن المسدس في عينيه فأماته وأطلق رصاصة ايضاً على ناظر الجهادية . قضى حسن في هذه المعركة نصف ساعة اجرى فيها مذبحة وهو فرد وهم جماعة ، وعاش الى اليوم التالي واعترف انه إنما جاء لينتقم من عوني باشا وأنه يأسف لقتل رشيد وزير الخارجية ، فحكموا عليه بالاعدام فمات قبل تنفيذ الحكم .

٨ ـ خلع السلطان مراد وتولية عبد الحميد :

فلما بلغت هذه الواقعة الى السلطان مراد زاد اضطراب عقله وبعد ان كان الاطباء يرجون قرب شفائه رأوه بعيداً عنه فانقسم رجال الدولة بالنظر الى هذا الحال الى قسمين قسم يرى استبقاء السلطان مراد وانتظار شفائه وهم الصدر الأعظم محمد رشدي ومدحت وأكثر زملائهم . والقسم الآخر اشاروا بخلعه وتولية من يخلفه وزعماء هذا الحزب داماد محمود جلال الدين باشا صهر السلطان ورديف باشا مشير فيلق الاستانة ومشيران آخران ممن يرغبون في الرجوع الى الحال القديم فقد كانوا اصحاب النفوذ فيه والدستور لا يوافق مطامعهم ولا هم يفهمون معنى الدولة والأمة . وكان هذا الداماد مجرّداً من

العلم كثير الحب لذاته يكره الاصلاح لأنه يرفع اناساً كانوا دونه وإنما رفعته عنهم المصاهرة . فهؤلاء وغيرهم سعوا جهدهم في خلع مراد لعلة المرض وقد ساعدهم الشرع على ذلك وتداخل السفراء وألحوا في تسوية الحالة الحاضرة لأنهم لا يأمنون على مصالح دولهم والدولة في هذا الاضطراب وأشاروا بخلع مراد وتولية عبد الحميد . وسعى الداماد في اثارة خواطر اهل الاستانة لتأييد هذا الطلب وإن الحاكم اليوم على الأمة ليس السلطان خليفة الرسول وإنما هو مدحت باشا ورشدي باشا . فلم يبق بدٌ من خلع مراد . ولكن مدحت ورفاقه رأوا ان يأخذوا المواثيق على السلطان الجديد قبل مبايعته فقرروا ان يذهب مدحت بنفسه الى موصلو اغلو حيث يقيم البرنس عبد الحميد افندي ويستطلعه رأيه في الاصلاح الذي اخذوا في ادخاله من حيث الدستور وغيره حتى اذا خالفهم في ذلك عرضوه على اخيه رشاد افندي . وقد قام باستطلاع رأي رشاد في هذا الشأن امرأة مدحت بطريقة سرية .

أما الشروط التي عرضوها على البرنس عبد الحميد اذا تولى السلطة فهي :

١ – ان يعلن الدستور حالاً .

٢ – ان لا يستشير في اعمال الدولة إلا مشيريه المسؤولين .

٣ – ان يعين ضيا بك وكمال بك سكرتيرين خصوصيين للسلطان مع سعد الله بك رئيس السكرتيرية (الباشكاتب) .

فأجاب مطالبهم بكل رضا ووعد بأكثر منها وأن يوسع النظام الدستوري الى اكثر مما يطلبون . وقال انه يتخلى عن العرش حالما يشفى اخوه مراد من المرض . فعاد مدحت الى اسطانبول وبلغ الوزراء نتيجة زيارته فأقروا على خلع مراد وتولية عبد الحميد . ولم يكن لهم بد من فتوى الخلع فاستصدروها

من خيرالله افندي شيخ الاسلام ، فخلعوا مراداً وولوا السلطان عبد الحميد في اول سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٦ م .

٩ - جلوس السلطان عبد الحميد وتعيين اعوانه :

جلس السلطان عبد الحميـــد على العرش العثماني في اول سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٦ م ، واحتفلوا ببيعته احتفالاً شائقاً في سراي طولما بفجه حضره الوزراء والقناصل ورجال الدولة والاعيان. ولما بايعوه خاطبهم قائلاً : « أشكر لكم تهانئكم ولا اشتهي شيئاً غير تقـدم مملكتنا وراحة رعايانا ، وسترون من اعمالنا ما يؤيد وعودنا بالاصلاح ، فعلى رعايانا ان يقوموا من الجهة الاخرى بما عليهم » . وخطب في وزرائه خطاباً حثهم به على الاتحاد في الرأي والعمل. وبعد ثلاثة ايام احتفلوا بتقليده سيف عثمان في مسجد ايوب بقرن الذهب على جاري عادتهم في تنصيب السلاطين. ثم عاد الى قصر طوب قبو حيث ألبسوه البردة وسلموه العلم النبوي . ويذكرون ان رشدي باشا الصدر الأعظم قــال لرفاقه ساعة خروجهم من طولما بفجه « اظننا تسرعنا بخلع مراد فعسى ان لا يحدث ما يبعث على الندم » .

وأول عمل باشره جلالته انـــه عين الداماد محمود جلال الدين باشا قائداً عاماً للجند (سر عسكر) وعين سعيد باشا (الانكليزي) رئيساً للياوران. فلم يعارضه احد في ذلك كان تعيينها من حقوق السلطان . ولم يعلق مدحت باشا على تعيينهما أهمية وإنما اهتم على الخصوص بتسمية سكرتيرية السلطان لأن تقرّبهم منه يجعل لهم نفوذاً كبيراً لا يقل عن نفوذ الصدر الأعظم .

وقد كان ينبغي له ان لا يستخف بمنصب السر عسكرية ولا يقبل ان يعين له إلا واحد من اهل ثقته وقد علم بالاختبار ان خلع عبد العزيز لم يكن

ممكناً لو لم يكن السر عسكر عوني باشا في جملة القائلين بـه والساعين فيه . فهل غفل مدحت عن ذلك او تغافل ؟ او لعله احسن الظن في مساعي اهل المابين وحسن الظن في مثل هذه الحال من ضعف الرأي .

وقد يعترض بأن تعيين السر عسكر من حقوق السلطان – فكان الاجمل بمدحت ان يجعل من ضمن الشروط التي اشترطها على جلالتـه في مقابلته الأخيرة قبل المبايعة ان يكون السر عسكر فلاناً كما اشترط ان يعين كمال بك وضيا بك سكرتيرين وسعد الله بك رئيس السكرتيرية (باشكاتب) وهم من خيرة الاحرار . على ان اشتراطه هذا لم يأت بفائدة لأن السلطان وعده بتعيينهم ولم يفِ فلما قابل جلالته بعد المبايعة اخبره انـه عين للباشكاتبية سعيد بك وهو من رجال محمود نديم الصدر الذي تقـدم ذكره . فاعترض مدحت واحتج ونصح فلم يجد ذلك نفعاً فأغضى . ولو اصرّ لانقلب وجـه المسألة وربما فاز فيولي في تلك المناصب احراراً يؤيدون الدستور . فباغضائه هذا جعل اهم مراجع النفوذ في قبضة رجال من حزب التقهقر . وقـد كانت دسائسهم فاتحة عصر الاستبداد الذي انقضى بالأمس . وظهر للناس بعـد انقضائه ان السياسة الخرقاء التي اتبعها جلالة السلطان في مقاومة الاحرار إنما كانت بدسائس اولئك المقربين وأمثالهم .

فأغروه اولاً على التخلص من مدحت زعيم ذلـك الحزب ولا خوف عليه لأن الجند في قبضته وقائده طوع اشارته . لكنه لم يشأ ان يفعل ذلـك مصادرة فعمد الى سياسة المقاومة بالمطل والتسويف فجعل يتباطأ في اجابـه مطاليب الصدارة ويعترض على اعمالهـا . فبدأ بالاعتراض على الفرمان الذي نصه مدحت وعرضه على جلالته ليخاطب الوزارة بـه وهو عبارة عن خطة سياسته بالدستور . فنقحه السلطان وحذف كثيراً من مواده الهامـة كما بينا

ذلـك في مقالتنا « الانقلاب السياسي العثماني » في الهلال الاول من السنة ١٧ فقبل مدحت بذلك التبديل اعتماداً على ان اعـــلان الدستور واجتماع مجلس المبعوثان يعوضان تلك الخسارة .

١٠ – تعديل البند ١١٣ من القانون الاساسي :

على انه لم يكد يفكر في ذلك حتى جاءه في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ كتاب من السلطان بخط يده يقول فيه : « انــه مع ما يرجوه من الراحة والسعادة لشعبه بالنظام الدستوري الجديد فهو يطلب ان تكون حقوق السلاطين ايضاً مضمونة فيه ولذلـــك فهو يرى عرض القانون الاساسي على مجلس الوزراء لتنقيحه » . فأجابه مدحت : « ان هذا القانون قـــد يكون في حاجة الى التنقيح ولكن عرضه على المجالس لتنقيحه يستغرق زمناً لا يسمح بـــه حال الدولة لأن المضايق الحرجة التي وقعت فيهـــا تدعو الى المبادرة في نشر الاصلاحات وتسكين الخواطر ارضاء للدول التي تهـددنا بعقد المؤتمر الدولي الذي قررت عقده في الاستانة حتى اصبحنا وليس لنا إلا احد وجهين إما ان نعلن القانون الاساسي وننشر الاصلاحات قبل عقد المؤتمر فـــلا يبقى للدول حجة علينا او ان نؤخر اعلانه فينعقد المؤتمر ويقرر المراقبة على اعمالنا. فإذا تأجل عقد مجلس المبعوثان لا يبقى لنا بد من الدخول في وصاية الدول » .

فلما رأى اهل المابين قوة حجته في هـــذه المسألة اتوه من طرق اخرى وذلـــك انهم وافقوه على وجوب السرعة في اعلان الدستور لكنهم اشترطوا تعديلاً في البند (١١٣) المتعلق بظهور التمرّد او الخلل في بعض الولايات . فقد جاء في البند المذكور «انه يحق للحكومة ان تعلن الادارة العرفية موقتاً اي تبطل القوانين والنظامات » فطلبوا أن يضاف اليه هذه الفقرة «ان الذين

يثبت بواسطة تحقيقات الضابطة الصحيحة انهم سبب في اختلال أمنية الحكومة فللحضرة السلطانية وحدها الحق أن تخرجهم من الممالك المحروسة وتبعدهم عنها » .

فقبل مدحت هذا التعديل رغبة في سرعة العمل ولأن التعديل المشار اليه يتعلق بالولايات. ولم يخطر بباله انه سيجري عليه هو نفسه لأنه كان قد احتاط لهذا الأمر بالمواد ٣١ و ٣٢ و ٣٣ وفحواها ان الوكلاء والوزراء لا يعزلون إلا بعد المحاكمة بالمجالس . وهذه نقطة اخرى يلام مدحت على تساهله فيها لأنها كانت علة نفيه ، وبنفيه تزعزع حزب الأحرار .

١١ - اعلان القانون الاساسي :

ولكن السلطان لم يدخر وسعاً في تقريب مدحت وترقيته ، فلما استقال رشدي باشا من الصدارة لشيخوخته في ١٩ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٧٦م انتدب مدحت باشا لذلك المنصب . فكان اول شيء اجراه عند ذلك تعجيل اعلان القانون الاساسي وعقد مجلس المبعوثان لئلا تسيء الدول الظن بالدولة وتقلب لها ظهر المجن . وقد لاقى مقاومة شديدة من المتملقين ومن جملتهم جودت باشا وزير العدلية . ففي الجلسة الاولى التي عقدت للوكلاء في بيت الداماد محمود اقترح جودت باشا تأخير اعلان الدستور الى أجل غير مسمى « إذ لم يبقَ حاجة اليه بعد ان افضت ازمة السلطنة الى جلالة السلطان » . فغضب مدحت لذلك الاقتراح غضباً عظيماً وألح في وجوب اعلانه بلا تأخير وهددهم اذا لم يفعلوا ، وقد أفاد تهديده ، فلو اتبع هذه الشدة في ما تقدم لغلب الحق على الباطل .

على ان الاختلاف بين مدحت ورجال المابين لم يكن قاصراً على مسألة

الدستور ، لكنهم خالفوه في امور كثيرة ، منها مقاومتهم في تعيين ولاة مسيحيين وإدخال غير المسلمين في المدارس الحربية ، ومنها اصرارهم على تعيين غالب باشا وزيراً للمالية ، ونفي ضيا بك صاحب « الاستقلال » . أما تعيين الولاة من المسيحيين فقد ذهب مدحت الى التعجيل فيه ارضاء للدول التي ستجتمع في المؤتمر فيكون تعيينهم حجة للدولة في ادخال الأصلاح . فأجاب السلطان : « إنّا لا نعرف رأي عامة المسلمين في التغيير الذي سيدخل على الدولة بالدستور ، فتعيين ولاة من المسيحيين ربما هاج خواطرهم وآل الى ما لا تحمد عقباه» . وبعد اخذ ورد أجّلوا الإقرار على ذلك كله الى ما بعد اجتماع المؤتمر ، على ان يبادروا الى اعلان الدستور وانتخاب نواب الأمة .

فأعلن الدستور رسمياً في ٢٤ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٨٧٦ م وتلا سعيد باشا (الباشكاتب) الفرمان باعلانه في حضور الصدر الاعظم مدحت وكبار رجال الدولة والعلماء وغيرهم . ثم تقدم سعيد المذكور وسلم صورة القانون الأساسي الى مدحت بعد ان قبلها وتفرّق منها نسخ على الحاضرين . وخطب مدحت خطاباً ما له قبول الدستور وقانونه ، ثم صلى المفتي وأطلقت مئة مدفع ومدفع ، فعلم الناس ان الدستور قد أعلن . فتهافت الكبراء وفي مقدمتهم شيخ الاسلام خير الله افندي والعلماء ورجال الدين من النصارى مع بطاركتهم والوزراء وغيرهم يرفعون الى مدحت التهاني على فوزه باعلان الدستور ، وكانوا يصيحون : « يحيى السلطان ومدحت » وانهالت عليه الرسائل البرقية من الولايات وغيرها والكل فرحون مستبشرون إلا سراي بشكطاش فانها لم تحرك ساكناً لأن جلالة السلطان كان يشكو انحرافاً .

وفي اليوم التالي خفّ مدحت لزيارة بطريرك الروم وهي المرة الاولى منذ الفتح العثماني زار فيها الصدر الاعظم بطريرك الروم . وإنما اراد بذلك اقناع

الدول ان النصارى مشاركون للمسلمين في الدستور ، واحتفل اليونان بزيارته فخطب فيهم ، وأجابه البطريرك بما يدل على الائتلاف والولاء .

١٢ - مؤتمر الاستانة :

ومن غريب الاتفاق ان اليوم الذي تعيّن لعقد المؤتمر هو نفس اليوم الذي أعلن فيــه الدستور ٢٣ دسمبر (كانون الاول) فاجتمع المؤتمر في ذلك اليوم للمداولة مع مندوبي الدولة في مــا ينبغي اتخاذه من الوسائل لتسكين الأحوال في الولاية العثمانية بأوربا ، ولم يكد يعلن افتتاح الجلسة حتى دوت اصوات المدافع عن اعلان الدستور . فنهض صفوت باشا احد مندوبي الدولة في ذلك المؤتمر وقال : « ايها السادة ان ما تسمعونه انما هو اشارة الى اعلان الدستور الضامن لمــا تطلبونه فلا حاجة الى المباحثة » فوجم الحضور هنيهة ثم تكلم اغناتيف معتمد روسيا فطلب الرجوع الى مدار البحث فعادوا اليه فطلب استقلال بلغاريا بأحكامها وأن يتعين عليها والٍ مسيحي فتباحثوا واتفقوا على ان تكون بلغاريا ممتــازة بأحكامها . وبحثوا مثل ذلك في شؤون الهرسك والبوسنه وغيرهما ممــا لا محل له هنا . وأقرّوا على لائحة عرضها اغناتيف على الباب العالي للمصادقة عليها . فشكل مدحت مجلساً عالياً مؤلفاً من الوزراء والمشيرين وكبار رجال الدولة والرؤساء الروحانيين من كل الطوائف وعرض عليهم اللائحة وأخبرهم ان ردّها يؤول الى الحرب فتباحثوا وتحمسوا وأبوا إلا ردها فردها مدحت وانفضّ المؤتمر ، وبفضه اضطربت العلائق بين اوربا والباب العالي .

١٣ – نفي مدحت باشا :

ولم يكد ينفض المؤتمر حتى عــاد رجال المابين الى متابعة ما كانوا فيه من

مماكسة رجـــال الاصلاح ، فاستأنفوا البحث في إدخال المسيحيين المدارس الحربية وعزل غالب باشا ناظر المالية وكان مدحت يرى عزله لاعتقاده عجزه عن القيام بهذا المنصب . فرضي السلطان بعزله لكنه اشترط ان يجعل عضواً في مجلس الاعيان فطلب مدحت ان تفحص اوراقه وتراجع حسابات اعماله . وكتب اخيراً الى المابين كتاباً فيه عدم لياقة غالب لهذا المنصب ثم تحوّل الى البحث في مسألة المدارس وكان يعتقد واعتقاده صواب ان مسألة الاصلاح في المملكة العثمانية لا يمكن حلها إلا بتوحيد العناصر على اختلاف الطوائف والنحل ولا يكون ذلك إلا اذا نشأ شبانهم في مدارس واحـــدة وتربوا تربية واحدة فأراد ان يبدأ مشروعه هـــذا بالمدارس الحربية فطلب إدخال غير المسلمين فيها لينشأ منهم ضباط غير مسلمين يشتركون مع اخوانهم المسلمين في خدمة الامة ، فأجيب بالمدافعة والمماطلة والمعارضة ، وطال الاخذ والردّ بين الصدارة والمابين او بين مدحت وباشكاتب المابين بالنيابة عنالسلطان. وأخيراً كتب مدحت الى جلالة السلطان كتاباً شديد اللهجة جاء في جملته : « اني شديد الاحترام لشخص جلالتكم أما من حيث القوانين والشرع فعليّ يا مولاي ان أعصي كل امر يصدر منكم اذا كان مخالفاً لمصلحة الامة ، وإلا فاني أتحمل مسؤولية أنوء تحت أثقالها وأخاف صوت ضميري لأني تعهدت بأن تكون اعمالي مطابقة لمصلحة الوطن ورفاهيته ... » الى ان قـال : « مضت تسعة ايام منذ عرضت على جلالتكم مشروعات لا غنى عنهـا لسعادة الامة وصيانة الدولة فلم تصادقوا عليها مما يأول الى خراب لم نكد ننجو من مخالبه إلا بشق النفس » .

بعث مدحت كتابه ومكث في منزله ثلاثة ايام فوجد اهل المابين مندوحة للتخلص من هذا العدو القوي. فأوفد اليه السلطان صفوت باشا ناظر الخارجية

ان يأتي فأبى إلا ان يصادق السلطان اولاً على مشاريعه فبعث اليه سعيد باشا (الانكليزي) فأكد له انه اذا أتى الى السراي فالارادة تصدر حالاً بالمصادقة على مطاليبه . فوثق مدحت بقوله وركب معه وما عتم ان لحظ وهو في الطريق ان الشوارع غاصة بالجند وخصوصاً حول منزله في نيشان طاش ، ولم يكن يعلم ان الباخرة (عزالدين) في مرسى طولمابغجه منذ بضعة ايام لتحمل أبا الاحرار الى منفاه.وهب انه علم بذلك حينئذ فلم يكن علمه لينفعه لفوات الفرصة . فبحال وصوله لسراي طولما بغجه استمهلوه ريثما تصدر الاوامر السلطانية لمقابلته فجلس في غرفة الانتظار واذا هو برئيس الياوران جاءه وأخذ منه ختم الدولة وساقه تواً الى الباخرة عز الدين وكانت على أهبة السفر فأقلعت ومع ربانها اوامر مختومة لا يجوز فتحها إلا بعد ٢٤ ساعة ، ثم فتحها فاذا فيها ان يحمل مدحت باشا الى المحل الذي يختاره من سواحل اوربا فأنزل في برنديزي بايطاليا .

ولا يخفى ما كان من تأثير هذا النفي على الاحرار في الاستانة، لكن اهل المابين لم يقدموا على نفي زعيم الاحرار وأبي الدستور وإلا قد مهّدوا السبيل واحتاطوا لما يخشى وقوعه وكانت حجتهم في نفي مدحت ان « وجوده يسبب اختلال أمنية الحكومة » فللسلطان الحق بنفيه كما جاء في المادة ١١٣ من القانون الاساسي . وكان في الاستانة عصابة من اهل الوجاهة لا يرون وجود مدحت نفسه ضرورياً لتأييد الدستور ونشر الاصلاح، وكانوا يعتقدون ان السلطان مخلص في اجراءاته وإنما يريد بها سلامة الدولة وسعادة الامة . وتمكن هذا الاعتقاد من نفوسهم لما رأوه نفى مدحت وظل محافظاً على دستوره وأمر بعقد مجلس المبعوثان . وإنما فعل ذلك تسكيناً لخواطر الامة او بالحري لخواطر الاحرار مريدي مدحت وأنصاره. وكانت الانتخابات جارية فتعجلها

لفتح البرلمان في اول مارس (آذار) سنة ١٨٧٧ م . ولم يتم عدد الاعضاء الكافي لعقده إلا في ٤ منه ، فاحتفلوا بافتتاحه في سراي طولما بفجه بحضور السلطان نفسه . ولم يطل عمره إلا سنة وبعض السنة .

١٤ – مدحت في منفاه :

وكانت الدول في اثناء ذلك تنظر في رفض الدولة العثمانية لقرارات المؤتمر المتقدم ذكره وكنّ يتوقعن اصلاح الاحوال بإعلان الدستور. فلما نُفي مدحت سبق الى اذهانهن سوء الظن ولا سيما روسيا فإنها عادت الى العدوان، وأعلنت الدولة العثمانية بذلك في ٢٤ افريل (نيسان) سنة ١٨٧٧ م فساعد الاعلان على تغلب حزب المابين فلم يتقرب منه غير الذين يوافقون على سياسته، وضعف حزب الدستور بعد نفي صاحبه .

انتشبت الحرب بين روسيا والدولة ومدحت منفي في اوروبا فلم يدخر وسعاً في مصلحة دولته ولا سيما في لندن ، وكتب الى الباب العالي انه سعى في عقد صلح يحجب الدماء وطلب مصادقته ، فلم يجبه على ذلك لأن كفة الحرب كانت لا تزال راجحة في جانب الدولة. ثم ما لبث الروس ان اخترقوا البلقان وأقبلوا على الاستانة ، فجدد مدحت الهمة في الدفاع عن حقوق بلاده لدى الدول والباب العالي بالمكاتبات . فوسوس بعضهم لجلالة السلطان ان تصدّر مدحت باسم الدولة لدى دول اوروبا يُخشى منه ، فعمل على استقدامه الى الاستانة . فكتب اليه رئيس التشريفات الشاهانية كتاباً سرياً يبثه فيه شعور السلطان معه بما يقاسيه في غربته ، وان جلالته بكى لما بلغه خبر عذابه وانه أمر له بألف جنيه ينفقها في مرافقه المستعجلة ولا يعلم احد بها . وطلب اليه ان يعلمه كيف ينبغي ان يرسل هذا المبلغ اليه ، فأجابه مدحت

بالرفض وأظهر تفـانيه في خدمة دولته ووطنه ، فدعاه للقدوم الى الاستانة لأن بُعده عنها يوجب الهواجس وسوء الظن . وما زال به حتى اقنعه بالمجيء رغم نصيحة اصدقائه ان لا يفعل .

فسافر ولكنه فضّل النزول في كريد ليمكث فيها بعيداً عن الدسائس ، وأدرك من مجاري الاحوال ان سياسة المابين تقضي بإبعـاد رجال الاعمال عن الاستانة واستخدام الضعفاء ، فقبل السلطان اقتراحه وبعث اليـه عائلته الى كنديا في سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٨ م ، فاحتفل الكريديون بمدحت وعرفوا قدره على اختلاف طوائفهم وأطلقت الدوارع الراسية في مياهها المدافع لأجله فنقل ذلك الى السلطان فأوجس خيفة ، وكان في عزمه ان يعقد له على كريد فعقد له عليها . وبعـد شهرين جاءه تلغراف من الباب العالي بتعيينه والياً على سوريا ، فأطاع وركب اليها مع اهله على الباخرة « فوائد » حتى أتى بيروت وسافر منها الى دمشق مركز الولاية يومئذ .

١٥ — ولايته على سوريا :

ولم ينسَ السوريون اعمال مدحت في اثنـاء تلك الولاية وكانت شهرته في مساعيه الحرة قد بلغت الى مسامعهم ، فلمـا وصل اليهم احتفلوا به احتفالاً عظيماً . وقد حقق أمانيهم بما ادخله من الاصلاح فيها نحو ما فعل في العراق من قبل . فأنشأ مدرسة للصنائع والفنون واخرى للأيتام وأيّد الامن فبـات النـــاس في راحة وعدل ، وفتح الشوارع في المدن ومهّد الطرق بين القرى والبلاد لتسهيل الانتقال ، وأنشأ خطاً للترامواي بين مدينـة طرابلس الشام والمينا وقد نجحت نجاحاً باهراً. ولا ينسى اهل دمشق كيف أنشأ لهم الشارع الاعظم . وأهم مـا كان من تأثير ولايته انه جمع العناصر المختلفة وألّف بين

قلوبهم على اختلاف المذاهب والاجناس على شكل لم يسبق له مثيل في تلك البلاد . وأطلق حرية المطبوعات ونشط الكتّاب والأدباء والشعراء فتألفت الجمعيات السياسية والعلمية .

وفي ايامه ظهرت القصيدة السينية المشهورة التي مطلعها « دع مجلس الغيد الاوانس » وفيهـا تحريض للعرب ان يطلبوا الاستقلال كما فعل اهل الجبل الاسود . وكان السوريون اذا لقوا مدحت في محفل صاحوا : « ليحيا مدحت باشا » وهو لا يحاذر المجاهرة بانتقاد المابين وربما تغنى بما تمّ على يده من الخلع والتنصيب فساء السلطان الظن بمقاصده وزاد حذره من اغراضه وأصبح يخاف ان تنتظم احوال سوريا وتجتمع كلمة اهلها فتخرج من يده، فأصبح اذا عرضت عليه مشروعات مدحت أجل المصادقة عليها أو رفضها . وأوحى الى مشير الفيلق الخامس في الشام ان يكون على حذر منـه . فأصبح المشير ينظر اليه نظر الرقيب ، وتباعدت القلوب بينهما ، وتضايق مدحت من ذلك فعزم على الاستقالة. وبدأت مخابرات طويلة خيّر الباب العالي فيها بين قبول استعفائه او المصادقة على مشروعاته ، فكانوا يماطلونه ويدافعونه ، مع حاجتهم الى آرائه يومئذ في اثنـاء تمرد الدروز في حوران . وقد خدم الدولة في اخماد ذلك العصيان خدمـة حسنة بإعادة الأمن الى تلك البـلاد مع المحافظة على شرف الدولة ونفوذها . ولما فرغ من هذا الواجب لم يعد يصبر على مضايقة البـاب العالي ومعارضته بما يعمله ، فاستقال بحجة شيخوخته وضعفه فأبت الحكومة اعفاءه ، ولكنها نقلته من ولاية سوريا الى ولاية أزمير سنة ١٨٨٠ م .

١٦ ـ ولايته على ازمير :

ان ولاية ازمير هي ولاية آيدين وعاصمتها مدينـة ازمير وكانت في خلل

واضطراب مثل سائر الولايات في ذلك العهد ، بل هي من اكثرها اضطراباً بالنظر الى تكاثر اهل الدعارة واللصوص وقطاع الطرق فيها. ولم يجهل مدحت ان مشروعاته في اصلاح هذه الولاية ستصادف مـا كانت تصادفه مشروعاته لإصلاح سوريا ، لكنه اطاع الأمر وقبل المنصب وانتقل الى ازمير . وفكـّر في تسكين الخواطر وإعادة الأمن، وكان فيها فرقة من الجندرمة فوجدها غير كافية لحفظ النظام، فأنشأ الضابطة على النسق الاوربي ولم يكن لها وجود في تركيا من قبل . وأخـذ في العمل جهد طاقته والسلطان يزداد فيه سوء ظن ويخافه ، فزيّن له مشيروه ورجال خاصته ان يتخلص منه ويريح فكره من اخطاره ، ولم يجدوا شراكاً يأخذونه بهـا إلا مسألة السلطان عبد العزيز فأحيوها . ورغم مــا أثبته الأطباء في تقاريرهم عن موت ذلك السلطان بالانتحار ادعى رجال المابين انه مات مقتولاً وأن قتلته هم حسين عوني باشا الذي قتـله حسن الشركسي في بيت مدحت سنة ١٨٧٦ م والدامادان محمود باشا ونوري باشا وأنه اشترك معهم ايضاً مدحت باشا ورشدي باشا وخير الله افندي شيخ الاسلام .

فلما اعتقد السلطان هذا القول أمر بالقبض على الدامادين محمود ونوري ، ونشرت الصحف عود قضية عبد العزيز الى التحقيق وتزلف بعض كتـّابها الى المابين ، فألح بالقبض على كل من اشترك في مسألة عبد العزيز او شهدها ، فقبض على رشدي باشا زميل مدحت وحكم عليه بالنفي ليقضي شيخوخته في منغيسيا من ولاية آيدين ، وحكم على خير الله بالنفي الى مكة وأبعد سائر من بقي من الاحرار في الاستانـة . ولم يبقَ حول السلطان إلا المتملقون الذين اخذوا بناصره او حرّضوه على إفساد امر الأحرار والتضييق عليهم ، وفيهم جماعة كانوا يتظاهرون بالحرية ثم انقلبوا طمعاً في الدنيا .

١٧ ـ القبض على مدحت :

وكان مدحت باشا يومئذ في ازمير وجاءه النبأ أنه متهم وأن حياته في خطر ، فأجاب اصدقاؤه الذين أنبأوه أنه لا يجد في ضميره ما يوجب القلق لاعتقاده براءته لدى القضاء . أمـــا السلطان فعمد الى المبادرة بالقبض على مدحت فجأة ، فأنفذ اللواء حلمي باشا والأميرالاي رضا بك (ثم صار رضا باشا سر عسكر) مع جمـــاعة من الضباط والضابطان للقيام بهذه المهمة . فوُصلوا ازمير على غرة والناس لا يفهمون سبب مجيئهم . اما مدحت فجاءه النذير بأمرهم فبثّ عليهم العيون يراقبون حركاتهم فتحقق انهم جاؤا بأوامر من يلدز للقبض عليه . عرف ذلك من احد رجال الضابطة التي أنشأها في ازمير ، كان قد تنكر بلباس تاجر ونزل في الفندق الذي نزل فيه حلمي باشا وعاشره وتقرّب اليه حتى وثق به واعترف له انه جاء للقبض على مدحت وأنه ينتظر أوامر اخرى . فبادر مدحت الى الاحتياط ، ففتح في قصره باباً سرياً يؤدي الى الشاطىء ، وأعدّ هنـــاك سفينة لشركة انكليزية تنقله الى حيث يشاء .

ففي مساء احد الايام جاء جاسوس مدحت المشار اليه وأخبره ان حلمي باشا ُدعي الى مكتب التلغراف على عجل ولما عاد تسلح وذهب الى القشلاق. وكان سبب ذلـك ان حلمي باشا تلقى الاوامر بقتل مدحت وذبح عائلته ولم يكن يستطيع ذلك إلا اذا كان له من يواطئه عليـه من اهل بيت مدحت . وكان قد عرف خادماً من اهل ذلك البيت اسمه نذير فاتفق معه انه حالمـــا يرى الجند قادمين الى القصر يطلق عليهم طلقاً نارياً من مسدس فيكون ذلك حجة لهم في الهجوم والقتل . ويؤكدون وقوع هذه المواطأة بما ناله نذير هذا من الحظوى في المابين بعد نفي مدحت .

فلما علم مدحت بدنو الخطر أعمل فكرته بترو ٍّ وأطلع اهل بيته على الامر وأوصاهم ان لا يبدوا حراكاً وأخبرهم عزمه على الخروج من تركيا بحراً من ذلك البـــاب السري والالتجاء الى اوربا . ففي نصف الليل أطلقت الثكنة العسكرية ثلاثة مدافع هي علامة الحريق عندهم ، فأدرك مدحت انهم فعلوا ذلك ليصرفوا اذهان الناس عن أغراضهم الحقيقية ، فعمد الى الخطة التي كان رسمها للفرار فخرج مع سكرتيره من ذلك الباب السري يطلب الشاطىء ولم يبعد بضع خطوات حتى رأى الجنود قائمـة على المرفأ تحرسه فركب مركبة وسار الى قنصلاتو انكلترا فوجد قنصلها غائباً فتحوّل الى قنصلاتو فرنسا وطلب حمايتها فآوته .

أما حلمى باشا فانه أتى برجاله الى قصر مدحت بحجة انه جـاء يستفتيه في امر الحريق الذي شبّ في المدينة فأجابه اهل المنزل انه خرج الساعة فظنهم يخدعونه ، فأمر رجاله فكسروا الابواب ودخلوا البيت عنوة حتى فتحوا غرف الحريم للبحث عنه . وكان الخادم نذير جالساً على مقعد والمسدس في يـــده فهمّ ان يقوم بمهمته ويطلقه فهجم عليه خادم آخر عارف بغرضه واستخرج المسدس من يده بالقوة وسقط ميتاً من التأثر . ولم يترك الجند مكاناً لم يفتشوا فيه عن مدحت حتى سرير الطفل . فلمـا رأت امرأة مدحت باشا تطاول القوم الى هـذا الحد خاطبت حلمي باشا قائلة : « ارجع رجالك عن منزلنا وإلا فاني أفتح النوافـذ واستنجد الامة عليهم » فخاف حلمي تهديدها لأنه امر ان يعمل عمله بدون ان يشعر احد به فصرف رجاله إلا جماعة منهم استبقاهم معه وخرج . علم ان مدحت في قنصلاتو فرنسا فذهب الى هنـــاك وسدّ عليه منافذ الطرق من كل ناحية حتى يقبضوا عليه اذا خرج أينما كانت وجهته . وكان قنصل فرنسا الموسيو بليسيه قد أنبأ سفير فرنسا بالاستانة بما

جرى، وبعث مدحت الى قناصل الدول العظمى في ازمير يدعوهم الى الاجتماع في قنصلاتو فرنسا فجاءوا وقص عليهم الخطر الذي يحدق به وطلب اليهم ان يوسطوا دولهم لدى الباب العالي وانه لا يطلب منهم عفواً ولا رحمة وإنما يطلب اذا كان متهماً ان يحكم جهاراً في محكمة قانونية قضاتها نزيهون . فجرت المخابرات التلفرافية وأخذت الدول المواثيق والعهود على ذلك فلم يبق لمدحت بدّ من السفر الى الاستانة للمحاكمة . وبعد ايام جاء اليخت السلطاني فحملوه عليه الى الاستانة وأنزله السلطان في كشك مالطة في يلدز ريثما تتألف المحكمة لمحاكمته .

١٨ – محاكمته والحكم عليه :

وأخذوا في استنطاقه وبعد الفراغ من ذلك عقدوا جلسة في سراي يلدز حضرها السلطان منوراء الستار ولم يحضرها إلا السفراء وبعضمكاتبي الصحف الافرنجية مع ان الشرط ان تكون المحاكمة في جلسة جهارية . وكان القضاة خمسة ثلاثة مسلمين واثنين مسيحيين برئاسة سروري افندي احد العلماء وقد تقدم ذكره في مكان آخر من هذه الترجمة . وكان في جملة المتهمين مع مدحت الدامادان محمود باشا ونوري باشا وعلي بك ونجيب بك وفخري بك الجزائرلي وبعض الخدم .

ولما فتحت الجلسة قرئت ورقة الاتهام وفحواها « انه بعد خلع عبدالعزيز ببضعةايام تواطأ الدامادان نوري باشا ومحمود باشا مع اثنين منالمصارعين وأحد حرس السراي على قتل السلطان المخلوع ووعدهم براتب قدره ثلاثة جنيهات عثمانية لكل واحد في الشهر مكافأة على هذه الخدمة فقتلوا السلطان بمساعدة فخري بك احد الحجاب . وان علي بك ونجيب بك أدخلا القتلة الى غرفة

عبد العزيز . وانــــه كان في الاستانة يومئذ لجنة مؤلفة من مدحت ورشدي وعوني وشيخ الاسلام خير الله ، والداماد محمود لم يكن يصدر امر او يجري حادث ما لم تصادق هي عليه فلا بدّ ان يكون القتل قد حصل بعلمهم ولذلك كان مدحت مشتركاً في ارتكاب تلك الجريمة » .

وبعد تلاوة ورقة الاتهام اخــــذ القضاة يسألون المتهمين أسئلة مختلفة وهم يدافعون عن انفسهم . وتوالت جلسات هذه المحاكمة بين ٢٣ يونيه (حزيران) و ٢٩ منه وانتهت بالحكم على مدحت ومحمود ونوري وآخرين بالاعدام وكانت اخبار هـــذه المحاكمة تنقل يومياً بالتلغراف الى صحف اوربا . ولم يستطع المكاتبون انتقادها لأن رسائلهم كانت تمر على المراقب قبل إرسالها ، يشهد بذلك رسالة مكاتب التيمس المؤرخة في اول سنة ١٨٨١ م بعـد صدور الحكم فقد صدرها بقوله انه لم ينتقد اعمال القضاة في رسائله السابقة خوفاً من المراقبة. ثم أفاض في النقد ومآله ان المحاكمة كانت مهيأة وانها جرت على رغائب اهل المابين فأكثروا من الشهود ، وفي جملتهم شاهد لم يذكر اسمه في قائمـة الشهود ولم يكن يجوز سماع شهادته واسمه رفعت افندي شهد انه سمع مدحت يقول في دمشق انهم انما قتلوا عبد العزيز لئلا يعود الى السلطة ويقتل الوزراء الذين خلعوه . وفي جمــلة انتقادات مكاتب التيمس ان المتهمين لم يكن يتيسر لهم المفاوضة مع المحامين الموكلين في الدفاع عنهم وان مدحت لم يتداول مع محاميه إلا مرتين . وغير ذلك مما يطول شرحه وهو مفصل في رسالة التيمس المشار اليها . ثم توسطت الدول في الحكم فأبدل بالنفي وعين لكل واحد منفاه .

١٩ – مدحت في منفاه الى مقتله :

أما مدحت ، فتعين منفاه في الطائف بقرب مكة ، ومعــه الدامادان

محمود ونوري . فحُمِل مع رفاقـه في باخرة أنزلته في جـدة . فالتقى هناك بصديقه خيرالله افندي شيخ الإسلام المنفي الى مكة كما تقـدم . أمـا عائلة مدحت فظلت في إزمير ، تنتظر مـا يأتي به القـدر . ففي السنة الثالثة من منفى رجلها ، جاءهم منه كتاب مؤرخ جمـادى الآخرة سنة ١٣٠١ ه يقول فيه انه مصاب بخراج في كتفه اليمنى شديد الألم ، وظهر بعد ذلك انه الجمرة (فرخ جمر) وان طبيبه غلام غير محنك . وذكر ما يقاسيه من العذاب بجهل الطبيب ومـا اتخذه رفاقه من الوسائط لراحته مع يأسه من الشفاء . وذكر طعامهم فقـال انه عبارة عن طبق شوربا لثمانية اشخاص وطبق ورق الفجل ونحوه. وذكر في كتاب آخر ان الخراج تتحسن حالته لكنه يشعر بالضعف. وقال في كتاب آخر انه ربما كان آخر كتبه اليهم لأنه لحظ ان القوم عاملون على التخلص منه بواسطة السم وانه يقاسي العذاب من شدة التيقظ لنفسه لأنه محاط بأقوام اشرار لا يبـالي احدهم من يقتل ولا كيف يقتل ، وذكر على الخصوص احدهم بكير الشركسي رفيق حسن الشركسي الذي قتل عوني باشا قديماً . وختم كتابه بالدعاء بحفظ العـائلة ، والكتاب مؤرخ في ٢٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢ م .

فلمـا وصل الكتاب الى امرأته عرضته على سفير انكلترا في الاستانة ، فوعدها ببذل الجهد. واجتهد اللورد دفرين بالبحث عن صحة مدحت بواسطة ترجمان قنصلاتو فرنسا في جدة ، فأجاب بعد البحث على يد شريف مكة ان صحته حسنة . وتوفي في اثناء ذلك الداماد نوري باشا مجنوناً .

وفي ٢٦ افريل (نيسان) سنة ١٨٨٣ م كان مدحت راقداً في غرفته ، فدخلها بضعة رجال فقبضوا عليه وعلى رفيقه الداماد محمود وقتلوهما خنقاً . وكتب بذلك خيرالله افندي تقريراً مطولاً نُشر في تاريخ مدحت الذي ألّفه

ابنه علي حيدر. ولم ينجُ خيرالله من القتل إلا خوفاً من نقمة العلماء على الدولة لصبغته الدينية .

وجاء في تقريره المشار اليه اسماء الاشخاص الذين اشتركوا في ذلك القتل وهم تسعة قتلوا مدحت و ١١ قتلوا محموداً ، وهـــذه اسماء قتـلة مدحت : اليوزباشي ابراهيم الشركسي والضابط الصغير نوري اصله من كوما احمد جاويش والانفار قندرجي اسماعيل وأحمـد ومحمد وكلاهما من كوتاهية ورجب وعثمان من قراحصار واسماعيل البربري. وأما الذين قتلوا محمد الداماد فهم : الضابط الصغير مميش اصله من سبارطة ومحمـــد وحسن جاويش من قوتاهية وسليمان جاويش ومحمد الاونباشي وعثمان البلطاجي وأحمد وعلي الروملي ومصطفى بربر.

ويقال انهم بعد ان قتلوا مدحت أرادوا ان يثبتوا صدق خدمتهم للمابين، فأرسلوا الجمجمة في علبة عنونوها الى يلدز في الاستانة وذكروا انهــا تحتوي عاجاً يابانياً وأدوات صناعية لجلالة السلطان ، فلم تُفتح إلا هناك .

وكان مدحت كما رأيت من سياق سيرته ذكي الفؤاد ، حاد المزاج ، حراً حازماً همامـاً ، مستقل الفكر ، جسوراً يحب وطنه ودولتـه ويتفانى في مصلحتهما . وكان مخلص النية في اقواله واعماله ، شديد الرغبة في الاصلاح ، يكره الاستبداد ولا يبالي بمـا يلاقيه في سبيل المقاومة ، يدلك على ذلك انه ذهب ضحية في هذا السبيل . لكنه كان قليل الدهاء ، يحسن الظن في الناس حتى في اعدائه . ولم يكن كتوماً الى الدرجة التي تقتضيها حاله ، لِما يحيط به من ارباب الدسائس . ولذلك رأيتـه انخدع في مواقف بيّناها في اثنـاء الكلام عنه . فلو كان اكثر دهاءً في تفكيره ، وأقل حدة في مزاجه، واسوأ ظناً في اعدائه ، وأكتم لأسراره لما انتهت حياته بالكيفية التي ذكرناها .

فذهب رحمه الله شهيد الحرية والدستور . فلما حدث الانقلاب الاخير ، وفاز الاحرار ، اعترفوا بفضله وسموه اباهم وصاحب دستورهم وسيبقى ذكره ما بقي التاريخ .

بطرس باشا غالي

نشأته المدرسية :

هو اكبر انجال المرحوم غالي بك نيروز . ولد في القاهرة سنة ١٨٤٧ م ووافق نشوءه نهضة تعليمية، ظهرت في الطائفة القبطية على يد المرحوم الإنبا كيرلس الرابع المتوفي سنة ١٨٦١ ، بعد ان اسّس المدارس القبطية في الازبكية وحارة السقّايين . دخل صاحب الترجمة مدرسة حارة السقّايين ، فنبغ بين اقرانه . وكان البطريرك المشار اليه يتعهد المدارس بنفسه ، ويراقب سيرها . فلحظ في الفقيد ذكاءً واجتهاداً ممتازين ، فتحدث في ما يرجوه من مستقبله . ويذكرون ان استاذه في اللغة الفرنساوية كان المرحوم مصطفى بك رضوان . فلما صار صاحب الترجمة وكيلاً للحقانية ، عيّنه رئيساً لمحكمة المنصورة .

قضى بطرس ثماني سنوات في مدرسة حارة السقايين، ثم انتقل الى مدرسة البرنس فاضل باشا (ابي الأحرار العثمانيين) ، وكان والده غالي بك يشتغل في دائرة البرنس المذكور . فاتقن فيها اللغتين العربية والفرنساوية ، وتعلّم الفارسية والتركية. وفي تلك المدرسة ظهرت رغبته في العلم وتلذذه بالدرس. فقد حدثنا بعض الذين عاشروه في صباه ، انه كان يقضي ليله ساهراً لا يملّ المطالعة ، حتى شكى بعضهم ذلك الى أبيه خوفاً على صحته . وقد ساعده



بطرس باشا غالي (١٨٤٧ م – ١٩١٠ م)

على اتقان اللغات التي تعلمها انه كان قوي الذاكرة يحفظ الصفحة والصفحات بعد تلاوتها . ذكروا ان معلم الفرنسية فرض على الصف مرة حفظ ثماني صفحات من الاجرومية ، فتذمروا من طول الأمثولة ، وفي جملتهم بطرس ، لكنه جرب حفظها فاستسهله فحفظ ما بقي من الكتاب . ولما جاء التلاميذ للتسميع في اليوم التالي اعتذر الجميع بطول الأمثلة إلا هو فسمّع الدرس وسائر ما بقي من الكتاب فأثنى الاستاذ على ذكائه واجتهاده .

ومن أدلة رغبته في العلم أنه وهو يتعلم الفارسية والتركية في المدرسة المذكورة لم يكن يرتوي من شرح المعلم فاتخذ استاذاً فهيما من أهل خان الخليلي كان يدفع له اجرته مما يجمعه من البارات التي كان ابوه يعطيه اياها ليتفكه بها . وقد اتقن هاتين اللغتين ، وما زال الى اواخر ايامه يردد بعض الأبيات

الفارسية التي حفظها في صباه . أما التركية فأحسنها جيداً . وخرج من هذه المدرسة وهو يعرف اربع لغات، ثم تعلم الانكليزية والايطالية والقبطية ، ولم يكن يحتاج في درس اللغة إلا الى الإرادة ، فاذا اراد وعزم فثباته وذكاؤه يضمنان سرعة اكتسابه ذلك اللسان. وحكي لنا عن سبب تعلمه اللغة القبطية ان بعض المستشرقين لقيه في بعض سياحاته باوربا وكلمه بالقبطية فأجابه جواباً ضعيفاً لأنه لم يكن يحسنها ، ووعده أن يكاتبه بها بعد عودته الى مصر ببضعة اشهر ، وقد فعل .

دخوله في عالم العمل :

خرج من المدرسة فكان اول عمل تعاطاه التعليم في مدرسة حارة السقايين براتب قدره سبعماية غرش، وكان ناظر المدرسة يومئذ يعقوب بك نخله رفيله. لكنه لم يمكث طويلاً في تلك المهنة لأن مطامعه كانت أوسع من ذلك كثيراً فعمد الى الاستزادة من العلم الذي يؤهله للعلى . وكانت الحكومة المصرية يومئذ تهتم في إخراج المترجمين لمصالحها ، وقد أنشأت مدرسة الترجمة للمرحوم رفاعة بك ، ونبغ منها طبقة حسنة من المترجمين ، فلازمها بطرس سنتين اتقن في خلالها ما كان يعرفه .

واتفق ان مجلس تجار الاسكندرية اراد توسيع دائرته فاحتاج الى كتبة ومترجمين ، فتقدم بطرس في جملة الطالبين للامتحان ، فنال قصب السبق ، فتعين كاتباً ، لكنه ما زال يرتقي ويحرز ثقة رؤسائه حتى صار رئيس كتّاب المجلس وله فيه القول الفصل . وهو في ذلك المنصب نظرت قضية في المجلس المذكور لأحد صنائع المرحوم اسماعيل باشا المفتش وصدر الحكم ضده فادعى الرجل ان بطرس اضاع حقه بافشاء بعض اسرار المصلحة وأبلغ ذلك الى

مولاه المفتش فأبلغ المفتش ذلك الى ناظر الداخلية يومئذ شريف باشا وكانت مجالس التجار تابعة لها . فدعاه الناظر اليه بحضرة المفتش وسأله عن التهمة فتنصل منها وقصَّ الحقيقة بحرية واستقلال فكر ، فلم يعجب المفتش تنصله ، فأخذ يكلم شريف باشا بالتركية طعناً فيه ، فردَّ عليه بتلك اللغة رداً بليغاً أدهش الرجلين وحكما ببراءته وأعجبا ببراعته .

ولما تأسست المحاكم المختلطة جعلوها نظارة مستقلة سموها نظارة الحقانية برئاسة شريف باشا ، وكان قد عرف اقتدار صاحب الترجمة فولاه رئاسة كتَّابها سنة ١٨٧٤ م فأخذت مواهبه تظهر من ذلك الحين ، فاشتغل مع المرحوم قدري بك في ترجمة قوانين المحاكم وأكثرها يعمل به الى اليوم .

ولما ارتابت الدولتان انكلترا وفرنسا في مالية مصر وعينتا مندوبين لتصفية ديونها شكلوا مجلساً من كبار رجال المالية وفيه رياض باشا نائباً عن الحكومة المصرية وعيّنوا بطرس مساعداً . ثم تبدّلت الاحوال فصار رياض باشا رئيس المجلس وبطرس وكيلاً في الدفاع عن مصالح الحكومة . وقد أتاه هذا المنصب على غير استعداد ، إذ لم يكن له إلمام في الشؤون المالية ولكنه عوَّل على نفسه وأكب على دراسة الموضوع ، فقضى ليلتين وهو يفكر فيه ويدرسه حتى تمكن من خاطره فوضع تقريراً ومذكرة عن الضرائب والأطيان كأنه درس الموضوع من عدة اعوام ، وقد طبعا باللغتين الفرنسية والانكليزية .

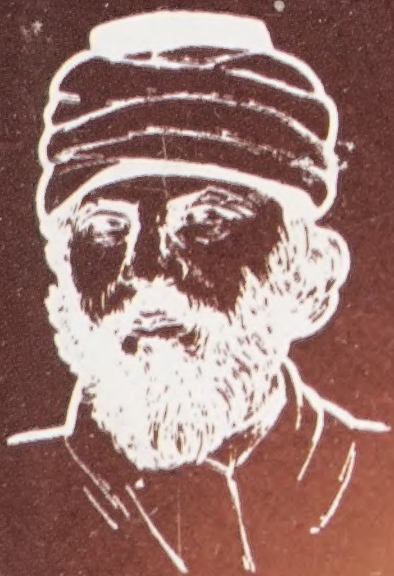
فهرس

٢ – الملوك والأمراء

٣ – القوّاد

٤ – رجال الادارة والسياسة

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠



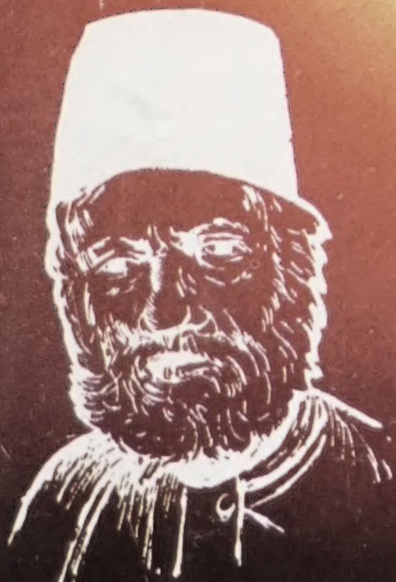

جُرجي زيدان

تراجِم

مَشاهير الشّرق

في القرن التاسِع عشَر

الجزء الأوّل




منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان